النظرية الإسلامية في الحكم

دراسة في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر

السيّد عمّار الحكيم

دار التعارف للمطبوعات

النظرية الإسلامية في الحكم

دراسة في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر

السيّد عمّار الحكيم

الجزء الاول

الطبعة الاولى ٢٠١٤

دار التعارف للمطبوعات

لبنان- بيروت- حارة حريك- شارع دكّاش- بناية الحسنين

هاتف: ٢٧١٩٠٧ - ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١

فاكس: ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١

موبايل: ٣٨٢٣٦٢٠ ٠٠٩٦١

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين الميامين .

إنّ أهم وثيقة إسلامية ركزت على موضوع النظرية الإسلامية في القيادة والإدارة، وأوجزت الفهم الإسلامي لها، هو عهد أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه لمالك الأشتر، وهو وثيقة تأريخية مهمة سلطت الأضواء على العديد من الملامح الأساسية لموضوع القيادة والإدارة، في الأُصول والمباني والسياسات والوسائل، وكذلك السلوك والأخلاق المطلوبة في عملية القيادة والإدارة، فنجدها مجتمعة في هذا العهد وفي هذه الوثيقة التأريخية المهمة.

وما زالت هذه الدروس الكبيرة التي قدمها أمير المؤمنينعليه السلام في هذه الوثيقة المهمة، مثار الاهتمام والدراسة والمراجعة لدى أهم مراكز البحوث والدراسات والجامعات العالمية في القيادة والإدارة. وقد أكّدنا مراراً في لقاءاتنا المتكررة أنّ القيادة في المنظور الإسلامي ليست حكراً على شخص واحد، ولا يمكن أن تختزل في موقع واحد، وإنما هي منظومة من الأدوار والممارسات التي تبدأ من المواطن البسيط في أدواره ومواقعه وصولاً إلى الأدوار المتقدمة والخطيرة التي يمارسها القادة في سلسلة المراتب القيادية.

وإنّ عهد أمير المؤمنينعليه السلام لمالك الأشتر يختزل هذه النظرية في أبعادها المختلفة، ولذلك سعى الى أن يقف عند هذا العهد ودروسه المعطاءة، والتأثير الكبير الذي

تركه أمير المؤمنين عليه السلام كرجل مارس هذه التجربة في الوقت نفسه، وتميّز وتألّق في الوعي ومستوى العلم والعصمة التي تجعل الإنسان بعيداً عن الانحرافات والانزلاقات، ويقدم الرؤية الصحيحة في القيادة والإدارة.

إنّ هذا العهد المهم والتأريخي بات مرجعاً ومصدراً مهماً من مصادر الرؤية الإسلامية في القيادة والإدارة، وتعدّاها ليشمل الرؤية الإنسانية أيضاً، بعد أن شقّ طريقه اليوم الى المعاهد العالمية ووقفت على كل مفردة من مفرداته، وبعد أن أصبح وثيقة معتمدة لدى الأُمم المتحدة.

وقد بدأنا سلسلة من اللقاءات للاستفادة والاستزادة من هذا العهد الشريف، والتعرف على الرؤية الإسلامية في الإدارة والقيادة والحكم، لاسيما أننا اليوم بأمسّ الحاجة لاستحضار هذه الرؤية، إذ نبني تجربتنا السياسية الوليدة في العراق، مستثمرين الزخم الكبير والايجابيات الهائلة المتوافرة في هذا البلد الكريم، وفي مقدمتها الإرادة العراقية الصلبة، لبناء مشروع تعددي يحترم فيه الإنسان وتحترم فيه الحريات، وينطلق العراقيون لبناء تجربتهم الفريدة .

وقد تحدّثنا على مدار ثلاث سنوات، من ٢١/٤/ ٢٠١٠ إلى ١٣/٦/١٣ ٢٠، في الملتقى الثقافي ببغداد عن اثني عشر مقطعاً من مقاطع هذا العهد الشريف، وهي تشمل الجانب السياسي في الإدارة والقيادة، من أجل أن يتعرف المواطن على رؤية الإسلام الى طبيعة المهام والواجبات والعلاقة التي يجب أن تسود وتحكم المنظومة القيادية والإدارية في أي عمل جماعي وفي أي مستوى من المستويات، وكيف يدار ويقاد، وما الضوابط والمعايير التي تحكم العلاقة بين أعضاء الفريق الواحد، وصولاً إلى قيادة الدولة، حيث الوزراء والأُمراء والملوك والرؤساء، فهذه المنظومة القيادية قد تزيد أو تنقص، فهناك مسؤول عن شعب نسمّيه زعيماً أو رئيساً، وآخر مسؤول عن محافظة نسمّيه محافظاً، وثالث مسؤول عن قضاء نسمّيه قائممقاماً أو مدير ناحية..وهكذا نزولاً إلى رب الأُسرة، ففي كل هذه المستويات القيادية تأتي هذه الضوابط وهذه المعايير.

وربما يعترض شخص ويقول: لماذا يصرف كل هذا الوقت الطويل في الحديث

عن النظرية الإسلامية في الإدارة والقيادة في حين أنّها أبحاث تخص القادة وكبار المسؤولين وليس عموم المواطنين؟.

والجواب: إنّ هذه الأبحاث ترتبط بنا جميعاً، وإن كانت مرتبطة بشكل مباشر بقادة البلد والوزراء، فحينما تكون الثقافة العامة هي ثقافة المعرفة التفصيلية لطبيعة هذه العلاقة، فكل مواطن سيتعرف على حقوقه وواجباته والتزاماته تجاه المسؤول وتجاه قيادة البلد، فهذه المعطيات والمعلومات مفيدة لنا جميعاً، في اي مستوى من المستويات وفي أي عمل من الأعمال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السيد عمار الحكيم

النظام السياسي

تمهيد

إن المسألة المهمة التي تحظى باهتمام المواطنين اليوم، هي مسألة القيادة والإدارة والحكومة، والسياقات والضوابط والثوابت المطلوبة في إدارة الحكومة، لتكون بمستوى الطموح، وتكون ضمن المعايير والمقاييس التي نظر إليها الإسلام وتحدث عنها القرآن الكريم.

وتشمل مسائل الإدارة والقيادة المعايير والضوابط والمباني والأصول والوسائل الناجحة التي يجب أن تستخدم لتكون الحكومة حكومة قوية ومنسجمة وراشدة وخدومة لعموم المواطنين، وتشمل أيضاً الأخلاقيات والسلوك المطلوب للمسؤولين والقادة، الذين يستطيعون تحقيق النموذج الراقي الذي ينشده الإسلام في الحكم. وهذه هي المسائل التي تحظى باهتمام الجميع.

عهد الأشتر تجسيد للنظرية الإسلامية في القيادة

ونجد أن أروع ما جسد هذه النظرية الإسلامية للقيادة والإدارة، هو عهد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام لمالك الأشتر النخعي، هذا العهد الذي جاء يستعرض بإيجاز هذه النظرية والرؤية الإسلامية الأصيلة. وهي أهم وثيقة إسلامية ركزت على هذا الموضوع وأوجزت الفهم الإسلامي للقيادة والإدارة، وسلطت الأضواء على العديد من الملامح الأساسية لموضوع القيادة والإدارة؛ في الأُصول، والمباني، والسياسات، والوسائل، وكذلك السلوك والأخلاق المطلوبة في عملية القيادة والإدارة، إذ نجدها جميعاً مجتمعة في هذا العهد المبارك .

وهي أطول وثيقة قدمهاعليه السلام، ووضعها تحت تصرف مالك الأشتر، حينما أوفده لولاية مصر في ذلك الحين. ومالك الأشتر الذي سنتحدث عنه لاحقاً، وإن لم

يوفق في الوصول إلى مصر لتطبيق هذا العهد؛ إذ اعترضه الظالمون وسُقي السم واستشهد قبل وصوله، ولكن بقيت هذه الوثيقة وثيقة إنسانية واضحة المعالم، تضع الإطار العام للإدارة والقيادة في الفهم الإسلامي.

وقد مثلت هذه الوثيقة منطلقاً وركيزة مهمة، لما كتب بعدها من وثائق على مر التأريخ من كبار العلماء والفلاسفة والقادة والساسة، وصولاً إلى الوثائق المهمة التي أصدرتها الأمم المتحدة، التي جاءت لتستقي من المفاهيم والمبادئ المهمة في هذه الوثيقة، وتأخذ منها الكثير من المعالم والأُصول.

وبقيت هذه الوثيقة التأريخية الأساس الذي يُستند عليه في فهم النظرية الإسلامية للإدارة والقيادة، ولكن المنطلقات التي انطلق منها أمير المؤمنين عليه السلام والدروس التي قدمها، هي دروس إنسانية تغور عميقا في واقع الحياة ومتطلباتها، لتصل إلى ذلك الإطار الإنساني الذي يحدد العلاقات والالتزامات المطلوبة، ويحدد أيضاً التعاملات والسلوكيات المرجوة من القيادات التي تتصدى لمواقع الخدمة العامة.

ونحن، ومن خلال سلسلة من اللقاءات، نسعى إلى تسليط الأضواء على هذه الوثيقة التأريخية الفريدة، ونتلمس ونؤشر على مواطن الخلل والقصور والضعف والثغرات الموجودة، التي أدت إلى مثل هذه المضاعفات في أداء حكوماتنا، وفي بناء الدولة في بلادنا. وهذه المسألة لابد من أن تتحول إلى رؤية شعبية.

وربما يعترض البعض، بأن هذا علم يخص القادة، فليذهب المتصدون والرؤساء والأُمراء ويقرؤوا هذا العهد ويستفيدوا منه. والجواب: لعل الكثير ممن يتربع على الكرسي الدوار لا يروق له أن يقف عند هذه المفاهيم ويلتزم بها، وحينما تتحول هذه القضية إلى ثقافة شعبية واسعة، وتعرف الناس ما هي واجبات المسؤول تجاه الأُمة، وكيف عليه أن يتعامل، وكيف يجب أن يتخذ قراراته، نسهم في التعبئة العامة التي تدفع باتجاه الالتزام بهذه المعايير الإنسانية، التي تضمن النجاح في مجمل الأداء القيادي والإداري.

وفي بلادنا، وفي كل تجربة تسعى إلى أن تحظى بالنجاح والتوفيق، عليها أن تلتزم بتطبيق هذه الدروس وهذه الإضاءات، وهذا الإطار الذي يحدده أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر، والقواعد والضوابط التي يضعها في القيادة والإدارة،

لتضمن لنا تجربة سياسية ناجحة، تنهض بالبلاد وتحقق الطموحات والتطلعات.

مشكلة التخلف في الحكم

إن المشكلة التي في بلادنا ليست في المواطنين، وهي ليست في الوسائل المستخدمة أيضاً، وإنما هي في الضوابط والمعايير وسياقات العمل المطلوبة لكي نحصل على أفضل النتائج. وليس قدرنا أن نكون من دول العالم الثالث نتيجة التراجع في الأداء، وقدر البعض من الدول الصناعية أن تكون في العالم الأول، ولكن هذه الدول أخذت هذه القواعد وعملت بها وصارت قانوناً ومعياراً في إدارة البلاد، وهذا ما حذر منه أمير المؤمنين عليه السلام حينما قدم وصاياه إلى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، ثم قال لهما مقولته الشهيرة:«الله الله في القرآن لا يسبقنكم إلى العمل به غيركم»[1]، لأن القرآن الكريم قد تضمن القواعد والمعايير، أي إياكم أن يأخذ الآخرون هذه الوصايا والإرشادات ويعملوا بها، فحينئذ يتقدمون فيما تتأخرون أنتم لأنكم لا تعملون بها.

نحن في واقعنا لا توجد عندنا أزمة نظرية، ولا أزمة فكرية، بل لدينا الفكر العميق والرؤية الواضحة والنظرية المتكاملة في القيادة والإدارة، ولكن ينقصنا التطبيق، وينقصنا استحضار هذه النظرية والعمل بها. وما دمنا اليوم في بداية انطلاقة جدية، وتشكيل حكومة جديدة، ومحطة أُخرى من محطات بناء العراق، فعلينا أن نقف عند هذه النظرية في القيادة والإدارة، ونستوعب دروسها واتجاهاتها، وبذلك نكون قد وضعنا الأُسس الصحيحة للمرحلة المقبلة. إذن نحن نتحدث عن الخلفية الفكرية والجذور المتوفرة في نصوصنا لفهم القيادة والإدارة، والمسارات المطلوبة لتحقيق النجاحات في هذا المجال.

السياسة والممارسات القيادية

إن من الأخطاء الكبيرة هو اعتبار الممارسة القيادية بكل أنماطها وأشكالها ممارسة سياسية، ناتجة من المكر والخداع والتزوير والانتهازية، حتى أصبح اسم السياسة اسما غير محبب لدى الكثيرين، فما أن يسمع الإنسان كلمة سياسة، حتى يتبادر

---

١. الكافي ٧: ٥١.

إلى ذهنه عدد من الناس المخادعين الذين ليس لهم كلمة ولا التزام بالعهود والمواثيق، بل المكر والتحايل بكل الوسائل المتاحة.

ولتحقيق طموحات النظرية الإسلامية في القيادة والإدارة نقدم نموذجاً مختلفاً تماماً عن هذه الرؤية، ونبرهن أن هناك مسارين مختلفين؛ فهناك مواقف سياسية ناتجة من رؤية انتهازية ومصلحية، لا ترى إلا المصالح الخاصة الفئوية والحزبية، ولا يهمها مصالح الناس. وهناك رؤية أُخرى ناتجة من فهم عميق ورؤية متوازنة وإطار ينظم العلاقة والمطالب والتطلعات بالشكل الذي يحقق تجربة ناجحة، يتجسد فيها إحقاق الحقوق والانتصار للمظلوم. وهذه ممارسة سياسية ولكنها ممارسة قيادية يقوم بها قادة، وليس أُناسا ليس لهم همّ إلا الوصول إلى مآربهم الخاصة الحزبية الضيقة.

ولعل أمير المؤمنينعليه السلام يشير إلى هذا الدور القيادي بكلمته الشهيرة؛ حينما قال: «لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[٢]. ماذا تتصور علياًعليه السلام حينما يتصدى لقيادة هذه الأُمة، وحينما يقبل بأن ينزل لهذا الموقع ويستجيب لنداء الأُمة؟ أنه لم يفعل ذلك من أجل سلطة، ولا دنيا، ولا امتيازات ورواتب، كتلك التي يتقاضاها ذوو الدرجات الخاصة، ولا إيفادات، ولا خدم وحشم، فليست هذه هي معايير التصدي للمسؤولية عند أمير المؤمنينعليه السلام.

وهوعليه السلام إنما تصدى لما أخذه الله تعالى على العلماء ألاّ يقارّوا على كظة ظالم وسغب مظلوم، فالدفاع عن المظلوم، والمطالبة بقضايا الأُمة، ودفع الناس إلى الامام، ودفع عجلة المجتمع إلى التقدم والازدهار، وتحقيق الحياة الكريمة للمواطنين، هي الأهداف التي دفعت الإمام عليعليه السلام إلى مواقع الحكم والسلطة والإدارة والقيادة، ولولا هذه الدوافع لكانت هذه الدنيا أزهد عنده من عفطة عنز، فما هي قيمة العطسة والعفطة التي تصدر من عنز؟. إنها لا قيمة لها مطلقاً، فالدنيا أزهد وأقل قيمة من عفطة عنز عند الإمام عليعليه السلام، ولكنه يقف ويدخل في حروب ويواجه التحديات ويمسك زمام

٢ .نهج البلاغة: الخطبة ٣.

المبادرة لما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم. وهذه رؤية تعطي للموقع القيادي دورا مميزا يبتعد عن الانتهازية والمطالب الشخصية والمطامع الحزبية والفئوية، وينفتح على الأُمة بهمومها وحقوقها ومطالبها وقضاياها.

السبيل لبناء نظام حكم ناجح

وعلينا اليوم أن نستحضر هذه النظرية في القيادة والإدارة التي تنطلق من مثل هذه الآفاق، وتضع المعالم الرئيسة والركائز الأساسية لبناء نظام حكم ناجح، يمكن أن يحقق طموحات المواطنين، فالقيادة بهذا المعنى هي عملية توجيه الرأي العام، وتوجيه الناس وإدارة شؤونهم، بما يحقق لهم الحياة الأفضل، وبما يحقق لهم الطموحات. وبعبارة أُخرى الانتقال بالناس من الواقع الذي يعيشونه إلى المستقبل أو الطموح الذي يحلمون به ويتطلعون إليه، وفرق كبير بين ما هو عليه الإنسان والأُمة، وبين ما يجب أن يكونا عليه، فعملية القيادة هي عملية أخذ زمام المبادرة، ودفع الناس للانتقال مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه، وتحقيق أحلامهم وطموحاتهم وتطلعاتهم، وكيف يستطيعون تحقيقها، وما الخطوات المطلوبة لنكون على ما ينبغي أن نكون عليه وما يجب أن نكون عليه؟.

واليوم، عندما نذكر العراق كشاهد مثلاً، باعتبار أن العراق بلد الحضارة، وبلد الثروة والإمكانات الهائلة، وبلد التأريخ، وبلد الشخصية العراقية الفذة، وبلد الموقع الجغرافي المميز، ومحطة الأنبياء والأولياء والصالحين، من آدم إلى النبي الخاتم ﷺ، نتساءل هل شأن العراق أن يكون بهذه السمات التي نعيشها اليوم، من حرمان وضعف في الخدمات وقصور في الأداء وتراجع وتخلف قياساً مع الدول المحيطة بنا؟. من المؤكد أن هذا ليس شأننا. نعم، هذا هو واقعنا، ولكن هل نحن راضون بهذا الواقع؟ وهل طموحنا أن نكون بهذا الشكل؟ الجواب كلا، فهذا واقع يجب أن يتغير، ويجب أن نسير نحو المستقبل، ونحو الطموحات التي تنسجم مع أحلامنا و تطلعاتنا.

دور القيادة في بناء الحكم

إن عملية توجيه الأُمة، وتوجيه الإمكانات واستثمارها، للانتقال من الواقع الذي نعيشه إلى الواقع الذي نتطلع إليه ونصبو له ونحلم به، هي العملية القيادية. وإذا كانت القيادة تمثل مفتاح الحياة والنمو والانطلاق والبناء، تصبح هذه القيادة، وهذا الموقع، موقعاً مقدساً وشريفاً، وتصبح هذه المهمة مهمة الأنبياء؛ فقد جاء الأنبياء ليأخذوا بأيدي الناس لتحقيق الأفضل.

وهكذا يتضح بحسب النظرية الإسلامية، الفرق الكبير بين ممارسة سياسية تعتمد على أساس المصالح الضيقة، وتنتهج وسائل الخداع والتزوير والانتهازية بكل أوصافها، لكي تصل بصاحبها إلى السلطة ومواقع القرار ليستفرد ويستحوذ ويتمكن من استغلال هذا الموقع لمصالحه الشخصية والحزبية والعياذ بالله، وبين الممارسة السياسية والممارسة القيادية التي تريد أن تأخذ بالإنسان من واقع يعيشه إلى مستقبل يحلم به ويتطلع إليه. فالنظرية الإسلامية للإدارة والقيادة تركز على هذا الجانب، وتجعل من القيادة أمراً لا يزهد به الناس ولا يبتعدون عنه ويسعون ألا يتلوثوا به، بل تجعل منه موقعاً يحظى بالقدسية والاحترام والاهتمام. وعليه فإن التصدي للموقع القيادي بحسب الرؤية الإسلامية قد يصل إلى مستوى الوجوب والضرورة لمن يتصف بهذه الصفات ويكون قادراً على أن ينهض بالأُمة.

إن هدف القيادة هو تحقيق الحياة الكريمة للمواطنين، وتحديد المسارات التي تنهض بالشعوب والأُمم إلى ما تطمح إليه وتتطلع له؛ فالقيادة هي المحطة، وهي اللولب، وهي مركز الثقل، وهي المغناطيس الذي يجتمع عليه الجميع ليتوحدوا حولها لتحقيق طموحاتهم وأهدافهم وغاياتهم النبيلة والمشروعة. والفراغ القيادي هو الذي يوجد الشلل والتعطيل في البلاد، وهو الذي يخل بالنظام ويضيع مصالح الناس، ولعله يؤدي إلى إزهاق الأرواح والإشكاليات الأمنية الكبيرة وغيرها. فإذن القيادة لها دور الحياة، وغيابها يمكن أن يعصف بالمجتمع إلى أبعد الحدود.

ولهذا استدل بعض الفقهاء على وجوب التصدي للقيادة بآيات من القرآن الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً

بغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالْبَيِّنَات ثُمَّ إنَّ كَثيراً منْهُمْ بَعْدَ ذَلكَ في الأَرْض لَمُسْرِفُونَ﴾[٣]، أي من يقتل نفساً فكأنما قتل الأنفس كلها، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الأنفس كلها.

وإذا كان للقيادة كل هذا الدور الكبير في إحياء الناس وفي تنظيم شؤونهم وفي الأخذ بأيديهم في تحقيق تطلعاتهم فهو إحياء للأمم. وكذلك فإن الفراغ القيادي يؤدي إلى اختلال التوازنات وإرباك الحياة وتعطيل المصالح وإزهاق الأرواح. فإذا كان هنالك شخص تتوافر فيه المواصفات القيادية وهو قادر على أن يمارس الدور القيادي على كل المستويات ولا يتصدى لهذا الدور، يكون سبباً في إزهاق الأرواح، وإذا تصدى يكون سبباً في إحيائها.

لذلك يجب على من تتوافر فيه هذه الصفات وهذه الشروط أن يتصدى لمواقع الإدارة والقيادة، ومن هنا تصبح عملية التصدي وتحمل المسؤولية بحسب هذه النظرية واجبا من الواجبات الشرعية والوطنية على كل أبناء الشعب، فيجب التصدي وتحمل المسؤولية على من يجد في نفسه الكفاءة والقدرة على أداء هذه المسؤولية؛ إذ على الإنسان أن يقف في خدمة وطنه وفي خدمة مواطنيه، وأن يناصر شعبه وأُمته.

سعة مفهوم القيادة

ولا نعني بالموقع القيادي والدور القيادي، أن يكون الشخص رئيساً للجمهورية أو رئيساً للوزراء، بل لهذه الأدوار القيادية مراتب ومستويات، فمثلاً على الصعيد الفردي، هناك شخص ناجح في مشروع تجاري صغير ويقود هذا المشروع ويحقق أرباحاً مجزية، فهذا موقع قيادي، وعلى صعيد الأُسرة، هناك شخص قادر على إدارة أُسرته والأخذ بأيديها لما فيه تطلعاتهم المشروعة، فهذا دور قيادي أيضاً، وعلى صعيد المجتمع، هناك شيخ عشيرة قادر على توحيد الناس وحل مشاكلهم ومعالجة اختلافاتهم والأخذ بأيدي عشيرته إلى ما فيه الصلاح والرشاد، فهذا

٣. المائدة: ٣٢.

دور قيادي أيضاً، وهكذا هو الأمر في الجامعة والدائرة والمستشفى والأجهزة الأمنية وفي كل مكان يمكن أن يكون للإنسان فيه دور قيادي.

فلا نقصد بالدور القيادي موقعاً واحداً، وهو من يقود أُمة من الناس فقط، وإنما يمكن أن يكون لهذا الدور سلسلة من المراتب؛ فيبدأ من الدوائر الضيقة ويتسع ليشمل من يقود أُمة من الناس.

أسباب تخلف الحكم

واليوم، إذا أردنا أن نؤشر على أهم إشكالية أدت إلى تلكؤ وتأخر الكثير من المصالح ـ واعتقد بأننا لن نختلف في هذه الإشكالية ـ فإنما هي عدم وضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، حتى قيل إن هناك شخصية سياسية كبيرة في إحدى الدول العظمى، كان نائباً للرئيس، وبعد ثلاثين سنة تبين أنه عميل لدولة أُخرى، ولكن كلما راجعوا سلوكه وأداءه، لم يجدوا أي ارتباطات مشبوهة أو سلوك مشبوه، أو مواقف مشبوهة، وبعد القبض عليه اعترف بأن مهمته خلال الثلاثين سنة الماضية كانت تنفيذ كل ما طلب منه، وهو أن يضع الشخص غير المناسب في المكان الذي لا يناسبه، وإذا كان هناك شخص مناسب في مكانه المناسب، يسعى لتبديله بشخص غير مناسب.وهذه المهمة وحدها كافية لتعطل البلد!.

إن على الأمة أن تعطي الراية لأهلها، وتسلم المهمة لمن هو أهل لتحمل أعبائها، ثم انظروا كيف سينطلق البلد وبنفس الميزانية والإمكانيات، وبنفس الأخطار. وكل ذلك لا يحتاج إلاّ إلى أن نضع الرجل المناسب في المكان المناسب، بعيداً عن المحسوبيات والمنسوبيات، أي لا يكون المعيار أن هذا الشخص من حزبي أو من جماعتي أو من طائفتي أو من قوميتي أو دیانتي، بل ينبغي ملاحظة ما يحتاج إليه هذا الموقع من المواصفات والمقاسات والمعايير، لا أن نحدد الأشخاص أولاً ثم نقول بعدها كيف سنكيف الموقع معهم!، بل يجب علينا في البداية أن نضع المعايير التي يحتاج إليها هذا الموقع، ثم نبحث عن الأشخاص الذين يناسبونه.

ولكن الأُمور على عكس ذلك في الواقع، فنرى أن الشخص الفلاني مثلاً يوضع في الوزارة الفلانية وعمره تسع وعشرون سنة، مع أن القانون ينص على أن

الوزير يجب ألا يقل عمره عن ثلاثين سنة، فيقومون بتغيير القانون، ليشمل من كان عمره تسعاً وعشرين سنة. وهكذا نبدأ بتكييف المواصفات والشروط على قياس هذا الشخص، فلا يكون الموقع هو الأساس ثم نبحث عن الشخص الملائم له.

وهكذا يجب أن يكون الوزير في وزارة خدمية من أهل الاختصاص في تلك الخدمة التي يقدمها، لا أن يأتي وزير ليس له أي علاقة بتلك الوزارة، فمثلاً يعين طبيب في وزارة ليس لها علاقة باختصاصه ومعلوماته، وهكذا في المسائل الأُخرى، نحتاج إلى أن يتصدى من يجد في نفسه الكفاءة وتتوافر فيه المواصفات، ويجب أن تعطى هذه القضية الأولوية والأهمية الكبيرة جداً. وهذا درس عظيم نأخذه من النظرية الإسلامية في القيادة و الإدارة.

تأكيد الروايات على ضرورة التصدي للقيادة

نجد أن العديد من الروايات جاءت لتؤكد ضرورة التصدي للأدوار القيادية لمن هو أهل لها، كقول رسول الله صلى الله عليه وآله: « من أصبح لا يهتم بأُمور المسلمين فليس بمسلم»[٤]. فمن يقول أنا عراقي، وعنده القدرة على أن يقدم شيئاً ولا يقدمه لهذا الوطن فهو ليس منه، وليس له الحق في أن يدعي الانتماء لهذا الشعب وهذا الوطن وهذه الأُمة.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً قوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٥]، فكل فرد يتحمل المسؤولية، ولا يحق لشخص في النظرية الإسلامية أن يقول لا يهمني الأمر،أو يقول هذا ليس عملي ولم يكلفوني به، كلا، فمادام يجد في نفسه القدرة، يجب عليه أن يتصدى ويتحرك ويعبر عن طاقاته.

وكم هي الطاقات الهائلة في الأُمه التي ضاعت لعدم وجود من يستثمرها ويعطيها الفرصة، فنحن لا توجد لدينا أزمة عقول، ولا أزمة طاقات، ولا أزمة في الكوادر البشرية النوعية، بل لدينا أزمة في وضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

---

٤ . الكافي ٢: ١٦٣ح١.
٥ . بحار الأنوار ٧٢: ٣٨ ح٣٦.

لقد أخبروني أن هناك قسما خاصا في وزارة التخطيط العراقية يضم عقول العراق، وظيفتهم وضع نظم وسياقات للإدارة والقيادة لمؤسسات الدولة، وقد صرفوا الكثير من الجهد والوقت حتى تعلموا وتخرجوا وأخذوا الشهادات العالية، وجاؤوا فرحين يريدون أن يبنوا دولة مؤسسات. فقلت: عجبا، هذه من الأُمور النادرة، ولابد من أن هؤلاء ليس لديهم وقت لأي أمر آخر. فقالوا: كلا، إن هؤلاء عاطلون وليس لديهم أي عمل.

وعندما سألوني: لماذا لا تُستثمر طاقات هؤلاء الأشخاص؟، قلت: إن هؤلاء لديهم معايير علمية، وعندما يدخلون أي دائرة أو أي وزارة يطلبون ترتيب الأُمور ضمن تلك المعايير، وهذه المعايير تقول إن فلانا الفلاني الذي هو في منصب مدير عام يجب أن ينقل، ولكن هذا المدير هو ابن عم الوزير، وكذلك مدير القسم غير مناسب أيضاً ويجب أن يغير، ولكن هذا الآخر هو من حزب الوزير، وهكذا سيجدون أنفسهم أينما دخلوا يرتطمون بجدران كونكريتية لا يستطيعون أن يتجاوزوها، ولكي يستراح منهم يقال لهم منذ البدء:أنتم لا تناسبوننا، وهذه المناصب قد وزعت بيننا، والعراق كعكة قسمت وانتهى الأمر، ولن نسمح لأحد أن يأتي ويعيد ترتيب الأمور على غير ما هي عليه. وهكذا هم يعملون وفقاً لأهوائهم؛ هذا يأتي وذاك يخرج والعراق له الله، الذي هو لهم بالمرصاد .

اليوم يجب علينا أن نأخذ فرصتنا، فعقول العراق جالسون اليوم في هذا القسم ليس لديهم عمل، ويقدمون دورات مجانية لمنظمات مجتمع مدني؛ لأن الدولة العراقية لا تريدهم، فذهبوا لإقامة دورات لهذه المنظمة وتلك المؤسسة لتستطيع أن تبني نفسها بالشكل الجيد والصحيح.

إن وضعنا كارثي في هذه الأُمور، ولا أحد يصارح الناس، ولا أحد يتحدث في هذه الحقائق، ثم نقول لماذا كل هذه المشاكل، ولماذا البلد معطل، ولماذا البيروقراطية الإدارية، ولماذا هذا الدور الكبير للمحسوبيات والمنسوبيات، ولماذا المواطن الذي لا يرتبط بكيان سياسي أو جهة معينة، يكون ظهره مكشوفا وقلبه يرتجف حينما يدخل إلى أي دائرة؟. إن الأسباب والعلل واضحة ويجب أن نعالجها، ولا نلوم أنفسنا، ولا نقول إن قدرنا أن نبقى في حالة من التراجع والتخلف.إن بإمكاننا أن نكون على أفضل حال إذا ما أخذنا بالمعايير الصحيحة.

أهمية الدور القيادي في تحقيق العدالة

إن التركيز الكبير على العدل والقسط في القرآن الكريم ـ فقد وردت خمس عشرة آية تدل على وجوب العدل، وثماني عشرة آية تؤكد على وجوب القسط ـ يشير إلى أهمية العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بين الناس.والدور القيادي هو السبيل الذي يحقق هذه العدالة ويكرسها في المجتمع، لذلك فإن الدور القيادي ليس دوراً مغضوباً عليه لكي يسعى البعض للابتعاد عنه، فيقول ليس لنا علاقة بالسياسة، دعنا نذهب بطريقنا ونعد بطريقنا، وهذه السياسة لا نريدها، وهو كلام صحيح، ولكن أي سياسة؟ إنها بالتأكيد ليست السياسة التي نتحدث عنها، وليست هي الأدوار القيادية التي تنهض بالأُمم والشعوب، بل يقصدون سياسة المكر والخداع والتضليل والافتراء والمصلحية والرؤية الضيقة، ونحن جميعاً لا نريدها ويجب أن نبتعد عنها، ولكن ما نطمح إليه جميعاً هو الأدوار القيادية التي يتحمل فيها الإنسان المسؤولية، ويجب أن نتحمل المسؤولية تجاهها.

فهناك فرق كبير بحسب الفهم الإسلامي بين السياسة بمعناها الانتهازي.. بمعنى المكر والخداع، والالتفاف على الحقائق، وبمعنى استخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى السلطة.. للوصول إلى النفوذ، وبين السياسة بالمعنى القيادي، التي تعني توجيه الناس وإدارة المجتمع بالنحو الذي يحقق الطموحات المشروعة للمواطنين، ونقل الناس مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه، ودفع المجتمع وبناء الحياة الاجتماعية على أساس الحق والعدل، وعلى أساس القيم والمبادئ، وعلى أساس الضوابط والمعايير والقوانين والسياقات التي لا يختلف فيها هذا عن ذاك، ولا يميز مواطن عن مواطن، وإنما تكرس العدالة الاجتماعية والحقوق المتكافئة بين الناس.والسياسة بهذا المعنى ـ أي ممارسة الأدوار القيادية ـ هي التي يتحدث عنها الإسلام وتتحدث عنها النظرية الإسلامية.

والقيادة بهذا المعنى ليست حكراً على أحد، وليست مختزلة في شخص واحد، ليس لنا قائد ضرورة في الإسلام، حتى لو كان القائد رسول الله صلى الله عليه وآله. القيادة بهذا المعنى تشمل كل أبناء المجتمع، وكل من يتصدى، وكل من يتحمل المسؤولية، وكل من يرعى هذا المشروع ويسهم ويضع لبنة في بناء المجتمع، فهو شخصية قيادية،

يتحمل مسؤولية كبيرة في بناء مشروع كبير يحقق أحلام الناس وطموحاتهم المشروعة في الحياة الكريمة.

وكل إنسان هو قائد في دائرة مسؤوليته؛ فهناك من يقود أُسرة أو عشيرة أو قبيلة أو قبائل، وهناك من يقود مشروعاً تجارياً بسيطاً أو مصنعاً أو مزرعة، وهناك من يقود أُمة من الناس.

إذن، المفهوم القيادي في الفهم الإسلامي لا ينحصر برجل واحد، ولا ينحصر بموقع واحد، وإنما هو موقع يمتد ليشمل كل المساحات، فكل إنسان في موقعه وفي ظرفه يمكن أن يكون قيادياً، فالموظف البسيط وعنصر الخدمة في مكان ما يمكن أن يكون عنصراً قيادياً حينما يوظف طاقاته وإمكاناته في إنجاح المهمة المناطة به، ولو كانت مهمة متواضعة على مستوى تقديم خدمة أو تنظيف مكان، وصولاً إلى أخطر المواقع وأخطر الأدوار.

فالمفهوم القيادي بحسب الفهم الإسلامي لا ينحصر في دوائر ضيقة، ولا في غرف مظلمة، ولا يحتكر على رجال أو أُسر أو عناوين أو مواقع محددة، وإنما يشمل الأُمة بكل مواقعها وكل مساحاتها. والقيادة بهذا المعنى تكتسب القدسية والاحترام، وتمثل ضرورة من ضرورات الحياة.

ضرورة توفير القيادات

كيف لنا أن نبني مجتمعاً، ونحدد مسارات تطور الشعوب والأُمم، ونحقق الازدهار والإعمار والبناء والتنمية في كل مفاصلها ومجالاتها في مجتمع طامح إلى تحقيق المزيد من دون أن تتوافر الأعداد الكافية من الشخصيات القيادية في أبناء المجتمع؟ وأين نحن من هذه النظرية وهذه الرؤية؟.

لقد بنيت مجتمعاتنا على نظم لا تساعد على إعطاء الفرصة لتألق الشخصية القيادية في أبناء المجتمع، فنحن في سياقات وظروف لا نبحث فيها عن قادة، بل نبحث عن مقادين، نحن نريد من يقول نفذ ثم ناقش، وهذا بعيد عن الروح القيادية. لماذا أُنفذ قبل أن أُناقش؟ دعني أُناقش.. دعني أطرح رؤية.. دعني أُبين وجهة نظري، فأنا المواطن البسيط أقرب إلى الحقيقة من القائد الأعلى في بلد ما أو وزارة ما أو

دائرة ما.. من قال إن هذا الآخر يفهم أكثر مني، ومن قال إنه أصاب الحقيقة؟. إن هذا المجتمع حافل بالخبراء والكفاءات والقدرات والشخصيات الفذة التي تستطيع أن تقدم الكثير في بناء المجتمع.

إن مجتمعاتنا تقتل الروح القيادية، واسمحوا لي أن أكون قاسيا في هذه التعابير، تقتل الروح القيادية على كل المستويات؛ فنحن لا نريد أن نجد من يفكر أحسن منا، ولا نريد أن يقدم أطروحة أفضل من أطاريحنا.. لا نريد أن نحترم إرادة الناس وخبرات الناس.. لا نريد أن نقف عند تجارب الناس. فالأنانية هي التي تكرست في خصالنا وطباعنا، وفي مواقع المسؤولية.

قطعاً لا أُعمم، وليس من الصحيح التعميم، ولكن نتحدث عن ظواهر اجتماعية، سببت الشلل الكبير في البلاد اليوم، فالسادة المسؤولون في مختلف المواقع يعتقدون بأنهم الأعلم والأكفأ والأقدر والأحرص والأنزه من كل البشر، فلماذا يسمح للآخر وهو أفهم من الآخر، ولماذا يصغي للآخر إذا وجد أن رأيه وقناعاته هي المطابقة للحقيقة؟.

فمسؤولنا اليوم يقول بالعصمة لنفسه من حيث لا يشعر، ويتصرف كأنه معصوم، لا يقول إلا الحق، فيبرر كل موقف وكلمة وسلوك، حتى أن المواطن البسيط أصبح يجلس على شاشات التلفاز ويستمع إلى كبار المسؤولين وهم يُسألون في وسائل الإعلام؛ كيف تقيمون التجربة الماضية وقد انتهت أربع سنوات، وهل تجدون أنكم وقعتم في خطأ ما؟، فتجد أن هناك عدداً مهماً من المسؤولين يقولون إننا لم نقع في أي خطأ، وكل مواقفنا كانت في الاتجاه الصحيح، وكل تصريحاتنا كانت صحيحة، وكل قراراتنا كانت صحيحة، وكل إجراءاتنا كانت صحيحة.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا، إذن، نجد البلد معطلا؟! ولماذا يشكو المواطن من آلام ومحن ومشاكل؟! وإذا كانت الأُمور كلها تسير كالساعة في اتجاهات صحيحة، فيجب ألا يكون في البلد هذا المستوى من الخلل والأخطاء والمشاكل التي نواجهها ونعاني منها بشكل مستمر.إن هذه المشاكل والأزمات تكشف عن أن هناك أزمة قيادية، وأن هناك فراغاً قيادياً حقيقياً، وأننا لم نستنفر الطاقات والإمكانات الكامنة لأبناء شعبنا.

دعوة المخلصين الأكفاء إلى التصدي

إن النظرية الإسلامية تتحدث عن نمط آخر من القيادة، وتنظر إلى القيادة من زاوية أُخرى بهذه السعة وبهذا الشمول. لذلك نجد الخلط الكبير بين الانتهازية السياسية وبين الأدوار القيادية عند عدد كبير بين الناس، فما أكثر الناس الذين يتراجعون وينكفئون ويبعدون أنفسهم عن ساحة التصدي وتحمل المسؤولية، وحينما تسألهم؛ لماذا تتركون ساحة العمل وأنتم تملكون الطاقة والقدرة على التصدي؟.. لماذا لا تقول كلمتك، ولماذا لا تخطو خطوة بالاتجاه الصحيح؟، يأتي الجواب الجاهز الناجز: ما لنا وهذه السياسة التي كلها لعب، وكلها تطاول وتجاوز على الناس، وكلها التفاف على الحقيقة، وكلها مكر وخداع، لا نريد أن نتلوث.

وهكذا ينزوي الطيبون والصلحاء والشرفاء والوطنيون والمخلصون بالتدريج، ولا يبقى سوى الانتهازيين والسيئين وذوي المصالح الخاصة وذوي النظرات الضيقة، المستعدين لتقديم كل شيء من أجل الوصول إلى المواقع القيادية والسلطة. وبهذا النحو ترون المخلصين يتهمشون في الوزارات وفي الدوائر، ويتصدى الآخرون. فلماذا يا مخلص تتهمش؟ ولماذا تنزوي؟ وربما يجيب أن القضية لم يعد لها لون ولا طعم، اُريد أن أحافظ على سمعتي، واُريد أن أحافظ على تأريخي، اُريد أن أحافظ على سلوكي، فهذه السمعة الطيبة لا أبيعها بالدنيا وما فيها، والعمل السياسي أصبح يلوث سمعة الإنسان.

فأي نمط من أنماط السياسة هذا الذي يلوث السمعة! وأي نمط من أنماط التصدي صار يوقع الإنسان في هذه المطبات؟. إن الانتهازية تلوث، أما الأدوار القيادية التي يقف فيها الصلحاء والشرفاء ويتحملون المسؤولية الجسيمة والعظيمة من أجل هذا الوطن، فهي عزة وكرامة وشرف. ألا يستحق هذا الشعب أن نقف اليوم معه، حينما نرى كيف يضحي العنصر الأمني الذي يقف في الشارع أو عنصر الجيش بحياته من أجل هذا الوطن ويقدم حياته وهو فرح؟!.

إن التأريخ الإنساني لا يحتفظ في ذاكرته إلا بعدد محدود من نماذج قد رأيناها في هذا الشعب بأُم أعيننا، فما أكثر العناصر الأمنية التي عرفت انتحارياً يريد أن يفجر نفسه وسط جمع من الأبرياء، فاندفعت تضحي بأنفسها من أجل إنقاذ حياة

الآخرين، وقد استشهد الكثيرون بهذه الطريقة من التضحية الطوعية، وقدموا أنفسهم وأرواحهم رخيصة من أجل الوطن، ومن أجل القيم، ومن أجل المواطن. أفلا يستحق أن نضحي بسمعتنا من أجل هذا الوطن، ومن أجل هذا المواطن؟!.

وحينما نشيع هذه الثقافة، يشعر كل إنسان له قدرة على ممارسة دور قيادي، في أي مستوى من هذه المستويات، بمسؤوليته في أن يقف ويدافع ويصلح في مساحته، وكلما كان الإنسان في موقع أكبر، كانت مسؤوليته أعظم، ولكن المسؤولية لا تسقط بحال من الأحوال. إن البعض يخشى على سمعته أكثر مما يخشى على حياته، فيقبل أن تستهدف حياته من أجل هذا الوطن ومن أجل هذه القيم، ولكنه يخشى على سمعته أن يمسها ما يشينها حينما يدخل معترك الصراع السياسي. فلتسقط هذه السمعة إذا كان الطريق صحيحاً، وإذا كانت الخطوات التي نخطوها لمجتمعٍ صالح وطامح للحق والحقيقة والبناء والتطور والازدهار، ولنقدم هذه السمعة قرباناً للشعب الذي يقدم في كل يوم عشرات القرابين على أيدي الحاقدين والماكرين من أجل الانعتاق من الظلم والتحرر من الجهل والتخلف والمرض.

وليعلم كل من يريد أن يتصدى أنه سيتعرض لسيل من الإشاعات والافتراءات منذ اليوم الأول. افتحوا الانترنت وانظروا ماذا يتكلمون؟! فما أكثر الشبهات، وما أكثر الاتهامات، وما أكثر المعلومات الخاطئة التي تذكر تجاه الأشخاص. في يوم من الأيام بحثت في الانترنت عن اسم عمار الحكيم، فخرج ١٩٨ ألف مكان فيه عمار الحكيم، فقلت: يا ساتر يا الله، هل أنا مهم إلى هذه الدرجة ولا أدري، وهذه فقط باللغة العربية، وفتحت بعضا منها فرأيت العجائب والغرائب، رأيتهم يتحدثون عن أُمور لا علم لي بها؛ فبعضهم يقول اشترى نصف العراق، وآخر يقول أخذ كذا وكذا من الأموال، وثالث يقول اشترى أساطيل..وهكذا. فقلت أين هؤلاء الذين يعطوننا أخباراً عن ممتلكاتنا لا خبر عندنا بها. كلها إشاعات واتهامات وافتراءات.

بل إني أسمع أكثر من ذلك؛ فقد تصل الحالة إلى أن البعض يذهب ليستغل هذا الاسم في هذه الدائرة أو تلك، ويدعي أنه أتى من قبل فلان، وهو يريد أن يشتري أو يبيع، أو يريد صفقة كذا. وأنا لا أعرف مدى صدقية هذا الأمر، ولكنني قلتها لمرات، وأقولها من جديد، وأوجه ندائي لكل مؤسسات الدولة العراقية، ولكل مواطن

شريف يطلع على مثل هؤلاء الناس، أن يخبر الجهات والسلطات القضائية أولاً، وإذا تكرم وأخبرني لأكون صوتاً آخر لملاحقة مثل هؤلاء الناس.

خادمكم عمار الحكيم ليست له أي مصالح اقتصادية أو عقود أو أي شيء، ولا يتدخل في هذه القضايا، وإذا قيل أي شيء في هذا الخصوص، فهو انتحال لشخصية، ويجب أن يعاقب من يمارس هذا الانتحال.

إن من القضايا الأساسية والمهمة، أننا يجب أن نميز بين الانتهازية السياسية وبين الأدوار القيادية، ولذا يجب ألا يزهد أي مواطن في أي موقع وفي أي دور يمارسه، وألا يفرط بفرصته للتصدي وتحمل المسؤولية وخدمة هذا الشعب، فنحن بأمس الحاجة لجميع الطاقات والقدرات والشخصيات الكريمة، ونحن بأمس الحاجة إلى كل جهد يبذل من أي مواطن شريف لخدمة هذا الوطن. وبما أن هذه القضية من القضايا الشائعة، فما أكثر الطاقات التي نجدها تبتعد عن مواقع الخدمة والتصدي؛ لأن الأجواء غائمة، والظروف صعبة، ولأن من يتصدى التصدي الشريف يتهم ويطارد ويحاصر. وهذا يجده الكثيرون مبرراً للابتعاد عن تحمل المسؤولية. ولهذا الاعتبار وقفت لأركز على هذه النقطة وأؤكد أن الفهم الإسلامي يرى أن هذا التصدي ضرورة من الضرورات لبناء المجتمع والحياة الإنسانية، وعلى الغيور أن يتصدى ويتحدى ويتحمل الأعباء، فهذه مسؤولية لا يجوز التنصل عنها.

النصوص الدالة على تحمل المسؤولية

وعلى ضوء هذه الخلفية نستعرض بعض النصوص الشرعية من الآيات الكريمة والروايات الشريفة الواردة في هذا الموضوع، لنرى كم أن هذه القضية تحظى بأهمية بالغة في الفهم القرآني والفهم الإسلامي، ويجب أن نشيعها ثقافة لئلا يأتي شخص ويبرر لنفسه الانكفاء والانعزال بدعوى أن هناك أخطاء، فمن يصلح الأخطاء؟! وبدعوى أن هناك فسادا، فمن يقاوم هذا الفساد؟! وبدعوى أن هناك ظلما، فمن يغير الظلم ويحقق العدالة الاجتماعية؟! ومن سيتحمل هذه المسؤوليات الجسام غير المؤمنين المخلصين من أبناء هذا الوطن؟!.

وبحسب هذه النصوص التي سنتعرف عليها ونستذكرها معاً، يتبين لحضراتكم أنه

لا يحق لأحد أن يرى نفسه بعيداً عن دائرة المسؤولية، فكلنا مسؤولون أمام الله سبحانه وتعالى في أن نوظف كل الإمكانات وكل الطاقات في خدمة وإصلاح هذا البلد الكريم.

أولاً: النصوص القرآنية

هناك آيات كثيرة بهذا الشأن لا نستطيع أن نستوعبها بأجمعها، ولكن نشير إلى نموذج منها يدل على أهمية التصدي وتحمل المسؤولية.

الآية الأولى: آية الحياة الطيبة

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٦].

يشير المقطع الأول من الآية الشريفة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إلى أن العمل الصالح والإيمان خصوصيتان إذا اجتمعتا معاً تحققت الحياة الطيبة، فكما أن العمل الصالح وحده لا يجدي فكذلك الإيمان وحده لا ينفع من غير عمل صالح.

ويشير المقطع الثاني من الآية الكريمة: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ إلى أن المسؤولية تقع على عاتق الجميع، لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، والشخصية القيادية والدور القيادي لا ينحصر بالرجال دون النساء، وإنما يشمل الجميع، فكما لا يحق للرجل أن يتخلى عن المسؤولية بدعوى أن هناك خللا وأخطاء وتحديات، فكذلك لا يحق للمرأة أن تتخلى عن مسؤولياتها هذه أيضاً بمثل هذه الدعاوى.

ويشير المقطع الثالث من الآية الكريمة: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ إلى مسألة مهمة وهي مسألة الحياة الطيبة. والسؤال الكبير؛ كيف تتحقق الحياة الطيبة، وماذا يقصد بالحياة الطيبة؟. مما لا شك فيه أنه لا حياة طيبة في ظل الفوضى واللانظام، وفي ظل اللامؤسسات، وفي ظل اللاقانون، وفي ظل المزاجيات والأنانيات والفئويات والمصالح الشخصية. وإنما تتحقق الحياة الطيبة ببناء دولة المؤسسات، وفي ظل

٦. النحل: ٩٧.

الالتزام بالدستور والقانون، والالتزام بالمعايير الصحيحة في وضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وبوجود الخطط الواضحة التي توصلنا إلى التطور والبناء والإعمار والازدهار، فلا حياة طيبة بلا هذه الأُمور على المستوى المادي.

كما أن الحياة الطيبة على المستوى المعنوي ودار الآخرة لا يحصل عليها الإنسان إلا من خلال خدمة خلق الله، وإلا من خلال الالتزام بالقيم والثوابت، وبالتالي لا يمكن أن نحصل على الحياة الطيبة بدون التصدي وتحمل المسؤولية.

فقوله تعالى:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الإيمان يعني الالتزام بالقيم، والعمل الصالح هو التصدي وتحمل المسؤولية. فلا تقل: إن الأمر لا يهمني، ولا يخصني، ولا شأن لي به. وإذا كان منطق كل واحد منا ذلك، إذن من الذي عليه أن يتحمل المسؤولية؟!إن علينا جميعاً بمنطق هذه الآية الشريفة أن نتحمل المسؤولية ونقف لنصلح الأخطاء، ولذلك تجدون أن عملية التصدي اعتبرت عملاً صالحاً في هذه الآية، وعبرت عن التصدي بالعمل الصالح، فالله تعالى يشهد بالصلاح لأي تصدٍّ نافع يمكن أن يساعد في تصحيح المسارات، على أي مستوى، وفي أي دائرة، وفي أي حلقة من الحلقات.

الآية الثانية: آية المستضعفين الظالمين لأنفسهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾[7].

تضمنت الفقرة الأُولى من الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، الحديث عن حوار بين فئة من الناس وبين الملائكة، عندما تقبض أرواحهم وتتوفاهم وهم ظالمون لأنفسهم، لا أن أحداً من الناس قد ظلمهم. وعجيب معنى هذه الآية؛ فالإنسان قد يظلم نفسه أحياناً، حينما لا يستثمر طاقاته وإمكاناته، وحينما لا يتعامل مع نفسه بالطريقة التي تليق بهذه النفس، وبالطريقة التي لا تنسجم

٧. النساء: ٩٧.

مع ما أراده الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان، فحينما يرتكب الإنسان المعصية، والعياذ بالله، يظلم نفسه قبل أن يظلم الآخرين.

أيها الإنسان إن الله سبحانه وتعالى أراد لك أن تكون عزيزاً كريماً مرفوع الرأس، فلماذا تذل نفسك بالمعصية؟ ولماذا تصغر نفسك والله تبارك وتعالى يريدك أن تكون كبيراً؟ ولماذا تنزل إلى الهاوية بهذه الطريقة والله جل جلاله يريد لك الكمال؟ ولماذا تقنع بالمواقع الدنيا وأنت كبير؟ ولماذا تتعامل تعامل الصغار؟ بالله عليكم هل رأيتم رجلاً كبيراً يضع في فمه ما يضعه الطفل (مصاصة) ويصبح أُضحوكة في المجتمع؟! ونفس هذه (المصاصة) لا يقبلها من كان عمره أربع سنوات، وقد كانت أُمه تضعها في فمه عندما كان عمره سنتين، ويقول لها: لا أُريدها؛ لأنه صار له وضع خاص. وأنت الآن كبير فلماذا تتعامل تعامل الصغار؟، لا يليق بالإنسان أن يكون هكذا.

معنى الاستضعاف

لقد اعتذر الظالمون لأنفسهم عن سؤال الملائكة: (فيم كنتم؟)، لماذا ظلمتم أنفسكم؟: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾[٨]. فما معنى الاستضعاف؟. ذهب البعض إلى أن الاستضعاف ذو بعد اقتصادي، فمن لا يملك مالاً يعتبر مستضعفاً. وذهب آخرون إلى أن الاستضعاف ذو بعد فكري، فحينما تعيش أوساط من المجتمع حالة الجهل وعدم الوعي الكافي وعدم التعرف على الحقائق تكون مستضعفة. والسؤال: لماذا نعيش الجهل وأمامنا الفرصة بأن نكون من أهل العلم والمعرفة؟.

ومن مصاديق الاستضعاف هو الاستضعاف الديني، ويوجد حينما يكون الإنسان مخلاً بالتزاماته الدينية وغير عارف بالأحكام الشرعية وبصحة أعماله الدينية. فترى أحدهم وقد بلغ من العمر خمسين أو ستين عاماً وهو لا يعرف كيف يتوضأ أو لا يعرف كيف يصلي!، ويعتذر بأنه هكذا قيل له. ألم يكن الأجدر به أن يفتح كتاباً ليقرأ فيه أو يذهب ليسأل ويتعلم؟! وأمثال هؤلاء يُسألون يوم القيامة فيقولون: كنا لا نعلم، فيقال لهم: أفلا تعلمتم[٩].

---

٨ . النساء: ٩٧.
٩ . انظر: بحار الأنوار١: ١٧٨ ح٥٨.

وهناك مصداق آخر من مصاديق الاستضعاف وهو الاستضعاف السياسي، وهو من أهم مصاديق الاستضعاف. فمن يتخلى عن مسؤولياته وواجباته تجاه المجتمع وتجاه الوضع السياسي القائم من غير علة، هو من أفراد هذا النوع من الاستضعاف. وتراهم يرددون أن هذه الأُمور لا تخصنا ولا علاقة لنا بها، ويتساءلون لماذا نخرج للانتخابات، وما فائدتها لنا، وماذا سوف يحدث لو لم نشارك؟، وكل من يأتي للسلطة نسميه عمي. وهذا استضعاف سياسي، ويتحقق حينما لا يبذل الإنسان الجهد الكافي في البحث وإعطاء الثقة للمؤمنين المخلصين من الوطنيين، الذين يمكن أن ينهضوا بالبلاد. فأحياناً قد يمنح الإنسان الثقة لأشخاص غير كفوئين بسبب تقصيره في البحث عنهم، وحينئذ لا ينفع أن يعض الإنسان على أصابعه ندماً، حيث لا تنفع الندامة.

ومن مصاديق الاستضعاف السياسي أن يترك المؤمنون كلهم العمل السياسي والتصدي وينزووا بعيداً، بذريعة الخوف من التلوث في مستنقع السياسة الآسن، ولتبقى سمعتهم طيبة. وحينئذ يصبح البلد بيد غير الطيبين، وغير النزيهين، وغير الوطنيين، وهذا يعني أنهم سيأخذون البلد إلى ما لا تحمد عقباه، فيشيع الظلم ويتمكن الظالمون منا. وهذا الاستضعاف السياسي خطير جداً، فانه يعني الاستخفاف بالمجتمع العادل، والاستخفاف بالقيم الاجتماعية، والاستهانة بالدور المطلوب من الصلحاء في تقويم المسارات وتصحيحها. وهو يترك آثاراً عظيمة في مستقبل البلد أيضاً.

الحساب العسير

وعندما يقف المستضعفون للحساب غداً أمام محكمة العدل الإلهي، سيكون جوابهم بأنهم كانوا مستضعفين:(قالوا كنا مستضعفين في الأرض)، وهم يعتقدون بأن هذا الجواب سينجيهم من العذاب الأليم، ولكن يأتي رد الملائكة كالصاعقة على رؤوسهم بما لم يتوقعوه:(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)، لماذا لم تغيروا هذا الواقع، ولماذا لم تصححوا هذه المسارات الخاطئة، ولماذا رضيتم بأن تكونوا عرضة للظلم والعدوان؟. وينتظر الملائكة الجواب ولكن من غير جدوى، إذ يسود صمت مطبق من هول المفاجأة.

ثم تنتهي الآية بهذه المفردة وبهذا النص المعبر:﴿ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[١٠]. لا تعتذروا وتقولوا: كنا مستضعفين، فلا تكفي هذه الحجة، وهذا العذر غير مقبول في منطق السماء، وحينها سيساقون إلى جهنم سوقاً، وستكون جهنم مأواهم الأبدي، وساءت مصيراً. لا يقبل من الإنسان في يوم القيامة مثل هذه الأعذار الواهية: والله لا نقصد، والله لا يخصنا هذا الأمر، والله نبقى في بيوتنا أحسن. لماذا لا تتصدى عندما ترى الخطأ؟، ولماذا لا ترفع صوتك ضمن القانون وضمن السياقات المتاحة؟.

يجب أن نعمل لإصلاح المجتمع، وإلا فهذه هي النتيجة، وأنتم تجدون كيف أن هذه الآية الشريفة واضحة في بيان أهمية التصدي وتحمل المسؤولية وتغيير هذا الواقع.

معنى الهجرة

يسأل الملائكة هؤلاء المستضعفين:(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)، فما معنى الهجرة؟، الهجرة هي الانتقال من حالٍ إلى حال، سواء كان هذا الانتقال مكانيا أو ظرفيا يغير الواقع، فيهاجر المستضعَف من حالة الظلم إلى حالة العدل، ومن حالة الفساد والارتشاء والمواقف غير الصائبة إلى حالة النزاهة والصدق والمواقف النزيهة والصحيحة. فهذا أيضاً نمط من أنماط الهجرة.

وهذه الآية صريحة في المسؤولية العظيمة الملقاة على عواتقنا، وهي تحملنا مسؤولية التصدي في كل المواقع لإصلاح واقعنا الاجتماعي. لا تتصوروا أن الواقع يتغير بالمعاجز الإلهية، فالله تعالى هو الذي أراد لنا أن نغير ما بأنفسنا أولاً لكي يغير واقعنا، قال عز وجل:﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١١]. فالتغيير يبدأ منا، ولا يمكن تغيير هذا الواقع بأن يتكّل كل واحد منا على الآخر، أو يلقي المسؤولية على كاهل الحكومة فقط. فما هذه الحكومة؟ هل هي مجموعة أنبياء، أو هم بشر مثلنا ومن بيننا؟. نعم، الحكومة ومواقع المسؤولية الكبيرة والصلاحيات والامكانات تحملهم مسؤوليات أعظم من عموم المواطنين، لكن التكليف لا يسقط عن أحد، وكل واحد منا يتحمل المسؤولية بحسب قدراته وبحسب ظروفه.

١٠ . النساء: ٩٧.
١١ . الرعد: ١١.

الآية الثالثة: آية ظالمي أنفسهم من غير المستضعفين

قوله تعالى:﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ × فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(١٢).

يشير المقطع الأول من الآية الكريمة إلى فئة من الناس تتوفاهم الملائكة يوم مغادرتهم الحياة الدنيا إلى النشأة الأُخرى، حيث يبدأ الحساب ويبدأ الكتاب وتبدأ المساءلة، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ظالمو أنفسهم، ولم يظلموا أحداً، وأشد الظلم أن يظلم الإنسان نفسه، فهذا الذي لا تنجو منه نفسه، فالآخرون من باب أولى لا يسلمون منه. والسؤال؛ كيف ظلم هؤلاء أنفسهم؟.

وتشير الفقرة الثانية من الآية الكريمة: ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ إلى أعذار هذه الفئة من الناس للملائكة حين المساءلة، إذ قالوا: ما عملنا سوءاً، وما شاركنا الظالمين في ظلمهم، وما وقفنا مع الظالمين لنساعدهم ونعينهم وننصرهم على ظلمهم. إذن ما العمل الذي عملوه لكي يستحقوا وصف الظالمين لأنفسهم؟، إنهم سكتوا عن الظلم وتركوا التصدي والانتصار لأنفسهم، ولم يقفوا بوجه الاعتداءات، ولم يقفوا بوجه الظالمين.

وفرقٌ كبير بين من يشترك في الظلم ويكون من عصابة الظلمة، وبين من لا يشترك ولكن لا يتصدى لمواجهة الظلم وتقويم الانحراف وتصحيح المسار وبناء المجتمع العادل والمجتمع الصالح، وقد وصفهم الله عز وجل في قرآنه الكريم بأنهم ظالمو أنفسهم، فهؤلاء ظلمة أيضاً مع أنهم لم يشتركوا مع الظالمين ولم يناصروهم، وقد نقل على لسانهم من لا يخطئ ولا يكذب:(ما كنا نعمل من سوء)، نحن لم نقم بعمل سيئ، ولكننا لم نقف بوجه العمل السيئ، وكان موقفنا هو عدم المبالاة، وعدم التصدي للعمل السياسي والاجتماعي، وعدم المشاركة في تقويم الانحراف. وكان تقييم الله سبحانه وتعالى لهم بأنهم ظالمو أنفسهم.

إذن، لا يقبل الله تبارك وتعالى العذر من الإنسان بأنه لم يشارك في ظلم أو إساءة،

---

١٢. النحل: ٢٨ـ ٢٩.

ولا ينجيه في يوم الحساب العسير قوله: أذهب بطريقي وأرجع بطريقي. فإنه حتى لو لم يظلم أحداً، وحتى لو لم يعن على الظلم، فإنه يكفي في الإدانة أنه لم يقف بوجه الظالمين، ولا ينفعه قوله: ليس لنا علاقة، وما لنا والدخول بين السلاطين، وهذا شغل السياسة وشغل أحزاب وأُناس أصحاب مصالح، ليتنصل من المسؤولية. فمن قال إن السياسة كلها مصالح شخصية وفئوية وحزبية؟!.

إذا أنت لم تتصدّ أيها المواطن الشريف، وإذا لم يتصدّ الطيبون، وإذا لم يتصدّ الشرفاء، فمن المؤكد أن الساحة ستخلو لأولئك الانتهازيين الذين يبحثون عن مصالحهم الحزبية والفئوية والشخصية. ولكن المؤمن حينما يتصدى، والانسان الصالح حينما ينبري ويتحمل المسؤولية، فحينئذ لا مجال لبقاء الأُمور على سياقاتها السلبية.

وتشير الفقرة الثالثة من الآية الكريمة:(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين)، إلى المصير الذي ينتظر هؤلاء القاعدين عن التصدي لتغيير الواقع السيئ بلا عذر، سوى أنهم لم يعملوا سوءا. ولاحظوا كيف يعبر القرآن الكريم عن هؤلاء الناس فيقول: أيها الإنسان حينما لا تتصدى ولا تتحمل المسؤولية، فأنت متكبر على الله. يصفهم الله العزيز الجبار بالمتكبرين فيقول:(فلبئس مثوى المتكبرين). فيجب على كل واحد منا أن يقف ويتصدى ويتحمل مسؤوليته الاجتماعية، بحجمه وظروفه وقابلياته وقدراته. فصنف قادر على الكتابة، وصنف قادر على الخطابة، وصنف قادر على التعبئة، وصنف قادر على تنظيم شيء في مساحته..وهكذا.

وربما يعترض البعض بأن الأُمور كلها خطأ في خطأ، وكلها مشاكل، ولا نعلم من أين نبدأ. والجواب: ابدأ من نفسك، ولو أن كل واحد من الشرفاء والوطنيين العراقيين يقول أبدأ من نفسي، ومن العمل الذي يمسكه، والمهمة التي بيده، والزقاق الذي يعيش فيه، والدائرة التي يتواجد فيها، والناس الذين يتعامل معهم، فيبدأ باصلاح نفسه أولاً، لقضينا على مساحات واسعة من الفساد، وأصلحنا الكثير الكثير من الأُمور. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:«طوبى لمن شغله عيبه عن

عيوب الناس»[١٣]. فليبدأ كل منا من نفسه، ليبدأ من محيطه، من الناس القريبين منه. ولو كان كلُ منا يتصدى ويتحرك بهذا الاتجاه، فسوف نرى أن الخير يعم ويشيع، والصلاح ينتشر ويتسع.

فحينما يقعد الإنسان عن أداء مسؤوليته ولا يكترث ولا يبالي، ويقول لا شأن لي بالناس، دعني من المشاكل ومن وجع الرأس، أذهب بطريقي وأرجع بطريقي، يكون قد تعالى عن الإرادة الإلهية، وتطاول عليها، فيصدق عليه أنه متكبر، وينتظره مأواه الأبدي البائس: (فلبئس مثوى المتكبرين).

الآية الرابعة: آية القتال من أجل المستضعفين

قوله تعالى :﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾[١٤].

لماذا لا تتصدون، ولماذا لا تواجهون، ولماذا لا تقفون بوجه الظلم، ولماذا لا تهبون للدفاع عن الحق، ولماذا لا تنتصرون للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يدعون الله للخروج من البلد الذي يظلم أهله، ولماذا لا تقاتلون من أجل من لا يستطيع الانتصار لنفسه؟.

وهنا سؤال يطرح نفسه على بساط البحث، لماذا لم يدعُ القرآن الكريم للقتال من أجل جميع الناس، واقتصر على الدعوة للقتال من أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يسألون الله تعالى أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها؟.

إن هؤلاء المستضعفين لم يقصروا في أداء واجبهم في الهجرة والخروج من القرية الظالمة، ولكنهم لا يستطيعون الخروج. إذن تكليف المستضعفين واضح وهو الهجرة، ولا يجوز للإنسان أن يعرض نفسه للاستضعاف. والهجرة هي الانتقال من مكان يتعرض فيه الإنسان للظلم والاستضعاف ولا يستطيع إقامة شعائره الدينية ولا

١٣ . نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.
١٤ . النساء: ٧٥ .

يستطيع تغيير الواقع الذي يعيش فيه، إلى مكان آخر لا يتعرض فيه لذلك، كهجرة المسلمين في صدر الإسلام إلى الحبشة والهجرة إلى يثرب.

فالبلد الذي فيه ظلم وفيه فوضى وفيه فساد مالي وإداري وفيه اعتداء وفيه عدم احترام للمعايير وفيه خرق للقوانين والضوابط والسياقات، ويتعرض فيه الإنسان إلى الاضطهاد بسبب معتقداته، يحق لمن تعرض لذلك أو يخاف أن يتعرض لذلك الهجرة إلى بلد آخر، يكون فيه في مأمن من الظلم ومصادرة الحريات وانتهاك الكرامات.

وهؤلاء المستضعفون الذين تتحدث عنهم الآية لا يقبلون أن يعيشوا في ظل حكومة فوضى، ولا يقبلون بالظلم. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وعكسه العدل، وهو وضع الشيء في موضعه. فالعين يجب أن ترى ماهو صالح، وحينما ينظر الإنسان إلى ماهو صالح فهذا عدل بحق العين، ولكن إذا نظر إلى ما هو غير صالح فهو ظلم بحق العين. وكذلك اللسان يجب أن ينطق بالحق والصواب، فإذا نطق بذلك استخدمه استخداماً عادلاً، ولكن إذا استعمله في الكذب والنفاق والنميمة إلى غير ذلك أجارنا الله وإياكم من أمراض اللسان، فهو ظلم بحق اللسان. فاستعمال الشيء في ما وضع له عدلٌ، واستعماله في غير ما وضع له ظلمٌ.

وهذه الآية الشريفة تتحدث عن رجال ونساء وولدان لايقبلون بوضع الشيء في غير موضعه، فيعترضون ويتحركون ويسألون الله تعالى الخروج من هذه القرية الظالم أهلها، ويطلبون من الله تعالى أن يجعل لهم ولياً ونصيراً لكي ينتصروا على أعدائهم: (واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً).

ويشير القرآن الكريم في هذه الآية الشريفة إلى ضرورة التصدي لرفع الاستضعاف عن الناس، وكما قلنا سابقا، فإن هذا الاستضعاف لم يكن استضعافا ماليا فقط، فنحن نطلق على الفقير أنه مستضعف، في حين أن هناك مراتب من الاستضعاف أشد من الاستضعاف المادي، وهو الاستضعاف الفكري والاستضعاف السياسي، حينما تصادر إرادة الشعوب والأُمم.

وهذه الآية الشريفة تشير إلى ضرورة التصدي وتحمل المسؤولية لرفع الاستضعاف،

وضرورة النصرة لإخراج الناس من الواقع السيئ، ولكن ليس المراد بالناس هنا الناس الراضين بالظلم والمتعاطفين معه والمستفيدين منه، بل المراد من الناس هم الناقمون على الظلم الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، فهؤلاء الناس يريدون الانتقال إلى واقع آخر، فهم غير راضين بهذا الظلم، ولا يريدون فساداً، بل يريدون نزاهة، ويريدون استقامة، ويريدون دولة مؤسسات، ويريدون احتراماً للقانون، ويريدون تكافؤا للفرص، ولا يريدون أن يميز أحد على الآخر. إن هؤلاء الذين يسألون الله الخروج من القرية الظالم أهلها يريدون واقعاً آخر فيه عدالة وإنصاف. وعلى ضوء هذه الآية الشريفة يجب التصدي لتحقيق هذا الواقع.

الخامسة: آيات هلاك الأُمم

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى أن الظلم هو سبب حقيقي لضياع الحضارات وسبب لسقوط وهلاك الشعوب والأُمم. فقد وردت أكثر من ٢٥ آية في أن الظلم سبب في الهلاك والسقوط والتدني والتراجع، وهذه الآيات تجعلنا أمام مسؤولية كبيرة للتصدي وإزالة الظلم وتقويم الانحراف، ولبناء الحياة الاجتماعية على أُسس صحيحة. وهذه الآيات تحملنا المسؤولية الكبيرة في إدارة الحياة الاجتماعية بشكل صحيح.

منها: قوله تعالى:﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، فالظلم كان سببا في هلاك تلك الشعوب والأُمم. ومنها: قوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾[١٥]، ففي أي شعب وفي أي أمة يشيع الظلم، اعلموا بأن الهلاكَ قادمَ لا محالة وإن تأجل، وأن للظلم وللظالم نهاية محتومة في انتظاره.

ويمكن أن تحافظ الشعوب والأُمم على نفسها وتصون حضاراتها بتنظيم حياتها الاجتماعية، لتسير الأُمور بسياقاتها الصحيحة. إن آهات المظلومين التي تنطلق من قلب متصدع لظلامة تلحق به أقوى عند الله من صولات الظالم، مهما كانت إمكاناته وفرصه ومواقعه. فالشعب الذي يرزح تحت الظلم لابد من أن يتخلص

١٥ . الكهف: ٥٩.

يوماً من الظلم، والظالم لا يمكن أن يبقى ويستمر، وسياقات الظلم هي سياقات بعيدة عن الفطرة الإنسانية، قد تطول سنة أو سنتين، أو عشرا أوعشرين، ولكنها ستنهار، وكم رأينا من امبراطوريات عظمى بُنيت على أساس الظلم وسرعان ما انهارت وتفككت.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾(١٦). أي حينما يظلمون نهلكهم، فالهلاك بالظلم. وهذه الآيات تشير بوضوح إلى ضرورة التصدي وتحمل المسؤولية في إدارة الحياة الاجتماعية.

السادسة: الآيات الآمرة بالجهاد والتصدي

وهناك أيضاً العديد من الآيات القرآنية الشريفة التي جاءت لتأمر بالجهاد والتصدي لدفع الظلم والوقوف بوجه الظلم، وهي تشير بوضوح إلى أهمية وضرورة التصدي لتنظيم الحياة الاجتماعية وتقويم المسارات وتصحيح الانحرافات.

منها: قوله تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾(١٧).

فقد تضمنت الفقرة الأُولى من الآية الكريمة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾، أي بسبب تعرضهم للظلم أُذن لهم بالقتال والتصدي وتحمل المسؤولية والمواجهة، فحينما يتعرض الإنسان إلى الظلم لا ينبغي أن يخضع ويركع، وينبغي أن يندفع للمواجهة، ولا يقبل بالظلم، وألا يعتذر بأعذار واهية؛ مثل أخاف أن أتكلم ويكتب عني المخبر السري تقريراً، أو أخاف أن أتكلم بقضية فأجد أمامي مائة قنبلة موقوتة في داخل الدائرة أو الوزارة أو المكان الذي أعمل

١٦ . القصص: ٥٩.
١٧ . الحج: ٣٩ ـ ٤١ .

فيه. كلا، فحينما نستسلم من أجل الحفاظ على قضايا بسيطة نفرط بقضايا كبيرة، وحينئذ ستضيع القضايا الصغيرة والكبيرة معاً، فيجب علينا أن نقف وندافع ونحصن أنفسنا بالقانون.

لا تتراجعوا أيها العراقيون، وارفعوا رؤوسكم، ودافعوا عن بلدكم، ودافعوا عن القانون، ودافعوا عن الدستور، ودافعوا عن حقوقكم، وستجدون الكثير ممن ينصركم في هذا الحق ويدافع عنكم، فلا يمكن أن نخضع أو نركع أو نقبل بأي تهديدات وأي ضغوط من شأنها أن تحول هذه التجربة الفتية إلى تجربة ظالمة لنفسها.

وأشارت الفقرة الاُولى من الآية الثانية من المقطع القرآني السابق: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، إلى أن الحق هو الأساس في تحديد الموقف، فأي موقف يبنى على أساس الحق ندافع عنه، ونتمحور حوله، ونقف معه. وأي خطوة ليست بحق وعلى خلاف الحق فسنقف بوجهها ولا نرتضيها.

وأشارت الفقرة الأخيرة من الآية الثانية:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ إلى أن الله عز وجل ينصر من يقف معه وينصره ويدافع عن الحق. فلا تخشوا أحداً ولا تقلقوا فإن الله معكم مادمتم مع الحق.

وأشارت الآية الثالثة من المقطع القرآني أعلاه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ إلى الفئة التي اُتيحت لها فرصة تسلم الدور القيادي في المجتمع، وتحمل مسؤوليتها في كل المستويات، ومنها التصدي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقويم الاُمور ووضعها في السياق الصحيح، ما يضعها أمام مسؤولية كبيرة وخطيرة.

ومنها: قوله تعالى:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(١٨). فالهدف من إرسال الرسل وبعثة الأنبياء وإنزال الكتاب والميزان معهم هو إقامة العدل والقسط. وفي قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى بعث الأنبياء وأنزل معهم الكتاب والميزان لكي ينطلق

١٨. الحديد: ٢٥.

الناس ويتحملوا مسؤولياتهم في المشاركة الواعية في تقويم الانحراف وتحقيق العدالة الاجتماعية انطلاقاً من هدي الأنبياء، وهذه نسميها المشاركة السياسية. وهي تعني المشاركة الواسعة للناس وتحمل أعبائهم على ضوء هدي الأنبياء عليهم السلام.

وهكذا نجد عدداً من الآيات الشريفة التي جعلت التزكية هدفاً للأنبياء عليهم السلام، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[١٩]. فالتزكية هدف من أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام. ويجب على الناس أن يتعاونوا بعضهم مع البعض الآخر حتى يحققوا المجتمع القيمي الذي يعتمد على القيم والمثل والمبادئ، الذي تتحمل فيه الناس المسؤولية؛ إذ لا يمكن أن يكون المجتمع قيميا ولا تشيع فيه القيم النبيلة، إلا حينما ترص الصفوف ويتحملون مسؤولياتهم في بناء الحياة الاجتماعية على أُسس صحيحة وقوية.

إن جميع هذه الآيات والنصوص الشرعية واضحة البيان في أهمية التصدي وأهمية تحمل المسؤولية، ولا مجال لأحد أن يلتمس العذر وأن يتخلف عن أداء واجباته ومهامه في أي موقع من مواقع المسؤولية.

كيفية تحقيق أهداف الأُمة

إن مفهوم القيادة في الإسلام هي نقل الناس مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه، أي توجيه الناس إلى ما فيه مصالحهم وإرضاء طموحاتهم وأحلامهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف نحقق للناس وللأُمة ما يطمحون إليه؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نعرف أن عملية القيادة هي إدارة المجتمع باتجاه تحقيق مصالح الناس، ولهذا لا يمكن حصر الدور القيادي برجل واحد وموقع واحد، وإنما هي سلسلة من الحلقات والمفاصل والمواقع التي يكمل بعضها بعضاً، لتشكل المنظومة القيادية في المجتمع. وعليه فإن كل إنسان مهما كانت مهمته ووظيفته الاجتماعية متواضعة يمكن أن يمارس دوراً قيادياً في إدارة عمله حينما ينجزه على أفضل وجه، وحينما يحقق أقصى حالات الطموح في ذلك العمل الخاص للموقع

١٩. الجمعة: ٢.

الذي هو فيه. وهكذا فإن العمل مهما كان متواضعاً فإن صاحبه يمارس دوراً قيادياً.

التعريف بشخصية مالك الأشتر وخصائص القيادة

لابد لنا قبل الخوض في تفاصيل هذا العهد، من أن نقف عند مالك الأشتر، الذي خصه أمير المؤمنين عليه السلام بهذا العهد، الذي اختزل فيه النظرية الإسلامية في مهمة أوفده بها لحكم مصر. فمن هو مالك؟ وما خصوصيات مالك؟ وكيف جسد أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه هذه النظرية في تطبيقاتها العملية حينما أوفده في هذه المهمة؟.

إن الوقوف عند شخصية مالك سيشير إلى طبيعة العلاقة في المنظومة القيادية بين القائد الأعلى والقيادات الوسطية. كما أن الوقوف عند خصوصيات مالك ورؤيته تجاه علي عليه السلام ورؤية علي عليه السلام تجاهه، يشير إلى الخصائص والمميزات والمواصفات الذاتية والموضوعية التي يجب أن تتوافر في من يتصدى للمواقع القيادية.

ولد مالك في اليمن قبل البعثة النبوية الشريفة بفترة وجيزة، من قبيلة نخع، وهي قبيلة عربية أصيلة، ثم انتقل إلى العراق وأقام في الكوفة. وقد عاصر رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنه لم يلتق به ولم يسمع حديثه، وبالتالي لم يصنف من الصحابة، واعتبر من التابعين؛ لأنه لم يتشرف بلقاء رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرةً، ولكن النصوص التأريخية تشير إلى أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال في حقه:«إنه لمؤمن حقاً»[٢٠]. وهذه شهادة كبيرة من رسول الله صلى الله عليه وآله بحق مالك الأشتر. ووصفه بالمؤمن حقاً يعني أنه يتميز بالمرتبة الحقيقية للإيمان، وفرق كبير بين من يدعي الإيمان وبين من يكون مؤمناً حقيقياً، وحينما يشهد رسول الله صلى الله عليه وآله لمالك الأشتر بالإيمان الحقيقي فهذا يعني أن هذا الرجل كان يتصف بالمراتب العالية من التقوى والورع التي ينبغي أن تتوافر في المؤمن.

وهذا يكشف أيضاً عن أن مالك الأشتر لم يكن رجلاً نكرةً أو مجهولاً حتى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بالرغم من فتوته وشبابه، وأن خبره كان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين حتى طرح اسمه وجرى الحديث عنه في مجلس شارك به المسلمون وحضره رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢٠ . أعيان الشيعة ٩: ٤١.

وقد ورد في خصاله في الوثائق التأريخية وفي كتب التأريخ أنه:

«الكريم المغدق»، أي أنه ذو كرم وسخاء، وكان يعطي بكثرة مما كان يمتلكه للآخرين، وهذه من الصفات المهمة التي ينبغي أن تتوافر في القيادة.

«والشجاع الفتاك»، أي أنه لم يكن شجاعاً فحسب، بل كان فائق الشجاعة، وكان حينما يبرز في الحروب يصول ويجول فيها ويوقع بالعدو أفدح الخسائر.

«والخطيب القدير»، أي كان خطيباً مفوهاً، يهيمن على سامعيه ويبعث فيهم روح الحماسة.

«والشاعر الصوال»، أي كان شاعراً بليغاً، ينظم الشعر متى أراد، وفي شتى أبواب الشعر.

وهذا التعريف يكشف عن تنوع في شخصية مالك، إذ من الممكن أن يكون شخص رجل حرب وقائداً عسكرياً محترفاً، ويكون آخر أديباً شاعراً، ويكون ثالث اجتماعياً كريم النفس يحسن التواصل مع الناس، ولكن من خلال هذه الأوصاف يتبين أن شخصية مالك الأشتر كانت جامعة مانعة، أي يتوافر فيه هذا التنوع في الخصال الحميدة، سواء في المجال القيادي أو العسكري أو الاجتماعي أو الخصال الذاتية، إذ كان في كل هذه الأُمور رجلاً مميزاً ومتألقاً.

وقد لُقب بالأشتر ـ والأشتر لغة من الشتر، والشتر هو الاختلال الذي يحصل في العين لسبب ما ـ لأنه كان من المقاتلين الأشداء الذين وقفوا وذبوا عن الإسلام فأصيب بعينه في إحدى المعارك. وقد اختلف المؤرخون في المعركة التي أُصيب فيها، ورجح بعضهم أن ذلك كان في معركة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، حيث أصابته ضربة سيف فشج رأسه وأصاب السيف عينه أيضاً، فحصل فيها نوع من الاختلال فأُطلق عليه الأشتر. وهو وسام شرف للتصدي ولتحمل المسؤولية وللقتال ببسالة دفاعاً عن الإسلام وعن الرسالة الإسلامية.

وكانت له أدوار مهمة في حروب الردة، فقد دخلت مجاميع كبيرة من الناس في الإسلام بعد فتح مكة، ولكن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتخلف المهاجرين والأنصار عن الإمامة وتحول الخلافة النبوية إلى ملك عضوض، نشطت حركات

أدعياء النبوات الكاذبة التي كانت موجودة منذ حياة رسول الله ﷺ واستقطبت مجموعة من القبائل طمعاً في السلطة والسيطرة، وبدؤوا يشكلون خطراً على نفوذ الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية مما اضطر المسلمين إلى خوض حروب معها لإخضاعها، وسُميت هذه الحروب بحروب الردة. وكان لمالك أيضاً حضور مهم ولافت في معركة اليرموك، وكان له دور مميز في القادسية وفي غيرها من الحروب التي شهدها المسلمون في صدر الإسلام.

ولكننا حينما نقف لنقيم موقف مالك الأشتر تجاه أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ينبغي أن نستشف ذلك من خلال النصوص، فحينما نذهب لزيارة الأئمة الأطهار عليهم السلام نجد بعض النصوص، مثل: «من زاره عارفاً بحقه دخل الجنة»[٢١]، والعارف بحق الإمام هو العارف بمنزلة الإمام، هذا في الزيارة فكيف في الموقف والنصرة! ولقد كان مالك الأشتر عارفاً بمنزلة علي عليه السلام، وكان متفهماً لدور علي عليه السلام، ولم يكتف بهذه المعرفة وإنما كان يبينها للآخرين.

وهذه خصوصية مهمة للمنظومة القيادية، وهي ربط الناس بالقائد، فقد عمل مالك الأشتر جاهداً لتثقيف المسلمين على حقانية علي عليه السلام وعلى منزلة علي عليه السلام وعلى صفات علي عليه السلام؛ لأن الناس غير متساوين في إدراك هذه الحقائق. وقد لا يكون الكثير من الناس على احتكاك بالقيادة بشكل مباشر، فهذه المسؤولية يتحملها القادة في المنظومة القيادية وعلى كل المستويات، بدءا من الإنسان العادي الذي يمارس دور التصدي إلى أعلى المستويات. فالجميع يعرف بعضهم بعضاً منزلة القيادة ويؤازر بعضهم بعضاً.

ولما بويع علي عليه السلام لخلافة المسلمين قال مالك الأشتر وهو يرى أن مسؤوليته هي ربط الناس بعلي عليه السلام: «أيها الناس هذا وصي الأوصياء، ووارث علم الأنبياء، العظيم البلاء، الحسن العناء في أيام الشدة، شهد له كتاب الله بالإيمان، ورسوله بجنة الرضوان، من كملت فيه الفضائل، ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الأواخر ولا الأوائل»[٢٢]، هكذا عرف مالك علياً عليه السلام للناس، فلم يكن علي عليه السلام وصياً فقط،

٢١ . انظر بحار الأنوار ٤٩:٢٨٦ح١٠، ٥٦:١٧٦ح٩، ٩٧: ٢٢٧ح١.
٢٢ . تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٩.

بل هو وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء، وهو العظيم البلاء، فشخصية علي عليه السلام تختزل هموم المجتمع وهموم الأُمة، وهو الحسن العناء حينما تشتد الضغوط وتتبين هنالك قدرات القائد وصبره وحسن تعامله مع المشاكل والصعوبات والمحن والأزمات. وهو الذي شهد له القرآن الكريم بالإيمان، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وآله بجنة الرضوان. وهو من تجسدت فيه الفضائل بأتمها على أكمل وجه. وهو الذي لم يشك في سابقته إلى الإسلام ولا في علمه وفضله أحد من الصحابة والتابعين. فيا أيها الناس اعرفوا من علي عليه السلام، وقفوا إلى جانبه، والتفوا حوله، فهو الوحيد الذي يمتلك هذا التأريخ وهذه الصفات. هكذا كان مالك يربط الناس بقيادة علي عليه السلام.

وفي خطبةٌ أُخرى له كان يستعد فيها للقتال ويشحذ همم المقاتلين الذين يقفون ويدافعون عن المشروع الإلهي، يقول فيها: « معنا ابن عم نبينا، وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب، صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يسبقه إلى الصلاة ذكرٌ حتى كان شيخاً، لم يكن له صبوةٌ، ولا نبوةٌ، ولا هفوةٌ، ولا سقطةٌ، فقيه في دين الله، عالمٌ بحدود الله، وعليكم بالحزم والجد، واعلموا أنكم على حق وأن القوم على باطل»[٢٣]. أي إذا كان النبي صلى الله عليه وآله غائب عنا فابن عمه حاضر بيننا، فاليوم وأنتم تقاتلون تحت راية علي عليه السلام فكأنما تقاتلون تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله. وعلي عليه السلام كان دائماً سباقاً للصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يواظب على أداء الصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى الصلاة والاهتمام بها من سمات القيادة الإسلامية. وهو عالم بالحلال والحرام والواجب والمستحب والحدود الإلهية، ويعلم أين يقدم وأين يتراجع ويتوقف.

وهذه كلها سمات مهمة في القيادة، فالقائد يجب أن يكون عالماً باتخاذ الموقف الصحيح، وليس له أن يأخذ شعبه إلى حروب ويلقي بهم إلى التهلكة دون أن تكون هناك المبررات الكافية. وهو يعرف أيضاً أين يكون الإقدام وأين يكون الإحجام، وأين يرفع صوته وأين يخفضه، وأين يخفض جناحه للآخرين ويتعامل معهم برفق. ومادام عندكم قيادة بهذه المواصفات حاضرة معكم في هذه الحرب، فلا تأخذكم في الله لومة لائم، فالحزم والجد والوقوف مع القيادة واستنفار الطاقات

٢٣ . بحار الأنوار ٣٨: ٣٧١.

وشحذ الهمم هي من السمات والمواصفات التي يجب أن تكون في الأُمة التي تسير خلف قائدٍ تتوافر فيه المواصفات القيادية المطلوبة.

ثم يخاطب مالك الناس يخبرهم بأنهم على الحق وأن القوم على الباطل. ويبدو أن هذه الخطبة كانت في صفين؛ لأن مالك الأشتر كان القيادي الأساسي الذي قاد الحرب في صفين، وهو الذي رشحه الإمام علي عليه السلام للتحكيم، ولكن رفضه من رفضه ورشحوا بدلا منه أبا موسى الأشعري.

وفي صفين يلقي مالك خطبته موضحاً الحقائق الدامغة التي لا تقبل التزييف قائلاً: «إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين، قريبٌ من مئة بدري، سوى ما حولكم من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، أكثر ما كان معكم راياتٌ قد كانت مع رسول الله هذه الرايات، وعدونا مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فمن يشك بقتال هؤلاء إلا ميت القلب، أنتمً على إحدى الحسنيين إما الفتح أو الشهادة. عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه واستغفر الله لي ولكم»[٢٤].

وفي هذه الخطبة يشير مالك إلى مجموعة من الحقائق لبيان أن الإمام علي عليه السلام وجيشه على الحق وأن معاوية وجيشه على الباطل، فيقول هل هناك إشارة أوضح على حقانيتكم من أن هناك مئة شخص قاتلوا في بدر تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله يقاتلون اليوم تحت رُاية علي عليه السلام، فأنتم مع الحق، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا تلتبس عليكم الأمور.

ومن المعروف أن هذه الحروب التي خاضها الإمام علي عليه السلام في الجمل وصفين والنهروان كلها كانت حروب داخل المجتمع الإسلامي بين المسلمين. فكان السؤال الذي تتداوله الألسن: كنا نحارب مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكفار والمشركين، وكانت الحدود واضحة؛ هذا مسلم وذاك مشرك، وأما اليوم فنحن نحارب مسلمين يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم! ومن المعلوم أيضاً أن جيش معاوية في صفين رفع المصاحف بوجه علي عليه السلام ومن معه من المقاتلين. فذكرهم مالك في خطبته

٢٤ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥: ١٩١.

هذه بأن علياًعليه السلام مع الحق، وذكر لهم الشواهد على حقانيتهم، قائلاً: إن الرايات التي معكم اليوم هي نفس الرايات التي كانت مع رسول اللهصلى الله عليه وآله في غزواته، فلا تترددوا ولا تشكوا وقفوا ودافعوا عن الإسلام مع عليعليه السلام، وناصروا القيادة في تحدياتها وفي ما تواجهه من أجل إنقاذ هذه الأُمة.

ثم يذكر شواهد أُخرى على حقانية عليعليه السلام قائلاً: إن عدوكم مع رايات قد كانت بالأمس مع المشركين تقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله، فهذه الرايات التي ترونها اليوم في الجانب الآخر، هي نفسها التي رفعت من قبل المشركين في الغزوات التي حاربوا فيها رسول اللهصلى الله عليه وآله. ومن يشك بقتال جيش معاوية إلا إنسان ميت القلب. فمن لا يرى هذه الحقائق ولا يستطيع تمييز الحق من الباطل لا تكون له القدرة على أن يعرف القائد الذي يأخذ بيد هذه الأُمة إلى بر الأمان، ويخلط بينه وبين من يدعو الناس إلى الهلاك ويفرقهم ويضلهم ويحرفهم.

لاحظوا الوعي والبصيرة التي كان يقدمها مالك الأشتر لهؤلاء المقاتلين مع عليعليه السلام عندما يقول لهم: «أنتم على إحدى الحسنيين إما الفتح أو الشهادة». ففي القاموس الإسلامي لا يوجد شيء اسمه فشل، بل كله ظفر وفتح، إما فتح مادي بأن يتغلب الإنسان على الأعداء أو يستشهد وهي إحدى الحسنيين أن يوفق الإنسان للشهادة في سبيل الله تبارك وتعالى.

ويختم مالك خطابه بالدعاء لنفسه وللمقاتلين في صفوف جيش عليعليه السلام بقوله:«عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه»، وبالفعل فإن الأُمة بحاجة إلى عصمة وإلى حصانة وإلى مناعة لتشخص الحق وتقف معه. والإنسان بحاجة إلى الدعاء دائماً، وخاصة في الأزمات:« اللهم أرني الحق حقاً فاتبعه والباطل باطلاً فاجتنبه»؛ لأن الإنسان بحاجة إلى التمييز بين الحق والباطل، والتمييز بين من يدعو إلى الحق وبين من يدعو إلى الباطل، والتمييز بين القيادة التي تأخذ المجتمع إلى ما فيه صلاحهم وطموحاتهم وبين القيادة التي تأخذ المجتمع إلى ما يتقاطع ويتعارض مع صلاحهم. وهذه مسألة في غاية الأهمية.

هكذا كان مالك الأشتر في تقييمه لعليعليه السلام، وفي حث الناس نحوه، وفي دعوة الناس إليه، وفي ربط الناس به.

مالك رجل المهام الصعبة

كان علي عليه السلام يعرف معادن الرجال، ويعرف من هو مالك، ولذلك كان مالك رجل المهام الصعبة. ففي معركة الجمل نجد مالكاً يقاتل ببسالة وشجاعة قل نظيرها. وعندما انتهى القتال أوفده علي عليه السلام إلى منطقة الجزيرة ليكون والياً عليها، والجزيرة في ذلك الحين كانت تشمل ولاية الموصل بكل توابعها؛ الموصل وسنجار وغيرها من هذه المناطق، أي ما نطلق عليه شمال العراق اليوم، وكان علي عليه السلام يستعد لحرب صفين، إذ أرسل طلائع جيشه إلى صفين وجعل على مقدمتها زياد بن نظير وشريح بن هاني، وفي الطريق اختلفا في ما بينهما، فكان أحدهما يأمر بشيء ويأمر الآخر بنقيضه، وبقي الجيش متحيراً.

وإن من أخطر الأشياء هو حصول عملية التشكيك والتردد والاختلاف داخل المنظومة القيادية، فحينما يختلف القادة في ما بينهم تُرى ماذا سيكون حال الجنود؟ وكيف يمكن أن تدار المعركة؟ ولذلك حصل ضعف كبير وتخلخل في الموقف. وهنا أرسل أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك رجل المهام الصعبة ليأتي ويتحمل هذه المسؤولية.

وحينما كلفه بهذه المهمة، أرسل معه كتابا إلى زياد بن نضير وشريح بن هاني يقول فيه:«وقد أمرت عليكما وعلي من في حيزكما مالك بن الحارث الأشتر فاسمعا له واطيعاه، واجعلاه درعاً ومجناً، فإنه ممن لا يخاف وهنه، ولا سقطته، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»[٢٥]. انظروا ماذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام بحق مالك: لا يصاب بالضعف، فهو صلب قوي شديد، واضح الرؤية. امشوا وراء القوي، فالقيادة يجب أن تكون واضحة، ويجب أن تكون حازمة، ويجب ألا يظهر عليها آثار الضعف والوهن في الشدائد وفي المحن.

وهو أيضاً ممن لا تُخاف سقطته، أي ليس لديه أخطاء قاتلة، ولا اجتهادات في غير محلها، فالقيادة يجب أن تكون واعية، صحيح أن مالكاً غير معصوم، ولكننا نتحدث اليوم عن قيادة غير معصومة، وحينما نقول إن مالكاً ليس عنده سقطات، ولا قرارات انفعالية ومستعجلة وسريعة، فهذا لا ينافي أن تكون السرعة مطلوبة عندما يتطلب

---

٢٥. نهج البلاغة: الرسالة ١٣.

الموقف الإسراع، شرط أن يحزم الإنسان أمره. فمالك لم يكن متباطئاً ولا متسرعاً، بل كان قادراً على أن يتصرف بما يناسب الموقف، فإن تطلب السرعة أسرع، وإن تطلب البطء أبطأ وتريث.

وهذه هي سمات القيادة غير المعصومة، وهي سمات القائد المتمثل بمالك الأشتر بتقييم الإمام علي عليه السلام، وهو تقييم مهم وعظيم بحق مالك الأشتر، فهنيئاً له على ذلك.

وخاض مالك حرب صفين إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام، وكان قائداً على ميمنة الجيش، وكادت الحرب تنتهي بالنصر لولا خدعة رفع المصاحف والدعوه إلى التحكيم التي رفضها أمير المؤمنين عليه السلام ومجموعة من المخلصين معه، واستجاب لها الكم الأكبر من جيشه، وطلب منهم علي عليه السلام أن يعيروه جماجمهم ساعة واحدة فقط ثم يعصوه الدهر كله، ولكنهم رفضوا ذلك، وطلبوا منه أن يسحب مالكا والكتيبة التي تقاتل من ساحة المعركة وأحاطوا به وهددوه بالقتل إن لم يفعل. ثم رشحه الإمام علي عليه السلام للتحكيم، ورفضوا ذلك أيضاً وأصروا على تعيين أبي موسى الأشعري في القصة المعروفة.

وانتهت حرب صفين ورجع مالك إلى مهمته الأُولى في منطقة الجزيرة بتكليف من أمير المؤمنين عليه السلام. وبعد صفين لاحظ معاوية قوة علي عليه السلام، وعلم أنه لو أمهله بعض الوقت فسوف يستثمر هذه المدة ليجيش الجيوش ويعد العدة لحرب أُخرى لاحقة ينهي بها هذه المسألة والإشكاليات التي وجدت بفعل المشاغبات. وهنا قام معاوية بإيجاد العديد من أعمال الشغب، وجهز مجاميع تصول وتغير على البلاد الإسلامية، وكان الهدف من هذه الغارات هو إرباك ومشاغلة الإمام علي عليه السلام عن تحضير الجيش والاستعداد لمواجهته من جديد.

وكان من ضمن هذه الخطة إرسال عمرو بن العاص إلى مصر، وكان محمد بن أبي بكر والياً على مصر من قبل أمير المؤمنين عليه السلام، وكان شاباً يافعاً، وقد اختاره أمير المؤمنين عليه السلام باعتبار أن مصر لم تكن بؤرة للصدام والصراع في تلك المرحلة، ولكن حينما أصبحت ساحة للمواجهة وبدأت الغارات تتوجه إليها من الشام، لاحظ أمير المؤمنين عليه السلام أن قيادة الصراع في مصر تحتاج إلى كفاءة، فجاء دور رجل المهام

الصعبة من جديد، وكان لابد من إرسال مالك الأشتر وتكليفه بهذه المهمة، ليذهب ويقاتل في تلك المعركة الضروس. فأرسل له أمير المؤمنين عليه السلام رسالة ذكر فيها أيضاً تقييماً لمالك، يقول له فيها:

«أما بعد، فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين..»، يامالك أنت الإنسان الذي نستقوي به في اليوم الذي نحتاج فيه إلى خطوة شجاعة في تثبيت دعائم الدين والدفاع عن المشروع الإلهي، فأنت رجل المهام الصعبة.

«واقمع به نخوة الأثيم، وأسد به الثغرة المخوف، وكنت وليت محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلامٌ حدث السن، ليس بذي تجربة للحروب، ولا بمجرب للأشياء، فأقدم عليّ لننظر في ذلك في ما ينبغي..»[٢٦].

المنظومة القيادية

إنه لدرس كبير الذي قدمه الإمام علي عليه السلام في القيادة والإدارة، وهو من هو في علمه وخبرته وعصمته، فهو لم يقل لمالك: تعال حتى أبعثك، بل قال له: أقدم عليّ لننظر ونتدارس الأُمور. وهنا يكمن منهج في صناعة الأدوار القيادية، فمهما كان القائد في أعلى مراتب القيادة، ومهما كان ملماً وكفوءاً وقادراً على اتخاذ القرار الصحيح، ولكن إشراك القيادات الأُخرى في هذه العملية هو جزء من عملية بناء الشخصية القيادية في المنظومة القيادية العامة.

وهذا درس عظيم يقدمه الإمام علي عليه السلام في منظومة القيادة، وهو الشراكة في القرار، والمشورة بالاستفادة من آراء الآخرين، حتى لو كان الإنسان ملماً بقضية ما من كافة جوانبها.

وصايا قيادية

ويوصي أمير المؤمنين عليه السلام مالكاً قبل أن يغادر ولاية الجزيرة إلى ولاية مصر بالوصايا التالية:

---

٢٦ . نهج البلاغة: الرسالة ٤٦.

١. استخلاف أهل الثقة

«..واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك»، أي اجعل أنت على ولاية الجزيرة رجلاً من أصحابك، بشرط أن يكون من أهل الثقة ومن أهل النصيحة، ولا تترك عملك السابق بلا خليفة لك، فنصلح شيئاً ونفسد شيئاً آخر.

٢.الاستعانة بالله وخلط الشدة باللين

«.. واستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدة باللين». فلا يصح اللين وحده ولا الشدة والحزم وحدهما، بل يجب المزج بين اللين والحزم. وهذا منهج الفهم الإسلامي في القيادة والإدارة.

٣.استعمال الرفق

«وارفق ما كان الرفق أبلغ..» ، واستعمل الرفق والكلمة الطيبة في تحقيق مآربك وأهدافك المشروعة وغاياتك النبيلة، ولا تستخدم القوة إلا عند الحاجة إليها. وهذا المنطق الإسلامي الصحيح هو عكس المنطق السائد الذي يقول إن المنظومة القيادية لا تكون لها هيبة إلا بصولات وجولات وشدة ورهبة؛ لأن الناس يجب أن ترتجف خوفاً من المسؤول حتى يكون مسؤولاً.

٤.استعمال الشدة

« واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة»[٢٧]، فهناك صنف من الناس يحملونك على الضعف عندما ترفق بهم، وقد تمر ظروف قاهرة على البلد لا ينفع فيها الرفق، وحينئذ لا محيص من استعمال الشدة والقوة حينما لا يوجد سبيل سواها، فهذا الصنف الذي لا يفيده إلا السيف يجب أن يجد القوة والحزم والضوابط الحازمة والواضحة ليقف عند حده، وإلا افلت زمام الأُمور وتعرضت مصالح الناس إلى الخطر. ولكن عموم الناس لا يحتاجون الى أن تستخدم معهم الشدة، ولا أن توظف سيف القانون ضدهم، بل تساهل مع الناس حينما يمكن أن تعالج الأُمور بالتساهل، وإذا كانت هناك بعض

٢٧. بحار الأنوار ٣٣: ٥٥٣ ح ٧٢١.

الحالات التي تحتاج إلى شدة، يجب أن نكون أشداء. وهذا المنهج يحفظ التوازن.

استشهاد مالك

وعندما تناهى إلى مسامع معاوية إيفاد أمير المؤمنينعليه السلام مالكا الأشتر إلى مصر قلق كثيراً؛ لأنه كان يعرف من هو مالك، فدبر له مكيدة ـ وهذه سمة الجبناء ـ ودس له السم في الطعام وهو في طريقه إلى مصر، فاستشهد مسموماً بمكيدة من معاوية بن أبي سفيان وانتقل إلى رحمة الله تعالى، ولم تتحقق المهمة على يد مالك الأشتر، ولكن بقيت هذه الرسالة المهمة وهذا العهد التأريخي ليعبر عن الفهم الإسلامي والنظرية الإسلامية للقيادة والإدارة.

ولكن اسمعوا إلى ما قاله عليعليه السلام بحقه بعد وفاة مالك مخاطباً محمد بن أبي بكر:« إلا أن الرجل الذي كنت وليته مصر كان رجلاً لنا مناصحاً، وعلى عدونا شديداً، فرحمة الله عليه، وقد استكمل أيامه، ولقي حمامه، ونحن عنه راضون، فرضي الله عنه، وضاعف له الثواب، وأحسن له المآب»[٢٨]. وهذه شهادة من الإمام عليعليه السلام بحق مالك الأشتر.

ونُقل أيضاً أنه حينما أُخبر عليعليه السلام بشهادة مالك الأشتر كان يتلهف ويتأسف عليه ويقول:« مالك! وما مالك! لو كان جبلاً لكان فنداً»، أي لو كان جبلاً لكان مميزاً عن سائر الجبال، « ولو كان حجراً لكان صلداً، لايرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر»[٢٩]. وقالعليه السلام أيضاً:« رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول اللهصلى الله عليه وآله »[٣٠].

وما عساني أن أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق؛ لأسفهم عليه ولفقدهم إياه، فكان ذلك المخلص الذي وقف مع عليعليه السلام وجاهد معه في سبيل الله.

٢٨ . نهج البلاغة: الكتاب ٣٤.
٢٩ . بحار الأنوار ٣٣: ٥٩٢ ح ٧٣٧.
٣٠ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥: ٩٨.

دروس من عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

لمالك الأشتر

المقطع الأول

دور المسؤول في موقع القيادة

يبدأ أمير المؤمنين عليه السلام رسالته التي وجهها إلى مالك الأشتر بقوله: "هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر".

تتضمن هذه العبارة القصيرة مداليل عميقة جداً، وفيها دروس كبيرة في المنهج القيادي الإسلامي، وتشير إلى العديد من المواضيع الأساسية في النظرة إلى القيادة والإدارة.

الدرس الأول

الإدارة من موقع العبودية لله سبحانه وتعالى

وتشير إلى هذا المعنى عبارة:" هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر". ماذا يعني الإمام علي عليه السلام بذكره هذه المفردة وهو يتحدث عن نظرية في الإدارة والقيادة؟ وماذا تعني العبودية لله سبحانه وتعالى؟ وماهي مدخلية العبودية لله في موضوع كهذا الموضوع؟.

لابد لنا من أن نشير إلى أن الخلفية التي يتصدى فيها المتصدون لمسؤولية القيادة والإدارة في كل المواقع وفي كل الأدوار، والدوافع التي تدفع الإنسان ليكون في هذا الموقع أو ذاك، لها تأثيرات كبيرة في مجمل الخطوات التي سيتخذها القائد أو المسؤول حينما يصل إلى هذا الموقع؛ فإن الاجراءات والقرارات والسياسات والسلوكيات وطبيعة التعامل حينما يكون المسؤول مسؤولاً في موقع المسؤولية، تختلف تماماً باختلاف الدوافع والخلفيات التي أوصلته إلى هذا الموقع.

فمثلاً، هل كان هذا الوزير بالأمس أُستاذاً في الجامعة، أو كان إنساناً بسيطاً أو مواطناً في موقع من المواقع الإدارية، وكيف يرى نفسه بينه وبين ربه، وكيف يرى نفسه بينه وبين نفسه، وكيف يقيم دوره، وكيف يرى الموقع الذي هو فيه، وما الانطباعات عن تعامل الناس معه في هذا الموقع، وعن تعامله مع الناس وهو في هذا الموقع، سواء كان هؤلاء الناس عاملين معه في وزارة أو إدارة أو أي مكان آخر، وكيف ينظر إلى الناس وهو جالس على كرسي الوزارة أو الإدارة؟.

فهذا الذي أصبح مديراً أو ملاحظاً أو مديراً عاماً أو وكيلاً أو وزيراً أو رئيساً، حينما يجلس في هذا الموقع، ما انطباعاته عن نفسه، وعن الموقع، وعن الناس الذين يعمل معهم، وعن المواطنين الذين يراجعونه؟ وما توقعاته منهم؟ وما توقعاته من نفسه؟ فهذه الانطباعات تختلف تماماً باختلاف الدوافع والخلفيات التي تدفع الإنسان ليكون في هذا الموقع.

فهناك من يبحث عن الموقع ليحقق حالة التسلط على الآخرين ليحقق الأنا لنفسه،

ويبحث عن دنيا، ويبحث عن وجاهة، ويبحث عن فرص للتاثير، ويبحث ليقول كذا وكذا، ويبحث عن إصدار الأوامر إلى الآخرين، فيلتذ وهو يجد نفسه جالساً على مقعد الرئاسة ليأمر هذا وذاك والجميع يأخذون له تحية ويقولون له نعم سيدي.

وهذه قد تكون دوافع لإنسان يجلس في موقع قيادي، وهذه الخلفية لا ترتبط بمن يكون رئيساً للجمهورية أو رئيساً للوزراء أو وزيراً، فإن أي مسؤول في أي موقع وفي أي مهمة مهما كانت بسيطة، من الممكن أن يصاب بهذا المرض.

فلا يتصور الإنسان حينما نتحدث عن خلفيات من هذا النوع أننا نخص مرحلة من مراحل الإدارة والمسؤولية، بل هذه حالة طبيعية يمكن أن تشمل الجميع، فعلى مستوى الأُسرة نجد الأب يصدر تعليمات للزوجة والأبناء والبنات، وبمجرد أن يدخل بعضهم إلى البيت حتى يتحول إلى جحيم ومعسكر لمجموعة من الأوامر التي يصدرها بحق هذا أو ذاك. وهكذا يمكن أن توجد هذه الحالة عند فرد مقاول أو خلفة معين إلى غير ذلك من مهام، وصولاً إلى المواقع المتقدمة.

إذن، فخلفية الانطباعات والتصورات عن المسؤولية، والدوافع التي تدفع الإنسان إلى سلوك معين في هذا الموقع أو ذاك من تسلط وتحكم وأنا وهوى وحب دنيا ووجاهات، قد تكون خلفية معينة لمن يتصدى. وماذا نتوقع ممن يتصدى للخدمة وهو بهذه الخلفيات؟ لا شك أنه حينما يصل سيتخذ مجموعة من الإجراءات القاسية والتعسفية والقرارات الظالمة والسلوكيات العنجهية التي لا تحترم الآخر، ويعتقد بأن من يعمل تحت أُمرته هو عبد ويتعامل معه تعامل المولى مع العبد وليس تعامل مسؤول مع مرؤوسين يستحقون الاهتمام والرعاية كما هو في الإسلام.

وهناك من ينظر إلى موقع المسؤولية على أنه محطة لهداية الناس وخدمتهم، ومحطة يؤتمن فيها على مصالح الناس، ومحطة يضمن من خلالها حقوق الناس، أيا كان هؤلاء الناس، ومهما كان عددهم، قليلاً أو كبيراً، ويرى نفسه مؤتمناً من قبل الناس لحفظ مصالحهم وتحقيق طموحاتهم وضمان حقوقهم. ومن يأتي بهذه الخلفية ستكون له إجراءات مختلفة عن تلك الإجراءات التي يعتمدها ذلك الآخر.

إذن، فالدوافع والخلفيات لها تأثير كبير في مسار الأداء القيادي على كافة الأصعدة،

وفي جميع المجالات. وعلى ضوء هذه الخلفية نتعرف على السر الذي جعل أمير المؤمنين عليه السلام يقدم مفتاحاً سحرياً لمالك الأشتر من مفاتيح النجاح والتفوق، وهي العبودية لله تعالى. وهي ليست قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بموضوع القيادة والإدارة.

والعبودية لله واستحضار العلاقة بين الإنسان وربه لها الأثر العميق في مجمل السلوك القيادي في كافة المراتب، وعلى جميع الأصعدة. العلاقة بالله سبحانه وتعالى واستحضار العبودية لله جل وعلا تجعل الإنسان المسؤول يمارس علاقة إنسانية، وليست علاقة سلطوية مع غيره من العاملين تحت أُمرته أو مع المواطنين ممن يراجعونه في قضاياهم وهمومهم.

فالدور القيادي يجب أن تتوافر فيه حالة القوة والحزم القيادي، وهذا أمر مطلوب، ولكن هذا الحزم لا يتقاطع ولا يتعارض مع العلاقة الإنسانية التي يبنيها المسؤول في سلسلة المراتب مع من يعمل تحت أُمرته ومن يراجعه في قضية من القضايا. والقوة والحزم لا يعنيان إطلاقاً التجاوز على الآخرين وظلمهم والاستهانة بحقوقهم والإساءة لهم وتحقيرهم وجعلهم ينتظرون خلف الأبواب لساعات طويلة، ويتصور البعض أن هذا من لوازم الموقع، وأن المدير الذي بابه مفتوح للمواطنين يدخلون مباشرة، لا يحترمه أحد. بل ينبغي أن تكون العلاقة علاقة إنسانية، وعلاقة الرحمة والشفقة والمودة والمحبة، وليس فيها تسلط وظلم واعتداء وتجاوز وتطاول على الآخرين.

ولكن المشكلة أننا حينما نتحدث عن عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، نستحضر مباشرة عبودية الإنسان للإنسان وحالة الرق ونعممها على عبودية الإنسان لله سبحانه وتعالى، مع أن هناك فرقا كبيرا بين هاتين العبوديتين، فعبودية الإنسان للإنسان تجعل العبد ملكا لمالكه في كل طاقاته وقدراته ونجاحاته وإمكاناته، ويكون في خدمة مالكه، والمالك يشعر نفسه أنه مالك لهذا الشخص وهو أسير لديه، فتراه يصيح به: لماذا تجلس، لماذا تنام، لماذا تستريح، لماذا لا تتابع هذه القضية أو تلك؟، ويتصور أنه مجرد عبد ويجب عليه أن يوقف نفسه لخدمته، وأن يتوقف عن كل ما يرتبط بكمالاته الخاصة ويسخر وجوده لخدمة المالك، حتى يكون عبداً يحسن العبودية.

ولكن علاقة الإنسان بربه والعبودية لله سبحانه وتعالى مختلفة تماماً، فهي ليست علاقة تجميد، وإنما هي علاقة انطلاق وتكامل، فإن استعمال كلمة "عبد الله" تعني أن هذا الإنسان بقدراته المحدودة يتصل بالقدرة المطلقة، ويتزود من القدرة المطلقة، وينطلق ويتحرك ويندفع بزخم كبير، ثم يبقى هو وظرفه الوجودي وسعته الذاتية وقدراته الشخصية، كم يستطيع أن ينهل ويستفيد من هذا الوجود المطلق ليتكامل.

إذن، العلاقة بالله تعالى هي علاقة تكامل، وعلاقة انطلاق وعلاقة زخم حقيقي وكبير، وعلاقة الإنسان بالإنسان هي علاقة توقف واحتكار وانحصار وأسر لكل الطاقات والامكانات. وهذه المسألة يجب أن نلحظها لنجد أن الفارق كبير جداً بينهما، فعلاقة الإنسان بربه ـ والأمثال تضرب ولا تقاس ـ كعلاقة المتعلم بالمعلم، كلما ازدادت كسب الإنسان من العلم والمعرفة أكثر، وهي علاقة المربي والمربى، كلما اتصل أكثر بالمربي أخذ دروساً أكثر في الحياة، واستفاد أكثر.

فعلاقة الإنسان بربه هي علاقة انطلاق، وعلاقة الإنسان بالإنسان هي علاقة جمود، وفرق كبير بين الجمود والانطلاق.والإنسان الذي يحصل على هذا الشعور ويصل إلى هذا الادراك العميق للعبودية لله سبحانه وتعالى لا يضيع نفسه ولا يفقد توازنه وإن صار زعيماً على الدنيا وما فيها، فإنه يقف ليقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما قيمتي، وبقدرة قادر وبكلمة كن فيكون يمكن أن يزول كل شيء! وما قيمة هذا الملك وهذا السلطان وهذه الملايين من الناس!.

وقد تضمن هذا الدرس مجموعة من الإضاءات، هي:

الإضاءة الاُولى

آداب القيادة

من الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه العبارة الشريفة أيضاً ـ على اختصارها ـ هي أدب القيادة. فالقيادة لها آداب كما لأي دور من الأدوار وأي مهمة من المهمات آدابها الخاصة، فالتعامل مع الآخرين في المواقع المختلفة يتطلب آدابا معينة، والقيادة أيضاً لها آدابها الخاصة بها.

وحينما يقال قيادة، فإن هذا يعني أن هناك قائداً ومنقاداً، مهما كان دور ومساحة

القائد. ولا شك أن هذا الدور يجب أن يحفظ. فإن لم يكن هناك قائد يطاع ومنقادون يطيعون، فلا يمكن أن نتحدث حينئذ عن منظومة قيادية، ولكن بالرغم من وجود طابع الأوامر والمأمورين من ناحية، والطاعة للمأمورين من ناحية أُخرى، إلا أن هناك أدبا لهذه القيادة. وما يميز قائد عن قائد هو هذه الآداب التي يلاحظها ويمارسها.

ولو دققنا النظر في ما يقوله أمير المؤمنينعليه السلام في عبارة:" هذا ما أمر به عبدالله علي أمير المؤمنين"، نلاحظ أنه لم يقل: هذا ما أمرت به، أو هذا ما أمرنا به، بينما نرى أن الرؤساء والمدراء حينما يصدرون تعليماتهم يقولون: نسبنا، أمرنا، وجهنا، وأمثال هذه العبارات وينسبون ذلك لأنفسهم.

ولكن علياًعليه السلام يعطي هنا درساً كبيراً، فلا يقول هذا ما أمرت به مالك بن الحارث الأشتر، بل قال:" ما أمر به عبدالله علي أمير المؤمنين"، فالأمر منسوب إلى الموقع وليس إلى الشخص، وهذه الأوامر ليست أوامر شخصية، وليست نزعات شهوانية، وليست دوافع سلطوية، إنها أوامر تنطلق من منطلقات المصلحة الحقيقية، ولذلك تصدر هذه الأوامر من الموقع وليس من الشخص، فبوصفه أمير المؤمنين أمر أن يحصل كذا وكذا، وليس بوصفي أنا فلان بن فلان آمرك، فليس من دوافع شخصية. وهذه دروس تربوية كبيرة نتلمسها في نهج عليعليه السلام.

إذن، في هذه الطريقة من إيصال التعليمات والأوامر هناك أمر، وهناك دور قيادي، وهناك حزم في ممارسة الدور القيادي، ولكن هناك آداب لهذه القيادة، وعليعليه السلام يربينا ويعلمنا على هذه الآداب في القيادة. وهي تؤكد أن كل ما سيأتي في هذا العهد من توصيات وتعليمات في القيادة والإدارة هي تعليمات يراد منها المصالح العامة، وليس المصلحة الشخصية للقائد، ويراد منها تحقيق النظام الذي به تتحقق الأهداف والغايات في المنظومة القيادية، ولا يراد منها دوافع سلطوية لعليعليه السلام كقائد وفي موقع قيادي.

وهي تؤكد أيضاً أنها توصيات حق، وليست تعبيراً عن طموحات شخصية أو نزوات خاصة لشخص القائد، وهي ليست تسلطا على الآخرين، بقدر ما هي مداخل ومفاتيح لتحقيق النجاح في المنظومة القيادية، وفي الوصول إلى الغايات

المشروعة، فهي مداخل مهمة لنجاح المهمة القيادية، وليست مداخل للتسلط والهيمنة والتحكم بمقدرات الناس.

الإضاءة الثانية

ملاحظة سلسلة المراتب في المنظومة القيادية

ومن الإضاءات الأُخرى في هذه العبارة الشريفة أيضا، هي ملاحظة سلسلة المراتب في المنظومة القيادية، فمما لا شك فيه أن العلاقة في المنظومة العقائدية هي علاقة إنسانية؛ لأنها تنشأ من خلفية العبودية لله سبحانه وتعالى. ومما لا شك فيه أيضاً أنها علاقة تتسم بالآداب العالية، وتستحضر الدور الذي يناط بالموقع، وليس دور الأشخاص وشخصنة العملية. ولكن في الوقت نفسه هناك سلسلة من المراتب في المنظومة القيادية ينبغي ملاحظتها، وإلا لن يبقى حجر على حجر؛ إذ لا يمكن لأي مسؤول أن يقدم أوامر لأي شخص كان، أو ألا يعرف ممن يتلقى الأوامر.

وقد يحصل في بلادنا اليوم في دائرة ما، أن هذا الموظف البسيط تأتيه أوامر وتعليمات من جهات مختلفة؛ هذا يقول له افعل وذاك يقول له لا تفعل، ولا يعرف هل يسمع أوامر الأمانة العامة لرئاسة الوزراء أو الوزير أو الوكيل أو يلتزم بتوصيات المدير العام، فيبقى تائهاً وحائرأ، بسبب عدم مراعاة سلسلة المراتب في المنظومة القيادية، ووجود ثغرة وخلل حقيقي في إدارة العملية وفي تحقيق المهام المرجوة. ولذلك ورد في هذه العبارة :"هذا ما أمر به".

صحيح أن الأمر كان من الموقع وليس من الشخص، ولكن هناك أمر ولا تتحمل القضية مجاملات؛ لأن هناك سلسلة مراتب وآمرا ومأمورا. وقد تضمنت عبارة "هذا ما أمر به عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين مالكا الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر"كلمة"ولاه"، فهناك إذن من يولي، وهناك من يتولى ويتقبل هذه الولاية. وقد تضمنت هذه العبارة القصيرة ثلاث مفردات استخدمت لتأكيد سلسلة المراتب في المنظومة القيادية:

الأُولى: أمر من القائد إلى المنقاد، وعلى سلسلة المراتب الأدنى أن تطيع وأن تستجيب لهذا الأمر.

الثانية: إن هذا الأمر صادر من أمير المؤمنين، وهو هنا علي عليه السلام المعروف بتواضعه وزهده، وهو يصف نفسه بأنه أمير المؤمنين، أي أنا أمير المؤمنين ولابد من أن أُطاع، فهذا الموقع يحكم الارتباط بعلي عليه السلام بوصفه أمير المؤمنين.

الثالثة: أشارت فقرة "حين ولاه مصر" إلى مسألة التولية ومراعاة المراتب، إذ تأتي كشاهد مهم على ضرورة الحفاظ على سلسلة المراتب لتحقيق النتائج في المنظومة القيادية. وهذه في الحقيقة إضاءات يمكن أن نستلهمها من الدرس الأول من دروس علي عليه السلام.

الدرس الثاني

الأهداف العامة للمنظومة القيادية

تضمنت الفقرة الثانية من المقطع الأول من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر درساً جديداً في فن القيادة والإدارة، وهو تحديد الأهداف العامة لقيادة الولايات أو الأقاليم، عليهم الالتزام بها تجاه القيادة المركزية للدولة، وقد حدد أمير المؤمنين عليه السلام أربعة أهداف لمالك حين ولاه مصر، وهي:

الهدف الأول: توفير الإيرادات المالية

يقول عليه السلام: "جباية خراجها" أي جباية ضرائبها، وهذه مهمة أساسية على القيادة الالتفات إليها، فإن أي مشروع قيادي لا تتوافر لديه إيرادات مالية لا يستطيع أن يحقق الأهداف التي يطمح إليها. ولعل هذه المهمة قد وضعت الأُولى من بين الأهداف الأُخرى؛ لأنها تساعد على تحقيق تلك الأهداف، فالمال هو عصب الحياة الذي يقوم عليه عمل الحكومات.

الهدف الثاني: توفير الأمن والدفاع

يقول عليه السلام: "وجهاد عدوها"، أي توفير الأمن للمواطنين والدفاع عن البلد بوجه الاعتداءات الخارجية. وهذا يمثل هدفاً أساسياً من الأهداف العامة لقيادة الولايات.

الهدف الثالث: الإصلاح الاجتماعي

يقول عليه السلام: "واستصلاح أهلها"، أي العمل على تحقيق الإصلاح الاجتماعي والبناء القيمي في المجتمع وإشاعة الثقافة الصحيحة وتعميق الهوية الإسلامية.

الهدف الرابع: التنمية الاقتصادية

يقول عليه السلام: "وعمارة بلادها"، أي العمل على تنمية البلد اقتصادياً، وهو يشمل التنمية الزراعية والصناعية والتجارية وتوفير الخدمات السكنية والصحية والتعليمية وسائر الخدمات الأُخرى.

وهذه هي الأهداف الأربعة الأساسية من أهداف الإدارة والحكم بحسب المنطق الإسلامي ومن منظور الإمام علي عليه السلام.

صلاحية الأهداف الأربعة لقيادة أي مجموعة

ولكن علينا أن نؤكد على أن هذه الأهداف الأربعة، وإن وضعت هدفاً للحكم وإدارة البلاد، ولكنها تصلح كأهداف استراتيجية وأساسية لإدارة وقيادة أي مجموعة وأي منظومة قيادية، بدءاً من أصغر الخلايا القيادية وهي الأُسرة، فإن إدارتها تحتاج إلى هذه الأُمور الأربعة؛ فالأُسرة بحاجة إلى إيرادات مالية لتمرير احتياجاتها، ولابد من عمل ولابد من مداخيل حتى يمكن توفير الأمن لها. والأُسرة بحاجة إلى أن تؤمن البيت وتؤمن الأعضاء في حركتهم وعلاقاتهم وارتباطاتهم إلى غير ذلك، وأن تضع الاحترازات الكافية لكي لا يسرق البيت، ولا يعتدى عليه، ولا يعتدى على الأُسرة من خلال الاجراءات التي تؤخذ في أصغر الخلايا القيادية في المجتمع.

وفي أي مشروع سنحتاج إلى هذه الأهداف الأربعة، كأهداف أساسية واطار عام يتحكم بالمنظومة القيادية في هذه المستويات المختلفة.

ولنقف قليلاً عند هذه الأهداف بشيء من البيان والتفصيل.

الهدف الأول: توفير الإيرادات المالية

فالإيرادات والضرائب للدولة يعتبرها الإمام علي عليه السلام هدفاً أساسياً يجب أن

يمارسه القائد والحاكم في أي دولة، بل وتتنزل إلى كل المشاريع القيادية الأُخرى في المنظومة القيادية، فلابد من تمويل لهذه المشاريع. و تمثل هذه المسألة مدخلاً مهماً لنظام الحكم والإدارة في الفكر الإسلامي، إذ أن تنظيم الموازنة العامة في البلاد، التي هي ضرورة ملحة، يحتاج إلى جباية الضرائب ووضع النظم العادلة لتوفير الإيرادات المالية للدولة، وهو حق مهم من حقوق الدولة.

ولكن الحديث عن الإيرادات وعن الضرائب يستبطن الحديث عن المهمة الأساسية للحكومة، وهي تقديم الخدمات العامة للمواطنين، فهي تأخذ هذه الضرائب لإصلاح حال الناس، ولإحداث عملية التنمية الاقتصادية التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، ولتوفير الخدمات العامة للناس، وتحقيق الرفاه الاجتماعي، والاهتمام بالمصالح العامة، وفتح الطرقات، وتنظيم الشؤون العامة، وتوفير الأمن، فكل ذلك من مسؤوليات الدولة بحسب رؤية الإمام عليعليه السلام.

إذن، تؤخذ الضرائب من قبل الدولة لتأمين الخدمات العامة للمواطنين، وهي مؤشر مهم على المسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الدولة، لا أن تأخذ الضرائب من الناس من دون أن تقدم لهم شيئاً، أو تقدم خدمات قليلة وناقصة وتستحوذ على هذه الأموال لتنفقها على أعضاء الحكومة وتأمين مصالحهم وتوفير الخدمات لهم وسد احتياجاتهم اليومية.

الهدف الثاني: توفير الأمن والدفاع

والمهمة الثانية من المهام التي يذكرها الإمام عليعليه السلام للحكم والحكومة وقيادة البلاد وإدارتها هي مهمة توفير الأمن للمواطنين والدفاع عن البلد ضد الاعتداءات الخارجية. ويوجد اليوم في موضوع الدفاع والأمن لغط كبير، لاسيما في ما يتعلق بقضية الجهاد، ولا سيما في هذه الظروف، إذ أصبح الجهاد مفهوماً أُسيء استعماله بشكل كبير، فأساؤوا إلى سمعة الإسلام والمسلمين في العالم وأصبح يُنظر إلى الجهاد على أنه يمثل سلوكية معينة للانتقام والتشفي من الآخرين وقتل الناس، ولاحظنا البعض ممن يسمي نفسه مجاهداً كيف أصبح يقطع أشلاء الناس على قارعة الطريق!. وحينما سُئل بعضهم لماذا تقتلون الأبرياء، أجابوا بأنهم يريدون تناول الغداء أو العشاء مع

رسول الله صلى الله عليه وآله، وكأنه صاحب مطعم في الجنة، يستقبل في كل ساعة هؤلاء ويقدم لهم وجبات الطعام!، وهذه إساءة عظمى لهذا المفهوم.

الإسلام دين السلام

نلاحظ أن الإمام علي عليه السلام في كلامه الآنف الذكر، يعتبر موضوع الأمن والدفاع وموضوع الجهاد من الركائز الأساسية في القيادة والإدارة، ومن مهام الحاكم؛ لكي تبقى الدولة مصانة ومحترمة. ولذا نود الإشارة إلى أن الإسلام دين السلام، وإنما سُمي إسلاماً لأنه مشتق من السلام. وهو دين التسامح، ودين المحبة، ودين الحوار، ودين المعالجات السلمية للإشكاليات والتحديات. ولا يجوز استخدام السلاح ما دامت هناك فرصة لمعالجة التحديات والأخطار والإشكاليات بالطرق السلمية. وأين هو الإسلام اليوم من هذه السلوكيات الخاطئة التي يعتمدها البعض في استغلال المفاهيم الإسلامية لمطامع شخصية ولأجندة مشبوهة.

فالإسلام لا يتماشى مع استخدام السلاح، إلا حينما تنفد وتنقطع كل الوسائل السلمية للدفاع عن المواطنين، ولذلك نجد التشديد من الله سبحانه وتعالى على صيانة الدماء وحرمة إزهاق الأرواح، حتى نجد أن الله تبارك وتعالى قد ساوى بين قتل إنسان واحد وبين قتل الناس جميعاً، كما في قوله تعالى:﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[٣١]. وهذه هي حرمة الإنسان وحرمة الروح الإنسانية البريئة في القرآن الكريم، حيث يُنظر لها بهذا التشدد الكبير.

وهذا بحد ذاته يكشف عن أن الإنسان بطبعه وذاته ليس مجبولاً على التعدي والتطاول على الآخرين وقتل الأرواح البريئة، بل الإنسان بطبعه مسالم؛ لأن التشريعات تأتي دائماً منسجمة مع الفطرة الإنسانية ومواكبة لمتطلبات الإنسان، وحينما تساوي بين قتل النفس الواحدة وقتل البشرية جمعاء، فهذا يعني أن قتل الإنسان هو خلاف الفطرة وخلاف الطبع السليم.

وكذلك فإن الشعور بالاستعلاء والتطاول على الآخرين، هو مرض أخلاقي يحتاج إلى علاج، ولكن كم نحن بعيدون عن هذا الواقع، فنرى الاهتمام الكبير بالحالات

---

٣١ . المائدة: ٣٢.

المرضية العامة كالأوبئة التي يكون فيها السالم من المرض هو الاستثناء، فنحن نقف دائماً عند الأمراض الجسدية والوباء الجسدي وفايروس إنفلونزا الطيور وفايروس الإنفلونزا الوبائية وما إلى ذلك، ويقلق العالم من الأمرض الجسدية، ولكنه يتغافل عن الأمراض الروحية والنفسية والأخلاقية التي تنخر في عمق وجود الشعوب والأُمم، ولا أحد ينظر ويفكر في معالجتها.

ظهرت الإنفلونزا الوبائية فأنفق العالم مليارات الدولارات على مختبرات علمية وعلى بحوث علمية للوصول إلى مضادات قادرة على أن توقف هذا المرض وتحد من انتشاره، ولكن الأوبئة الأخلاقية كأمراض الهوى والأنانية والعدوان، كم نصرف لها من الجهد والوقت والمال لإصلاحها ؟!. حتى أن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن هذه الأمراض الاجتماعية يتحدث عنها وكأنها حالة عامة، فيقول:﴿وَالْعَصْرِ × إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ × إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٣٢]، فالكلامُ مطلق هنا ويشمل كل إنسان، والخسران يعم الجميع إلا من آمن وعمل صالحاً وتواصى وتربى وبنى.

تحديد وقت الجهاد

هناك إشكالية كبيرة نجدها في واقعنا المعاصر، ألا وهي تحديد الوقت لحلول دور الجهاد. إن دور الجهاد يأتي حينما تستنفد وسائل الإرشاد والتوعية والتثقيف والنصيحة والموعظة والتواصي بالحق والصبر والعمل الصالح وإشاعته في المجتمع أدوارها، وينعدم تأثير كل هذه المضادات، فحينئذ يصل الدور إلى استخدام السلاح والقوة لإيقاف المعتدي عن عدوانه، ويصبح الجهاد حياة للأُمم؛ لأنه سيكون المدخل الوحيد للوقوف أمام من يعتدي على الناس ويقتلهم، إذ ليس الجهاد وسيلة للقتل، بل هو وسيلة للحد من القتل.

فالجهاد هو وسيلة للحياة، وهو مدخل لتحقيق الحرية، وهو مدخل لتحقيق الكرامة الإنسانية. وهذه ثلاثة واجبات ومهمات أساسية للجهاد، وبه تتحقق هذه السمات الثلاث الأساسية. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "إن الجهاد باب من أبواب الجنة"[٣٣]، فهو

٣٢ . العصر: ١ ـ ٣.
٣٣ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

باب من أبواب الجنة لأنه مدخل للحياة ومدخل للحرية ومدخل للكرامة الإنسانية، والمجاهد هو الذي يضحي بنفسه من أجل أن يعيش الآخرون، ورسالة المجاهد هي رسالة الحياة وليست رسالة الموت. ويزعم البعض أن سيد المجاهدين الإمام الحسين عليه السلام علمنا كيف نموت، ولكن الواقع ليس كذلك، فإنه علمنا كيف نعيش وكيف نضحي ليعيش الآخرون، ورسالة الحسين عليه السلام هي رسالة الحياة وليست رسالة الموت، ورسالة البناء وليست رسالة الهدم، ورسالة إحياء النفوس وليست رسالة إزهاق الأرواح.

المقطع الثاني

المعايير الخلقية للشخصية القيادية

قال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: " امره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه الكريم من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه".

ينتقل أمير المؤمنين عليه السلام بعد الحديث عن الأهداف الكلية للمنظومة القيادية إلى الحديث عن موضوع أساسي آخر يعتبر المدخل لنجاح أي عمل قيادي.

في هذا المقطع من هذا العهد المبارك يأمر الإمام علي عليه السلام مالك الأشتر بتقوى الله عز وجل، وقد مر شرح كلمة "أمره " في الدرس الأول، وأنه لم يقل له أمرتك، وأن ذلك من أدب القيادة، إذ لم ينسب الأمر إلى نفسه، بل نسبه إلى الموقع باعتباره أميراً للمؤمنين، لكي لا تشخصن القضايا.

وأول ما يأمر به أمير المؤمنين عليه السلام ولاته، هو تقوى الله تبارك وتعالى، أي أن يجعل الله تعالى نصب عينيه في كل صغيرة وكبيرة، وذلك يستلزم أن يؤثر طاعة الله تعالى على طاعة غيره، ولذا قال له بعدها مباشرة "وإيثار طاعته". وإيثار طاعة الله تعالى يعني تقديم طاعته سبحانه على طاعة هواه وعلى أي طاعة اُخرى.

ثم يأمره باتباع ما أمر به الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم. والاتباع هو الالتزام بأوامر الله سبحانه وتعالى في الفرائض والسنن، فيأتي بالواجبات والمستحبات، وينتهي عن المحرمات والمكروهات، وهذا الالتزام هو مصدر السعادة الدنيوية والاُخروية، كما أن إنكارها وإضاعتها وعدم الالتزام بها مصدر الشقاء في الدنيا والآخرة.

وفي الفقرة الأخيرة من هذا المقطع، يطلب أمير المؤمنين عليه السلام من مالك الوالي الجديد

على مصر أن ينصر الله سبحانه، لأن ذلك مقدمة لنصر الله سبحانه له، فإن من يريد النصر من الله، عليه أولاً أن ينصر الله، قال تعالى:﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣٤].

وطلب منه أن ينصر الله بجميع جوارحه، بقلبه ويده ولسانه؛ لأنه حاكم مبسوط اليد ومخول باستعمال الوسائل الإعلامية والقوة العسكرية لنصرة دين الله سبحانه. يذكر الإمام علي عليه السلام ثلاث وسائل لتوثيق العلاقة بين الإنسان وخالقه، وهي:

أولاً: تقوى الله.

ثانياً: إيثار طاعته سبحانه، أي أن يقدم طاعة الله سبحانه وتعالى على كل طاعة.

ثالثاً: اتباع ما أمر به الله تعالى في كتابه الكريم من فرائضه وسننه.

ولو طبقت هذه الوسائل الثلاث لاستطاع الإنسان من خلالها أن يصلح علاقته مع الله سبحانه وتعالى. وهذه هي الركائز الثلاث الأساسية في بناء الشخصية القيادية في المنظور الإسلامي.

٣٤ . محمد : ٧.

الدرس الثالث

التقوى

التقوى لغة: الاتقاء، واتقى الشيء: وضع سوراً يحجب ويمنع من وقوع هذا الشيء، واتقاها: منعها ودفعها.

والتقوى اصطلاحاً: هو السور الذي يسور الإنسان من الوقوع في الحرام والرذيلة والمعصية، أجارنا الله وإياكم.

والتقوى هي حق الله على العباد، فهو الذي خلقنا ومنحنا كل شيء وتنعم علينا بنعم كبيرة، وفي مقابل ذلك أراد منا أن نلتزم ونتقي ونحافظ على الأُطر والموازين الشرعية التي أرادها وقدرها.

وهذا الحق يمثل المدخل والعنصر الأساس في تطوير وتعميم وترسيخ علاقة الإنسان مع ربه. فأُولى الخطوات وأهمها هي التقوى، ومن يريد أن ينفتح على الله تبارك وتعالى لابد له من أن يكون من أهل التقوى.

إذن، المدخل هو التقوى، وهي الركيزة الأساسية لبناء علاقة الإنسان مع ربه، وإذا حصلت التقوى تحصل حالة الاستقرار والطمأنينة والثبات والإصرار على الموقف والشعور بالقوة والعزة والمنعة؛ لأن الإنسان حينما يتصل بالله سبحانه وتعالى تتوافر لديه هذه المقومات التي تحفظ الإنسان من الوقوع في الخطأ، فالنظر إلى الحرام مثلاً قد يكون شيئاً ممتعاً، ولكن ما الذي يدفع الإنسان لترك النظر إلى الحرام؟، حينما يكون الإنسان قوياً وعزيزاً وكبيراً لا يكون مستعداً أن يصغر ويذل نفسه أمام المعصية، وسيرى نفسه أكبر من أن يقع فريسة لنظرة محرمة أو سماع كلمة محرمة.

وعندما نقول التقوى هي السور، وهي الصيانة، وهي المناعة، نتساءل كيف تحصل المناعة؟، إنها تحصل حينما يشعر الإنسان نفسه أنه أكبر من أن يقع في الرذيلة، فينزه نفسه عن أن ينظر إلى حرام أو يسمع إلى حرام أو ينطق بكلمة حرام أو يخطو خطوة إلى حرام، فالتقوى تبعد الإنسان عن الهوى.

وإذا كان هذا الإنسان البسيط يقع أمام مثل هذه التحديات، فكيف الأمر بالإنسان القيادي الذي يقف له الناس إجلالاً واحتراماً، ويخاطبونه بألفاظ التبجيل والاحترام؟!.

أتدرون ما تفعل هذه الكلمات في أعصاب الإنسان غير المحصن بالتقوى حينما يجلس على هذا الكرسي الدوار، والمكتب الطويل، والناس تقف خائفة خلف الباب لا تعرف ماذا تتكلم، أتدرون ما الشعور الذي يشعر به مثل هذا الإنسان؟.. إنه يضيع نفسه، وتتعزز فيه الأنا والهوى وحب الذات، فلا يرى إلا نفسه ولا يرى الآخرين، ولا يفكر إلا بنفسه، ويريد من الجميع أن يكونوا في خدمته.

ولو قيل له: إن هذا الموظف أو العامل أو الجندي الذي يعمل تحت امرتك ليس عبداً لك، بل هو أخوك وظفته الدولة لكي تتعاونوا في إنجاز التكاليف الملقاة على عواتقكم تجاه الوطن؛ لا يأبه لذلك وكأنه غير معني بهذا الكلام، ولا يود سماع أي كلمة يمكن أن تحول بينه وبين حب الأنا وتركيز الذات.

لا تنس نفسك أيها المسؤول والقيادي، مهما كانت مواقعك القيادية، واعلم بأنك لا يمكن أن تكون في موقع تسيء فيه إلى الآخرين وتتجاوز على حقوقهم، واعلم أن هذه المواقع تأتي وتذهب، وأن ما يبقى هو علاقة الإنسان مع الآخرين ونظرة الإنسان لنفسه.

انظروا إلى ما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "أُوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها حق الله عليكم"، أي أن حق الله على عباده هو أن يتقوه ويلتزموا بأوامره ونواهيه. "والموجبة على الله حقكم"، أي عندما تصبحون ملتزمين سيكون لكم حق على الله تعالى، فالإنسان المطيع الملتزم له حق على الله في أن يثيبه ويعطيه ويعالج مشاكله ويصلح له أمر دنياه ويحسن صورته أمام الناس وجميع الآثار الدنيوية والأُخروية. "وأن تستعينوا عليها بالله"، أي لا تتصوروا أن التقوى تحصل بالمجان، بل تحتاج إلى استمداد العون من الله سبحانه. "وتستعين بها على الله"، أي تستعينون بالتقوى على أداء فرائض الله، ولا تتصوروا أنكم تستطيعون من غير تقوى أن تؤدوا هذه الفرائض.

إذن كلما كان عندك ملكة في أن تطيعه أكثر، أصبح حقك أكبر على الله سبحانه، فالقضية متبادلة بين الطرفين، مزيد من التقوى يؤدي إلى مزيد من النجاح، والأشد التزاماً يعني قرباً متزايداً من الله سبحانه وتعالى.

"وأن تستعينوا عليها (على التقوى) بالله، وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم (في الدنيا) الحرز والجُنة (الوقاية)، وفي غد (يوم القيامة) الطريق إلى الجنة، مسلكها(طريق التقوى) واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ" فالتقوى مخزن تحفظ ما يستودع فيها.

والتقوى تؤدي إلى عزة الإنسان؛ لأنه يتصل بالعزيز المطلق، يقول الإمام علي عليه السلام: "التقوى تجل والفجور يذل"[٣٥]، فالذلة في الفجور والعزة في التقوى.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: "لا عزة أعز من التقوى"[٣٦]، فهي عز ليس فوقه عز.

أصناف التقوى

ينبغي التميز بين صنفين من التقوى:

الأُولى: التقوى الشخصية، ويراد منها التحكم بمسارات الإنسان وخطواته في ما يرتبط بحياته الشخصية. وتشمل الأحكام الإلهية من الواجبات والمحرمات التي يجب على الإنسان إطاعتها، كأحكام: لا تنظر إلى الحرام، لا تسمع الحرام، لا تنطق بالحرام، هذا واجب يجب عليك أن تفعله، ذاك حرام عليك ان تتجنبه وتبتعد عنه. إن عملية التحكم بسلوك الإنسان في حياته الشخصية تسمى بالتقوى الشخصية.

الثانية: التقوى السياسية، وهي التي تتحكم بالدور القيادي لمن يتصدى إلى المسؤولية ويتحمل المسؤولية، في أي مستوى من مستويات التصدي. فتتحكم بسلوك الدور القيادي والأداء القيادي بالشكل الذي ينسجم مع الحياة الاجتماعية للإنسان وتصدياته العامة.

إذن، التقوى الشخصية ناظرة إلى الحياة الخاصة للإنسان، وكيف يتعامل في حياته الخاصة، بأن يكون عادلاً ومنصفاً ومتسامحاً ولا يعتدي ولا يتطاول على الآخرين

٣٥ . عيون الحكم والمواعظ: ٣٤.
٣٦ . نهج البلاغة : الحكمة ٣٧١.

في حياته الشخصية. وأما التقوى السياسية فهي ناظرة إلى السلوك المطلوب من الإنسان في الحياة الاجتماعية.

وبما أن تأثير التقوى السياسية تأثير عام، فهي أهم وأصعب وأخطر من التقوى الشخصية. إن مسألة أن يكون الإنسان في حركته الخاصة منسجماً مع ما يريد الله سبحانه هي مسألة صعبة، ولكن يمكن أن تتحقق، فإن أخطأ الإنسان كان ضرر ذلك عليه، وإن أحسن كان خيره له.

ولكن التقوى السياسية ضررها على المجتمع بأسره إذا لم يتق الله سبحانه بهذه التقوى، ونفعها على المجتمع على مساحة معينة حسب مستويات التصدي للقيادة، فالوزير إذا كان متقيا بالتقوى السياسية يكون تأثيره الإيجابي في كل العاملين في وزارته بشكل خاص وفي الدولة بشكل عام، والمدير العام تكون دائرة تأثيره أضيق، وربّ الأُسرة تكون مساحة تأثيره في القرارات التي يتخذها لهذه الأُسرة. وهكذا يتسع تأثير التقوى السياسية أو يضيق بحسب مستويات التصدي، ومهما توسعت أو تضيقت تبقى هذه التقوى السياسية مرتبطة بالحياة الاجتماعية وليس الحياة الشخصية للإنسان.

ولذلك نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام حينما يتحدث عن المنظومة القيادية وعن النجاح في الدور القيادي، يقف عند خصيصة التقوى؛ لأن الإنسان في مواقع المسؤولية وفي موقع الخدمة العامة، إذا لم يراع التقوى السياسية فإنه سيصاب بهوس السلطة وشهوة القدرة والنفوذ والتأثير والفتك بالآخرين، حتى يقول: أنا موجود والقرار بيدي، وأنا من أقول، وأنا من أفعل، وتتجلى الأنا بأوضح صورها وتتجسد في ذلك القيادي الذي يبتعد عن التقوى السياسية.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم تطرق إلى التقوى السياسية، كما تطرق إلى التقوى الشخصية، فهناك ثلاث وخمسون آية في القرآن جاءت لتستنكر حالة الاستكبار والطغيان حينما تحصل عند الإنسان وهو يمارس الإدارة والقيادة في مجالاتها المختلفة، كقوله تعالى:﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى × أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٣٧] حينما

٣٧ . العلق: ٦-٧.

يصاب بحالة الاستغناء والشعور بالقدرة يبتلى بالطغيان والاستكبار وتجاوز الحدود ويصاب بهوس السلطة، وحينئذ يتحول إلى وحش يهلك العباد ويدمر البلاد من حيث لا يشعر، ولا يكترث لأي شيء، ولا يهمه إلا نفسه.

وحينما يتحدث القرآن الكريم عن فرعون يستعرض الحالة الفرعونية، ففرعون إنسان مثل باقي البشر، ولكن حينما ثنيت له الوسادة وبدأت الأُمور تأخذ مدياتها شيئاً فشيئاً قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾[٣٨]، وبدأ يتعامل من موقع السلطة ويفرض رؤيته وقناعته ويعتبر أن حياة الناس بيده.

وهكذا كان يتعامل فرعوننا المعاصر صدام مع الشعب العراقي، فهو رجل ولد في منطقة قروية، حاله كحال أي إنسان غيره من أبناء القرى، وكانت لديه ملكة معينة ودوافع شريرة، ويمكن أن توجد هذه الدوافع عند كثير من الناس. قال أحدهم مرة: كثير من البشر عندهم صدام صغير، وحينما يخرج من القمقم وتتاح له الفرصة يتحول إلى صدام ثان.

فلا تتصوروا أن صدام نادرة من نوادر التأريخ، بل هو حالة إنسانية يمكن أن تتكرر عند غيره، حينما تنثني له الوسادة ويلتزمه الآخرون ويصفقون له سيتحول بالتدريج إلى شخص يعتقد بأنه أكبر من الجميع، وله قدرات تفوق ما يتمتع به الآخرون، والحقيقة ليست كذلك.

وهذه مسألة نجد آثارها العميقة في الحياة الاجتماعية حينما يبتعد الإنسان عن التقوى السياسية، فيصاب بكل هذه الآفات والأمراض والأخطار والإشكاليات. وكلما التزم بالتقوى السياسية كان قادراً على أن يمسك لجاج نفسه، ويتغلب على هواه ويسيطر على مشاعره ويتخذ القرار الصحيح، ويتحمل الآخرين حتى لو اختلفوا معه في الرأي.

ولهذه الاعتبارات نجد التأكيد الكبير على التقوى السياسية في ثقافتنا الدينية، كما في قوله تعالى:﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٣٩]، فمن لا يريد العلو، ومن لا يريد الفساد والإفساد، ومن

٣٨ . النازعات: ٢٤.
٣٩ . القصص: ٨٣.

يراعي التقوى السياسية، يجعل الله تعالى له الدار الآخرة، يحظى فيها بالسعادة الأبدية.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من أمّ القوم إمامة عمياء وفي الأُمة من هو أعلم منه فقد كفر"[٤٠]، وقال صلى الله عليه وآله: «من ضرب الناس بسيفه ودعاهم إلى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف»[٤١]، فمن الكفر والضلال أن يتقدم الجاهل على العالم.

إن مشكلتنا اليوم في العراق هي وجود الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب، وهي تطبيق دقيق للحديث الشريف المتقدم، وهي من أجلى مصاديق الخيانة بحق الأُمة.

ومن أجل القضاء على هذه المشكلة يجب المبادرة إلى تشكيل لجنة من أهل الأمانة والاختصاص، تتولى إعادة تقييم مسؤولي الدولة في مختلف المستويات وعلى مختلف الأصعدة الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، وأن تنتهي هذه المحاصصة الحزبية المقيتة والأثرة العائلية والعشائرية والمناطقية التي جرّت على البلد الويلات.

ويكون ابن الرئيس وابن المواطن البسيط على حد سواء، وننظر إلى الناس على حسب قدراتهم وكفاءتهم، بغض النظر عن أن يكون من الحزب الفلاني أو المنطقة الفلانية، ولنضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وحينئذ ستنقلب حالة البلد رأساً على عقب، بنفس الإمكانات ونفس الرجال ونفس الضوابط، تضع الرجل المناسب في المكان المناسب فقط.

إن المشكلة فينا وليست في إسلامنا، فلماذا لا نلتزم بهذه الرؤية القيادية الواضحة التي يقدمها الإسلام عبر القرآن الكريم والسنة الشريفة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، التي تعتبر من يتصدى لمنصب قيادي وهناك من هو أكفأ منه خائناً.

---

٤٠ . بحار الأنوار ٢٢: ٤٨٧ ح٣١.
٤١ . الكافي ٥: ٣٧ ح١.

ومع أن أحداً لا يتوقع أن يأتي من هو في موقع مدير عام مثلاً إلى الوزير، ويطلب منه تعيين موظف عنده في الدائرة مديراً عاماً بدلاً منه لأنه أكفأ منه، ولكن لو فعل ذلك، فإنه سيكبر في عين الله سبحانه وتعالى وفي عين الوزير وفي عين الموظفين. ولكن على الوزير لو علم بذلك أن يصحح الاختيار ويعين ذلك الموظف مديراً عاماً.

إنها ثقافة اختيار الأصلح والأكفأ لإدارة أُمور الناس. ويجب أن نقضي على الثقافة الخاطئة التي يسعى الجميع في ظلالها الى أن يكونوا في الصدارة، لأنه تجاوز للثقافة الإسلامية والفهم الإسلامي في إدارة المنظومة القيادية.

يقول الإمام الكاظم عليه السلام: « ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرق رعاتها بأضر في دين المسلم من طلب الرئاسة»[٤٢]، أي أن الضرر الذي يدخل على دين من يطلب الرئاسة وليس مؤهلاً لها، أشد من ضرر الذئب الضاري على قطيع من الغنم ليس له راع.

فيا أيها المتدافعون على السلطة، وأيها الطامحون إلى المواقع القيادية، انظروا في أنفسكم، وانظروا إلى هذه الثقافة، وحافظوا على دينكم وعلى آخرتكم، وانظروا هل أنتم مؤهلون لأن تكونوا في هذه المواقع؟، وإذا لم تكونوا كذلك فاعطوا الفرصة لغيركم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ملعون من ترأس، ملعون من هم بها، ملعون من حدث بها نفسه»[٤٣]، وهنا يلعن الإمام الصادق عليه السلام من يتصدى للرئاسة وهو ليس أهلاً لها. ثم يتنزل ويلعن أيضاً من يخطط لها ويكيد ويتآمر ويلتف على هذا وذاك حتى يصل إليها وهو ليس أهلاً لها. ثم يتنزل أكثر ويلعن أيضاً من يفكر بالرئاسة.

ومعنى ذلك ألا يضع المؤمن أفكاره بهذه القضية، لكي لا يختزل البلد والمشروع كله في حالة معينة وتصور معين وموقع معين، فإن الأُمور لا تكون بهذه الطريقة، وعليه أن ينظر إلى المسائل في اطارها الأوسع بنظرة موضوعية. وهذه بالحقيقة هي الخطوة الأُولى في إصلاح العلاقة بين الإنسان وربه، والتقوى في بعدها الشخصي والتقوى في بعدها السياسي هي الخطوة الثانية.

---

٤٢ . الكافي ٢: ٢٩٧ ح١.
٤٣ . الكافي ٢: ٢٩٨ ح٤.

وهناك إضاءة يمكن استفادتها من هذا الدرس الذي يقدمه أمير المؤمنين(عليه السلام) في الإدارة والقيادة.

أهمية إصلاح علاقة العبد مع ربه

ما أهمية العلاقة بين العبد وخالقه، وكيف يستطيع الإنسان إصلاح علاقته مع الله تعالى، وكيف يستطيع تطوير هذه العلاقة؟.

إن العلاقة بين العبد وخالقه هي المفتاح والمدخل للنجاح، ومن يريد أن يكون ناجحاً في أي عمل وفي أي مهمة وفي أي موقع، عليه أولاً أن يبدأ بإصلاح علاقته مع الله سبحانه وتعالى، فإنها سر النجاح وركيزة التوفيق وبداية الانطلاق ومفتاح التقدم وبلوغ الغايات والأهداف.

وكلما زادت علاقة الإنسان مع ربه، ارتبط بالقوي المطلق، فيزيده ذلك قوة وتماسكاً وتلاحماً وثباتاً وإصراراً وقدرة على مواجهة الأخطار والتحديات.

يقول أمير المؤمنين(عليه السلام): «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه»[٤٤]، فمن يُرد أن يحبه الناس وتتحسن علاقته مع أُسرته وجيرانه وزملائه في العمل ويكون محبوباً في المجتمع، فليكن أداؤه مميزاً وليصلح سريرته مع الله سبحانه وتعالى.

ولإصلاح النية مع الله تبارك وتعالى آثار غريبة في المجتمع، فنشاهد مثلاً مطعماً بنفس المواصفات الموجودة في المطاعم الأُخرى، ولكن نرى زبائنه أكثر، مع أن أسعارهما واحدة، ويمكن أن تكون خدماته أقل ومكانه ليس على شارع تقصده الناس، وكذا نرى قصاباً يبيع اللحم تزدحم عليه الناس مع وجود آخرين في المنطقة ينتظرون من يشتري منهم، مع أن جودة اللحم واحدة وأسعاره متساوية.

ونرى خطيباً تهوى إليه القلوب وتقصده الناس لسماع خطبه، مع أن هناك خطباء آخرين لا يحظون إلا بحضور قليل، وربما كانت معلوماتهم أفضل وأصواتهم

٤٤ . نهج البلاغة: الحكمة ٨٩.

أجمل. وهكذا لو راجع كل واحد منا نفسه، فسيرى كثيراً من الناس محطاً لأنظار الآخرين مع أن جهدهم لا يتميز عن الآخرين.

والسر في ذلك أن هناك شيئاً اسمه البركة والتوفيق. وهذه قضايا معنوية وغيبية ولكننا نجدها في كل مكان، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يتم حجته على عباده من خلال هذه المظاهر والنماذج الظاهرة للعيان، ويريد أن يعرف الناس أن له سبحانه وحده القول الفصل في هذه الأُمور.

ومن الأمثلة التي تضرب لبيان معنى البركة، هي المقارنة بين عدد الكلاب وعدد الأغنام، فالكلاب مع أن مدة حملها أقصر، وإنجابها في كل حمل يتجاوز الخمسة أو الستة، ولكن أعدادها أقل من الأغنام التي تكون مدة الحمل فيها تسعة أشهر، وإنجابها في كل حمل واحدا وأحياناً تنجب توأماً، كما أن الذبح فيها مستمر، ويفترض بحسب المقاييس المادية أن يكون عددها أقل، ولكن ما اكثر أن نرى قطيعاً من الغنم ولا نرى قطيعاً من الكلاب، وعندما سئل الإمام عليه السلام عن تفسير ذلك لخصها بكلمة واحدة، وهي أن الله تعالى جعل البركة في الغنم ولم يجعلها في الكلاب.

وتناولت الجملة الثانية من كلام أمير المؤمنين عليه السلام المتقدم «ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله أمر دنياه» مسألة تأثير العمل للآخرة في إصلاح أمر الدنيا، فمن يُرد أن تسير دنياه سيراً جيداً، فعليه بإصلاح شأن آخرته.

وقد يشكو البعض قائلاً إن الدنيا تسير علي عكس ما يشتهي، فيخرج مثلاً لإنجاز عمل ما فيتعرقل ذلك العمل وتتعقد عليه الامور، وربما مر كل واحد منا بهذه الحالة في حياته، فيرى كل شيء في يوم ما، من الصباح إلى الليل، يسير بالعكس، وفي يوم آخر تسير الأُمور وفقاً لما يريد. فلماذا تعقدت في ذلك اليوم، ولماذا سارت بسهولة في اليوم الآخر؟.

إن لله سبحانه وتعالى تقديرات لخلقه لا نعرفها، أخبرنا عن بعضها أهل البيت عليهم السلام، منها أن من يصلح أمر آخرته يصلح الله سبحانه له أمر دنياه. وهذا وعد إلهي جرى

على لسان وليه الإمام علي عليه السلام. وهنالك الكثير من الآيات والروايات التي دلت على هذا المعنى.

إن على الإنسان القائد وفي كل المستويات القيادية أن يصلح سريرته وعلاقته مع الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان الذي علاقته مع الله تعالى علاقة مربكة مضطرب ومهزوم من داخله، قال تعالى:﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٤٥]. فالاستقرار والسكينة والاطمئنان تأتي بذكر الله عز وجل، وحينما يبتعد الإنسان عن الله تعالى، يعيش حالة الاضطراب والضياع، ولذلك نسمع في وسائل الإعلام بين فترة وأُخرى أن الملياردير الفلاني انتحر.

وقد ذكرت الصحف خبراً أن أُستاذة جامعية لها من العمر أربعون عاماً رمت بنفسها من الطابق الثالث، فلماذا تنتحر استاذة جامعية وهي ليست في سن متقدمة وعندها وجاهة ومنصب؟ وأين تكمن المشكلة؟ إن الإنسان إذا كان خائفاً ومهزوماً وضعيفاً من الداخل كيف له أن يحقق الاستقرار وأن يعطي القوة للآخرين؟!، في حين أن الشخصية القيادية هي الشخصية التي تمنح القوة للآخرين في المساحة التي تتحرك فيها، ومن هو فارغ ومهزوم من الداخل كيف يستطيع أن يعطي القوة للآخرين «وفاقد الشيء لا يعطيه»؟.

إذن، العلاقة مع الله سبحانه تجعل الإنسان مستقراً ومطمئناً وثابتاً وقوياً وصلباً، وستنعكس هذه الصلابة والقوة على أدائه الخارجي وعلى سلوكه. فالعبودية لله سبحانه وتعالى تجعل الإنسان قادراً على أن يتجاوز كل المحن والصعاب التي تقف بوجهه في تحديات الحياة الكبيرة، والعبودية لله سبحانه تجعل الإنسان قادراً على أن يضبط أعصابه ويمسك زمام نفسه أمام الهوى والانحراف والشهوات والميول التي تأخذ بالإنسان إلى طريق الضلال والضياع، وتبعده عن الطريق الصحيح. فتارة يمثل الإنسان نفسه، فإذا ضل انحرف وحده، ولكن الشخص القيادي ـ في أي مستوى قيادي كان ـ إذا انحرف ضلت أُمة من الناس معه.

---

٤٥ . الرعد: ٢٨.

يقول الإمام علي عليه السلام: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله امر دنياه، ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس»[٤٦]، أي بادر إلى إصلاح سريرتك وانظر كيف يشيع الله تعالى ذكرك الطيب بين الناس، واضبط التزاماتك الدينية وانظر كيف يرتب الله تعالى لك الدنيا. وأحسن نيتك في ما بينك وبين الله تعالى وأنظر كيف يحسن الله تعالى ما بينك وبين الناس.

إذن إصلاح العلاقة بين الإنسان وربه هي السر الأساسي ومفتاح النجاح لأي شخصية قيادية تتصدى لأي مهمة من المهام.

الدرس الرابع

إيثار الطاعة

ثم ينتقل أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن أمره بالتقوى إلى بيان الخصيصة الأُخرى التي ينبغي أن تتوافر في من يتصدى للقيادة بقوله: «وإيثار طاعته»، أي أن يقدم طاعة الله سبحانه وتعالى على كل طاعة، وفي كل خطوة، بل في كل حركة وسكنة وقول وفكرة، فيطبق هذه الخطوة والحركة على مسطرة، ثم يعرضها على هذه المسطرة ليرى هل تنسجم مع طاعة الله سبحانه.

إذن قضية تقديم طاعة الله سبحانه، على ما سواه يحتاج إليها المتصدون لمواقع الخدمة العامة، فمن يتصدى للخدمة عليه أن يستذكر هذه الحالة وتكون لديه قناعة في نفسه بها.

لقد حكم صدام ثلاثة وثلاثين عاماً، وأقحم العراق في أزمات كبيرة، ومر العراق في ظل حكمه بسلسلة من الهزائم، ولكن لم نسمعه يعتذر إلى الشعب العراقي ولو لمرة واحدة، بل على العكس من ذلك، نراه يطبل بالنصر بعد كل هزيمة.

٤٦ . نهج البلاغة: الحكمة ٤٢٣.

وهذا هو ديدن الأنظمة الشمولية، فلم نسمع يوماً ديكتاتوراً يعتذر الى شعبه عن خطأ ارتكبه، مهما كان ذلك الخطأ فادحاً. إنها حالة الاعتداد بالذات والاعتداد بالنفس.

ونحن اليوم في العراق الجديد، وبعد سبع سنوات من التجربة الديمقراطية، لم نسمع يوماً مسؤولاً يقف ويعتذر الى الشعب، بل كل المؤتمرات تتحدث عن الانتصارات والانجازات. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا نحن لسنا بخير ونعيش الأمرين؟ ولماذا لا تحسون بما في قلب المواطن من محنة وألم نتيجة هذا الفساد الذي زكمت رائحته الأُنوف؟.

إنها حالة الاعتداد بالذات التي تدعو الإنسان الى أن يبتعد عن جادة الصواب. ولذلك فإن إيثار طاعة الله عز وجل وتقديمها في كل خطوة مسألة يحتاج إليها الإنسان حينما يتصدى إلى مواقع القيادة والإدارة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٤٧] ، أي تحرم طاعة أي إنسان ـ مهما كان ذلك الإنسان ـ في أي قول أو عمل فيه معصية لله عز وجل. ولا ينفع ما يتذرع به البعض حينما يرتكب ما يعصي به الله عز وجل بأن المأمور معذور!، فالجندي أو الموظف أو أي مرؤوس آخر ليس بمعذور حينما يطيع ما يأمره به مسؤوله ورئيسه بفعل يخالف ما أمر به الله عز وجل.

وعندما يسأل الضابط الذي ضرب القنابل الكيمياوية على أبناء الشعب وقتل ستة آلاف إنسان في ثوان معدودات، يقول: المأُمور معذور!، من قال لك يجب عليك أن تمتثل الأوامرحينما تكون هناك إبادة جماعية للمواطنين؟!، لا تجب طاعة أي أمر عسكري فيه معصية لله عز وجل، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي المحاكم التي أُقيمت يقف أعتى المجرمين ليقول بكل بساطة: أنا غير نادم لأني نفذت أمراً عسكرياً. ولكن من قال لك ان الأمر العسكري يجب أن ينفذ حتى لو كان فيه فتك بالناس وبطش وإبادة جماعية وإزهاق للأرواح، لماذا لم تقدم استقالتك وترفض تحمل هذه المسؤولية ؟.

---

٤٧ . نهج البلاغة: الحكمة ١٦٥.

وهناك رواية لطيفة عن علي عليه السلام أنه قال:« بعث رسول الله صلى الله عليه وآله سرية واستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، ولما كان ذات يوم غضب عليهم، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وآله أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا حطباً. فجمعوه، فقال لهم: أضرموا ناراً. ففعلوا، فقال لهم: ادخلوها. فهموا بذلك، ثم جعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون، إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من النار! فما زالوا كذلك حتى خمدت النار وسكن غضب الرجل. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: لو دخلوها لما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنما الطاعة في المعروف»[٤٨].

إن أمر أي مسؤول هو في دائرة صلاحياته بما يحقق مصالح العباد والبلاد، وليس في الاتجاهات الأُخرى أو في معصية الله سبحانه، فلا طاعة في معصية الله. إن الطاعة في المعروف، فتطاع القرارات السليمة وتمتثل ويلتزم بها، وأما القرارات التي فيها معصية لله فلا يجوز اطاعتها، وهذه ثقافة مهمة.

يقول الإمام علي عليه السلام في الرسالة التي أعطاها لمحمد بن أبي بكر حينما ولاه مصر:« اعلم يا محمد بن أبي بكر اني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر»، وهذه شهادة منه عليه السلام بحق المصريين. «فأنت محقوق أن تخالف على نفسك»، هذا حقك عليك أن تخالف هواك وأن تخالف نفسك ولا تطيع شهواتك. «وأن تنافح عن دينك»، أي أن تحرص وتحمي دينك. «ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر»، أي لو بقيت لك ساعة من الدهر لا يحق لك أن تقع في المعصية، ويجب عليك أن تحمي نفسك.

ولكن ترون بعض عوام الناس لو قيل له: لماذا فعلت هذه المعصية؟ يقول: ساعة لنفسك وساعة لربك. فهو يفسر الساعة التي لنفسه بجواز ارتكاب المحرمات والمعاصي، فهذه الساعة له يفعل فيها ما يفعل، ثم يقول في الساعة التي لله: استغفر الله ربي وأتوب إليه!.

لا يوجد لدينا ثقافة كهذه في الإسلام، بل كل ساعاتنا لربنا، وعلينا أن نكون في طاعة ربنا حتى لو بقي من الدهر ساعة. «ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه»،

٤٨ . مستدرك الوسائل ١٣: ١٤٢ح١.

أي ولا تغضب رب العالمين لكي يرضى عنك فلان من الناس. «فإن في الله خلفاً من غيره»، أي إذا أرضيت الله تعالى فهو يهون غضب الآخرين وسخطهم عليك. «وليس من الله خلف في غيره»[٤٩]، أي، إن الله إذا غضب عليك لم يكن هناك شيء يعوض غضبه، فغضب الناس يعوض برضا الله، ولكن غضب الله لا يعوض برضا الناس؛ إذ لا فائدة برضا الناس عنك والله سبحانه غاضب عليك.

إن إيثار الطاعة ـ أي تقديم طاعة الله على طاعة الآخرين ـ لا يقصد منه تقديم الطاعة في موارد الوجوب المنصوص عليها، أي، إذا دخل وقت الصلاة فلا ينبغي للإنسان أن يشغل نفسه بشيء آخر، بل يجب عليه أن يؤدي الصلاة، وإذا دخل شهر رمضان فعلى الإنسان المطيع لله ألا ينشغل بقضية أُخرى، ويقدم الصيام على أي شيء آخر..وهكذا. فالمسألة ليست محصورة بهذه الدائرة وهذا الاطار، وإنما هي في اطار أوسع.

ولقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إن كل حركة وسكنة وقول وفعل وأداء وموقف وسلوك يريد أن يأتي به الإنسان يجب أن يخضع للموازين والأُطر الشرعية، فمثلاً إذا أراد النظر إلى شيء يجب عليه أن يفكر أولاً، هل النظر إلى هذا الشيء جائز أو لا؟، بمعنى هل يرضى به الله تعالى أو لا سمح الله سيجلب غضبه سبحانه؟، وهكذا في كل قول وفي كل خطوة يجب أن يستحضر رضا الله سبحانه وتعالى أو عدم رضاه، وحينها يشعر الإنسان أنه يعيش في محضر الربوبية في كل لحظة وفي كل حركة وفي كل سكنة. وهذه الحالة تجعل الإنسان إنساناً إلهياً، وإنساناً رسالياً يعيش الأمل ويعيش الثقة ويستشعر القوة لارتباطه بالقوي المطلق.

وقد جاءت النصوص لتؤكد هذا الموضوع، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ × لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٥٠]، أي ليس صلاته فقط، وليس نسكه فقط، بل محياه ومماته وكل وجوده هو لله سبحانه وتعالى. ففي كل خطوة وكلمة وموقف يرى الله سبحانه

٤٩ . نهج البلاغة: الرسالة ٢١.
٥٠ .الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

وتعالى قبله وفيه وبعده، فإذا كان منسجماً مع إرادة الله مضى فيه، وإن لم يكن منسجماً توقف.

الشرك الجلي والشرك الخفي

الشرك الجلي: هو اتخاذ آلهة غير الله سبحانه وتعالى، وهو أوضح مصاديق الشرك الذي يعبر عنه في علم الكلام بالشرك الجلي، فمن يعبد آلهة غير الله أو آلهة مع الله يكون مشركاً بالله سبحانه وتعالى.

والشرك الخفي: وهو أخطر وأعظم من الشرك الجلي، ويمثل رسول الله صلى الله عليه وآله الشرك الخفي بأنه كالنملة السوداء التي تمشي على صخرة صماء في ليلة ظلماء، كيف يخفى أمرها على الإنسان، إذ من الصعوبة جداً أن تُرى هذه النملة، وهكذا هو الشرك الخفي.

مثلاً يقال لشخص: لماذا تذهب إلى المكان الفلاني، فيجيب أُريد أن أستفيد، وهذا ظاهر المسألة، ولكن يمكن أن يوجد في قلبه شيء آخر؛ ربما تريد أن يراك المدير الفلاني أو تريد أن تراه، أو غير ذلك من القضايا التي يمكن أن تدخل على الخط فتفسد الأجر والثواب. وهذا حال الإنسان وهو ذاهب إلى المسجد لأداء الصلاة، وفي أوضح صورة من صور العبادة، فما بالك في الأُمور الأُخرى؟!.

إن ثقافتنا في الحقيقة ثقافة ملوثة في الكثير مما يمكن أن يقترب من الشرك الخفي، حتى أن بعض المفردات وبعض العبارات التي أصبحت مألوفة جداً هي من هذا القبيل، مثل العبارة التي نقولها لشخص حينما نراه: مشتاقون، فهل نحن مشتاقون فعلاً ونحن لم نذكره ولم نسأل عنه عندما كان مريضاً في الفراش لمدة شهرين؟!. وأمثال ذلك كثير.

ومن أمثلة الشرك الخفي أننا نقوم احتراماً للشخص الوجيه المتدين إذا دخل مجلساً عاماً ونعطيه مكاننا، بينما لا نفعل مثل ذلك مع المتدين الذي لا وجاهة له في المجتمع، ويتبين من ذلك أننا لم نفعل ذلك لتدينه بل لوجاهته، وأننا لم نحترمه لأنه مؤمن، بل احترمنا ذاتنا ومصلحتنا، ووجدنا في الاحترام والاهتمام بذلك الشخص أنه يمكن أن يحقق لنا مصلحة معينة.

وهكذا لو بدأنا من هذه القضايا البسيطة وصولاً إلى القضايا الكبيرة جداً في حياتنا الشخصية والاجتماعية نجد الكثير من ذلك في علاقاتنا، مما نتداوله ونتحدث به. إنها ثقافة قد تطبعنا بها وسارت فينا مسرى الدم في العروق.

وهكذا نلاحظ أن عملية الشرك الخفي وإدخال قضايا لا يراد منها القربة إلى الله تعالى والوصول إليه، تشوب كثيرا من مواقفنا وسلوكنا وأدائنا وعلاقاتنا وأوضاعنا. وهذا يتقاطع مع المراتب العالية لإيثار الطاعة، وتقديم طاعة الله تبارك وتعالى على طاعة الآخرين.

ونقرأ في دعاء كميل هذه الفقرة:«يارب أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة»، أي، اللهم اجعل أعمالي ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، باتجاه واحد وهو ذكرك يا الله، فهو الذي يعمر النفوس والقلوب والأوقات، ويجب أن يكون ذكر الله تعالى حاضراً في كل آن. والسؤال كيف يمكن للإنسان أن يوجد هذه الحالة في نفسه؟.

ثم يواصل الدعاء: «وأعمالي عندك مقبولة»، أي واجعل كل أعمالي عندك مقبولة يا رب العالمين ، ولكن كيف يتسنى للإنسان أن يجعل كل أعماله مطابقة لإرادة الله تعالى ومشيئته، بحيث تكون كلها مقبولة، حتى حينما يذهب ويتنزه، ينوي بهذه النزهة الترويح عن نفسه لكي يقوى على طاعة الله تعالى وخدمة عباده، وحينما يأكل ينوي بهذا الطعام أن يتقوى على طاعة الله تعالى وخدمة عباده، فيكون تناول ذلك الطعام عبادة، والنزهة عبادة، والمزحة عبادة، والجلوس مع الأهل عبادة، ومداعبة أطفاله عبادة. لاحظوا هذه الثقافة التي يقدمها الإسلام إلى الإنسان.

ويستمر أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه قائلاً:«حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً»، وكم هي عجيبة هذه الفقرة من دعاء كميل، إذ كيف يمكن أن تكون أعماله وأوراده كلها عملاً واحداً وورداً واحداً، وكيف يمكن أن تكون الصلاة مع الطعام في اتجاه واحد، وكيف يمكن أن يكون النوم والراحة والاستراحة والعبادة والطاعة وتلاوة القرآن وذكر الله كلها في اتجاه واحد؟.

والإجابة: يمكن كل ذلك حينما تكون الخلفية خلفية واحدة، وحينما يكون ذكر الله

ومرضاته هما الأساس الذي يتحكم بكل أعمالنا وأفعالنا، فطعامنا عبادة وشرابنا عبادة وراحتنا عبادة وعبادتنا عبادة، وهذه هي أعلى مراتب العبادة.

ثم يقول عليه السلام: «وحالي في خدمتك سرمداً»، إن الهدف من خلقة الإنسان بحسب الآيات والروايات هو الكمال والوصول إلى القرب من الله سبحانه وتعالى. فإذا استطاع الإنسان أن يكيف سلوكه وأداءه، وأن يكون في مواقفه مندفعاً بدوافع إلهية، يكون بذلك قد حقق الكمال لنفسه وحقق الغرض والهدف الأساس من خلقته في كل خطوة، وفي كل كلمة، وفي كل فكرة تدور في نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٥١].

فالطاعة والعبادة والمعرفة والتوجه نحو الله سبحانه وتعالى هي الهدف، فكيف يجعل الإنسان كل أعماله وأوراده ورداً واحداً؟، وهذا هو السؤال الكبير، وهذا هو التحدي الخطير الذي يواجه الإنسان.

إن لقاء الله سبحانه هو الهدف الذي يجب أن يسعى إليه الإنسان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٥٢]، فلقاء الله تبارك وتعالى هو المغنم وهو الهدف في كل قول وفي كل حركة، لكي يستطيع الفوز برضوان الله تبارك وتعالى، يقول عز من قائل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٥٣]، كيف نجعل رضا الله سبحانه وتعالى هو الهدف والغاية في كل سلوكنا وتحركنا ومواقفنا؟ وهذا في الحقيقة هو جوهر ما يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الموجب والسبب الأساسي من أسباب إصلاح علاقة الإنسان مع خالقه.

---

٥١ . الذاريات: ٥٦.
٥٢ . الكهف: ١١٠.
٥٣ . التوبة: ٧٣.

الدرس الخامس

اتباع الأوامر الإلهية

والركيزة الثالثة من مستلزمات إصلاح العلاقة بين الإنسان وربه، هي ما أشار إليه أمير المؤمنينعليه السلام بقوله:«واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه»، أي الرجوع إلى القرآن الكريم، فهو المرجعية التي تحدد الاطار الصحيح في العلاقات الإنسانية، وهو الذي يحدد طبيعة العلاقة وينظم هذه العلاقة في المنظومة القيادية.

وإذا ما تجاوزنا الأُطر التي يشير إليها القرآن الكريم وتساهلنا وتغافلنا عن السياقات التي يحددها، فحينئذ سنبتعد ونشذ عن الطريق. فالقرآن هو الذي يحدد الواجبات في هذه العلاقة، ويحدد الآداب وأخلاقية العلاقة في المنظومة القيادية، وعلينا أن نتمسك بهذه الواجبات والآداب والأخلاق. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٥٤)، فمن يريد سلوك الطريق الأقوم والأصح عليه التمسك بالقرآن الكريم وبالأُطر والسياقات القرآنية.

وعن عليعليه السلام قال: «لا يسعد أحد إلا بإقامة حدود الله»(٥٥)، فلا يتصور أحد أنه إذا تجاوز حدود الله سبحانه أنه سيكون سعيداً. إن من الممكن أن يحصل الإنسان على المنصب والجاه الذي يريده، وقد ينال المال والإمكانات التي يطمح إليها، ولكنه لا يستطيع الحصول على السعادة القلبية؛ لأنها لا تحصل إلا بذكر الله تعالى، يقول عز من قائل:﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٥٦).

فلا يمكن أن يشعر الإنسان بالسعادة حتى إذا كانت الناس كلها تطيعه وتسير وراءه؛ لأن علاقته بالله ليست ضمن اطارها الصحيح. إذن، فالالتزام بحدود الله تعالى التي يشير إليها القرآن الكريم، هو المدخل الصحيح لتحقيق السعادة.

وفي رواية أُخرى عن أمير المؤمنينعليه السلام يقول: «لا يسعد أحد إلا باقامة حدود الله، ولا يشقى أحد إلا باضاعتها»(٥٧)، وهذا هو الفيصل بين السعادة والشقاء. نسمع

---

٥٤ . الإسراء: ٩.

٥٥ . غرر الحكم ٢: ٣٦٤.

٥٦ . الرعد: ٢٨.

٥٧ . غرر الحكم ٢: ٨٥٢.

اليوم أن أولاد أصحاب المليارات ينتحرون، مع أن لديهم إمكانات هائلة من القصور والسيارات الحديثة، ولديهم كل شيء يريدونه. فلماذا يفعلون ذلك؟، إن من الخطأ بمكان، أن نتصور أن السعادة والراحة تحصلان بالمال، فالمال يمكن أن يوفر الراحة، لكن ليس بمفرده حينما ينفق في اتجاهه الصحيح.

ونلاحظ في الحالة الإنسانية أن أشد المجتمعات كآبة وترديا في الوضع النفسي اليوم هي المجتمعات الغربية، مع أنها أفضل المجتمعات من الناحية الاقتصادية والإمكانات ومن ناحية الرفاهية، فهي تتمتع بدخل قومي مرتفع جداً، ولكن الحصيلة هي الكآبة والأمراض النفسية والمشاكل الاجتماعية ونسبة الطلاق المرتفعة جداً والأزمة الخانقة في العلاقات مع الآخرين والخيانة في كل شيء والتجاوز والتطاول في كل شيء.

لقد حصلوا على المال ولكنهم لم يحصلوا على الراحة والسعادة والنوم في راحة والجلوس مع أُناس يحبونهم ويدافعون عنهم ويتحسسون معاناتهم. هذه هي الحياة في المدنية الغربية؛ ليس لها طعم، فليست الحياة طعاما وشرابا، فالبهيمة أيضاً تأكل وتشرب. إذن ما فرقنا عنها، إذا أردنا أن نختزل وجودنا في الطعام والشراب والقضايا المادية، فهذه يمارسها غيرنا من الكائنات الحية أيضاً، فالحيوانات والنباتات جميعاً تأكل وتشرب وتنمو، فما هو فرقنا عنها؟.

إن الفرق يكمن في أن الإنسان يمتلك أبعاداً معنوية وتأثرات نفسية وروحية ومشاعرية، فالإنسان ليس لحما ودما فقط، ومن لا يلاحظ الجوانب الأُخرى ويضع السياقات الصحيحة للتعامل معها، سوف لن يشعر بالسعادة مهما كانت إمكاناته المادية كبيرة. وهذا درس عظيم نأخذه من علي عليه السلام.

إذن، فإصلاح العلاقة بين الإنسان وربه تستوجب هذه المسائل الثلاث : تقوى الله، وتقديم طاعته على أي طاعة، والرجوع إلى كتابه القرآن الكريم واتباع ما ورد فيه من تعليمات تنظم العلاقة بين الناس .

طرق توثيق العلاقة مع الله

والجانب الآخر في هذه العبارة القصيرة لأمير المؤمنين عليه السلام هو في بيان سياقات وأوجه تحقيق هذا الصلاح وتوثيق العلاقة بين الإنسان وربه، وبيان مداخل تعزيز هذه العلاقة. يقول عليه السلام: «أن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه»، ومعنى أن ينصر الله تعالى بقلبه أي ينصره بالعقيدة السليمة والرؤية الصحيحة والالتزامات الوثيقة بينه وبين الله سبحانه وتعالى. ومعنى أن ينصر الله تعالى بيده أي بسلوكه، فاليد إشارة إلى السلوك والمواقف، أي أن تكون مواقفه منسجمة مع إرادة الله سبحانه وتعالى. ومعنى أن ينصر الله تعالى بلسانه، أي يكون لسانه ناطقاً بالحق، فلا يتردد ولا يجامل ولا يخاف؛ لأن من كان مع الله سبحانه وتعالى كان الله معه. فهذه هي الأوجه الثلاثة التي يذكرها علي عليه السلام لتعزيز الصلاح بين الإنسان وربه، وهي أن يقول الحق ويدافع عن الحق و ينطق بالحق.

معنى نصرة الله

ماذا تعني نصرة الله؟ هل أن الله تعالى محتاج الى أن ننصره ونقف إلى جانبه وهو الغني المطلق؟ وهل تعني هذه النصرة أن نعين الله، وهل هو محتاج إلى معونتنا؟ بكل تأكيد ليس هذا هو معنى النصرة، فالله تبارك وتعالى ليس فيه نقص لكي يكمل هذا النقص من خلال نصرة عباده له، حاشا لوجهه الكريم أن يكون فيه أي نقص، فهو الكمال المطلق وهو ذو القوة المطلقة، إذن، ماذا تعني نصرة الله، وكيف يمكن أن ننصره؟.

النصرة هي المطابقة والانسجام بين حركة القلب وسلوك اليد واللسان والمشيئة الإلهية. والله تعالى يريد للإنسان السير على الصراط المستقيم، والمشيئة الإلهية هي الأساس وهي الطريق الذي يجب على الإنسان اقتفاء أثره. ومشيئة الله هي أن نطابق أفكارنا وعقيدتنا وسلوكنا وأداءنا وأقوالنا مع المشيئة الإلهية. فنصرة الله إذن هي حالة تكييف الإرادة الإنسانية مع إرادة الله، فما يريده الله تعالى، فنحن أيضاً نريده.

وبهذا حينما نقف وننتصر للمظلوم ونعين الضعيف ونقف مع الناس ونشيع الخير ونصلح الفساد، فإننا نكون قد نصرنا الله تعالى؛ لأن مشيئة الله هي أن تسير الأُمور بهذا الاتجاه. وكذلك حينما نصلح أنفسنا ونزكي أعمالنا ونطهر قلوبنا فهذه هي إرادة الله تعالى أيضاً. فإذا خطونا نحوها نكون قد نصرنا الله بذلك، قال عز من قائل:﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٥٨].

تكييف الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية

وبعد أن تبين معنى النصرة لله تبارك وتعالى، ينتقل البحث إلى كيفية إمكان تكييف الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية، أي كيف نكيف اليد والقلب واللسان مع مشيئة الله سبحانه وتعالى؟.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من أطاع الله علا أمره»[٥٩]، فطاعة الله هي التي تحقق العُلى والرفعة والسمو. والإنسان ينصر الله سبحانه حينما يطيعه، وبذلك يكون قد كيف إرادته مع إرادة الله تعالى. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «من أراد عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، وغنى بلا مال، وطاعة بلا ذل، فليتحول من ذل معصية الله إلى عز طاعته»[٦٠]، في الظروف الاعتيادية يكتسب الإنسان عزته من عشيرته؛ كلما كانت العشيرة أكبر كثر عدد الأشخاص الذين يقفون مع ابن عشيرتهم في ساعة المحنة، ويسير الإنسان وهو يحمل هذا العنوان معه.

ولكن من أراد عزاً بلا عشيرة، فإن الله تعالى يعطيه ذلك بشرط أن يخرج من ذل المعاصي إلى عز الطاعة. ومن أراد أن يكون مهاباً عند الناس من غير أن يكون له سلطان، فإن الناس تهاب صاحب السلطة عادة وتحسب له حساب، فإن الله تعالى يمنحه هذه الهيبة بشرط أن يخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة. ومن أراد أن يكون غنياً من غير أن يملك مالاً؛ لأن المال عادة هو الذي يورث الغنى، فإن الله تعالى يهبه ذلك بشرط أن يخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته.

---

٥٨ . محمد: ٧.
٥٩ .غرر الحكم ٢: ١٨٧.
٦٠ . أنساب الأشراف ٢: ٣٥٨.

الدرس السابع

السنن الإلهية

يقول أمير المؤمنين صلوات الله و سلامه عليه في عهده لمالك الأشتر:« فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه».

يشير أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في هذه العبارة الموجزة إلى بعض السنن الإلهية، وهي أن من يقف وينصر الله سبحانه وتعالى سيحظى بنصر الله ودعمه، ومن ينظر إلى الله سبحانه وتعالى نظرة إعزاز فإن الله سبحانه وتعالى سيعزه، ومن يتعامل مع الله سبحانه وتعالى باعتباره العزيز، فإن الله سبحانه وتعالى يتكرم عليه بالعزة في الدنيا.

هذه سنن إلهية مهمة يشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام، ونحن بأمس الحاجة لاستحضارها في المنظومة القيادية لكل المتصدين وهم يتصدون لمهامهم القيادية، أيا كانت هذه الدوائر والمنظومات القيادية. وكما قلنا بأن المنظومة القيادية لا تنحصر بالرئيس والزعيم والأمير، فالمنظومة القيادية تبدأ من دوائر ضيقة وصغيرة، فالأُسرة هناك من يقودها، وكذا الشركة والمصنع والمتجر وصولاً إلى الدوائر الأوسع والأكثر خطورة وأهمية، فهذه السمات تشترك في كل هذه المنظومات القيادية، صغيرة كانت أو كبيرة.

وفي هذا الدرس العظيم، هناك العديد من الإضاءات التي يبينها أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يتحدث عن المنظومة القيادية وعن كيفية الحكم والإدارة.

الإضاءة الأُولى

نظام الأسباب والمسببات

عندما يرجع أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر ويرجع كل المتصدين إلى السنن الإلهية، وإلى القواعد التي تتحكم بمجرى التأريخ ومجرى العالم، فإنه يذكر الناس بأن هذا العالم يسير على أساس النظام العلي (نظام الأسباب والمسببات)، فلا توجد مواقف انفعالية أو عشوائية من الله سبحانه وتعالى، فالعالم محكوم بشكل دقيق

ومدهش بنظام الأسباب والمسببات. ومن يريد أن يصل إلى شيء ما، فلابد له من أن يدخله من خلال أسبابه الطبيعية، ومن يقوم بفعل ما، لابد له من أن يتحمل مسبباته الطبيعية والآثار المترتبة عليه.

فلا نخطو خطوة ثم نقول بعدها: لماذا حدث هذا؟، لأننا بفعلنا دفعنا الأُمور إلى أن تسير بهذا الاتجاه وبهذه الطريقة؛ لأن هذا الفعل كان سبباً لمضاعفات واستحقاقات وتأثيرات معينة، فلا يجوز أن نعترض على النتائج ونحن قد ولجنا أسبابها المؤدية إليها. ولا نقول: لماذا لم يحصل الشيء الفلاني؟، ولماذا لم نبن بلدنا؟، ولماذا لم تكن الظروف ملائمة؟، ولماذا لا نرى الظروف تتحرك كما نتمنى؟. لأن هذه الأُمور تحتاج إلى أسباب طبيعية، ونحن لم ندخل إليها من خلال أسبابها الطبيعية حتى تحصل المسببات المطلوبة.

الإضاءة الثانية

ثبات السنن الإلهية

هناك قواعد وسنن إلهية تتحكم وتنظم مجرى الحياة. وهذه السنن ثابتة لا تتغير، فقد تتغير الأسماء بتغير الشخوص، وتتغير المواقع بتغير الأزمنة، ولكن هذه السنن وهذه القواعد ثابتة، قال الله تبارك وتعالى:﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّة اللَّه تَبْديلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّة اللَّه تَحْويلاً ﴾[٦١]، و«لن» تفيد التأبيد، أي لا تتغير هذه السنن، فاثنان زائدا اثنين تساوي أربعة، سواء حسبتها بالتفاح فهي أربع تفاحات، أو حسبتها بالبرتقال فهي أربع برتقالات، وهكذا لو حسبتها في أي شيء فالنتيجة هي هي. فالقالب واحد ولكن يمكن أن تتغير الأسماء والمسميات.

الإضاءة الثالثة

النجاح مرهون باتباع السنن والقوانين

إذا إردت أن تنجح في منظومتك القيادية، وإذا أردت أن تصل إلى ما تتمناه من الفوز، فعليك أن تدخل من خلال الأسباب الطبيعية، وعليك أن تلتزم بالقواعد

---

٦١ . فاطر: ٤٣.

والسنن التي تتحكم بمجرى التأريخ ومجرى الحياة ومجرى العالم. هذه هي رسالة عليعليه السلام في هذا الدرس الكبير. وإذا لم تلتزم بها فذلك هو الفشل.

ويعبر عن النجاح في الروايات والنصوص بالتوفيق، فالعمل الموفق هو العمل الناجح. ويعبر عن الفشل في تراثنا بالخذلان. فمن أراد الخذلان والفشل فعليه بعدم الاكتراث بهذه القواعد والأُسس، ومن أراد النجاح والتوفيق فعليه أن يسلك السنن الإلهية ويعتمد عليها، لأنها هي التي تنظم الحياة.

وهذا ليس في منطق السماء فقط، بل حتى نحنٍ عندما نريد أن ننظم أُمورنا، علينا أن نضع قوانين ونحرص على تطبيقها، فمثلاً نضع قوانين المرور لتنظيم حركة السير، فالشخص الذي يتجاوز الخط يمكن أن يكتب عليه شرطي المرور غرامة مالية معينة، وكذا إذا تجاوز السرعة المسموح بها، ولا يمكن لأحد أن يقول هذه السيارة ملك لي وليست لأحد علاقة بالموضوع، فأنا أرغب في أن أسير بسرعة كبيرة، أو أنا أرغب بالدخول بسيارتي إلى المكان الفلاني وليس لأحد أن يمنعني، أو أنا أرغب في أن أتجاوز السيطرة الفلانية ولا أقف للتفتيش، فهذه سيارتي وأنا حر بها.

ويقال لمثل هذا الشخص: صحيح أن السيارة سيارتك ولكنك لا تعيش وحدك في هذا لبلد، بل يوجد آخرون يعيشون معك في هذا الوطن، وتوجد قوانين لتنظيم العلاقات والحياة يجب أن تُحترم، وهناك سياقات وضوابط يجب أن تراعى. وكل شيء في هذه الحياة إذا أُريد له أن يحظى بالتوفيق والنجاح يجب أن يخضع لضوابط وأُسس تتحكم فيه، حتى يكون ناجحاً وموفقاً.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[٦٢]، تشير هذه الآية الشريفة إلى أخطر الأمراض التي يبتلى بها الإنسان المتصدي في مواقع الإدارة والحكم والقيادة، ألا وهو الاستكبار والتعالي على الآخرين والاعتداد بالنفس، بنحو لا يرى إلا نفسه ولا يرى للآخرين شيئا. والاستكبار في الأرض هو الخطر الكبير الذي يكون السبب في كل المظالم

٦٢ . فاطر: ٤٣.

والسيئات التي تصدر من الإنسان. وعندما يصبح مستكبراً يبدأ يمكر ويسيء ويتجاوز ويتطاول ويعتدي، وهذه هي سمات المستكبرين بحسب الفهم القرآني.

ولكن الآية الكريمة تشير أيضاً إلى سنة إلهية وهي: (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله)، أي لا تظن أيها المستكبر إذا اعتديت وتجاوزت وأسأت، أن هذه الإساءة ستوصلك إلى نتيجة، بل إنها كدودة القز ستزيدك عزلة وانكماشاً، وستزيد مواجهاتك مع الآخرين. هذه هي سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه: من حفر بئراً لأخيه وقع فيها. قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾[٦٣].

أيها الحكام، يا من تتصدون إلى الإدارة والقيادة، انظروا إلى سنة الأولين. إن هذه القواعد التي عاشها السابقون ستعيشونها انتم أيضاً، وسيعيشها من يأتي بعدكم، فهي لا تتغير بتغير الأزمان. ومن يريد أن يكون ناجحاً في الإدارة والقيادة والحكم عليه أن يقرأ التأريخ؛ لأن التأريخ يجدد نفسه، والتأريخ يوضح ويكشف عن هذه السنن، ويعبر عن هذه القواعد والضوابط في إدارة المجتمعات، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[٦٤].

ويقول الله تبارك وتعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً × سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[٦٥]، يارسول الله، إن هؤلاء المشركين ضغطوا عليك في مكة وأساؤوا إليك واستهدفوك وأرادوا أن يخرجوك منها، ولكن كان الوقت مبكراً للخروج، وما كانت الضغوط مناسبة للخروج، ولو استجبت لتلك الضغوط وتأثرت بعدوانهم وخرجت من مكة قبل أن يحين الوقت المناسب، فإن البلاء سينزل بهم، ولكن حينما وقفت في وجوههم حفظتهم من نزول العذاب الإلهي بساحتهم. هكذا يتحدث القرآن الكريم عن السنن الإلهية.

ويقول الله تبارك وتعالى في الآية التي تليها: (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) ، فهنا سنن إلهية وقواعد تتحكم بمجرى التأريخ.

---

٦٣ . فاطر: ٤٣.
٦٤ . فاطر: ٤٣.
٦٥ . الإسراء: ٧٦ـ ٧٧.

وأنت يا رسول الله لست بدعاً من الرسل ، بل يجري عليك ما جرى عليهم من السنن الإلهية، فهذه السنن غير قابلة للتغير ولا للتبدل. وهذه الرؤية القرآنية للسنن الإلهية.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «التوفيق والخذلان يتجاذبان النفس»[٦٦]، فهذه النفس الإنسانية يتجاذبها النجاح والتوفيق من جهة، والخذلان والفشل من جهة أُخرى؛ لأن هذه النفس يتجاذبها الالتزام بالضوابط، والخروج عن هذه الضوابط، فإذا التزمت النفس بالضوابط كانت ميالة ومنحازة إلى التوفيق والنجاح، وإذا تجاوزت الضوابط كانت ميالة ومنحازة للفشل والخذلان، فهما يتجاذبان النفس، فأيهما غلب كانت النفس في حيزه، فإذا غلب النجاح والالتزام بالضوابط والمعايير والأُسس انحازت النفس إلى التوفيق فيكون الإنسان موفقاً، وإلا انحازت إلى الخذلان.

الإضاءة الرابعة

الاستفادة من التجارب

يحظى موضوع استفادة الإنسان من تجاربه أو من تجارب الآخرين بأهمية بالغة، فمن لا يحسن قراءة التأريخ ولا يحسن فهم التأريخ سيكون هو درساً من دروس هذا التأريخ. فعلى الانسان أن يراجع التأريخ وينظر إلى تجاربه السابقة وينظر إلى تجارب الآخرين، ليعرف طريق التوفيق والنجاح، ويتعرف على الوسائل التي تبعده عن التوفيق و توقعه في الفشل والخذلان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ومن التوفيق حفظ التجربة»[٦٧]، أي أن الإنسان الذي يحفظ التجارب ويعيها ويستوعب الماضي والتأريخ، يكون قادراً على تحقيق التوفيق لنفسه ومنظومته القيادية وجماعته. فالتوفيق يحتاج إلى استذكار التجارب، بل إن الخروج عن هذه القواعد يعتبر خيانة حسب الفهم الإسلامي.

٦٦ . غرر الحكم ١: ٢٦.
٦٧ . نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.

الإضاءة الخامسة

الإمارة أمانة

يقول أمير المؤمنينعليه السلام لرفاعة واليه في الأهواز: «واعلم يا رفاعة أن هذه الإمارة أمانة، فمن جعلها خيانة فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة، ومن استعمل خائنا فإن محمداصلى الله عليه وآله بريء منه في الدنيا والآخرة »[٦٨]. لا تتصور أيها الإنسان أنك إذا أصبحت مديراً أو رئيساً أو وزيراً فإن الملك لك والإمارة إمارتك!، كلا، فالمسؤولية إنما هي أمانة تؤتمن عليها. فإن لم يؤد الأمانة ولم يلتزم باستحقاقات هذا الموقع الذي هو فيه يكون خائناً. ومن جعل الأمانة خيانة فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة، ومن لعنه الله سبحانه كان من الأخسرين في الدنيا والآخرة.

وهذه الفقرة تبين إلى أي مدى كان أمير المؤمنينعليه السلام شديداً بحق من لا يلتزم بالضوابط، ومن استعمل خائناً. فهو يقول إذا لم يوضع الرجل الكفوء في المكان المناسب، فهي خيانة بحق الأُمة، فالمسؤول يخون حينما يُحمل المسؤولية لشخص غير كفوء. وليس معيار التصدي للمسؤولية أن يكون قائماً في الليل صائماً في النهار، بل المعيار هو من يستطيع أن يفي بواجباته بشكل صحيح. فإن لم يفعل كان خائناً في منهج عليعليه السلام. ومن استعمل خائناً على أُمور المسلمين فإن محمداًصلى الله عليه وآله بريء منه في الدنيا والآخرة، ومن تبرأ منه رسول اللهصلى الله عليه وآله تبرأ منه الله عز وجل.

الإضاءة السادسة

بعض مواصفات القيادة

ويقول أمير المؤمنينعليه السلام في المواصفات المطلوبة لوضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وفقاً للنظرية الإسلامية في القيادة والإدارة: «أيها الناس من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلاً هُدي للتي هي أقوم»[٦٩]، من أراد التوفيق والنجاح فليطلب النصيحة من الله سبحانه وتعالى، وليعمل بالضوابط والمعايير التي

---

٦٨ . مستدرك الوسائل ١٧: ٣٥٥.
٦٩ . نهج البلاغة : الخطبة ١٢٧.

وضعها. ومن اتخذ قول الله سبحانه وتعالى دليلاً هداه إلى أقوم الطرق والأساليب، فإن من استنصح الله تعالى نصحه، ومن استهداه هداه إلى صراطه المستقيم.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «من استنصح الله حاز التوفيق، وقد تكفل بنصر من نصره»[٧٠]، أي من طلب النصح من الله تعالى والتزم بما أمره به فإنه سبحانه وتعالى يمنحه التوفيق. وهذا درس عظيم نأخذه من علي عليه السلام في المنظومة القيادية، وهو الالتزام بالسنن والقواعد والضوابط في معالجة الامور.

الإضاءة السابعة

سنة الله في النصر

ثم يشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض هذه السنن، وهي أن الله تعالى يتكفل بنصر من ينصره، ومن تكفل الله تعالى بنصره فهو لا محالة من المنتصرين. وهذه واحدة من السنن الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم أيضاً في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٧١].

تخاطب الآيتان الكريمتان المسلمين الذين خرجوا من مكة مضطرين بعد إيذاء المشركين لهم، وهاجروا إلى المدينة المنورة، وكان المسلمون يضربون ويأتي بعضهم مشجوج الرأس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويشكون إليه ذلك، فكان صلى الله عليه وآله يقول: « اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية في المدينة. وهي أول آية نزلت في القتال»[٧٢] ، كما روي ذلك عن الإمام الباقر عليه السلام. ثم بينت الآية الكريمة وجه المظلومية، وهو أنهم أُخرجوا من ديارهم بغير حق سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله، فعوقبوا على قولهم هذا ولخروجهم عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد الأحد، فأذن الله تعالى لهم بالجهاد.

---

٧٠ . غرر الحكم ٥ : ٢٠٢.
٧١ . الحج: ٣٩ـ ٤٠.
٧٢ . مجمع البيان : ذيل تفسير الآية ٤٠ من سورة الحج.

وهذه الآية هي إحدى الآيات التي تدلل على جواز الجهاد والدفاع عن النفس لمن يعتدى عليه ويُقاتل ويضطر للخروج من دياره لأنه يقول ربنا الله، بكل ما تستلزمه كلمة ربنا من مداليل، ومنها الالتزم بالضوابط والقوانين الإلهية.

ثم يشير سبحانه إلى سنة من السنن الإلهية وهي سنة التدافع، وهي من السنن الفطرية التي أودعها الله تعالى في الإنسان، لكي يدافع عن نفسه وما يتعلق بها من شؤونه، ومنها الحفاظ عن أماكن العبادة التي يسعى أعداء الدين لهدمها، لولا الدفع والقتال من أجل بقاء أصل الدين وآثاره المتعلقة به كدور العبادة. إذن لولا سنة التدافع ولولا هذه السنن والقواعد والضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لضاعت كل هذه المحطات المهمة في بناء الإنسان، أيا كان توجهه وأيا كان التزامه.

ثم تطرق القرآن الكريم لسنة النصر في قوله تعالى:(ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز). وهذه السنة الإلهية تمثل حالة الردع وتثبت المؤمنين وتدعوهم إلى لالتزام بقيمهم وثوابتهم مهما كانت الضغوط ومهما كان الاستهداف؛ لأن الله تعالى ينصر من ينصره ومن يلتزم ويتمسك ويدافع عن الحق والقيم والثوابت والمبادئ والأُسس الصحيحة، وكل من يحكم بالعدل، وكل من يلتزم بهذه الضوابط في المنظومة القيادية والإدارية، يكون قد نصر الله سبحانه وتعالى، فإن الله ينصره بالتوفيق والنجاح ويجعل عمله مؤثراً لتحقيق الغايات والنتائج ويلقي حبه في قلوب الناس.

لقد وقف الإمام الكاظمعليه السلام مرة أمام هارون العباسي وقال له: «أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم»[٧٣]، فإمامة القلوب ليست بيد السلطان ولا تأتي بالجيوش والإمكانات، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتكفل بها، فالإمام الكاظمعليه السلام المقيد بالسلاسل في غياهب السجون المظلمة هو إمام القلوب، ولم يستطع هارون العباسي بكل جيوشه أن يكون إماماً للقلوب، وإن كان إماماً على الأجسام، فهو يحكم بقوة السيف.

وأحد آثار نصر الله أن يلقي حبه في قلوب الناس، كما وردت الإشارة إليه في

٧٣ .الاتحاف بحب الأشراف: ٥٥. الصواعق المحرقة: ١٢٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾[٧٤]. إذن يجب أن يكون هناك إيمان والتزام وموقف صحيح ضمن الأسس والمعايير الصحيحة حتى يجعل الله الرحمن لهم وداً وحباً في قلوب الناس. فمثلاً هل يملك الإمام السيد السيستاني الجيوش أو المليارات أو الإمكانات حتى يملك كل هذا الود في القلوب؟، إنه لا يملك داراً ويجلس في بيت إيجار مساحته ثمانون متراً.

ولم نشاهده يوماً في بقعة من بقاع الأرض يتدافع مع المتدافعين أو يتسابق مع المتسابقين، ليظهر على وسائل الإعلام، بينما الآخرون يظهر لهم في كل يوم تصريح، ومع ذلك إذا قال كلمته فإن صدى تأثيرها ليس في العراق فحسب، بل نرى مساحات مهمة من البشر يتحركون طبقاً لها، وليس من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ولا من المسلمين وحدهم.

وقد طرحت اقتراحات عديدة من آخرين، بأن تمنح جائزة السلام للإمام السيستاني. فما هذه المحبة؟ وما هذا التأثير في قلوب الناس؟ وأنا أمثل بشواهد حية، ولا أذكر الأنبياء والأوصياء والأئمة الأطهار فيقال هؤلاء معصومون!، وإنما شاهدنا في إنسان يصل إلى هذا المستوى والتأثير في قلوب الناس، يقول الله تبارك وتعالى: (سيجعل الرحمن لهم ودا).

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «من عمل بالحق مال إليه الخلق»[٧٥]، فإذا ما التزم الإنسان بالحق وعمل بواجباته بشكل صحيح، فإن الله تعالى يرسل الناس ويهديهم إليه، فيميلون إليه ويندفعون نحوه. وقد ورد: «من كان لله كان الله له»[٧٦]، أي أعط نفسك لله أيها الإنسان، واجعل عملك لله، والله سبحانه وتعالى سيلقي رحمته ولطفه عليك. وهذه سنة إلهية مهمة.

إذن في هذا الدرس العظيم نستفيد من عطاء علي عليه السلام في التأكيد على واحد من الأسس المهمة في نجاح المنظومة القيادية، وهو الالتزام بالسنن والقواعد والضوابط.

---

٧٤ . مريم: ٩٦.
٧٥ . غرر الحكم ٢: ٢٠٤.
٧٦ .بحار الأنوار ٧٩: ١٩٧.

الدرس الثامن

المسؤول وتزكية النفس

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر:« وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات».

يأمر أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر في هذا العهد باعتباره حاكماً أن يكسر نفسه من الشهوات، أي يجب على مالك المتصدي لموقع الخدمة العامة والحاكم والمسؤول والوزير بتعابيرنا اليوم، أن يكسر نفسه أمام الشهوات، وأمام الطموحات، وأمام الرغبات، وأمام الميول الشخصية..

ويطلب عليه السلام منه أيضاً أن يمسكها عند الجموح والتمرد، فالنفس تجمح أيضاً وتتمرد وتنزع للوصول إلى مآربها وشهواتها وطموحاتها الشخصية.. فإن النفس بطبعها أمارة بالسوء.. وتبعث نحو السوء.. وتغرى بالسوء.. إلا ما رحم الله.. هذه العبارة العميقة والمؤثرة درس من دروس علي عليه السلام في القيادة والإدارة.

ولنقف قليلاً عند هذه العبارة ونتعرف على بعض الإضاءات التي يمكن أن نستلهمها من هذا الدرس العظيم..

الإضاءة الأُولى

خطر التصدي

إن الأدوار القيادية ومواقع الإدارة في الحكم تعني مزيداً من السلطة والنفوذ. وكما ذكرنا سابقاً فإن المنظومة القيادية يمكن أن تكون لها مستويات مختلفة، تبدأ من أبسط المستويات وهي الأُسرة، فرب الأُسرة له نوع من الإدارة لشؤون تلك الأُسرة، وصولاً إلى المشاريع الكبيرة وإدارة البلد وقيادته وحكومته إلى غير ذلك.

يمكن أن يكون الشخص مسؤولاً عن عدد من الناس، كأن يكون مقاولاً يعمل تحت يده عدد من العمال، أو يكون مدير شركة أو مدير مصنع أو مديراً في دائرة أو أي موقع من مواقع الإدارة والخدمة والقيادة، وهذه الضوابط لا تختلف في أي منظومة

قيادية، صغرت أم كبرت، وتبقى هي نفسها وإن اختلف حجم المسؤولية؛ فهناك مسؤول عن زوجة، وآخر مسؤول عن زوجة وأولاد، وهناك مسؤول عن عشرة أو عشرين أو مائة أو مائتين، وهناك مسؤول عن ملايين من البشر، ومع ذلك لا تختلف الأُطر والضوابط، وإنما يختلف حجم المسؤولية والمهمة التي تناط بهذا الإنسان.

والموقع القيادي هو موقع التأثير والإدارة، ويعني مزيداً من النفوذ والسلطة لهذا الإنسان.. بدءا من أبسط منظومة قيادية وهي الأُسرة، إذ أن هذه الإدارة تعطيه سلطة ونفوذاً لكي يأمر وينهى، وإن كانت الشريعة قننت وأطرت هذه الإدارة، فهي ليست عملية وصاية وإنما هي إدارة، ولكن البعض يسيء استخدام هذا الموقع، فيبدأ في تفكيك هذه الأُسرة. وهذه الحالة يمكن أن تتكرر كلما توسعت المنظومة القيادية.

إذن، السلطة والنفوذ من الأُمور الطبيعية التي تحصل لمن له موقع في الإدارة والحكم والقيادة، والسلطة والنفوذ يغريان الإنسان في أن يتعدى الحدود، ويمكن هواه وشهواته وميوله، فيسعى لتحقيق طموحاته الشخصية من خلال هذا النفوذ والتأثير. ولذلك نجد أن البعض يفقد توازنه وسيطرته على مشاعره حينما يتبوأ موقعاً بسيطا، فما بالك بالمواقع الأخطر والأهم؟!، إذ تبدأ بالتأثير في سلوكه وعلاقاته مع الآخرين، ويتعدى ذلك إلى درجة توظيف السلطة والنفوذ لتحقيق مآربه الشخصية وقضاياه الخاصة.

بل ويتجاوز ذلك، حين يستغل سلطته ليشفي غليله من الآخرين، كأن يقال له فلان على الباب، فيقول: فليجلس وينتظر.. فهو يستعظم، وهو مدير عام، أن يأتي شخص بلا موعد ويدخل مباشرة، فليجلس وينتظر لنصف ساعة أو ساعة حتى يبدو أن المدير شخص مهم.. ثم يقول له: إن هذه القضية تحتاج إلى نظر، اذهب وارجع بعد شهر، مع أنه توقيع بسيط لا يحتاج لشيء، فلماذا تعطل مصالح الناس لشهر أو أكثر أو أقل؟، ولا يمكن تفسير هذه المواقف إلا بأنها انتصار للأنانية وانتصار للهوى.

وهذه قضية خطيرة نستلهمها من هذا الدرس العظيم، فالسلطة والنفوذ هما المحطة الأساسية لانطلاق الشهوات، ومواقع الإدارة والحكم هي التي تعطي هذه السلطة والنفوذ، فيقع الإنسان فريسة هذه المغريات الكبيرة..

ويقول علي عليه السلام في إحدى حكمه في تأييد هذا المعنى: «مَن ملك استأثر»[٧٧]، أي من يصل إلى موقع المسؤولية، ولم يكن مربياً لنفسه ومهذباً لمشاعره وغير ملتزم بهذه الضوابط فإنه يصاب بحالة الاستئثار.. استأثر لغة يعني استبد.. فيقال: هذا مدير مستبد.. وزير مستبد.. رئيس مستبد.. رب أُسرة مستبد. فمثلاً يدخل رب أُسرة البيت فيدخل معه الخوف إلى جميع أفراد الأُسرة، والكل يتمنى الساعة التي يخرج فيها من الدار لكي يتخلصوا منه!، في حين أن هذا البيت سكن.. ويُسمى سكنا من السكنى والاستقرار والطمأنينة؛ لأنه مصدر راحة لأفراد هذه الأُسرة، وليس مصدر قلق وازعاج.

إن استغلال الموقع وبالتالي الاستئثار ملكة في الإنسان ليس لها علاقة بالمسؤولية، فمن الممكن أن يكون الشخص في مواقع متقدمة جداً، ويكون مسيطراً على نفسه، ومتواضعاً وبسيطاً وخدوماً، بينما ترى شخصاً مسؤوليته محدودة جداً ولكنه على عكس ذلك.. وهذا ما يراه الإنسان في بعض الوزارات، فهناك مسؤولون في مواقع متقدمة يتسمون بالتواضع والمحبة والمودة وحب خدمة الناس.. وفي المقابل هناك مسؤولون صغار يعطلون مصالح العباد والبلاد حتى يشفوا غليلهم وأنانيتهم من خلال هذا الموقع.

ويقول علي عليه السلام أيضاً مشيراً إلى مخاطر الاستبداد: «من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»[٧٨]، يا مستبد اعلم أن هلاكك في هذا الاستبداد، ولا تظن أن تغليب رأيك على رأي الآخرين، هو انتصار كبير تحققه لنفسك.. كلا، بل ستهلك به وتضيع.

ومن أراد عقلاً أكبر فليشاور الرجال؛ لأنه في ذلك يشاركهم في عقولهم، فينبغي للإنسان أن يستشير الآخرين؛ إذ «الحكمة ضالة المؤمن»[٧٩] كما قال أمير المؤمنين عليه السلام. فإنسان بسيط يمكن أن يتكلم بكلام يحل لنا مشكلة كبرى، ولذا يجب علينا أن نسمع الآخرين ونصغي إليهم، ولا نعتد بآرائنا مهما كنا نرى الحق في شيء ما، فمن الممكن أن نكون متوهمين، وربما يكون الحق في شيء آخر. ومن

---

٧٧ . نهج البلاغة: الحكمة ١٦٠.
٧٨ . نهج البلاغة: الحكمة ١٦١.
٧٩ .نهج البلاغة: الحكمة ٨٠.

لا يسمح للآخرين أن يقولوا كلمتهم ولا يريد أن يسمع رأياً آخر، سيقع في المهالك لا محالة، كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام.

ويشير عليه السلام إلى هذا المعنى أيضاً في قوله: «من نال استطال»[٨٠]، أي من بلغ ووصل إلى طموحه وصار مسؤولاً استعلى على الآخرين، وتنشأ عنده حالة الاستعلاء.. حالة التكبر.. حالة الاعتداد بالذات.. حالة أن يرى نفسه متميزاً عن الآخرين. مَن قال لك أنك تفهم أكثر من غيرك؟!، وقد جاء بك القدر لأنك من الحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية أو ابن خالة المسؤول الفلاني فصرت مسؤولاً.

إنك نفس صاحبنا السابق الذي لم يكن يعرف أن يحل رجل دجاجة كما يقولون، فما الذي تغير فيك؟، هل لأن أربعة أو خمسة أشخاص يقفون حولك، وعندك سيارات وموكب، وهناك أُناس تدخل وتحييك وتقول لك نعم سيدي؟، لماذا هذا الاستعلاء؟ ولماذا ترفع نفسك على الآخرين؟!، وهذه من زلات من يتصدى لمواقع الإدارة والقيادة والحكم.

وهذه التعابير تكشف عن حجم الخطر الذي يداهم الإنسان حينما يتصدى لهذه المواقع، كخطر الانزلاق، وخطر أن يتحول الإنسان إلى وحش كاسر بصورة إنسان. إن الإنسان يخاف من الأسد ويخاف من الحيوانات المفترسة؛ لأنها لا تفكر إلا بنفسها، وإذا جاعت تفتك وتقتل وتفعل كل شيء من أجل أن تشبع، وهكذا الحاكم والمسؤول إذا تحول إلى وحش كاسر، يفعل كل ما يحلو له من أجل أن يشبع أنانيته، ومن أجل أن يحصل على احتياجاته.

الحيوان يأكل على قدر حاجته، وحين يشبع يترك فريسته، وأخطر الحيوانات إذا شبع لا يعتدي على أحد، وأما هذا الإنسان فهو نهم لا يقف عند حد، ولا يقنع بما يحصل عليه ويسعى دائماً وراء الأكثر، ومهما بلغ في إمكاناته فهو يريد المزيد.

فالحيوان المفترس قضيته أسهل بكثير من هذا الإنسان الذي ليس له حدود تحده وتؤطر عمله؛ ولذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الخطر العظيم، حينما يتصدى الإنسان ويأخذه وهج السلطة، ليعتدي على كل الحرمات، ويتجاوز كل الحدود، ولا

---

٨٠. نهج البلاغة: الحكمة ٢١٦.

يرى إلا نفسه، ويستأثر بكل شيء، وهذه مشكلة كبيرة يقع فيها الإنسان.

ولهذا يشير الإمام السجاد صلوات الله وسلامه عليه في دعاء مكارم الأخلاق إلى هذه الحقيقة: « اللهم لا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي بقدرها..»، أي يا إلهي كلما كان موقعي أمام الناس أكبر ومسؤوليتي أعظم، فاجعل شعوري بالتواضع والذل أمامك أكبر. وهذه هي التربية الأخلاقية التي بشر بها الإسلام في الرؤية الإسلامية في القيادة والإدارة.

الإضاءة الثانية

وضع الكوابح الداخلية

لابد من وضع المصدات الداخلية لكبح جماح الاعتداء والتطاول والتجاوز لدى النفس لمنع تحقق أنانيتها، فهي تحتاج إلى مصدات وحواجز وموانع وسيطرة، فالسيارة إذا لم يكن بها كوابح فهي خطرة جداً ويمكن أن ترتطم بأي شيء. وكذلك أي قضية في هذه الحياة، إذا لم يكن فيها كوابح يمكن أن تتحول إلى خطر كبير.

وموضوع القيادة والإدارة والحكم أيضاً من المسائل التي تحتاج إلى هذه المصدات التي يضعها الإنسان وهو يتصدى إلى هذه المواقع القيادية، ولذلك نجد في هذه العبارة أن أمير المؤمنين عليه السلام يحدد هذه المصدات، ويستعمل عبارات قاسية جداً في تحديدها. ويحدد عليه السلام في هذه الفقرة من عهده لمالك الأشتر أمرين:

الأمر الأول: قوله: «وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات»، فلم يقل: يحد، أو يضيق، بل قال (يكسر)، والكسر هو أقسى الحالات، لأنه إذا كان الخطر عظيماً فالعلاج يجب أن يكون قاسياً، وآخر الدواء الكي، فالمرض العضال لا يُعالج بحبة أو اُبرة وإنما بعملية جراحية كبرى. وهذه القضية بما أنها خطر كبير على الإنسان، فهي تحتاج إلى معالجة قاسية أيضاً، ولهذا جاء الأمر بكسر النفس حتى تستطيع أن تواجه الخطر، وأن توقف التداعي في الاعتداء على الآخرين، وفي تجاوز حدود الآخرين، وفي استغلال السلطة والجاه والنفوذ للمآرب الشخصية.

الأمر الثاني: قوله:«ويزعها عند الجمحات»، أي كف النفس عن التمرد. ويستعمل

أمير المؤمنينعليه السلام هنا لفظ الجموح، وهي صفة الخيل الوحشية المتمردة التي تصهل صهيلاً شديداً، والتي لا يستطيع كبار المدربين السيطرة عليها. وحالة الجموح هذه يمكن أن تقتل أُناساً.

ويشبه أمير المؤمنينعليه السلام النفس بهذه الحالة للخيل.. جموح، تمرد، عصيان.. ويقول اكبحها، وقف بوجه هذا التمرد للنفس الإنسانية.. ترون كم هي العبارات قاسية. ونلاحظ في القوات الأمنية أن هناك شرطيا يقف في السيطرة، وهناك شرطي مرور لا يحمل سلاحاً وإنما ينظم السير، ولكن هناك قوات لمكافحة الإرهاب، وقوات لمكافحة الشغب، وهي تختلف في ملابسها وسلاحها وتدريباتها، بل تختلف حتى قسوة تعاملها عن الآخرين؛ لأنها مهيأة للمهام الصعبة. يستخدم أمير المؤمنينعليه السلام مثل هذه العبارات الشديدة الحازمة ليشير إلى الخطر الكبير والمحدق، جراء التعامل مع النفس الإنسانية حينما يكون الإنسان في مواقع الحكم والإدارة.

وقال أمير المؤمنينعليه السلام حينما بويع بالمدينة في نفس هذا المعنى: «ألا وإن الخطايا خيل شُمس، حمل عليها أهلُها، وخلعت لُجمها، فتقحمت بهم في النار، ألا وإن التقوى مطايا ذُلل، حُمل عليها أهلها وأُعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة »[٨١].

وشُمس جمع شموس، وهي الخيل التي تمنع أن يركبها أحد. يشبهعليه السلام هذه الخطايا بالخيل غير الأليفة التي لا تسمح لأحد بأن يركبها.. فالخطايا هي خيل شموس جامحة، ركب عليها أهلُها الخطاؤون، فخلعت لُجمها. واللُجم جمع لجام، وهو الذي تمسك به الخيل. وإذا خلعت الخيل عنانها، وكانت هي أيضاً غير مطيعة ومتمردة، فحينئذ لا يستطيع أحد أن يبقى على ظهرها لثوان.. وكذلك الخطاؤون، فكأنهم راكبون على خيل من هذا النوع ومن دون لجام، فتقحمت بهم في النار..وهكذا يمثل أمير المؤمنينعليه السلام الإنسان الخطاء الذي لا يجد ضوابط وأُطرا تحكم حركته وسلوكه.

ثم يشبهعليه السلام التقوى بالمطايا الذُلل، وهي الدواب المروضة الطائعة الهادئة الأليفة التي تسير على مهل، وقد حُمل عليها أهلها المتقون، وأُعطوا أزمتها ولُجمها بأيديهم، فأدخلتهم الجنة.

٨١ . نهج البلاغة: الخطبة ١٦.

إن الضوابط والقيم والثوابت والأُطر، هي القضية الأساسية التي يجب أن تتحكم بسلوكيات من يتصدى للإدارة والقيادة.

الإضاءة الثالثة

وضع الكوابح الخارجية

لا يكفي أن يهتم المسؤول والقائد والرئيس والوزير والمدير بمراجعة نفسه ومحاسبتها، فهذه القضية لا يمكن أن تنضبط؛ لأن هناك من يراعيها وهناك من يغفل عنها، كما تختلف نسبة المراعاة عند من يراعيها من شخص إلى آخر، فلا يمكن أن يرهن مصير أُمة بيد أشخاص يمكن أن يمارسوا أدوارهم بنسب متفاوتة في السيطرة على ميولهم ونزواتهم ورغباتهم الجانحة للتمدد والاستئثار ومزاولة النفوذ والسلطة.

لذلك نجد أن الإسلام من ناحية يعطي أهمية كبيرة للعنصر الداخلي؛ إذ يبني الإنسان نفسه ويسيطر على أعصابه، ويكبح جماح شهواته ونزواته وميوله نحو مزيد من السلطة والنفوذ، ولو كان على حساب الآخرين وحرياتهم وحقوقهم، ولكن من ناحية أُخرى يركز الإسلام على المصدات الخارجية، أي وضع الضوابط والأُطر والنظم التي تضمن عدم الوصول إلى حالة الاستئثار، التي هي جوهر الديكتاتورية، هذا الشيء البغيض الذي يتنصل منه حتى من هو متلبس به، ويشمئز منه كل الناس.

إن حقيقة الديكتاتورية وجوهرها، هي حالة الاستئثار التي تحصل للإنسان واعتداده برأيه وتحكيم إرادته على كل إرادة وتغليب رأيه على كل رأي، والسعي لمصادرة آراء الآخرين وحرياتهم وحقوقهم لصالحه ولصالح آرائه وتصوراته. هكذا عشنا في أنظمة بائدة في هذا البلد الكريم، ونعرف ماذا يعني النظام الديكتاتوري، ذلك النظام الذي لا يدع مجالاً لأحد أن يتنفس، ولا يسمح لأحد أن يتحرك إلا بإرادة القائد الضرورة.

وهذه الحالة تحتاج إلى ضوابط وأُطر وسياقات ونظم، تمنع الإنسان من الوصول

إلى أن يكون ديكتاتورياً، حتى إن كان هذا الإنسان يوقع نفسه في هذه المخاطر والمطبات من أجل المجتمع.

فإذن، العملية ليست عملية تمنيات أو قضية خاصه تربط الإنسان في مواقع الإدارة والقيادة مع ربه، ولابد له من أن يسيطر على مشاعره، فهذا جانب المصدات الداخلية، وأما الجانب الآخر فهو المصدات الخارجية.

واليوم يعيش العراق تجربة تتحدث عن الشراكة الحقيقية، التي ينبغي أن تتمثل في الالتزام بالدستور وبناء دولة المؤسسات وتوزيع الأدوار والصلاحيات الكاملة لكل المواقع، وهي تعتبر الضمانات التي تضمن لهذا البلد التوازنات الصحيحة التي تمنعه من الوقوع في حالة المركزية الشديدة أو الانفراط الذي يخاطر بالمشروع التعددي والديمقراطي. وهذه المطالب لها خلفيات في الرؤية الإسلامية في الإدارة والقيادة، كما نرى في هذا الدرس العظيم والكبير من دروس الإمام علي عليه السلام.

الإضاءة الرابعة

خطر الديكتاتورية

إن هذه الأخطار والسلبيات التي يقع فيها الإنسان في مواقع الإدارة والقيادة والحكم، هي أخطار عامة على الجميع، ولا يستثنى منها أحد، ولا يتصور أحد أنه بمأمن من الوقوع في مثل هذا الخطر، ومن التمدد إذا ما حصل على السلطة والنفوذ.

وهذا الكلام لا يشمل موقعاً خاصاً، بل يعم المنظومة القيادية التي تبدأ من دائرة ضيقة هي الأُسرة، التي يمكن أن تقاد وتدار ضمن أُطر ونظم محددة بين زوجين وأولاد، وتتوسع هذه الدائرة إلى العشيرة والشركة والمصنع وكل منظومة تقاد وتدار من قبل عدد من الناس، وأي جمع يزيد على واحد فهو منظومة، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم»[٨٢]، أي إذا كنتم ثلاثة فهناك آراء مختلفة، فلابد من إيجاد منظومة قيادية.

وفي هذه المنظومات القيادية، مهما اتسعت أو تضيقت، لابد من أن يراعى هذا

٨٢ . كشف الخفاء للعجلوني ١: ٩٧.

الجانب، ولا ينبغي لأحد أن يرى نفسه بمعزل عن هذه الأخطار. فمن الممكن لرب أُسرة أن يتمدد ويتطاول على أفراد أُسرته، ومن الممكن أن يتطاول مدير شركة على موظفيه، ومن الممكن أن يتجاوز مدير مصنع على العاملين، وهكذا وصولاً إلى مواقع الإدارة والقيادة لبلد ولشعب ولأُمة من الناس.

ولهذا نجد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام «فإن النفس أمارة بالسوء»، فالألف واللام في كلمة النفس للجنس، وهي تفيد العموم ولا تختص بشخص دون آخر، ولذا لا ينبغي لأحد أن يتصور أنه بمعزل عن الوقوع في خطر التمدد والاستئثار إذا حصل على النفوذ والسلطة، في أي مساحة وفي أي دائرة من الدوائر.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٨٣]، النفس الإمارة بالسوء ميالة إلى الهوى والسلطة والمواقع والجاه والحصول على المزيد من الامتيازات والمكاسب، حتى لو كان على حساب الآخرين، فكلما كانت سلطة الإنسان أكبر ونفوذه أكبر، كانت قدرته على تحقيق هذه النزوة والرغبة أكبر، فلابد من أن توضع المصدات، ولا استثناء في هذه العملية.

الإضاءة الخامسة

نفي القداسة عن المنظومة القيادية

ليس لدينا حكومة مقدسة ولا إدارة مقدسة. ومعنى القداسة هو اعتبار كل القرارات وكل السلوكيات مطابقة لمصالح الناس وليس فيها تعد. وهذا شعور خاطئ بحسب النظرية الإسلامية؛ إذ المنظومة القيادية تعني جمع من الناس، وهؤلاء الجمع منهم من يخطئ، ومنهم من له دوافع غير نبيلة، ومنهم من له طموحات غير شريفة، ومنهم من يبحث عن مصالح خاصة، فلا يمكن لأي منظومة فيها جمع من الناس أن تدعي القداسة والاحترام والعصمة والانسجام مع المصالح بشكل عام، إذ يمكن أن يقع الإنسان في الخطأ في كثير من الحالات.

إن محاولة تكريس انطباع القداسة وصحة المواقف تحد من فرص الرقابة الشعبية،

---

٨٣ . يوسف: ٥٣.

وتحد من إمكانية التعبير عن المواقف المخالفة لرأي الحاكم أو المسؤول في أي موقع من مواقعه، فلابد من أن تعطى الفرصة للاعتراض، ولابد من أن يشكر من له رأي آخر يذكره ويبينه؛ لأن هذا هو إحدى الضمانات الحقيقية التي توجد حالة التوازن المطلوب في عملية الإدارة والقيادة.

وحينما تحبس وتكتم الأنفاس، وحينما يمنع الناس من الاعتراض وإبداء الرأي المخالف لتوجهات الحاكم والمسؤول والمدير وما إلى ذلك، فإن ذلك يؤول إلى الديكتاتورية لا محالة.

وترفع الديكتاتورية شعار: نفذ ثم ناقش، وقد تصل الحال في بعض الديكتاتوريات الى أن يكون شعارهم: نفذ ثم نفذ من غير نقاش. وهو شعار مرفوض، فإن حق النقاش من الحقوق الأولية التي ينبغي أن يتمتع بها الإنسان. ولكن يلاحظ شيوع هذه الروح التسلطية في مجتمعاتنا، فلا أحد له حق النقاش، سواء في الأُسرة أو في المساحات الأوسع، حيث يكون رأي المسؤول هو الرأي النافذ ولا يسمح لأحد بأن يناقش. وهذا هو الخطأ الكبير الذي يوقع المنظومة القيادية، توسعت أو تضيقت في أخطار عظيمة.

ولكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لا يبرئ نفسه ولا يبرئ حتى حكمه، وهو الإنسان المعصوم، والإنسان العالم، والإنسان الخبير، والإنسان الذي عجنته ظروف الحياة.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة طويلة له في صفين، منها: «فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أُخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا»[٨٤].

يطلب الإمام علي عليه السلام من المسلمين أن يبينوا ويتحدثوا معه عن قضية يعلمون أنها حق، لا أن يتحدثوا معه في قضية يعلمون بطلانها. وهو عليه السلام يقول ذلك مع أنه إمام معصوم مفترض الطاعة، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله قولته المشهورة: «علي مع

٨٤ . نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

الحق، والحق مع علي، يدور معه حيثما دار»[٨٥]، ولكنه يضع منهجاً ويعلم الناس ويربيهم على طريقة الحكم الصحيحة.

ويطلب منهم أيضاً أن يقدموا له المشورة بعدل، لا لأنه بحاجة إلى رأي الناس، فهو المعصوم عن الخطأ، ولكنه اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يستشير الناس ويجمعهم ويسألهم ويتعرف على آرائهم، مع أنه المعصوم المسدد بالوحي، فهو منهج الإسلام الذي أراده الله تبارك وتعالى للبشر، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٨٦]. وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل بالمشورة، فليس هناك من هو مستغن عن مشورة الناس ومشورة من يعمل معهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فإني لست في نفسي بفوق أن أُخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي»، فهو عليه السلام كأي بشر معرض للخطأ لولا أن يعصمه الله تبارك وتعالى، ولذلك يستدرك قائلاً:« إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»، وهذا الكلام منه عليه السلام دليل على شدة تواضعه، فهو لا يتبجح بعصمته أمام المسلمين ويتطاول عليهم بما منحه الله الكريم من هذه الفضيلة الجليلة.

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام أن الاستماع إلى مقولة الحق وقبول المشورة بعدل هي من مقتضيات العبودية لله عز وجل، فيقول:« فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا». والله تبارك وتعالى هو وحده المستغني عن المشورة بمقتضى الوهيته. وهذا هو منهج علي عليه السلام في القيادة والإدارة.

الإضاءة السادسة

الحاجة المستمرة للرحمة الإلهية

إن المتصدي هو أحوج الناس إلى الرحمة الإلهية، لكثرة المنزلقات الخطيرة في مواقع الإدارة والقيادة. في يوم كان يتحدث شهيد المحراب قدس سره عن أن العمل السياسي هو من أشرف الأعمال، وقد استغربت شخصياً من هذا الحديث، ودار في خلدي كيف يمكن أن يكون العمل السياسي أشرف الأعمال، مع أن هناك

٨٥. بحار الأنوار ٣٣: ٣٦٧ح٦٠٦.
٨٦. آل عمران: ١٥٩.

أعمالاً واضحة الشرف، فيها جوانب دينية وروحية وعبادية، كما أن نظرتنا الى السياسة بأنها وسخ دنيا، وأن أصحابها يبحثون عن مصالح.

قطعاً، هو لا يقصد هذه السياسة المتعارفة في عالمنا اليوم، وإنما يقصد السياسة التي كان ينتهجها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، وما أخذ الله على العلماء من وجوب التصدي لرفع المظلومية مع وجود الناصر. وبعد انتهاء الخطاب والحديث سألته عما دار في خلدي، فقال قدس سره: يكون العمل السياسي أشرف الأعمال باعتبار أن الأخطار والمنزلقات في العمل السياسي كثيرة وخطيرة، ولذا فهي أخطر الأعمال، فمن يلج في هذا المسلك ويحسن الأداء ويعمل على إحقاق الحق والانتصار للمظلوم والوقوف بوجه الظالم، فهو يمارس أفضل وأشرف وأخطر مهنة.

وهو من نوع الاختصاصات النادرة، فهناك اختصاص معين يستطيع كل طالب الحصول عليه بعد إنهاء الدراسة الجامعية أربع سنوات، ومثل هذا الاختصاص ليس له تلك القيمة المميزة لتوفره بكثرة، ولكن هناك اختصاص نادر لا يوجد مثيل له في البلد، أو يوجد مثيله ولكن بأعداد قليلة جداً مع مسيس الحاجة إليه، فندرة الموضوع وصعوبة الوصول إليه وحجم الأخطار التي تعتريه وتقف بوجهه تجعله أهم الاختصاصات.

وهكذا يتعرض المتصدون للعمل القيادي إلى أخطار ومنزلقات كثيرة لا ينجو منها إلا من رحم ربي.

وهذا درس من دروس الإمام علي عليه السلام، وهي مسألة مهمة لمن يتصدى ويتحمل المسؤولية، وهي ليست مسألة وجاهات وامتيازات ورواتب عالية، بل المسؤولية هي الوقوف على الصراط يوم القيامة.

وينبغي على السادة والسيدات النواب، أن يشفقوا على أنفسهم؛ فهم سيوقفون غداً على الصراط، ويُسأل كل واحد منهم إذا قصر في الدفاع عن أحد، فماذا سيكون حاله إذا كان من يسأله مائة ألف مواطن عراقي؟!.

وهو فرح في الدنيا بالراتب والامتيازات والإيفادات والجواز الدبلوماسي وقطعة

الأرض على شاطئ دجلة، وهي لا تعادل مساءلة طفل صغير له على الصراط، عندما يوقف أحد هؤلاء النواب ويقول له: أنا واحد من المائة ألف من المنطقة الفلانية التي تمثلها، لماذا لم تصوت في اليوم الفلاني عندما صُوّت على المشروع الفلاني، ولماذا لم تحضر في اليوم الفلاني، ولماذا لم تدافع عن حقوقنا في الجلسة الفلانية، ولماذا جاملت على حساب القضية الفلانية ..؟.

وهكذا تتوالى عليه مئات الأسئلة، حتى يتهاوى الجميع أمام ميزان العدالة الإلهي، إلا من رحم ربي، فأحسن أداء مهمته وكان مستعداً لهذا اليوم العصيب. فالرحمة الإلهية مطلوبة جداً، وهذا ما يتطلب من الإنسان حينما يتصدى إلى مواقع المسؤولية، أن يصلح علاقته بالله سبحانه وتعالى.

وقد اهتم الإمام علي عليه السلام بإثارة هذه القضية أمام أنظار الولاة الذين كان يكلفهم بالمهمات الصعبة، ففي وصية له عليه السلام لشريح بن هاني، حينما نصبه قائداً في جيش المسلمين المتوجه إلى الشام، يقول له فيها: «اتق الله في كل صباح ومساء، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولا تأمنها على حال، واعلم أنك إن لم تردع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً رادعاً، ولنزوتك عند الحفيظه واقماً قامعاً»[٨٧].

يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام في الوصية أحد ولاته، يطلب منه أن يتقي الله سبحانه في كل صباح وفي كل مساء، وفي كل خطوة وفي كل حركة وفي كل سكنة. ثم يطلب منه أن يخاف على نفسه من الدنيا الغرور، وأحق ما وصفت به هذه الدنيا هو وصف الغرور، فقد وقع في شباكها الكثيرون بعد أن غرتهم بزخرفها، ومن يتصدى لأمر القيادة أحرى بالخوف من الدنيا لكثرة ما يتعرض له من إغراءات، ولذا يتوجب عليه الحذر والانتباه منها، لعله يستطيع الخلاص من إغراءاتها بملازمة التقوى صباحاً ومساءً والخوف على نفسه منها.

ثم يحذره أمير المؤمنين عليه السلام من أن يأمن الدنيا على حال من الأحوال، فإنها كالحية إذا اقتربت منها يمكن أن تلدغك في أي لحظة، وهكذا الدنيا تراها لطيفة المنظر

٨٧ . نهج البلاغة: الرسالة ٥٦.

وناعمة الملمس ولكنها تقتل بلدغتها. ثم يلفت أمير المؤمنين عليه السلام انتباه المتصدين إلى أنفسهم الأمارة بالسوء ويحثهم على كبح جماحها ومنعها من كثير مما ترغب وتحب خشية المكروب والضرر والخطر الذي يمكن أن يأتي من الاستجابة لجميع متطلباتها، فإن كثيراً من الأشياء التي يحبها الإنسان ربما كانت ضارة له، فرب أكلة منعت أكلات، ورب خطوة أوقعت الإنسان في مطبات.

فإن لم تمنع نفسك مما تحب سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرر وفادح من البلاء، ولذا يجب أن تكون لنفسك مانعاً ورادعاً عن كثير مما تشتهي وإلا ألقت بك في المهالك. ثم يطلب أمير المؤمنين عليه السلام من القائد أن يكون مسيطراً على نفسه عند الغضب، فلا يبادر إلى استعمال أقسى العقوبات عند أول خطأ، فإن آخر الدواء الكي، وليس أول الدواء.

وربما يبرر القائد لنفسه تصرفه باستعمال العنف في معالجة المشاكل بقوله: أنا مسؤول عن تطبيق القانون، ومعاقبة من خرج عنه بأشد العقوبات، لكي يخشاني الجميع فلا يفكر أحد بعدها بالمخالفة. وقد يظن بعض المسؤولين أن خوف مرؤوسيه منه منقبة يكسب من خلالها المهابة والاحترام. وعلى هذا ينبغي على المسؤول الحذر من أي تصريح أو عمل في حالة الغضب، وعليه أن يصبر إلى أن يزول غضبه ثم يفكر في علاج الموقف.

المقطع الثالث

الرأي العام

الدرس التاسع

رقابة الرأي العام

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أُمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أُمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم».

هذه العبارة على إيجازها تحمل الكثير من المعاني المهمة والأسرار في نجاح العملية القيادية والإدارية. إن على المسؤول أن يقف ويتعرف على هذه الأسرار حتى ينجح في مسؤولياته، أيا كانت هذه المسؤولية في مستوياتها ومدياتها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في صدر هذه الفقرة:«إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور»، يا مالك إنك تذهب إلى مصر، وهي كغيرها من البلدان، حكمتها الكثير من الحكومات العادلة والظالمة، وفيها صلاح وفيها فساد، وفيها خير وفيها شر، وهذه هي سنن الحياة، وهذه هي القواعد الاجتماعية التي تتحكم بمجرى التأريخ. ففي كل أمة وفي كل شعب هناك الخير وهناك الشر، وهناك الصلاح وهناك الفساد، وهذه المتناقضات تعيشها الشعوب والأُمم. يا مالك إني أرسلك إلى بلد وقعت فيه كل هذه الأحداث الطيبة وغير الطيبة.

ثم يقول أمير المؤمنين عليه السلام بعدها: «وأن الناس ينظرون من أُمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أُمور الولاة قبلك». واعلم يامالك أن الناس اليوم ينظرون إلى الاجراءات التي تتخذها، بنفس العين التي كنت تنظر بها إلى تلك الاجراءات لمن

تولى المسؤولية قبلك، عندما كنت مواطناً عادياً، حين كنت توجه الملامة والعتاب وتنتقد هذا المسؤول أو ذاك على الأقوال والأعمال التي يأتون بها. واليوم وأنت في موقع المسؤولية لا تنس حق الناس في أن ينتقدوك ويتحدثوا بما يعتقدونه تجاه أدائك ومسؤوليتك ومواقفك وسلوكك وتصرفاتك.

اليوم تنظر الناس في أُمورك كما كنت تنظر في أُمور الولاة الذين سبقوك، فتقيم وتنتقد وتعبر عن مواقفك تجاههم، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. اليوم وأنت ذاهب إلى مصر لتكون حاكماً ومسؤولاً في هذه المنطقة عليك أن تعي هذه الحقيقة، وان تتهيأ لتسمع من الناس ما كان يسمعه السابقون منك، حينما لم تكن في مواقع القرار والمسؤولية.

وفي هذا الدرس العظيم العديد من الإضاءات إذا اردنا أن نقف ونتعمق فيه.

الإضاءة الأُولى

ذاكرة التأريخ

يشير أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الدرس إلى أن ذاكرة التأريخ ذاكرة قوية، فالناس لا تنسى ما جرى عليها وعلى الأُمم الأُخرى في سلسلة تأريخية طويلة. والناس تعايش الحكومات وتعايش المسؤولين وتعايش التجارب وتسمع عن تجارب وتقرأ عن تجارب، فلا يضيع منها شيء، وكل شيء محفوظ ومدون في ذاكرة الشعوب والأُمم.

إن الذاكرة التأريخية قوية أيها الطغاة والظالمون، يا من تتصدون إلى مسؤوليات على أي مستوى وأنتم لستم لها أهل، لا تظنوا أن بإمكانكم تزييف الحقيقة، ولا تظنوا أن بإمكانكم تشويش الواقع، ولا تظنوا أن بإمكانكم التغطية على الأخطاء، فإن التأريخ يعري ويكشف هذه الأُمور، وهذه سنة الحياة.

هذه الاضاءة مهمة نستلهمها من هذا الدرس «قد جرت عليها دول قبلك» كل الأحداث التي تمر على الشعوب والأُمم، وكل التحديات والمخاطر التي تواجه الناس في المنظومات القيادية، من الأُسرة، وهي المنظومة الصغيرة، إلى الدولة، وهي

المنظومة القيادية الأكبر، وما بينهما منظومات كثيرة، وكل مجموعة تدار ضمن اطار ونظام وقواعد، هي منظومة قيادية فيها مسؤول يأمر وفيها أُناس تأتمر بأوامره. ولا تختلف الضوابط والقواعد في أي منظومة قيادية، سواء في الأُسرة أو الشركة أو المصنع أو الوزارة أو الشعب أو الأُمة إلى غير ذلك، مهما توسعت أو تضيقت.

إذن، التأريخ له ذاكرة، والتأريخ يحفظ جيداً في ذاكرته كل هذه التفاصيل والمواقف. ونقرأ اليوم حتى عن الجهود التي بذلت لتضييع الحقيقة والتشويش على الواقع، يقال فلان من الحكام كان يعطي كذا من المال لأُناس حتى يضعوا الحديث وحتى يصوروا الأُمور على خلاف ما كانت.

لقد بذلت إمكانات مادية ومعنوية هائلة على طول التأريخ لتغييب الحقيقة. وكان المتصدون يوظفون إمكاناتهم دائماً لعرض الأُمور على الطريقة التي تروق لهم.

ونرى اليوم في حياتنا قضية بسيطة جداً؛ فإن إنسانا يتحدث بحديث فتختلف النقولات والروايات، مع أن الفضائيات وكل واحد في بيته مطلع على الموقف، ومع ذلك تختلف الروايات والانطباعات والتصورات والتكهنات والتحليلات لهذه القضية أو تلك.

ولا نتحدث عن تعدد في المواقف، بل الموقف الواحد، ولكن يتحدث فلان بأربع كلمات، فترى عشرة يقفون وينقل كل واحد عنه بنحو يختلف عن الآخرين، مع أن الجميع حاضرون في الحدث، فما بالكم إذا طوع التأريخ وطوعت الحقائق بالإغراءات المالية والإمكانات البشرية ليكتب بالطريقة التي يريدها الطغاة؟. ويفترض أن تضيع الحقيقة، ولكن بقيت الحقيقة ناصعة وبينة.

فمن ينظر إلى الخط العام للتأريخ الإنساني اليوم يجد أن الحقائق مضيئة وواضحة وتزهر كالنجوم، كما يجد كل المظالم واضحة أيضاً ويعرفها الناس، حتى قال البعض ان التأريخ لا يرحم، ومعنى ذلك أن الحقائق تبقى واضحة ولا يمكن طمسها مهما حاولوا التشويش، وأن ذاكرة الشعوب والأُمم هي أكبر من أن تخضع لمثل هذه المحاولات البائسة.

وهذا يعني أن المواقف والسلوك والأداء والقرارات لا تضيع، وإن كان البعض يستطيع أن يغطي عليها لفترة قصيرة وفي مرحلة ما، ولكن سرعان ما تتكشف

الحقائق ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[٨٨]. وهذا درس عظيم نأخذه من الإمام عليعليه السلام.

أيها المسؤول يا من تتصدى لمواقع المسؤولية اعلم بأنك تحت المجهر، في كل حركة وسكنة وموقف، والأنظار متوجهة إليك، ومواقفك يحسب لها ألف حساب، وستسجل في التأريخ مهما حاولت أن تغير الحقيقة. فإذا كنت خدوماً ستعرف الناس يوماً هذه الحقيقة، وسيتذكرون شخصيات من الماضي كانوا خدومين. إن أبسط القضايا تتذكرها الناس اليوم وتتناقلها وتتحدث بها مع أنه قد مضى عليها عقود من الزمن وبعضها قرون.

إن منهج عليعليه السلام هو تنشيط هذه الذاكرة، فيذكر الناس دائماً بما مضى، وهو منهج قرآني، فالقرآن مليء بالحكم والعبر والإضاءات عن تأريخ الأنبياء وأُممهم السابقة، وعن تأريخ الأمم الصالحة والطالحة، فيسرد المواقف ويقص القصص ويقتبس العبرة؛ لأننا بحاجة دائماً إلى هذا التأريخ لكي لا نقع بما وقع فيه السابقون.

وعلينا دائماً أن نتمتع بزخم تأريخي وحضاري، وأن ننطلق ونبدأ من حيث انتهى الآخرون، فالبشرية تتكامل، وفي المجموع مسيرة البشرية مسيرة تكاملية، وهذا ما نذكره في تفسير تعدد الديانات، فالله تبارك وتعالى واحد، والبشر هم أيضاً حقيقة واحدة، وهذه الرسالات متعددة، والكتب السماوية متعددة، وربما يقال إن كتابا واحدا منها يكفي، ويأتي أنبياء ويبشرون بنفس الرسالة، فلماذا التعدد؟.

نقول: إن البشرية تتكامل، فالجوهر واحد والحقيقة واحدة، ولكن تطور هذه الرسالة بحسب طبيعة التطور البشري واحتياجات الإنسان، وتصبح معجزة الرسالة الإسلامية، انها جاءت بأُطر وضوابط قادرة على أن تتكيف مع الواقع، ومع الزمان والمكان وتطورات الحدث. لذا يرى الناس القرآن والرسالة الإسلامية والمنهج الذي حملته، يرون كل ذلك حاضراً وطرياً في كل زمان ومكان، ومنسجماً مع تحدياتهم. إذن، الإنسان يتطور والبشرية تتطور، ولابد من أن نستفيد من الماضي.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة له ـ الخطبة ٨٢ من نهج البلاغة ـ في الكوفة،

---

٨٨. الرعد: ١٧.

وهي خطبة طويلة ولكن نأخذ مقطعا منها:« وإن لكم في القرون السالفة لعبرة» أيها الناس اعتبروا من القرون السالفة، ومن الأُمم التي جاءت بكل ما حملته من خير وشر. «أين العمالقة وأبناء العمالقة» يبدأ باستعراض بعض المراحل المهمة في تأريخ الإنسانية؛ إمبراطوريات كما نسميها في مصطلحاتنا المعاصرة، وأنظمة جاءت وذهبت. «أين الفراعنة وأبناء الفراعنة» أين ذهبوا؟ كل واحد كان له تأثير كبير في زمانه، وكانت إرادته تتحكم بإرادة الملايين من البشر، أين اصبحوا؟، جاؤوا وذهبوا وبقيت أخبارهم ومواقفهم.

«أين اصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين»، أصحاب الرس هم الذين حكموا الدنيا بعد أصحاب ثمود، ويتحدث عنهم القرآن الكريم بأنه كان لهم تأثير واسع وكبير، وقد أرسل الله تعالى العديد من الأنبياء لهم، ولكنهم كذبوا بهم وأساؤوا لهم وقتلوهم، فأهلكهم الله سبحانه وتعالى، يقول جل من قائل: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرا﴾(٨٩) . ويقول أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾(٩٠)، وقد ذكرهم الله تعالى مرتين، مما يبين كم كان لهم من تأثير. وقد وقف علي عليه السلام عندهم وذكرهم أيضاً.

«وأطفؤوا سنن المرسلين» كانوا معاندين ووقفوا بوجه الحق والحقيقة، وخلدوا ليكونوا ملعنة للتأريخ، كما أن الأنبياء والصلحاء الذين اتخذوا المواقف الصائبة والصحيحة، بقوا يترحم عليهم جميع الناس ويتذكرون أحوالهم وشؤونهم في كل زمان ومكان.

«واحيوا سنن الجبارين» أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الأُلوف وعسكروا العساكر، ومدنوا المدائن. يسأل عليه السلام أين هؤلاء الذين كان لهم صولات وجولات، وكانوا في يوم ما يملكون الدنيا وما فيها، وكان قرارهم يؤثر في الناس، ولكنهم رحلوا ولم يبق لهم من الآثار إلا بعض الأحجار ومواقف وسلوكيات وطريقة في التعامل مع الشعوب والأمم ومع الناس الذين كانوا تحت أُمرتهم، وأصبحوا نماذج تدرس في تقييم المنظومات القيادية.

وقف علي عليه السلام مع جيشه وهو ذاهب إلى صفين عند المدائن واطلعوا على طاق

٨٩ . الفرقان: ٣٨.
٩٠ . ق: ١٢.

كسرى، وهو من الآثار التأريخية المتبقية من العهد الساساني، وهنا استشهد الحر بن سهم بن الطريف أحد أصحاب علي عليه السلام بشعر معروف للأسود بن يعفر:

جرت الرياح على مكان ديارهم   فكأنما كانوا على ميعاد

أي كأن ميعادهم مع هذه الرياح، بأن تأتي وتأخذ كل شيء ولا تبقي إلا بعض الآثار البسيطة عنهم. فقال علي عليه السلام: «سنة صحيحة»، ولكن لماذا الاستشهاد بهذا البيت من شعراء الجاهلية، وأشار الى أن الأولى أن يستشهد بالآية الشريفة: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّات وَعُيُون × وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم × وَنَعْمَة كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ × كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آَخَرِينَ × فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[٩١].

لقد ذهب هؤلاء وتركوا بساتين وقصوراً وعيون مياه جارية ومحاصيل زراعية متنوعة، وكانوا يصنعون مساكن فخمة أنيقة وزاهية، وكانوا متمتعين بنعم كبيرة وكثيرة نتيجة موقعهم واستغلالهم للثروات والموارد العامة، ثم زالت هذه النعم منهم وأُعطيت إلى قوم آخرين، فما بكت عليهم الملائكة الذين هم سكان أهل السماء، ولم يبك عليهم أهل الأرض، لقد رحلوا وهم غير مأسوف عليهم، فلا أحد يذكرهم بخير ولا أحد يتفقدهم. وحتى أنهم لم يعطوا فرصة الدفاع عن أنفسهم، ولم يعطوا فرصة إيضاح ما حل بهم، وفي ما بعد أصبحوا شيئاً لا يذكر، ولا يستحق الوقوف عنده.

بينما ينبغي أن يعيش الإنسان حياته بطريقة إذا مات بكى عليه الناس، ولا تبكيه الناس إلا حينما يفتقدونه فيتذكرونه ويتأسفون على فقده بسبب آثاره الطيبة معهم، وإذا عاش حنوا إليه لحسن خُلقه معهم. ولا يكون الإنسان كذلك إلا حينما يترك بصمات إيجابية في الحياة، كما قال علي عليه السلام:» عاشروا الناس بالمعروف إن عشتم حنوا إليكم، وإن متم بكوا عليكم»[٩٢].

ثم قال عليه السلام:« إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية »، لقد ورث هؤلاء من سبقهم فأُهلكوا وأصبحوا موروثين ممن

٩١ . الدخان: ٢٥ـ ٢٩.
٩٢ . بحار الأنوار ٧٥: ٧٧ح٤٧.

جاء بعدهم، وكان سبب هلاكهم أنهم لم يشكروا النعم التي وهبها الله تعالى لهم، فسُلبوا دنياهم بسبب معصيتهم بترك شكرها وعدم التعامل معها بشكل صحيح، فأخذتهم الدنيا نحو المعصية والرذيلة.

ثم يقول أمير المؤمنين عليه السلام:«فإياكم وكفر النعم». وهنا يخاطب علي عليه السلام أصحابه والمسلمين والبشرية جميعاً، بألا يكفروا بالنعم وألا يقللوا من قيمة الفرص الهائلة التي يتيحها الله سبحانه وتعالى لهم، لكي لا تحل بهم النقم، فإنهم إذا كفروا بالنعم ستحل بهم النقم؛ قال تعالى:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٩٣]. فعلينا أن نكون محتاطين حذرين.

الإضاءة الثانية

إحساس الناس بالعدل أو الظلم في المنظومات القيادية

إن سنن الحياة تقول: إن كثيراً ممن يتصدون للإدارة والحكم يظنون أن الناس لا يفهمون ولا يعون وينخدعون بسرعة، ويصدقون كل ما يقال لهم. نعم، قد يكونون مضطرين لأن يتجاوبوا، لكن حينما يراجعون أنفسهم سيجدون اليوم أن الناس تتندر بالسابقين، حتى إذا كانوا أمواتاً، فتبين أن أحداً لم يصدق كل هذه المقولات.

إذن، فالناس تشخّص وتقدر أي موقف هو الموقف العادل، وأي موقف هو الموقف الظالم، وما الصحيح وما الخطأ. ولا يظن أحد ممن هو في المنظومة القيادية أنه حينما تلتبس الأُمور تضيع الحقائق على الناس، كلا، فالناس تشخص وتقدر الأُمور بشكل صحيح، وهي تستخدم العقل والفطرة والتجربة لتميز الأُمور بعضها عن بعض وتتوصل إلى الحقائق كما هي وتحفظها في ذاكرتها لتتحول إلى ذاكرة التأريخ وتصبح حقائق تأريخية من خلال هذه القنوات الثلاث.

هكذا هي دواليب الحياة، وهكذا هي السنن التي تتجدد في كل زمان ومكان. واستحضار هذه الحقيقة لمن يتصدى للحكم وإدارة المسؤولية في أي موقع يجعله يحسب مئة حساب لسلوكه ومواقفه وحركاته وسكناته، فلا يندفع متوهماً أن

---

٩٣ . إبراهيم: ٧.

الناس لا تفهم ولا تعي، وسيعمل المسؤول على أن يجسد العدالة في سلوكه حتى يكون شيئاً يذكر بخير، وإلا أصبح لعنة للتأريخ.

الإضاءة الثالثة

الواقعية

يجب على المسؤول والمتصدى إلى مهمة أن يكون واقعياً. والواقعية تعني أن تتوقع للناس ماكنت تتوقع لنفسك، وأن تقبل من الناس ما كنت تقبله من نفسك حينما لم تكن في موقع المسؤولية.

نتذكر عندما كنا معارضين لنظام صدام، كنا نصرخ وننتقد ونتحدث ونعري الأخطاء وندافع عن الحقوق ونشرح ظلامتنا في كل الأروقة الاقليمية والدولية، وكنا نصدر إصدارات ونحاول أن نوصل ظلامة شعبنا إلى الناس. واليوم أصبحنا نحن في مواقع الإدارة والخدمة العامة، وأخذ الآخرون مواقعنا وأصبحوا معارضة، فإذا كانت صدورنا تتسع لسماع انتقاداتهم وملاحظاتهم وصراخهم فهذه هي الواقعية.

وهذه واحدة من القضايا الأساسية، فإن الحياة لا تتغير، والواقع لم يتغير، وكل ما حصل هو تبادل في الأدوار، بالأمس كان فلان وزيراً وفلان مديراً عاماً، وكان ينتقد الوزير، فدارت دواليب الحياة وأصبح المدير العام وزيراً وغدا اليوم لا يتحمل النقد!، بالأمس عندما كان مديراً عاماً كان الانتقاد حلالا له، واليوم عندما صار وزيراً أصبح الانتقاد على غيره حراماً.

وقد قرأت في الصحف أن أحدهم كان نائباً في البرلمان أو نائباً في مجلس المحافظة، وكان لديه سائق، وفي الانتخابات دخل كل واحد منهما في قائمة، فصعد السائق ولم تتوفر للنائب السابق فرصة الصعود. ومن الممكن أن تكون كلمة قد خرجت من النائب ضد هذا السائق، بوجهه أو خلفه، واليوم وقد أصبح السائق نائباً، فكيف سيتعامل مع سائقه الجديد.

إن المواقع تتبدل وتتغير ولكن الاطار محفوظ والقواعد والأُسس التي تحدد الحياة ثابتة لا تتغير. واستحضار هذه الحقيقة والسعي لتكييف من هو في مواقع الإدارة والقيادة معها، أي تكييف نفسه بهذه الواقعية، سيعطي فرصة للسيطرة على المواقف

لمراجعة ما يقوله وما يفعله كل منا قبل أن يفعل وقبل أن يقول، كما تدين تدان، وسوف يأتي يوم الآخرين ليقولوا ما كنت تقوله بحقهم، فعلينا ألا نقول ما لا نتحمله من الآخرين.

الإضاءة الرابعة

ضرورة إصلاح الانطباعات والتوقعات

كيف ينبغي أن ينظر المسؤول إلى نفسه؟ وما انطباعاته عن نفسه؟ وما انطباعاته عن الآخرين، وعمن يعمل معه في دائرة المسؤولية، وعن عموم المواطنين، وما انطباعاته عن الموقع الذي هو فيه؟. وهذه الانطباعات وهذه التوقعات من المسائل المهمة التي ينبغي التعرف عليها، فإن البعض ما ان يصل ويصبح مسؤولاً حتى تتغير انطباعاته وتوقعاته، فيعذر نفسه في كل شيء ولا يعذر الناس في أي شيء، ويتوقع من الآخرين كل شيء ولا يتوقع من نفسه شيئا، ويرى نفسه أنه الرب الأعلى كما يذكر القرآن الكريم.

فمثلاً، يسير في موكب من السيارات فلا يحترم نظام المرور، وعندما يُسأل لماذا تفعل ذلك؟، يقول: أنا مدير عام!، صحيح أنك مدير نصبوك لتنظم الأُمور في الدائرة الفلانية أو الوزارة الفلانية، ولكن ما علاقة ذلك بالحياة اليومية؟، ولماذا استخدام هذا الاسم في هذه المجالات واستغلاله للتأثير وللسلطة وللنفوذ وللواجهات في مسائل كثيرة لا علاقة لها بالمهمة المناطة بك؟، وهذه القضية في غاية الأهمية، فالإنسان إذا أراد أن يكون عادلاً عليه أن يكيف سلوكه وتوقعاته وانطباعاته تجاه نفسه واتجاه الآخرين وتجاه العاملين، ويكيفها مع المنهج العادي، وإذا أراد أن يشذ ويظلم فعليه أن يكيف كل هذه الأُمور ضمن سياقات الظلم.

واليوم هناك أُناس يطردون باسم القانون والالتزام بالمادة رقم كذا من مناطق بائسة أو معسكرات خارج المدن ويسكنون في بيوت من طين، فلماذا يفعل بهذا المواطن المسكين هكذا، وهناك مئة مادة في القانون تدافع عنه وتحميه وتلزم الحكومة بأن توفر له أبسط مقومات حياته؟، ولماذا لا يستحضر أحد هذه المواد ولا يستذكرها؟، وقدرتكم فقط على هذا المواطن الضعيف، وتسألونه لماذا يسكن في المعسكر

الفلاني، بينما توجد هناك الكثير من أراضي العراق الصحراوية، اذهبوا وأقيموا عشرين معسكرا آخر.

وإذا أردتم هذا المعسكر بالذات فوفروا فرص معيشة وفرص سكن للناس ثم طالبوهم بأن يغادروا هذه الأماكن. وهنالك حالات يجدها الإنسان يدمى لها القلب، فقد شاهدت في إحدى القنوات الفضائية تقريراً عن عائلة هدم مسكنها في انفجار إرهابي، وطبعاً وكما هو المألوف، لا أحد يرى نفسه معنيا بأن يوفر لها المسكن البديل أو يساعدها وهي في حالة مزرية، فقد كان الرجل مريضاً والزوجة مريضة وليس له سوى بنات يعملن معه ويديرون معيشتهم، فبكيت وقلت هذا هو وضع الإنسان في العراق؟.

وقبل يومين سمعت تقريراً، عن أن العراق أصبح البلد الثالث في العالم في المخزون النفطي بحسب المستكشف حتى الآن، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك بكثير.

إذن هذه قضية أساسية في نهج علي عليه السلام، وهي كيف ننظم ونكيف القانون ليدفعنا نحو السلوك العادل أو السلوك الظالم؟، وكيف نصحح هذه الانطباعات والتقديرات والتوقعات لتكون المؤسسة الحكومية مؤسسة عادلة وتدفع للمزيد من العدل؟.

الإضاءة الخامسة

جعل النفس ميزاناً في ما بينه وبين الآخرين

والإضاءة المهمة الاخرى هي أن يضع الإنسان نفسه في موضع الآخرين ويقبل لهم ما يقبله لنفسه، ويعذرهم بما يعذر به نفسه، ويعاتبهم بما يعاتب به نفسه. فعلى المسؤول أن يتذكر أنه بشر، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله بشراً، وقد أكد القرآن الكريم على بشريته بقوله:﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾[٩٤]، وقوله:﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[٩٥]. فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أفضل الخلق بشراً، فأعلم أيها المدير والرئيس والوزير بأنكم أيضاً من البشر، فلا تنظر لنفسك بأنك تختلف عن الآخرين ولا تميز نفسك عن الآخرين.

---

٩٤ . الفرقان: ٧.

٩٥ . الكهف: ١١٠.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام في وصية طويلة أوصاه بها وهو في صفين: " يا بني اجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك"[٩٦].

وتجسد هذه الكلمات لأمير المؤمنين عليه السلام هذه الإضاءة بشكل واضح وجلي، إذ يضع القاعدة الأساسية للإمام الحسن عليه السلام باعتباره سيتولى شؤون الخلافة والمسؤولية من بعده، فيوصيه بأن يجعل نفسه ميزاناً بينه وبين الناس، من حيث الحب والكره، والظلم والإحسان، والاستقباح والرضا. ثم يوصيه بأن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم، وألا يقول لأحد ما لا يحب أن يقال له.

وتستوعب هذه الأُمور التسعة جميع علاقات المسؤول مع الناس، وتعد جميعاً تطبيقات للقاعدة التي ذكرها عليه السلام في صدر كلامه. وهي ضوابط تفوق جميع ما طرحته القوانين الدولية في تحديد العلاقة القائمة بين المسؤول والناس، لأن غاية ما تطمح إليه هو تحقيق العدالة والإنصاف، بينما تهدف كلمات الإمام علي عليه السلام إلى تحقيق الإحسان القائم على أساس الحب، وهو درجة أعلى من العدالة.

فالإحسان يتضمن الشفقة والمودة والمحبة والكلمة الرقيقة والموقف الطيب والشيمة والنخوة والعون والنصرة. وأين الآن هذه المفاهيم؟ وكم نحن بحاجة لها؟ وما أكثر من يدعي التمسك بهذه المفاهيم في مجتمعنا في دائرة المسؤولين وأصحاب المناصب، ولكن هناك في الحقيقة بون شاسع بين الادعاء والواقع. ونحن بحاجة ماسة إلى تعزيز هذه المفاهيم وترسيخها بشكل أكبر ليكون البناء الاجتماعي سليماً، ونستطيع بناء الدولة على أُسس صحيحة.

---

٩٦ . نهج البلاغة: الرسالة ٣١.

الدرس العاشر

معيار الرأي العام

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: "وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح".

يشير أمير المؤمنين عليه السلام في هذه العبارة القصيرة إلى حقيقة أُخرى من الحقائق المهمة في نجاح المنظومة القيادية وفي تحقيق الأهداف لمن يتصدى لإدارة الأُمور، أيا كان مستوى هذا التصدي، وأيا كانت مساحة هذا التصدي. وقد ذكرنا أن المنظومة القيادية لا ترتبط فقط بالزعماء الذين يقودون شعوباً وأُمماً، وإنما يمكن أن تنزل إلى أضيق الدوائر القيادية حينما يدير الإنسان عدداً محدوداً من الناس كما في الأُسرة أو المصنع أو المتجر أو أي مهمة من المهام القيادية التي يجتمع فيها عدد من الناس وهناك من يقودهم، فهذه الضوابط والسياقات سارية المفعول على كل هذه الحلقات القيادية.

وهنا يذكر أمير المؤمنين عليه السلام واحدا من المعايير التي يستدل بها على صلاح المسؤول والمتصدي، وهي أن الإنسان الصالح والمسؤول الصالح والقيادي الصالح، هو ذلك الذي يلهج الناس بذكره ويتحدثون بأعماله الصالحة. فانطباعات وتصورات الرأي العام وتقييمها لأداء المسؤول تمثل واحدا من المداخل التي يستدل من خلالها على صلاح المسؤول ورشده وحسن أدائه. ولهذا يحث علي عليه السلام الحاكم والمسؤول أن يكون أحب الذخائر إليه ذخيرة العمل الصالح.

ويحتوي هذا الدرس على مجموعة من الإضاءات الكبيرة ، وهي:

الإضاءة الأُولى

موقع الصالحين في قلوب الناس

يستهوي الله سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين وقلوب الناس ويستميلها باتجاه المتصدي الصالح والمسؤول الصالح، وهو الذي يحظى بحسن تقييم الناس وبحسن ظنهم، فيتحدثون عنه بخير. وهذه خصوصية غاية في الأهمية. وقد ضمن الله سبحانه وتعالى لمن يحكم ويدير الأُمور على أساس الحق والعدل، وعلى

أساس تقديم الخدمة العامة، وعلى أساس المعايير الصحيحة، المكانة المرموقة والمحبة في قلوب الناس في الدنيا قبل أن يضمنها له في الآخرة. وهذه عطية إلهية وهبة إلهية.

إن الإنسان الصالح حينما يتصدى يحظى بالمحبة والتقدير من الناس، فهو قادر على أن يدخل إلى قلوب الناس ويسيطر على قلوبهم وعواطفهم من دون حاجة إلى التصنع والتظاهر بأُمور معينة، ومن دون الحاجة إلى اغراءات يقدمها لهذا وذاك، ومن دون الحاجة إلى المكر والخداع، ومن دون الحاجة إلى ترهيبهم واخافتهم وفرض رأيه عليهم، لأن الله سبحانه وتعالى تكفل لهذا المسؤول بأن يضمن له حسن السمعة والمحبة في قلوب الناس حينما يسير بالاتجاه الصحيح.

ليس الطريق لجعل الناس يطيعون ويلتزمون بكلام المسؤول، هو الإرهاب والتخويف والوعد والوعيد والاغراءات، بل إن الالتزام بالمعايير الصحيحة ومراعاة القيم والثوابت والصدق مع الناس كافية لأن تجعل الناس يحترمون ويقدرون ويتعاطفون ويتفاعلون مع هذا المسؤول ليصبح ذا سمعة طيبة، وهذا ما نراه بالوجدان، ففي دائرة ما وفي مكان ما نسمع الكل يتحدث بخير عن المسؤول الفلاني. وهذه عطية إلهية، فمن يريد أن يكون له موقع في قلوب الناس لا يحتاج إلى أن يذهب ويستخدم الوسائل الملتوية، بل يكفي أن يكون واضحاً وبيناً ويسير في الاطار الصحيح حتى يحظى بثقة الناس واحترامهم.

وقد تحدث القرآن الكريم عن العلاقة بين المؤمنين والمسؤول ووصفها بأنها علاقة ألفة ومودة ومحبة، يقول الله تعالى:﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(٩٧). إذن فهذه قضية إلهية، ولا يمكن أن تأتي بالإرعاب والتخويف، فالحاكم ولو كان بمستوى رسول الله صلى الله عليه وآله غير قادر على التأليف بين القلوب والتقريب بين النفوس، ولكن هذه قضية تكفلها الله سبحانه وتعالى.

ويشير القرآن الكريم في آية أُخرى إلى السر في تحقيق هذه الألفة، كما ورد ذلك

٩٧ . الأنفال: ٦٣.

في قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[٩٨]، أي أن العقيدة الصالحة والعمل الصالح إذا اجتمعا يضمنان للإنسان المودة والمحبة في قلوب الآخرين.

فمن يطمح الى أن يحبب نفسه إلى قلوب الناس من دون اعتماد المعايير الصحيحة يضيع وقته مهما أنفق من مال إذا كان الأداء والنية غير صحيحين، فإن الله لا يلقي حبه في قلوب الناس، ولا يحصل على هذه الهبة.

وهذا ما نلاحظه اليوم في زماننا، فهناك قادة وحكام تصل ميزانيات بلدانهم إلى مئات المليارات من الدولارات في السنة الواحدة ولا يحظون بأي محبوبية من شعوبهم، وهناك قادة وزعماء لا يمتلكون مالاً ولا يمتلكون وسائل إعلام ومع ذلك ترى حبهم في قلوب الناس.

ولو جرى اليوم استطلاع رأي في العراق، فأنا أعتقد بأن الإمام السيد السيستاني والمراجع العظام سيكون لهم الحظ الأوفر من محبة الناس واحترامهم، مع أن هؤلاء لا يملكون فضائيات، ولم ينفقوا أموالاً حتى يحبهم الناس، فليس لديهم مثل هذه الاغراءات، ولا يتعاملون بالمجاملات مع الآخرين.

إذن قضية المحبة وقضية التأثير في النفوس هي قضية معنوية إلهية، والله سبحانه تعالى قد تكفلها. وما على الحاكم والمسؤول والمتصدي إلا العمل ضمن السياقات، والله سبحانه يضمن له المحبة والاحترام في قلوب الناس، وهذه هي القاعدة والإضاءة التي يمكن أن نستفيدها من هذا الدرس العظيم لعلي عليه السلام.

الإضاءة الثانية

الرأي العام هو الملاك في صلاح المسؤول

إن رأي الناس وانطباعاتهم وتقييمهم للحاكم والمسؤول والمدير معيار وملاك في صلاحهم. وهذه قضية مهمة جداً، فالمسألة ليست اعتباطية. وليس للمسؤول أن يقول أنا أعمل وفقاً للضوابط والسياقات التي أراها صحيحة وليس للناس علاقة

٩٨. مريم: ٩٦.

بالموضوع. فالمعيار هو ما يقوله الناس، وكيف يقيمون المسؤول، لأن الله تعالى قد أجرى على ألسنتهم الحق.

إذن، هؤلاء العباد يجب أن يحرزوا الوضوح في الموقف والعمل الذي يقوم به المسؤول، وهذه أيضاً مسألة مهمة جداً، مع قطع النظر عن مدى التزام هؤلاء الناس بكلام الزعيم والقائد والمسؤول، فقد يكون القائد قائداً روحياً، واليوم يذكر التأريخ الأنبياء بخير كبير، وهناك أُناس عاشوا مع اؤلئك الصلحاء يذكرونهم بخير، مع أنهم كانوا يتمردون على تعاليمهم.

فلم يذكر لنا التأريخ تشكيكا بصدقية الأنبياء والصالحين والأولياء والمتصدين الذين التزموا بالضوابط والقيم والمبادئ، مع أنه حدثنا عن عدم طاعتهم، والقلب دائماً مع الحق، حتى أن من قاتل سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام كانت مشاعرهم وقلوبهم وعواطفهم معه، كما وصفهم الفرزدق. فالقلوب مع الإنسان الصالح، وهذا سر من الأسرار الإلهية.

إذن رأي الناس هو الملاك والمعيار والمقياس الحقيقي لمدى صلاح المتصدي والحاكم. وعندما نرى الناس جميعاً تتحدث عن شخص بسوء، فلا يمكن أن يكون صالحاً في أدائه. نعم قد تشوش الصورة ويرتبك المشهد عندما ينقسم الناس؛ فيذكره البعض بخير ويذكره البعض الآخر بسوء، وفي هذه الحالة ـ كما تشير مجمل النصوص ـ يذهب الإنسان إلى الصالحين وإلى النخب من أصحاب الفكر وإلى الناس الذين لا يتأثرون بالتشويش، فيكون كلامهم هو المعيار والحجة على صلاح المسؤول والمتصدي.

الإضاءة الثالثة

احترام آراء الناس في الخطأ والصواب

يعبر هذا الدرس عن مدى الاهتمام برأي الناس، فهو محترم ومقدر على كل حال. وما نفهمه من هذه النصوص أن رأي الناس محترم حينما يصيبون، وهو محترم أيضاً حينما يخطئون. وهذه الكلمة لعلي عليه السلام فيها درس عظيم، فهي تريد من الحاكم والمسؤول أن يقف عند كلام الناس وتقييمهم له حتى لو كان البعض

منهم مغرضاً ويتعمد الإساءة، وعليه أن يسمع من الجميع، فإن كان بعضهم مصيباً وسجل ملاحظات منهجية حول الأداء فعليه أن يستفيد من أخطائه ويتعرف عليها ويعالجها حتى لا تشذ عن الطريق وتنحرف عن الضوابط والمقاييس، وينبغي ألا تأخذه الحالة النرجسية للمنصب والنفوذ فيضيع عليه كل شيء وتلتبس عليه الأُمور.

وأما إذا كان الناس غير صائبين في تقييمهم وآرائهم ومغرضين ومغررا بهم ومتأثرين بأحاديث غير صحيحة، ففي هذه الحالة أيضاً على المسؤول أن يستمع إليهم حتى يعرف أين هو سوء الفهم ومناشئ الالتباس، لكي يتسنى له معرفة مزاج الشارع، فالمسؤول الذي لا يعرف مزاج الشارع ولا يعرف كيف ينظر الناس إلى تصريحاته ومواقفه يبتعد عن الناس، في حين أنه مسؤول عنهم ويتحمل المسؤولية في خدمتهم، وإن كانوا غير عارفين بسر موقفه وسلوكياته وخطواته ومشاريعه.

ولذا ينبغي على المسؤول أن يصغي ويتفهم ويتفاعل حتى مع حديث المغرضين، ويضعه في خانة معينة، ويتخذ الاجراءات المناسبة لمعالجة هذا الالتباس الذي دعا بعض الناس الى أن يأخذوا انطباعات خاطئة عنه. ومن هنا يتضح عمق الرؤية الإسلامية في هذا الموضوع التي تقول بأن عدم الاكتراث وعدم الاعتناء برأي الناس سيدفعهم إلى اتخاذ خطوات خاطئة لإيصال صوتهم، وستزداد الفرقة والتفكك في المجتمع الذي يتعرض إلى حالة من هذا القبيل.

وهذا درس عظيم يقدمه لنا علي عليه السلام وهو أن رأي الناس مهم وإن كان بعضهم مغرضاً، ومعطلاً، ويبحث عن زلات، وليس موضوعياً، ولا ينظر إلى الأُمور بتجرد، أو هو منحاز. وعلى المسؤول أن يسمع لهم ويتعرف على خلفية مواقفهم ويعالج هذا الموضوع، ولا يمكن لمسؤول أن ينجح وهو يقول إن الجميع مخطئون وأنا مصيب، فمن أعطاه هذه العصمة؟ وعلي عليه السلام لم يحكم الأُمة بهذا المنهج، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس مع الناس ويتشاور معهم ويوضح لهم مواقفه، فكيف الأمر بغير المعصوم؟!.

إن الفجوة بين المسؤول وعموم الناس هي أخطر ظاهرة يمكن أن تجهض المنظومة القيادية وتحول دون الوصول إلى أهدافها وغاياتها. ومن الأُمور المهمة أن يكون

المسؤول قريباً من المجموعة التي يقودها، ويتفهم معاناتها، ويشرح لها خلفيات القرارات التي يتخذها ويعتمدها.

الإضاءة الرابعة

أهمية العمل الصالح للمسؤول

إن من يتصدى ويتحمل المسؤولية محتاج إلى ذخيرة، فلا أحد يستغني عن الذخائر حتى لو كان حاكماً وبيده مقدرات الأمة، ولكن ما هذه الذخيرة؟ يعتقد البعض بأنها الثروة والإمكانات، ويعتقد البعض بأنها القوة والسلاح والجيوش التي يتكئ عليها ويحقق أهدافه من خلالها، ويعتقد آخرون بأنها شيء آخر.. وهكذا. ولكن عليعليه السلام يشير إلى أن العمل الصالح هو أحب الذخائر وأهمها، وهو الذي يجلب المال والقوة ويعبئ المجتمع ويوظف كل الإمكانات لصالح المشروع.

ومما يؤيد قول أمير المؤمنينعليه السلام في أن العمل الصالح هو خير ذخيرة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٩٩]، وللعمل الصالح في الرؤية الإسلامية مفهوم واسع جداً، فكل خطوة مفيدة مؤثرة وإيجابية هي عمل صالح، ولا يتقيد العمل الصالح بموضوعات وعناوين محددة وعبادات معينة، بل الباب مفتوح ليشمل كل خير، وكل ما يحقق منفعة للناس فهو عمل صالح، ولمثل ذلك فليتنافس المتنافسون على فعل الخير.

والعمل الصالح بهذا المفهوم الواسع هو الذخيرة التي لا يستغني عنها القائد والحاكم ومن يكون في موقع المسؤولية. وقد اقترن العمل الصالح بالإيمان في كثير من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، فالاقتران الصحيح هو ما كان بين العقيدة السليمة وفعل الخير، فالعمل الصالح بدون عقيدة سليمة كمن يسير ولا يعرف الجهة التي تؤشر إليها البوصلة، فالعقيدة الصحيحة تجعل الإنسان متوجهاً نحو الله عز وجل في مسيرته التكاملية، وكل عمل صالح يقربه إلى الله تبارك وتعالى يدفعه بالاتجاه الصحيح.

---

٩٩ . النحل: ٩٧.

الدرس الحادي عشر

التعامل مع الرأي العام

يقول أمير المؤمنين(عليه السلام) في عهده لمالك الأشتر عندما ولاه مصر:" فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها في ما أحبت أو كرهت".

تتضمن هذه العبارة الموجزة معاني عظيمة وكبيرة في المنظومة القيادية وفي الأدب القيادي للمسؤول حينما يتصدى. فهي تخاطب المسؤول الذي يتحمل المسؤولية تجاه الآخرين بأن يسيطر على هواه ويكبح جماح نزواته ورغباته ومشاعره وأنانيته، فهو ليس في موقع يتعامل مع من يريد كيف يشاء، فهو مسؤول عن مجموعة من الناس ـ أيا كان حجمها وعددها ـ عليه أن يلحظ هذه المسؤولية في مجمل حركاته وسكناته ومواقفه وسلوكياته.

ويطلب أمير المؤمنين(عليه السلام) من المسؤول أن يشح بنفسه، والشح هو البخل، أي يريد منه أن يكون بخيلاً مع نفسه، وأن يكون شديداً عليها في ما لا يحل له في القضايا التي لا يسمح له كمسؤول أن يمارسها أو يقوم بها، فيتعامل بشح وبخل واقتصاد شديد وحزم كبير مع نفسه حينما يكون في مواقع المسؤولية، فإن الشح بالنفس يتحقق عندما يراقب المسؤول نفسه ويميل عليها، وحينما يتعامل بحزم معها.

ثم يطلب(عليه السلام) من المسؤول الإنصاف منها في ما أحب أو كره، أي أن هذا البخل والحزم والشدة في التعامل مع النفس هو إنصاف لها، ويتحقق ذلك بعدم السماح لها بأن تنطلق لتحب كما تريد وتكره كما تريد؛ إذ لعلها تحب أشياء تضر بها وهي لا تعلم، ولعلها تكره أشياء تنفعها وهي لا تعلم، كما بين الله تبارك وتعالى ذلك بقوله:﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾(١٠٠).

١٠٠. النساء: ١٩.

إذن هذه النفس تميل نحو أُمور وتحجم عن أُمور، وهي من الممكن أن تحجم عن الحق وتميل إلى الباطل. فمن حق النفس على صاحبها إنصافها.

والإنصاف من النصف، أي مسك العصا من الوسط. فعلى المسؤول ألا ينساق وراء نفسه ووراء هواه، فما يدريه لعله يحب فيندفع ويكون في هذا الاندفاع ضرر، ولعله يكره فيحجم فيكون في هذا الإحجام ضرر.

والإنصاف يعني الوسطية والموضوعية والدقة في تقييم الأُمور، وألا يحكم المسؤول العواطف والمشاعر والأنانيات، فيكرم من يظهر الخضوع والطاعة وينتقم ممن لم يظهر الولاء والخضوع.

ولا ينبغي أن تسير الأُمور بهذه الطريقة، فقد يكون خيرك في شخص لا يظهر التملق لك، وقد يكون بعض المتملقين والمتزلفين بمثابة غدة سرطانية تقترب من الإنسان وتفتك به وتوقعه في كثير من الزلات. فليس المدح والإطراء المعيار الوحيد للدعم والإسناد، ولا التعامل بحزم ووضوح والانتقاد ورفع الصوت وقول الحق المعيار الكافي للإساءة.

والأمر اللطيف في هذا الدرس أن علياً عليه السلام يطلب من الإنسان أن ينصف نفسه قبل أن ينصف الآخرين، فحينما يندفع ويتفاعل مع إساءة نفسه للآخرين، يكتشف أنه يسيء إلى نفسه قبل أن يسيء إلى الآخرين ، وحينما يكيف ويؤطر مواقفه بالاطار الصحيح فهو ينتصر لنفسه قبل أن ينتصر للآخرين.

وهذه نقطة مهمة جداً في الفهم القيمي الإسلامي لحركة الإنسان وسلوكه، فالإنسان لا يمكن أن يجد نفسه بمعزل عن الآخرين، وبالتالي فإن الإحسان إلى الآخرين هو إحسان لنفسه والإساءة إلى الآخرين هي إساءة إلى نفسه قبل أن تكون إساءة إلى الآخرين.

والخلاصة أن أمير المؤمنين عليه السلام يطلب الشح بالنفس والبخل معها وتقويمها من خلال عدم التعاطي المطلق مع رغباتها في ما تحب أو تكره.
وفي هذا الدرس العظيم هناك مجموعة من الإضاءات:

الإضاءة الأُولى

ضرورة السيطرة على النفس

إن السلطة والنفوذ والوجاهة والتأثير والإمكانات والامتيازات التي تسخر للمسؤول، أيا كان مستواه وأيا كان حجمه، يمكن أن توقع الإنسان في فخ عظيم وتنمي في وجوده حالة الميل إلى الـ (أنا)، أي الذي يريده يجب أن يكون، والذي يقوله يجب أن يحدث، وليس لأحد الحق في أن يناقش ويتكلم ويعترض.

وفي الأيام السالفة كان يطرح شعار "نفذ ثم ناقش"، ولكن اليوم وصلت الأُمور الى أن يكون الشعار الواقعي" نفذ ثم نفذ ثم نفذ"، وإذا قيل لهم متى سيكون النقاش، يقولون بعد عبور الأزمة، ولكن ما ان تنتهي الأزمة الأُولى حتى ندخل في أزمة ثانية وثالثة.. ، أو يقولون يوجد الآن وضع خاص ووضع استثنائي، وهكذا على هذا السياق يستمر الحال سبع سنوات تحت شعار: نفذ ثم نفذ ثم نفذ، ويستمر الوضع من أزمة إلى أزمة، ومن قضية إلى قضية.

أليس من حق المواطن أن يسأل وأن يعترض؟ أليس له الحق بأن يستوضح؟ إن حال البلد لا يخلو من أزمة، فلماذا يجب علينا السكوت والطاعة العمياء؟ ولماذا كل من يرفع صوته يعتبر خارجاً عن السياق ومتمرداً على الديمقراطية ومخلا بالأمن والسلم الاجتماعي؟، إن هذا ليس هو منهج علي عليه السلام الذي وضع لنا المعايير الصحيحة، بل هذه في جوهرها رغباتنا الشخصية التي نضفي عليها ثوب الإسلام، فنحن في موقع المسؤولية لا نريد أن نسأل عن شيء، ولا نريد أن نعاتب على قضية، ولا نريد أن ندخل في مماحكات وفي احتجاجات وفي استدلالات عن هذا الموضوع أو ذاك. وهذا أمر غير صحيح.

إن السيطرة على النفس هي المدخل الصحيح في تحمل المسؤولية، فيجب على من يتحمل المسؤولية أن يكون مسيطراً على نفسه في اي دائرة و في أي مساحة كان، وعليه ألا يمرر قناعاته ويفرضها على الآخرين تحت يافطة الانتصار للقانون والانتصار للسلم الاجتماعي وتطبيق النظام العام وما إلى ذلك من عناوين وشعارات، وهو في الحقيقة ينتصر لأنانيته ولذاته من خلال تكميم الأفواه وعدم السماح للناس أن يتحدثوا وينطقوا بما يريدون، فهذه الكوابح مطلوبة، وهذه

المصدات للنفس الإنسانية حينما يكون الإنسان في موقع المسؤولية مسألة في غاية الأهمية.

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك بقوله: "فاملك هواك"، أي أن الإنسان مسلط تماماً على ما يملك، وليس لأحد أن ينازعه على ملكه، فمثلاً هذا البيت ملكه يستطيع أن يفعل به ما يشاء من الهدم أو البناء، نعم، هناك ضوابط للبلدية يجب أن تراعى، ولا ينبغي لأحد أن يتجاوزها. وهنا يحث أمير المؤمنين عليه السلام الإنسان على أن يملك هواه، أي يريد منه أن يكون هواه في قبضة يده ويتحكم به، لا أن يتحكم به هواه .

إن الميول النفسية والهوى والرغبات والنزوات الدنيئة لا خير فيها، وهي تعزز أنانية الإنسان وتنتصر لذاته، حتى إن كان على حساب مصلحة الذات فضلاً عن مصالح الآخرين. فعلى الإنسان وخاصة المسؤول والمتصدي ألا يسمح لهذه النزوات أن تعبث به وتأخذه يميناً ويساراً.

ويشرح أمير المؤمنين عليه السلام هذا المفهوم في رسالة إلى الاسود بن قطبة الذي كان قائداً للجيش في منطقة حلوان الواقعة غرب ايران في منطقة سربل زهاب على ما يذكره المؤرخون. يقول عليه السلام: " أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فانه ليس في الجور عوضاً من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك في ما افترض الله عليك،راجياً ثوابه ومتخوفاً عقابه"[١٠١].

أي أن المسؤول إذا انساق وجرى وراء رغباته ومآربه وميوله، وأصبح يحكم هواه في سلوكه، فهذه السلوكية وهذه الأخلاقية سوف تمنع هذا القائد من تطبيق العدل في مواطن كثيرة، فالعدل قد يتطلب انتصاراً لقضية، لكنها لا تناسبه ولا تناسب مصالحه الشخصية، كما لو ترك عقاب من هو محسوب عليه، ويترك مكافأة من لا يتملق له.

إن تحكيم الـ (أنا) سيدفع الإنسان الى أن يبتعد ويجافي العدل والحق في قضايا كثيرة. ولذا يجب على المسؤول أن يكون الناس عنده في الحق سواء، فلا يميز

١٠١ . نهج البلاغة: الرسالة ٥٩.

بين المواطنين مراعاة لحق المواطنة وترسيخاً لمفهوم المواطنة الصالحة، ويكون عادلاً ومنصفاً ويساوي بين العباد في التعامل. ولكن نرى مع الأسف أن هناك استغلالاً لبعض الاعتبارات للتمييز بين الناس، كالاعتبارات الأمنية مثلاً، فيتعرض البعض للتفتيش ويعفى آخرون منها، ويبالغ في استغلالها والتأسيس للتمييز بين الناس.

وليعلم المسؤول بأن أمر الناس ينبغي أن يكون عنده في الحق على حد سواء؛ لأن الجور والظلم لا يمكن أن يكونا بديلاً من العدل، فلا يتصور المسؤول أن نتيجة الظلم والجور ستكون واحدة، وقد يتصور المسؤول الذي يسير أُموره على أساس الظلم أنه منتصر وأن الأُمور لا تستقيم له إلا بهذا الأُسلوب، ولكن لو مد نظره إلى أُفق أوسع لعلم أنه الخاسر الأكبر؛ لأن نتائج أعمال الإنسان مردودة عليه في دار الدنيا ودار الآخرة، إن كانت خيراً فخير وإن كانت شرا فشر.

فحينما يؤسس المسؤول سياقات عمله على أُسس غير صحيحة، وحينما يتجاوز الأُطر الصحيحة، وحينما يميز بين الناس، فإنه سيتلقى نتيجة عمله على أساس قاعدة "كما تدين تدان"، وسوف يصل إليه في يوم من الأيام عين ذلك العمل أيضاً، وبنفس المنطق سوف يسيئون له ويعتدون عليه، ومن يرى أن لحية جاره تحلق ولا يتحدث فليسكب الماء على لحيته ويترقب دوره، ومن يقبل أن يطول الاعتداء والظلم الآخرين فلينتظر دوره، فهذه هي سنن التأريخ التي يتحدث عنها علي عليه السلام.

ومن هنا يجب على المسؤول أن يجتنب ما ينكر أمثاله على نفسه من الظلم وكل ما لا يقبله لنفسه، ولا يجعل من نفسه استثناء، ويبرر لنفسه بأن الشيء الذي يعمله لا يوجد مانع منه، ولكن إذا عمله الغير معه فهو ممنوع.

ثم يطلب أمير المؤمنين عليه السلام من المسؤول أن يصرف وقته ويبذل جهده في ما فرضه الله تعالى عليه، والسير في السياق الصحيح الذي يريده الله تعالى منه، راجياً بذلك ثوابه تعالى، ومتخوفاً من عقابه سبحانه.

هكذا يربي علي عليه السلام ضباطه وجنوده وقياداته العسكرية وولاته على هذه الأخلاق، فلذلك أصبحت خلافة علي عليه السلام التي لم تستغرق سوى أربع سنوات منهجاً للدراسة في المحافل العلمية بعد ألف وأربعمائة سنة، وما زلنا نذكر هذا الإنجاز العظيم بفخر كبير.

إذن، فالانحرافات تبدأ من ظلم الآخرين، ثم يستسلم الإنسان إلى رغباته الشخصية ويبتعد عن السياقات والأُطر المطلوبة في نجاح مهامه.

وفي مقطع آخر من خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: "إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً على غير دين الله"[١٠٢].

يبين أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع من خطبته المباركة أن بداية شرارة الفتنة، وانطلاق فتيل الأزمة، ونقطة شروع الانحراف، هي اتباع هوى النفس ورغباتها والخروج عن السياقات والعمل وفقاً للأمزجة الشخصية. ثم يتلوها ابتداع أحكام في شتى المجالات، فربما تكون هذه الأحكام المبتدعة سياسية أو اجتماعية أو أمنية أو اقتصادية.

والبدعة هي تكييف القرارات مع المصلحة الشخصية أو مع المصلحة الحزبية، وعندما تكيف بشكل قانون تظهر وكأن صاحبها ملتزم بالقانون. وهنا يكمن الخطر، فتارة يكون القانون مشرعاً تشريعاً صحيحاً ولكن نحن نخالفه، فهناك مسطرة يرجع إليها فيعرف الحق من الباطل والصحيح من الخطأ، وتارة يكيف القانون على ضوء الأنانية والفئوية، فيختلط الحق بالباطل، ويكون الباطل حقاً والحق باطلاً، وعندما يكيف القانون على ضوء الإرادات والأهواء الشخصية تكون بداية الفتنة.

ومن مصاديق الأحكام المبتدعة في المجال السياسي، هو الجلسة المفتوحة لمجلس النواب، في بلد يعيش في عناء طويل وهناك قضية لابد من إتمامها، وندع الأُمور تخرج عن السياقات الصحيحة، وتكيف الإجراءات وفقاً للرغبات والمصالح الخاصة تكييفات قانونية بسياقات قانونية.

وهذه هي بداية الفتنة كما يقول علي عليه السلام، فيخالف فيها كتاب الله عز وجل، حيث تتحدث آيات القرآن عن أُمور، ونحن نذهب لنعمل خلافها. وهذا شيء ملحوظ في مجتمعاتنا وفي التزاماتنا اليومية، فالدستور يتحدث بأمر ونحن نخالفه ونجتهد في مقابل نصوصه القطعية، ونضع لها تكييفات قانونية لا تصح. ثم يتولى عليها

١٠٢ . نهج البلاغة : الخطبة ٥٠.

الرجال ويتضامنون مع بعضهم على هذه الأحكام المبتدعة خلافاً لدين الله تعالى.

وإذا مشينا في هذا الطريق فلا يمكن أن نتوقع أن يتصدى الكفوء إلى الموقع الصحيح، بل سيتولى غير الأكفاء وغير المؤهلين المواقع بدلاً من الأكفاء، وكل من كان أكثر تزلفاً وأكثر انتهازية ستكون له فرصة تولي الوظائف العليا للدولة، وإن كان لا يعرف غير مسك القلم والتوقيع، ويُهمل الآخرون من أهل الاختصاص والكفاءة، الذين أفنوا أعمارهم في طلب العلم والدرس والخبرة من جراء الخدمة الطويلة، فالكفوء المشهود له في الوزارة الفلانية بالنزاهة، يبقى في السلم الوظيفي العادي إلى أن يتقاعد؛ لأنه لا يجد من يدعمه.

فكيف يمكن القبول بمثل هذه الأشياء؟!، ويتساءل البعض لماذا نحن هكذا؟. والجواب بسيط، لأننا لا نلتزم بالسياقات والضوابط والقيم والمثل التي وضعت في القيادة والادارة.

وتبقى كلمات علي عليه السلام تقرع أسماعنا وهو يغادر هذه الدنيا في وصيته للحسن والحسين عليهما السلام: "الله الله في القرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم"[١٠٣]، وهذا ما حدث اليوم، حينما أخذ الآخرون بكلمات علي عليه السلام وطبقوها في واقع حياتهم فتقدموا علينا، ونرى بلدانهم اليوم تدار ببناء مؤسساتي، يتساوى فيها الجميع أمام القانون، حتى أن المواطن البسيط يدخل المحكمة أو الدائرة التي لا يعرفه أحد فيها ويأخذ حقه كاملاً؛ لأن ظهره مسنود بالقانون، وأمامنا وقت طويل وجهد جسيم حتى نصل إلى هذه المرحلة.

لماذا نحن متخلفون وهذه نظرياتنا وقيمنا؟، والجواب: إننا لم نلتزم بهذه النظريات والقيم، وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته من أنه في حالة عدم الالتزام ستسير الأُمور باتجاهات أُخرى. وهكذا شخص علي عليه السلام قبل ألف وأربعمائة سنة الداء والدواء، ولكن نحن لم نلتزم، وقد أسرتنا الميول، فهي تأسر الإنسان وتأسر عقله وفكره، فيصبح عقل الإنسان أسيرا للهوى والنزوات والرغبات.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:" وكم من عقل أسير تحت

---

١٠٣ . الكافي ٧: ٥١.

هوى"[١٠٤]، فالهوى هو الأمير والعقل أسير مكبل لا يستطيع التفكير، ولا يستطيع أن يرى، وأصبح منقاداً للرغبات والنزوات.

وأشار أمير المؤمنين عليه السلام مرة أُخرى إلى هذه المشكلة التي تواجه الإنسان في خطبة له يقول فيها: "والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه وغروره"[١٠٥]، فالسعيد هو الذي يرى ما يجري على غيره فيتعظ ويتعلم، فحين رأى الآخرين يموتون قال: عجبا، هذه نهايتنا لأُصحح مسيرتي، ورأى عاقبة ما يحل بالظالمين فتجنب ظلم الآخرين، ونظر إلى ما يجري للمحسنين وما هي تبعات إحسانهم فقرر أن يكون منهم، وهكذا في سائر ما يرى من الآخرين فيتعظ به.

والشقي هو من انخدع لهواه وغروره وانقاد لهما، ومن مواطن الغرور مواقع المسؤولية، فلا تتصوروا أنها قضية بسيطة، ففي موقع الخدمة العامة، بقدر ما يراه الآخرون موقعا جيدا، فهو سيف ذو حدين، إما يتألق فيه الإنسان إذا أحسن الخدمة وتواضع للآخرين، وإما أن يكون منزلقاً للانحدار والضياع.

وليفكر المسؤول بأن ما حصل عليه من الاحترام والتقدير والأموال والجاه له نهاية، وستكون لنا جميعاً نهاية نحن محكومون بها، فلكل واحد منا عمر محدود بمدة زمنية معينة، ثم ينتهي كل شيء وتكون عاقبة أمرنا إلى الموت الذي لابد منه، فيجب أن نكون حذرين ونستعد لما بعد الموت حين نقف للحساب عن كل صغيرة وكبيرة.

الإضاءة الثانية

الأُمور الممنوعة على المسؤول

نستفيد من هذا الدرس الكبير من دروس علي عليه السلام أن هناك أُموراً ممنوعة على المتصدي لمواقع الخدمة العامة، وقد لا تكون ممنوعة على عموم الناس. فهناك ما

١٠٤ . نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.
١٠٥ . نهج البلاغة : الخطبة ٨٦.

هو محرم على الجميع، سواء كان مسؤولاً أو لم يكن، وهناك أُمور ممنوعة على من يتصدى لموقع المسؤولية، فالمسؤولية ليست تشريفاً، وليست صرف امتيازات ووجاهات واحترام من الآخرين وتأثير ونفوذ وسلطة، بل المسؤولية التزام وضوابط ومعايير في التعامل مع الأُمور.

ويتضح ذلك من هذه العبارة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الدرس الكبير:" وشح بنفسك عما لا يحل لك"، أي أمسك نفسك أيها المسؤول عما لا يحل أن يصدر منك، وإن كان حلالاً على غيرك وجائزاً منه، فكونك مسؤولا يجب أن يحملك المزيد من الالتزام.

ونلاحظ كم أن الفرق كبير بين ثقافة الإسلام وبعض الثقافات الشائعة في زماننا، فالمسؤول اليوم هو الأقل التزاماً وانصياعاً للضوابط، فيطلب من المواطن ما لا يطلب من المسؤول، في حين أن كل الالتزامات التي يلتزم بها الإنسان البسيط، يلتزم بها المسؤول أيضاً وزيادة في الثقافة الإسلامية. ويتمتع المسؤولون اليوم عندنا برواتب وامتيازات وإمكانيات ومخصصات مادية ومعنوية أكثر بكثير من المواطن البسيط، ويتجاوزون الكثير من القوانين والضوابط والسياقات، ويعتذر له إذا ما طُلب من الالتزام ثم عرّف نفسه بأنه مسؤول. وأما في الإسلام فعلى المسؤول أن يلتزم أكثر.

وقد وردت في هذا الموضوع العديد من النصوص، التي تمثل نهجاً قوياً لعلي عليه السلام في التعامل مع رجل الخدمة العامة، أي المسؤول في مصطلحاتنا، ويقال له رجل خدمة عامة أي أنه ليس ملكاً لنفسه، بل هو ملك الجميع، فيجب أن يأخذ بنظر الاعتبار المسائل الكثيرة والالتزامات المختلفة، وحينما يقول كلمة ويخطو خطوة، عليه ألا ينظر لنفسه وما يقوم به لأنه قادر عليه، بل ينظر هل يقبل المجتمع منه ذلك؟، وهل تحمّله المسؤولية في ما هو فيه، يسمح له أن يقول هذه الكلمة أو يخطو هذه الخطوة؟.

وفي رسالة لأمير المؤمنين عليه السلام إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة، يوبخه فيها لاستجابته لدعوة أحد الأعيان والأثرياء في البصرة لمأدبة طعام، ومن الطبيعي أن دعوة الوزير أو المحافظ إلى وجبة طعام من قبل رجل أعمال تثير الشكوك بأنه ربما

كانت لديه عقود يريد من خلال هذه المائدة أن يمررها، أو يريد التنصل من دفع الضرائب أو تقليلها، وما إلى ذلك من غايات. وعلم أمير المؤمنين عليه السلام بالأمر فلم يكتف بالإشارة إليها، ولم يكتف بتمريرها باعتبارها المرة الأُولى، بل كتب له رسالة ودونت كوثيقة للتأريخ في هذا الموضوع.

ونذكر بعض المقتطفات منها: "أما بعد يابن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان (الأواني)، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم (فقيرهم) مجفو (مطرود)، وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا القضم (المأكل) فما اشتبه عليك علمه فارفضه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه، ألا وان لكل مأموم إماما يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وان إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعامه بقرصيه، ألا وانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلا كقوت اتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة"[١٠٦].

يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته هذه المسؤولين ويحذرهم من أن يعرضوا أنفسهم للشبهة أو يضعوا أنفسهم في موضع مع الأثرياء فيتحسس فيه الفقراء من فقرهم، ولو على مستوى تلبية لدعوة تناول طعام على مائدة لا يشترك فيها الفقراء، فضلاً عن أن تكون وراء تلك الدعوة أهداف وأغراض أُخرى.

كما إذا كان الطعام يريد أن يفرق بين الناس على أساس طبقي، أو يريد أن يسهل مهمة العقود والملفات التي ستعرض على المسؤول بعد المائدة، أو يعبر عن رشوة، فهناك نيات معينة وخروقات قانونية وخروج عن السياقات، فإن طعاما كهذا يوقع المسؤول بما يتقاطع مع النزاهة، وما يتعارض مع الالتزام المطلوب في التعامل بمساواة مع المواطنين.

ويجب على المسؤول أن يرفض مثل هذا الطعام ولا يأكل منه فهو طعام حرام. ولكن إذا أيقنت أيها المسؤول بطيب وجوه هذا الطعام، وخلوه من الاعتبارات السابقة فكل منه،

١٠٦. نهج البلاغة: الرسالة ٤٥.

فالثراء ليس مثلبة إذا كان من الطريق المشروع والحلال، والغنى لطف من الله سبحانه وتعالى للإنسان.

والإسلام ليس لديه مشكلة مع الغني ولا مع من يمتلك المال، ولكن لديه مشكلة مع من يطرد الفقراء ويقرب الأغنياء، ولديه مشكلة مع من يختل توازنه حينما يكون غنياً، وليس لديه مشكلة مع الغني الذي لا شبهة في أمواله ومائدته مفتوحة للجميع، ومضيفه مفتوح يستقبل الناس ليس على أساس التمييز بين الأغنياء والفقراء، وليس لتمرير الصفقات والعقود.

فلا مانع من أن يستجيب المسؤول لمائدة طعام يجلس عليها الغني والفقير، ولا شبهة فيها من مال حرام، أو طلب لتمرير صفقة ستعرض على مكتبه، بل هي مجرد علاقات اجتماعية يراد بها وجه الله تعالى.

ثم ينتقل أمير المؤمنين عليه السلام في الخطاب إلى بيان مسألة مهمة، وهي مسألة القدوة بقوله:"ألا وان لكل مأموم إماما يقتدي به ويستضيء بنور علمه"، أي أن لكل مسؤول مسؤولاً يقتدي به ويسير على خطاه، فإذا كان إمامه من أهل الصلاح فينبغي أن يكون من يعمل تحت أُمرته من أهل الصلاح أيضاً، وألا يخطو خطوة حتى يعلم كيف كان موقف إمامه في أمثالها.

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام هنا إلى أن هناك تعددا في القيم القيادية في النظم القيادية، وهناك تعدد في المنظومة القيادية، تتمثل بهذا القائد أو ذاك، فقد يكون سلوكاً منضبطاً أو لا يكون، وقد يقدم صورة ناصعة أو قد لا يقدم، ولكنه إمام يلتقى معه بكل تفاصيله.

ثم يبين علي عليه السلام هذه النظم، فيبدأ بتعريف نفسه والقيم التي يعتمدها والنظام الذي يعتمده. فيقول عليه السلام:"ألا وان إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه"، والطمر هو نصف الثوب، وفي ذلك الوقت كانت الملابس تتألف من قطعتين، أي يقول ان إمامكم اكتفى من دنياه بثوب واحد، "ومن طعامه بقرصيه" برغيفين من الخبز في اليوم. ثم يبين عدم قدرة من يقتدي به على ذلك، ولذا فهو يعفيهم من اتباعه في ملبسه ومأكله، ولكن يطلب منهم إعانته على إدارة الدولة وتسيير أُمورها بالورع عن ارتكاب المحارم والابتعاد عن الشبهات والاجتهاد في الطاعة.

فيا أتباع عليعليه السلام عليكم بالجد والاجتهاد، وأن تنفضوا عن أنفسكم حالة الكسل والخمول، فإمامكم عليعليه السلام يريد منكم الاجتهاد والجد والحركة، وخاصة في طلب العلم، والاختصاص في العمل والمهام الخدمية العامة في المجتمع.

ولكن واقعنا على عكس ما يريده لنا عليعليه السلام، فمثلاً هنالك أُمور مؤلمة في التقارير التي نقرأها عن معدل ساعات عمل الإنسان في العالم الثالث، وفي الشرق الأوسط، فحينما يجمعون ساعات العمل المفيد ويقسمونها على عدد السكان تظهر الأرقام مذهلة، فالعمل المفيد بضع دقائق في اليوم فقط، بينما في الدول الصناعية كاليابان وأمثالها، فإن معدل العمل المفيد ساعات طويلة في اليوم.

وما يريده عليعليه السلام أيضاً من العاملين معه في دولته ومن هو تحت أُمرته هو إعانته بعفة وسداد. والعفة مطلوبة في البصر والسمع واللسان، وفي التعامل مع المال، وفي التعامل مع الآخرين. والسداد هو العمل الصحيح، وكما جاء في الحديث الشريف:"رحم الله امرأ عمل عملاً فأتقنه"[١٠٧].

ثم يبين أمير المؤمنينعليه السلام خصال من يجب الاقتداء به، حكاية عن نفسه، فيقسم بالله سبحانه بأنه ما كنز من الدنيا تبراً، والتبر هو تراب الذهب والفضة، فعليعليه السلام وهو خليفة المسلمين لم يدخر شيئاً لنفسه وعياله مما يحرص الناس على ادخاره لنوائب حياتهم.

ولم يدخر من غنائم الدنيا مالاً وفيراً، ولا أعد لعتيق ثوبه ثوباً يستبدله به، ولم يستحوذ على شبر من هذه الأرض لنفسه، فقد عاش عليعليه السلام ومضى وهو لا يملك داراً، ولم يملك شبراً، ولم يأخذ من الدنيا إلا كقوت اتان دبرة، وهي الناقة التي يعقر ظهرها فلا تأكل إلا القليل من الطعام، فقد أخذ أمير المؤمنينعليه السلام من الدنيا بقدر القوت، وهو عيشة الكفاف.

وقد كانعليه السلام يوصي أصحابه:"لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم إلا وأنت تشتهيه"[١٠٨]، أي على الإنسان أن يتناول من الطعام بقدر لا يشعر معه بالشبع. وهذا هو منهج عليعليه السلام في تعامله مع الدنيا. ثم يتطرق إلى بيان قيمة الدنيا

١٠٧ . تفسير القرطبي ١٣: ٢٤٤.
١٠٨ . بحار الأنوار ٥٩: ٢٦٧ح٤٢.

في نظره عليه السلام فيقول:"ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة"، أي هي أهون من حبة شجرة البلوط في عيني.

فعلي عليه السلام لا يرى في هذه الدنيا شيئا إلا أداء الواجب وخدمة العباد. فهذا هو إمامكم خذوا منه هذا المنهج بهذه الأوصاف الأربعة: الاجتهاد والورع والعفة والسداد.

الإضاءة الثالثة

مستلزمات كبح النفس

إن الشح بالنفس وضبط النفس وإمساك النفس عن الانجرار وراء الانحرافات، لها مستلزمات وطرق ووسائل.

الآلية الاُولى: التقوى

إن من أهم وسائل كبح النفس كما يشير إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، هي التقوى؛ فالتقوى من الوقاية أي الحفظ، وهي الغطاء الذي يحفظ الإنسان فيه نفسه من الأخطار الداخلية حينما ينطلق الهوى ويدفع الإنسان نحو الرذيلة، ويحفظه من الأخطار الخارجية عندما تكون الإغراءات كبيرة أمامه، ولاسيما في مواقع السلطة والنفوذ وتحمل المسؤوليات. ولذلك تشكل التقوى أهم عناصر الكوابح التي يمكن أن تمنع الإنسان من الانزلاق. إذن، فالتقوى تعني أن يوجد الإنسان في نفسه حصانة ومناعة من الوقوع في المعاصي. وهو كالتلقيح الذي نلقح به أطفالنا لتحصل عندهم المناعة من الفايروسات.

وقد أولى أمير المؤمنين اهتماماً كبيراً لمسألة التقوى، يقول عليه السلام في إحدى خطبه:"فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الهارب، وتنال الرغائب"[١٠٩].

يبين أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة المباركة أن التقوى هي مفتاح التسديد والنجاح، وهي ذخيرة لليوم الآخر الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، وهيٍ عتق من كل عبودية، وهي نجاة من كل هلكة ومعصية، التي تجعل الإنسان أسيراً بيد الشيطان

١٠٩ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٠.

فيسيطر عليه ويوجهه كيفما شاء. وبالتقوى يتحقق النجاح لطالب كل حاجة. وبها ينجو الهارب من كل مكيدة ودسيسة تعمل ضده. وبها تنال الرغائب والحاجات. إذن، فدفع الضرر وجلب المنفعة لا يتمان إلا من خلال التقوى.

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة أُخرى إلى أهمية التقوى أيضاً فيقول: "اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه، ألا وبالتقوى تقطع حُمة الخطايا، وباليقين تدرك الغاية القصوى"(١١٠).

يشبه أمير المؤمنين عليه السلام التقوى هنا بدار سورها محكم ومنيع، ويشبه الفجور الذي هو ضد التقوى بدار سورها واه وضعيف، فيدخلها السراق ويقتحمها العدو بسهولة، ومثل هذا السور الضعيف لا يحمي أهله ولا يحفظ من لجأ إليه.

وبالتقوى تقطع حُمة الخطايا، والحمة هي أُبرة العقرب التي تلدغ بها، فمن خلال التقوى يمكن قطع سطوة الذنوب والمعاصي، ومن خلال اليقين الذي هو الوضوح في الرؤية تدرك الأهداف البعيدة والكبيرة التي يضعها الإنسان. فالبصيرة والوضوح والمعرفة والعلم واليقين هي التي تجعل الإنسان ثابتاً، مهما كانت التحديات والأخطار.

وفي خطبة أُخرى لأمير المؤمنين عليه السلام يشرح فيها أهمية التقوى وفوائدها وبعض صفات المتقين، يقول: "أُوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد، وبها المعاذ، زاد مبلغ، ومعاذ منجح، دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع داعيها وفاز واعيها، عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ، واستقربوا الأجل فبادروا بالعمل، وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل"(١١١).

وهنا يشبه أمير المؤمنين عليه السلام التقوى بالزاد والوقود الذي يمنح الإنسان القدرة على الحركة، وهي المعاذ والملاذ لمن أراد ان يلوذ بها. فهي زاد مبلغ لمن أراد الوصول إلى الهدف، لا تترك صاحبها في منتصف الطريق، وهي أيضاً معاذ منجح لمن أراد النجاح والحصول على الغايات.

---

١١٠ . نهج البلاغة: ١٥٧.
١١١ . نهج البلاغة: ١١٤.

وقد دعا إلى التقوى أسمع داع، وهو الله سبحانه وتعالى. ووعاها وفهمها وأدركها خير واع وفاهم ومدرك من بني البشر. فأسمع الداعي إلى التقوى ـ وهو أفضل خلق الله النبي الأكرمﷺ ـ كل أُذن، وفاز من وعى التقوى وأدرك أهميتها.

ثم يخاطب عليعليه السلام الناس بصفة العبودية لله قائلاً: يا عباد الله إن تقوى الله منعت أولياء الله من ارتكاب الحرام، وألزمت قلوبهم مخافة الله، وحينما تلازم القلب هذه المخافة ترى الإنسان دائماً يخاف الله جل جلاله، ويقيه خوفه من الوقوع في الكثير من الزلات، حتى قضوا لياليهم بالسهر، بينما يغط الآخرون في نوم عميق، أو يقضون لياليهم بالسهر بمسامرة الأصدقاء أو متابعة الأفلام والمسلسلات، في حين يقضي المتقون لياليهم بمناجاة الله سبحانه وتعالى والتضرع إليه.

ثم يذكر أمير المؤمنينعليه السلام صفة أُخرى للمتقين، وهي مداومتهم على الصيام لله عز وجل، ويتحملون الجوع والعطش، بينما يتلذذ الآخرون بأنواع الطعام والشراب، فأخذوا راحة أبدانهم بالنصب والتعب، واستبدلوا الشبع بالجوع والري بالظمأ؛ لأن لديهم هدفا في طاعة الله تعالى. واستقربوا آجالهم ونهاية أعمارهم وكأنهم سيموتون غداً، فشمروا عن سواعد الجد، وأوصلوا الليل بالنهار في عبادة ربهم ونيل رضوانه.

وكذبوا طول الأمل بأن الأجل ما زال بعيداً، وأن هناك فرصة للتوبة واستئناف العمل. وتعتبر هذه من أهم الكوابح التي تساعد الإنسان في السيطرة على نفسه، وألا يؤثر وجوده بموقع المسؤولية في دينه وآخرته.

الآلية الثانية: التعقل

إن التعقل والتدبر والنظرة المعمقة للأُمور، يمكن أن تساعد المسؤول ومن يتصدى لقيادة أي حلقة من حلقات المسؤولية على اتخاذ القرار الصحيح وعدم الانجرار إلى الرغبات والميول والهوى، التي يتعرض لها الإنسان حينما يكون في موقع السلطة والنفوذ.

إن العقل أساساً هو المدخل المهم لاتخاذ المواقف الصائبة لأي إنسان في أي موقع كان، ولكن حينما يكون في موقع المسؤولية، تتجاوز القرارات والتأثيرات مساحاته

الشخصية، فمن الممكن أحياناً أن يكون هناك قرار معين له تداعيات على آلاف أو ملايين من البشر، ومن أجل أن تكون هذه القرارات رصينة وقوية، يجب أن يتدخل العقل والتدبر في إنجاح هذه المهمة وفي الابتعاد عن الانحرافات التي يمكن أن تأخذ المسؤول بعيداً عن السياقات الصحيحة والالتزامات القيمية المطلوبة والمرجوة.

وقد ورد التأكيد الكبير على موضوع العقل في النصوص الشرعية، ونحاول هنا أن نستعرض بعض هذه الروايات التي تشير إلى دور العقل، والفوائد التي يمكن أن يحصل عليها الإنسان حينما يعرض موقفه على عقله، ليتدبره ويفكر فيه ويتأمله ويقلب الأُمور ثم يتخذ القرار الذي يوصف بالعقلانية، ويتحدث بالكلمة التي تتصف بالعقلانية، وحينئذ من الصعب أن يندم عليها الإنسان؛ لأنها تكون في الاتجاه الصحيح.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله:" إن العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب "[112]، فالعقال هو حالة السور، وبهذه التسمية يسمى هذا التاج الذي يضعه لابسو العقال على رؤوسهم لأنه يسور الرأس. إذن فالعقال هو السور والمانع والحصن، والعقل من العقال، ولهذا فإن العقل عقال من الجهل حينما يستخدمه الإنسان ويفكر ويتدبر به في الأُمور، وحينئذ يسور مواقفه وأقواله وأفعاله وسلوكه من الوقوع في الجهل.

وأما النفس وهي الهوى والميول والرغبات، فقد شبهها رسول الله صلى الله عليه وآله بأخبث الدواب، إذ الدواب على نوعين، فهناك دابة أهلية سلسة القياد، وهناك دابة وحشية خبيثة لا يمكن السيطرة عليها، وإن لم تعقل تهرب وتتيه. وكذلك النفس أيضاً؛ فإنها تضيع وتتيه إذا لم تعقل، فالعقل عقال من الجهل، وهذه هي فائدة العقل للإنسان العاقل، فالإنسان الذي يستعمل العقل في اتخاذ قراراته سوف لن تكون قراراته جاهلة، وسوف لا يتكلم بكلمات تنم عن جهل وتوقعه في مطبات وتحرجه في ما بعد، فيضطر إلى التبرير وإصدار التنويهات وغير ذلك.

وكم هناك من مواقف انفعالية سرعان ما يتراجع عنها الإنسان ويضطر إلى تبريرها. وفي زماننا والحمد لله التبرير جاهز، وهو أن يقول: هناك تحريف في التصريحات!،

---

١١٢. بحار الأنوار ١: ١١٧ ح١١.

أو يقول: كنت أقصد كذا وأنوي أن أقول كذا، إلى غير ذلك. يا أيها المسؤول لا تتكلم وتطلق التصريحات وتعد الناس بقضية، ثم بعد يومين يتبين أنك غير قادر على أدائها، أو أنك غير صادق.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: "العقل يوجب الحذر"[١١٣]، فالإنسان حينما يستخدم عقله يتعامل بحذر وحيطة، ويكون حذراً في أقواله وأفعاله، لذلك تتصف مواقفه بالصواب في كثير من الحالات.

وورد عن علي عليه السلام أيضاً قوله: "العقل أقوى أساس"[١١٤]، فيقال مثلاً: هذا البناء أساسه "كونكريت مسلح" لا يؤثر فيه تفجير ولا زلزال، وكذلك العقل هو خير أساس وأقوى أساس يمكن أن يعتمده الإنسان فيمضي على بينة من أمره دون أن يتردد، ويكون موقفه عقلانياً ومنطقياً.

وفي رواية أُخرى عن علي عليه السلام أنه قال: "للحازم من عقله عن كل دنيئة زاجر"[١١٥]، فالحازم هو المحتاط في عقله، الذي يحتاط في اتخاذ القرارات، ويرجع إلى عقله ويتدبر ويتبصر في الامور، فيحصن نفسه ويجد في نفسه مناعة من الوقوع في الخطأ وعدم الصواب والانحراف أينما كان، فينزجر عن كل دنية أو خسة بعقله واحتياطه، حينما يتخذ المواقف العقلانية.

وورد عن الإمام المجتبى عليه السلام قوله: "اعلموا أن العقل حرز"[١١٦]، والحرز هو الحفظ، أي أن العقل يحفظ الإنسان، والموقف العقلاني يحافظ على كرامة الإنسان وعلى صحة مواقفه، وعلينا أن نتشبث بالعقل والعقلانية في مواقفنا.

وورد عن علي عليه السلام قوله: "إن أصل العقل العفاف"[١١٧]، وتكون العفة في اللسان والعين والأُذن وفي جميع الجوارح. فأصل العقل هو العفة، ومن يتصرف على أساس العقل لا يمكن أن يقع في الحرام والمعصية والرذيلة، وسيجد نفسه أكبر من أن ينساق وراء المواقف المشبوهة والدنيئة التي لا تحفظ كرامة الإنسان وسموه ورفعته.

---

١١٣ . عيون الحكم والمواعظ: ٢٩.
١١٤ . عيون الحكم والمواعظ: ٣٥.
١١٥ . عيون الحكم والمواعظ: ٤٠٣.
١١٦ .ارشاد القلوب: ١٩٩.
١١٧ . بحار الأنوار ٧٥: ٧ح٥٩.

وفي رواية أُخرى عن علي عليه السلام أيضاً قوله: "إنما العقل التجنب من الإثم، والنظر في العواقب، والأخذ بالحزم، ومجانبة التبذير وحسن التدبير، والعاقل من رفض الباطل، والعاقل من قمع هواه بعقله "[118].

فالعقل أولاً، هو التجنب عن الإثم والمعصية، فالرذيلة شيء مضر، ولا يمكن أن يتخذ الإنسان موقفاً عقلانياً يسوقه إلى الإضرار بنفسه، فمن يعتمد العقل لا يصدر منه الخطأ ولا المعصية؛ لأنه يحترم نفسه وسلوكه وشخصيته ويعتز بكرامته الإنسانية.

والعقل ثانياً، هو النظر في العواقب، فالإنسان حينما لا يستخدم عقله تكون نظرته بسيطة إلى الخطوة التالية، ولكن عندما يستعمل عقله يحسب للأُمور حسابها، فمثلاً يقدر أن هذه الكلمة يمكن أن تكون اليوم ليست مضرة، ولكنها قد تكون في الغد مضرة، ويقدر أن هذه الخطوة يمكن ألا تشوش على الآخرين الآن، ولكن يمكن أن تضر بمصداقيته على الأمد الطويل.

وهكذا فقد أتحدث اليوم بكلمة أو أسير باتجاه معاكس أو أُغير التزاماتي بشكل مستمر لأحصل على مصلحة آنية هنا أو هناك، ولكن على الأمد الطويل ستنتهي المصداقية، وسيقال إن هذا ليس عند كلمته والتزاماته، في حين أن من أهم القيم الإسلامية هو الالتزام بالعهود والمواثيق، فالدين المعاملة كما ورد في الرواية الشريفة.

وهو ليس مجرد طقوس والتزامات فقهية من الصلاة والصيام فقط، بل ان المعاملة هي جوهر الدين وحقيقته، أي كيف نتعامل مع الآخر، وكيف يمكن للآخر أن يفتح ألف حساب على كلمة تطلقها أو وعد تعد به.. وما إلى ذلك. إذن، العقل هو النظر في العواقب، والإنسان العاقل هو الذي ينظر إلى المضاعفات والتداعيات والنتائج المترتبة على كلمة يقولها أو فعل يأتي به أو موقف يتخذه.

والعقل ثالثاً ، هو الأخذ بالحزم، والحزم هو الاحتياط. فالعاقل هو الذي يحتاط في مواقفه وفي سلوكه، أينما كان وحيثما كان.

والعقل رابعاً، هو مجانبة التبذير وحسن التدبير، فمن العقل أن يحسن الإنسان تدبير أُموره حتى إذا كانت إمكانياته بسيطة، فيخطط لحياته كيف ينفق، وكيف

١١٨ . غرر الحكم ٣: ٨٤.

يتعامل، وكيف يعيش، ويميز الضروري عن غير الضروري، إلى أن تتحول هذه الحالة إلى تربية في وجوده، فيعيش حياته في وقار وعزة وكرامة، ويمكن أن يكون له فائض فيدخره، وكل هذا من العقل وحسن التدبير.

إن استحضار العقل في السلوك والأداء والمواقف العقلانية يترك آثاره في كل مساحات الحياة، كما نجد ذلك جلياً في هذه الروايات، وقد انتقينا بعض هذه النصوص التي تشير إلى مساحات متعددة في كل هذه المجالات الأخلاقية والعلمية والعملية والاقتصادية والأمنية والسياسية، ففي كل هذه المجالات يمكن أن يترك الموقف العقلاني آثاره في حياة الإنسان ويحفزه على اتخاذ القرارات الصائبة التي تحقق له النجاح ولا تسبب المزيد من الإحراجات.

والعاقل هو من رفض الباطل؛ لأن العاقل لا يستطيع أن ينسجم مع الباطل؛ لأنه خلاف الحق، وما هو خلاف الحق لا ينسجم مع الضوابط والأُسس، فالإنسان حينما يعتمد على عقله يسير على الطريق الصحيح؛ لأن العقل يرشده إلى هذا الطريق وإلى الصراط المستقيم، لذلك فإن العاقل لا يقبل الخطأ، فهو يظهر مهما تم تدليسه، فالماء الآسن المتعفن تظهر على سطحه طبقة من الخضرة أحياناً، ومهما كانت صورة هذه الخضرة جميلة، ولكنها غير قادرة على أن تغطي على رائحة الماء النتن وسماته، فالعاقل يكره الباطل والتعامل غير الصائب.

والعاقل هو من قمع هواه بعقله، فمن خلال الرجوع إلى العقل يسيطر الإنسان على الهوى، وتمتنع النفس من أن تنزلق وراء الشبهات والمواقف التي تسيء إليه. وقد وردت نصوص كثيرة في هذا المجال، ولكن هذا مدخل آخر من مداخل شح النفس.

الآلية الثالثة: عدم مداهنة النفس

إن أخطر شيء على المسؤول، هو حينما يعتبر نفسه استثناء عن الآخرين، فما هو ممنوع على المواطن جائز للمسؤول، فهو يسمح لنفسه بأن يتجاوز المحظور ويعتدي على القانون ويضع سياقات لنفسه، ويرتضي لها تجاوز أُمور لا يرتضيها للآخرين، وحينئذ يبدأ عملية المداهنة للنفس وعملية المساومة

مع النفس، ومن هنا يبدأ الانحراف ويبدأ الخطر العظيم والفادح الذي يمكن أن يصيب الإنسان، فمن لا يكون عادلاً مع نفسه، كيف يكون عادلاً مع الآخرين؟!، ومن لا يلتزم بالضوابط والأُطر والقواعد والسياقات الصحيحة، كيف له أن يقنن هذه الضوابط للمجتمع؟!.

ويتحدث الجميع اليوم عن ثقافات أو ظواهر اجتماعية لا تلتزم بالقانون، وغالباً ما يتساءلون لماذا لا نملك ثقافة الالتزام بالقانون المروري وحركة السير؟، ولماذا هناك ظاهرة عدم انجاز مهام المواطنين من قبل الموظفين والمتصدين؟، ولماذا كذا وكذا... وقد يقول البعض: إن الموظفين هم المسؤولون عن هذه المشكلة والمواطن هو المسؤول عن زحام السير. ولكن هل سمعتم من يقول إن من يتصدى لإدارة هذه الشؤون هو المسؤول الأول؛ لأنه لم يطبق ذلك في سلوكه اليومي، وفي اليوم الذي تحترم فيه مواكب المسؤولين قوانين المرور ولا تقطع الشوارع وتمشي في الاتجاه المعاكس، فحينئذ نتوقع من المواطن أن يلتزم بهذه الضوابط.

ولكن المواطن حينما يرى المسؤولين يضربون هذه الضوابط عرض الحائط، لا يجد نفسه ملزما بالالتزام بها، فالمشكلة تبدأ من هنا، وهذه من أولويات الثقافة الإسلامية في الدور القيادي، ومن له موقع المسؤولية عليه أن يكون أول من يلتزم ويطبق ثم يتوقع من الآخرين الالتزام بهذه الضوابط والقوانين.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له من خطبة طويلة: "ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية"[١١٩].

يطلب علي عليه السلام من الناس ألا يتساهلوا مع أنفسهم ولا يتركوا النفس تفعل ما تريد، فإنهم إن فعلوا ذلك ذهبت بهم الرخص مذاهب الظلمة، حتى يظلموا الناس ويكونوا من الظالمين من حيث لا يشعرون، فمن لا يكون عادلاً فهو ظالم، وليس هناك حد وسط، فأما أن تسير ضمن الضوابط فتكون عادلاً، أو تخرق الضوابط فتكون ظالماً لنفسك وظالماً للآخرين. إذن في منهج علي عليه السلام

١١٩ . نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

من يرخص لنفسه ويعتبرها استثناء يدخلها في قائمة الظالمين وسيعين على نفسه.

ثم يطلب عليعليه السلام من الناس عدم المداهنة وإظهار خلاف الواقع وخلاف ما يعتقدون. والمداهنة هي التغطية على الحقيقة كما في الدهن الذي يستعمله الإنسان فيستر به البشرة ويغطيها. وعلة التحذير من المداهنة هي أنها تفتح الباب أمام الإنسان للهجوم على المعصية، فبمجرد أن يبدأ بالمداهنة حتى ينزلق في طريق المعاصي.

وتسمى المداهنة في مصطلحاتنا اليوم التبرير، كما نلاحظ ذلك عندما يرتكب أحدهم مخالفة قانونية فسرعان ما تأتي التبريرات من هذا وذاك ليغطي على الحقيقة، ولكن هذه التغطية لا تزيد إلا في الدفع باتجاه المعصية بشكل أكبر بحالة هجومية. إذن فعملية التدليس والتبرير تدفع الإنسان نحو المعصية والابتعاد عن السياقات الصحيحة.

المقطع الرابع

العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم

نبدأ مفصلا جديدا من مفاصل هذا العهد، والوثيقة التأريخية المهمة التي يستعرض فيها أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه توجيهاته بخصوص العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بين المسؤول والرعية، بين المسؤول والمسؤول عنهم، في المستويات المختلفة في هذه المنظومات القيادية.

الدرس الثاني عشر

الأصل العام في العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم».

يشير أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في هذه العبارة القصيرة إلى الأساس الذي تعتمد عليه المنظومة القيادية في الفهم الإسلامي في الإدارة والقيادة، وهو الرحمة والشفقة واللين وزرع الثقة بين المسؤول المتصدي والناس الذين يكونون تحت هذه المسؤولية.

ولا ينبغي أن تكون هذه العلاقة علاقة تشفّ وانتقام واعتداء وسلطة ونفوذ وقمع وفرض للإرادات، وإنما يجب أن تكون علاقة مودة ومحبة وثقة وفهم متبادل بين المسؤول ومن يقع تحت دائرة مسؤوليته، وهذا هو الأصل العام.

إذن، الأساس في المنظومة القيادية من وجهة نظر الإسلام هي حالة المودة والمحبة والشفقة والرعاية واللطف في هذه العلاقة، وهنا لابد من التركيز على مجموعة من الإضاءات في فهم هذا المبدأ المهم من مبادئ النظرية الإسلامية:

الإضاءة الأُولى

موقع الرحمة في المنظومة القيادية للإدارة والحكم

إذا أردنا أن نتحدث عن إدارة صالحة، وإذا أردنا أن نتحدث عن حكم عادل، فلابد لنا من أن نقف عند طبيعة التعامل الذي ينبغي أن يتعامل به المسؤول مع الآخرين حينما يتصدى للمسؤولية. إن الأساس في تنظيم هذه العلاقة هو الرحمة والشفقة.

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن المنظومة القيادية لرسول الله صلى الله عليه وآله، يؤكد على هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ

لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[120]، أي يارسول الله هذه رحمة من الله أن جعلك ليناً في التعامل معَ الناس، فأنت النبي وأنت المسؤول وأنت القائد، كنت لين العريكة وكنت حسن التعامل مع الناس، وهذا اللين هو الذي حقق هذا النجاح، وجعل الناس يلتفون من حولك، وجعل الجمهور يؤمن بك ويقاتل تحت رايتك، ويدافع ويذب عن الإسلام الذي رفعت شعاره.

ولو كنت فظاً غليظ القلب تتعامل بشدة وقسوة لانفض الناس من حولك، فإن حقانية المشروع لا تكفي في استجابة الناس لك، وحتى لو كنت أنت رسول الله بصدقيتك وحقانيتك وحقانية مشروعك، لكن هذا أيضاً لا يكفي في اجتماع الناس حولك.

إذن، هذا أصل مهم في عملية الإدارة والقيادة، فالمشروع يجب أن يكون حقاً، والحاكم والمتصدي والمسؤول والقائد يجب أن يكون عادلاً، ولكن العدالة والمساواة والمنهج الصحيح لا تكفي في الإدارة، بل نحتاج بالاضافة إلى ذلك كله إلى اللين والرحمة والشفقة، كما أشارت إلى ذلك الآية الشريفة: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[121].

فقد حث الله تبارك وتعالى رسوله الكريمﷺ على أن يشرك المسلمين ويحملهم المسؤولية في اتخاذ القرار، وألا ينفرد في اتخاذ القرار بمفرده وإن كان هو رسول الله والعالم بكل الأُمور بفضل من الله سبحانه وتعالى، ثم أمره بالتوكل على الله والإقدام بعد استقرار عزمه ليشعر الجميع أنه يتحمل المسؤولية في أداء الواجب.

إن المهم في هذا الأساس وهذا المبدأ في القيادة والإدارة هو الرحمة والشفقة والمحبة واللين، ويجب ألا تكون هذه المحبة ظاهرية وشكلية وتَصنعية ونظرية، بل يجب أن تكون حقيقية وعملية، وعلى الزعيم أو القائد أو المسؤول أن يستشعر في قلبه المحبة لمواطنيه، وألا تكون مجرد كلمات وشعارات وليس في قلبه شيء من الحب، ولا في سلوكه أثر للتمظهر بهذه المودة.

---

١٢٠. آل عمران: ١٥٩.

١٢١. آل عمران: ١٥٩.

الحب الحقيقي والحب الشكلي

وحينما نقول إن المودة والمحبة أساس النجاح، وسر النجاح في المنظومة القيادية، فلا نقصد التصنع أو التظاهر بهذه المحبة، وإنما نقصد أن يعيش الإنسان هذه المحبة في وجوده، وأن يعبر عنها في سلوكه وفي مواقفه تجاه الآخرين.

وهذه ليست قضية فلسفية أو قاعدة عقلية نريد أن نناقشها في دهاليز الجامعات والأروقة العلمية، وهي ليست قضية معقدة نضعها على طاولة التشريح لدى النخب والمفكرين والعلماء، بل هي قضية وجدانية يجب أن يستشعرها المسؤول في نفسه، لا أن يأتي ويقول أنا أُحبكم كثيراً، ولكن الناس لا ترى في سلوكه وفي أدائه وفي مواقفه وفي قراراته ما يُنبئ عن هذا الحب، فهذه المحبة أو المودة ليست ادعاء وليست تعابير وكلمات، بل هي شعور ووجدان وإحساس.

ولابد للمتصدي من أن يعيش هذه الحالة، وأن يكون قادراً على التعبير الصادق عن هذه الأحاسيس الصادقة، ففي بعض الحالات يظهر المتصدي المودة والمحبة ولكن ليس على خلفيات واقعية، وإنما تندرج هذه القضية ضمن الانتهازية السياسية كما يعبر عنها، فيتصرف بعض التصرفات وينطق ببعض الكلمات أمام الكاميرا من أجل أغراض دعائية، وقد تتحول أحياناً إلى مسرحية.

وأذكر أيام المهجر، أن منظمة عالمية دولية غربية جاءت لزيارة إحدى مخيمات اللاجئين العراقيين، وبعد ذلك أخبرني أحد الحاضرين أن هؤلاء ـ وكان بعضهم نواباً في برلمانات دول غربية ـ جاؤوا بمساعدات ومعهم كاميرات ومصورون، إذ يدخلون على بيت فقير، ويعطونه هدية، ثم يصرخ أحدهم اقطع التصوير فالإنارة غير جيدة، وأخذوا الهدية من هذا المسكين وخرجوا ليعيدوا تصوير اللقطة من جديد.

فهذه ليست محبة، ولذلك تجدون أن مثل هذه المواقف المتصنعة لا تترك أثراً في النفوس. وما أكثر من يتظاهر ويتصنع التودد إلى الناس، ولكن بما أن جوهره وحقيقته خاليان من هذه المودة والمحبة ولا يحمل في ضميره وفي وجدانه ومشاعره الحب للناس، لذلك تصبح كل هذه المواقف عبثية لا أثر لها كما يتمناها أُولئك.

ونجد في بعض البلدان، عندما تحدث أزمة أو مشكلة، ينزل أُناس إلى الشارع يحيون

الناس ويسألونهم عن مشكلتهم ويطلبون منهم الدخول إلى المطعم لتناولٍ شيء من الطعام والشراب، ويطلبون من فلان الذهاب إلى فلان لبحث المشكلة، خوفاً من خروج مسيرة وتطور المشكلة وحدوث احتقان.

وهذا كله تطييب للخواطر وإظهار للمحبة من أجل التنفيس والانتهازية وليس فيه محبة حقيقية. ونرى اليوم على شاشات التلفزيون في بعض الدول، أن المسؤولين يختلطون مع الناس في الشوارع ويتحدثون معهم. فأين كانوا طيلة السنوات الماضية؟! وماذا حدث حتى تذكرتم الناس الآن؟!.

إذن، في النظرية الإسلامية لا تقصد الحالة الشكلية أو الانتهازية في المحبة، وإنما تطلب النية الصادقة التي تسعى لإيجاد علاقة متجذرة وعلاقة ثقة حقيقية بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم.

حب النفس وحب الآخرين

من يريد أن يحب الآخرين، لابد من أن يسأل نفسه أولاً؛ هل يحب نفسه؟، فالذي لا يحب نفسه، كيف يمكنه أن يحب الآخرين؟!. قد يقال إن مشكلتنا أن هؤلاء يحبون أنفسهم كثيراً، ومن يحب نفسه نرى فيه الأنانية والانشغال بالذات إلى أعلى مستوى، ونقول هذا هو الخطأ؛ فهناك فرق كبير بين حب الذات وحماية الذات والحفاظ عليها.

فالأناني يخاف على كرسيه وعلى سمعته ووجاهته وامتيازاته، فيتعامل بأنانيةٍ من أجل الوصول إلى هذه الامتيازات والحفاظ عليها، والحفاظ على حياته خوفاً من الاغتيال، والحفاظ على سمعته من أجل أن يبقى ويواصل عملية الاستثمار والاستغلال للإمكانات المتاحة. وحب الذات هذا ينجم من معرفة الإنسان لذاته ونفسه حتى يحبها، فمن يريد لنفسه الكمال ويريد أن يتطور ويصل إلى الله سبحانه وتعالى، فعليه أن يعرف قيمة نفسه أولاً، وحينئذ ستتولد لديه الإرادة في الترقي والصعود والتكامل.

ومن عرف نفسه فإنه سيريد لها الخلود والرفعة، لا في المواقع والامتيازات والفرص الدنيوية الزائلة، بل سوف يحب الآخرين ويتعامل معهم من منطلق أن الكمال لا يحصل إلا من خلال هذا التواصل مع الآخرين.

فعلى الإنسان أن يعرف نفسه، حتى تنبثق لديه الإرادة للكمال، فهذا الذي يضع

الإنسان في طريق صاعد نحو الله سبحانه وتعالى وفي علاقات متزايدة مع الآخرين. ولذلك على الإنسان أن يعرف نفسه حتى يحبها، فإذا أحبها أحب الغير ايضاً. وهذه هي القاعدة.

فإذا أحب الإنسان نفسه لا يقبل لها أن تكون أنانية، ولا يقبل لها أن تكون فئوية، ولا يمكن أن تحظى بامتيازات تغيب عن الآخرين. إذن هناك فرق كبير بين صيانة الذات وحمايتها، وحب الذات الذي قد يكون ناتجا عن الأنانيات، وحب الذات الحقيقي هو حب إلهي، وحب الذات لا يكون إلا بحب الآخرين، وهذه هي خريطة الطريق. على الإنسان أن يعرف نفسه لكي يعرف قيمته ويحبها، ولكي يحب الآخرين حينما يتعرف على منزلته.

أهمية تودد المسؤول للناس

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:« قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه «[١٢٢]، أي أن قلوب الرجال تنفر من الآخرين، فمن أوجد الألفة معها وتحبب إليها وتقرب لها واهتم بهذه القلوب ورعايتها أقبلت عليه. فهذه القلوب التي كانت نافرة ومتوجسة وخائفة تصبح مقبلة ومندفعة وقريبة بالتودد والتحبب. لذلك ينبغي على المتصدي أن يبالغ في الألفة مع الناس لتتقرب القلوب نحوه.

وحينما تحصل علاقة المودة والمحبة يصبح الالتزام بالقانون أمرا سهلا، وتتدافع الناس للالتزام بالضوابط . ونحن نرى بعض الموظفين مواظبين ومثابرين، وعندما يقال لهم انتهى الدوام يقولون هذا وطننا وهذا عملنا، وقد يكون هؤلاء في دائرة حكومية، أو في دائرة أهلية.

وربما يقال إن هؤلاء عددهم قليل، فنقول: لأن المنظومة لا تسير بشكل صحيح؛ لأن المودة والمحبة وتحميل الآخرين المسؤولية وإشعارهم بالمسؤولية والتشاور معهم، كل ذلك غير موجود، ونحن نعلم أن هناك بعض الوزراء يمر الشهر والشهران ولا يجتمع مع وكيله ومع المدير العام في وزارته، بذريعة أنه مشغول ووظيفته التوقيع على البريد ثم يذهب.

١٢٢ . نهج البلاغة: الحكمة ٥٠.

وقد سمعت شخصياً من وكلاء بعض الوزراء، بأنه يمر الشهر أو الشهران وهو لا يستطيع أن يرى الوزير، وكلما طلب موعداً للقائه يقول إنه مشغول. وإذا كان مثل هذا الوزير لا يرى وكلاءه ومدراءه فمتى ستحل مشاكل الوزارة؟! وبأي شيء هو مشغول؟، ألا يجب أن يكون مشغولاً بهموم الناس؟.

فإذن، عندنا مشكلة في هذا المجال، فإذا وجدت هذه القناعة وشعر العاملون في منظومة معينة أنهم مندفعون ومؤمنون بهذه المنظومة القيادية، وبهذا العمل الجماعي، فإنهم سيعطون كل ما في وجودهم من أجل إنجاح هذا العمل، وسيعملون ليلاً ونهاراً من غير أن تكون أعينهم على الراتب أو على الساعة، وسوف لا يهتمون إلا بالعمل الذي يريدون إنجازه وتحقيقه، وهم يشعرون بالسرور عندما ينجزون هذا العمل.

أهمية التودد في نجاح العمل

إذن، المحبة والمودة توجدان أجواء ومناخات وسياقات مختلفة في العمل، وحينئذ لا يحتاج الى أن تضع له كاميرا للمراقبة، ولا يحتاج الى أن تضع له جهازا لتسجيل دخوله وخروجه، فهو يعمل ويتجاوز الزمان والمكان والرواتب والحقوق لإنجاز المهمة المناطة به.

لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «التودد نصف العقل»[١٢٣]، إذا كان تودد المسؤول إلى مرؤوسيه نصف العقل، فهذا يعني أنه حقق نسبة نجاح مقدارها ٥٠ ٪ ، ويبقى عليه أن يخطط ويضع برامج لإنجاز الأعمال لتحقيق نسبة نجاح ٥٠ ٪. فإذن نصف النجاح مشاعر وعواطف ومحبة وألفة واندفاع وقناعة وإيمان بذلك العمل، والنصف الآخر خطط وبرامج لكي تحقق نسبة ١٠٠ ٪ من النجاح.

إن الكثير من الإمكانات هي ضريبة كبيرة ندفعها لكي يسير القانون، ولكي يلتزم الناس به، لأننا ننظر إلى هذه العملية نظرة جوفاء بعيدة عن الأحاسيس والمشاعر والقناعة ورغبة الناس.

نحن نرى في كل بلد، أن هناك ناطقا رسميا باسم الحكومة، ينطق بالقرارات والاجراءات التي تتخذها الحكومة، وكذلك هناك جريدة الوقائع العراقية، تقوم

١٢٣ . نهج البلاغة: الحكمة ١٤٢.

بالإعلان عن القوانين الصادرة عن مجلس البرلمان والمصادق عليها من قبل رئاسة الجمهورية. ولكن لم نر شخصاً يخرج ويشرح للناس هذه القرارات والاجراءات وخلفيتها والأسباب الموجبة لتشريعها والأخطار الناجمة عن عدم الأخذ بها والمصالح المرتقبة منها للمواطنين.

فيجب أن يفهم المواطن أن في الالتزام بهذه القوانين أمنه واستقراره وازدهاره وعمران بلده وحل مشاكله، لكي يؤمن به ويمضي في تطبيقه عن قناعة. ولكننا تركنا هذا الشيء، لذلك ندفع ضريبة كبيرة لوجود مساحة كبيرة من خرق القانون، في حين أنه كلما كان اهتمامنا بمشاعر وأحاسيس الناس وقناعتهم أكبر، وجدنا الأمور تسير بكلفة أقل ونتائج أفضل.

ونرى اليوم في الوسائل الحديثة للإدارة والقيادة في الغرب، أنهم يضعون تصورات وينظرون إلى كل قضية نظرة مادية، فيرفعون الرواتب مثلاً بالطريقة الفلانية، ويصعدون من التنافس بين الشركات بهذا النحو، وتوضع قوانين صارمة بهذا الشكل لتحقيق نتائج أفضل.

ولكنهم اليوم رجعوا وقالوا يوجد شيء ناقص لم نضعه في الحساب، وهو العلاقات الإنسانية بين العاملين، فالشركة التي تريد النجاح تعقد اجتماعات يسمونها كسر الجمود، حيث يجمعون مسؤولي الأقسام ويتباحثون معهم عن كيفية تطوير العمل، والاجراءات المناسبة لذلك، والتعرف على الأخطاء والمشاكل التي تعيق عملية التطوير.

وتفيد التجارب بأن مثل هذا الاجتماعات تقوي العلاقة الإنسانية بين العاملين، ولها تأثير كبير في إحداث طفرة في العمل وانطلاقه. إذن، حتى في النظرة الغربية، التي هي في العادة نظرة مصلحية للأمور، أصبحوا يدركون أيضاً أن المصلحة في الاهتمام بالمشاعر والأحاسيس.

وقد ورد التأكيد على هذه الفكرة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، قال:« من تألف الناس أحبوه»(١٢٤)، أي كلما تودد الإنسان إلى الناس، كان قريباً منهم وأحبوه، وأن أكثر

١٢٤. غرر الحكم ٢: ١٦١.

الناس لا يحبون أن يتعاملوا مع شخص عبر وسائل الإعلام، فالناس تريد أن ترى المسؤول مباشرة أمامها.

وقد يعتذر المسؤول عن ذلك بوجود مشاكل أمنية، أو أنه مشغول بهموم العباد والبلاد. ولكن يمكن تجاوز هذه الصعوبات بتوفير الأجواء الآمنة للقاء الناس وتقليص ساعات الاجتماعات وتخصيصها للجلوس مع الناس والتعامل معهم وحل مشاكلهم، وحينئذ سيرى المسؤول كيف ستحل مشاكله بسرعة أكبر وبإمكاناتٍ أقل.

الإضاءة الثانية

عناصر البعد الإنساني بين الحاكم والمحكوم

إن هناك عناصر ثلاثة لابد من الالتفات إليها عندما نتحدث عن علاقة على أساس البعد الإنساني بين الجانبين، ومادامت العلاقة إنسانية فلابد من مراعاة ثلاث قضايا ورد ذكرها في هذه العبارة القصيرة، وهي: المحبة والرحمة واللطف. فماذا تعني كل من هذه المفردات؟ وما الترابط بين هذه المفردات بعضها مع البعض الآخر؟.

الأساس الأول: الرحمة

الرحمة في اللغة هي حالة الرقة التي تدفع الإنسان إلى الإحسان للآخر. والرحمة من الله تبارك وتعالى للإنسان هي الإحسان المجرد عن الرقة، ولكن الرحمة من الإنسان للإنسان هي رقة في القلب تدفع الإنسان لكي يكون محسناً لذلك الشخص الآخر.

الأساس الثاني: المحبة

المحبة هي رغبة شديدة نحو شيء نراه خيرا لنا، فالإنسان لا يحب شيئاً لا يرى فيه خيراً له. وليعلم المسؤول أن هؤلاء الناس فيهم خير في موقع المسؤولية، ويجب أن توجد لديه رغبة شديدة في التواصل مع هؤلاء الناس، وهذه الرغبة لا تحصل إلا إذا أيقنت أن خيرك في التواصل معهم والرغبة إليهم.

الأساس الثالث: اللطف

اللطف هو الرفق، أي أن هناك حالة تراتبية، إذ لابد من وجود رحمة حتى تحصل المحبة، ولابد من وجود محبة حتى يحصل اللطف.

ويجب على المسؤول أن يتحلى بهذه المراتب الثلاث (الرحمة والمحبة واللطف) في تعامله مع الناس إذا أراد أن يسير على هذا النهج. وهذه هي المدرسة الإسلامية في القيادة والإدارة التي توجب أن تكون العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم على أُسس إنسانية، وليست مجرد واجبات والتزامات وضوابط وقوانين كما هي علاقة العسكر.

وهذا لا يمنع من وجود ضوابط وحقوق، فالحاكم له حقوق، والرعية لها حقوق، وهناك التزامات متبادلة. وكل هذا أمر صحيح، ولكن يبقى الأساس هو البعد الإنساني في هذه العلاقة.

الإضاءة الثالثة

معيار تطبيق المسؤول للنظرية الإسلامية

ما المعيار والمقياس لأن يكون هذا الحاكم والمتصدي والمسؤول مطبقا لهذه النظرية الإسلامية أو غير مطبق لها ؟، وهل أن علاقته مع المسؤول عنهم قائمة على أساس البعد الإنساني أو لا؟ وما الذي يشير إلى وجود هذا المعيار والمقياس؟.

يقول‌عليه السلام:«أشعر قلبك الرحمة للرعية»، والشعور إحساس باطني، وهو حالة متقدمة على ما يظهره الإنسان. أيها المسؤول، أيها المتصدي، حينما تكون خلف الأبواب المغلقة لايسمعك ولا يراك أحد، هل يوجد لديك شعور وإحساس بالمحبة لأُناسك وشعبك أو لا؟، وهل توجد في قلبك رقة ولطف تجاههم؟.

الخطوة الأُولى شعور باطني، والخطوة الثانية إبراز هذا الشعور، والخطوة الثالثة الثبات والإصرار عليه. فإذا لم يكن هناك ثبات فإن الظهور كان مجرد رياء، وكان التعبير عن المحبة غير صحيح، وإذا كان التعبير غير صحيح، فهذا يعني أنه لا يوجد شعور أصلاً.

إذن، المعيار والمقياس هو ثلاث خطوات:

الخطوة الأُولى: وهي الأساس، وتترتب عليه الثانية والثالثة بشكل طبيعي، وهو الشعور الباطني، وقد عبر عنه أمير المؤمنينعليه السلام بقوله:«أشعر قلبك.. ».

والخطوة الثانية: إبراز هذا الشعور بكلمات رقيقة. تتذكرون عندما كان شهيد المحراب يقول: أتمنى أن أنزل وأُقبل أيادي هؤلاء الناس ـ الملايين التي استقبلته ـ واحداً واحداً، كباراً وصغاراً حتى الأطفال. لقد كان هذا شعوراً حقيقياً، وكان هناك إبراز لهذا الشعور، وكان يبكي، ولم يكن في هذا الشعور تصنع، وكان شعوراً لا يستطيع السيطرة عليه.

والخطوة الثالثة: الثبات والإصرار على هذا الشعور، وهو لا يتغير بتغير المصالح والظروف.

الإضاءة الرابعة

التشديد على المنهج المخالف والمعاكس

إن التشديد على الرحمة والشفقة واللطف، يقابله بنفس المقدار التحذير من الشدة والقسوة والغلظة والاعتداء على الناس، وقد تجسد ذلك بقول أمير المؤمنينعليه السلام:«ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً». وهنا يشبه أمير المؤمنينعليه السلام المسؤول، حينما لا يكون تعامله على أساس الرفق والرحمة، بالحيوان المفترس الذي يبطش ويفتك بفريسته.

يا أيها الحاكم والمسؤول لا تعتد على أُناسك؛ لأن هذا الاعتداء يجعلك بمثابة ذلك الحيوان المفترس الذي يأكل فريسته ويرى أن ذلك غنيمة. وهذا هو المنهج الإسلامي في هذه المسألة.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في مقطع من إحدى خطبه واصفاً المجتمع حينما يقع في الانحراف:«أين تذهب بكم المذاهب (أي أين تأخذكم العقائد الباطلة والأفكار الضالة)، وتتيه بكم الغياهب (يعني الظلمات؛ لأن الإنسان عندما يشذ عن الطريق وعن الحق يذهب إلى الظلمات)، وتخدعكم الكواذب (أي الإدعاءات الفارغة والكاذبة)، ومن أين تؤتَون (أي من أين ترون الضلال)، وأنى تؤفكون (أي ومتى ترجعون إلى الحق الذي فارقتموه)، فلكل أجل كتاب، ولكل غيبة إياب (أي لكل

أجل نهاية ونتيجة، ولكل غيبة رجعة وعودة، فهذه السنن تعود، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً، فالسنن الإلهية تتحكم في مجرى التاريخ).

فاستمعوا من ربانيكم (أي عرفاءكم، يقول أنا أمير المؤمنين بين أيديكم فاستمعوا إلى كلامي، أنا العارف بالله، أنا الذي لا أبحث عن موقع أو عن مصلحة شخصية ولا أغضب إلا للحق)، وأحضروه قلوبكم واستيقظوا إن هتف بكم (انتبهوا ياناس من غفلتكم حينما يتحدث إليكم علي)، وليصدق رائد أهله (الرائد الذي يتقدم القوم، ومادام أنا علي بن أبي طالب حامل الراية فلا أقول إلا الصدق والحق)، وليجمع شمله (لا تذهبوا للسراب)، وليحضر ذهنه (ركز بالك معي أريد أن أتحدث بكلام مهم)، فلقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة (أنا علي أوضح وأشرح لكم الأُمور وحقائقها كما تنفلق الجوزة فيتبين ما بداخلها)، وقرفه قرف الصمغة (الشجرة عندما تقشر ويخرج الصمغ من جوانبها وتحتها، أي لا تأخذكم المظاهر).

فعند ذلك (عندما لا تسمعون، ولا تأخذون النصح والكلام، وتمشون في الظلام، وتأخذون العقائد الضالة، وعندما تغلبون مصالحكم الخاصة على المصالح العامة)، أخذ الباطل مأخذه (عند ذلك يأخذ الباطل مأخذه فيكم ويتغلب عليكم) وركب الجهل مراكبه (سوف يشيع الجهل، ولا يستمع أحد للمعلومة الصحيحة، ولا أحد يسأل عن الإعلام العلمي، وسيُغلب هذا المنطق)، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية (يكثر الطغيان، وتقل الدعوة إلى الحق وتضعف في تلك المجتمعات).

وصال الدهر صيال السبع العقور (العقور: المفترس)، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم (الفنيق فحل الإبل، أي يعلو صوت فحول الظلمة ويكثر بعد سكوت وغياب) وتواخى الناس على الفجور (التواخي هو التقارب، أي يتقاربون على المنكر والباطل)، وتهاجروا على الدين (يصبح الدين مفرقاً والفسوق مقرباً)، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق (الصادق والواضح والصريح الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فإذا أصبح المجتمع بهذه الصورة)، كان الولد غيظاً (يصبح الولد عاقاً لوالديه)، والمطر قيظاً (ويجلب المطر الحر بعد أن كان يقضي على الحر)، وتفيض اللئام فيضاً، وتغيض الكرام غيضاً (الكرام يغيضون ويجفون مثلما تجف العيون).

«وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعا، وأوساطه أُكالاً، وفقراؤه أمواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت المودة باللسان، وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسباً، والعفاف عجباً، ولُبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً»[١٢٥]. هذه هي الصورة التي يقدمها أمير المؤمنين عليه السلام للمجتمع عندما ينحرف، وهذه هي الآثار الوضعية التي تترتب على هذا الانحراف.

وقوله عليه السلام في خطبة أُخرى: « إن البهائم همها بطونها، وإن السباع همها العدوان على غيرها »[١٢٦].

الدرس الثالث عشر

أثر الخلفية الفكرية في تقييم الآخرين

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر:«فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

بعد أن تحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن موضوع الرحمة والشفقة واللين تجاه الرعية وتجاه من يتحمل مسؤوليتهم، وذكر أن العلاقة الإنسانية هي الأساس في العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم، يتطرق أمير المؤمنين عليه السلام هنا إلى أن هؤلاء الذين يتحمل المسؤولية تجاههم صنفان: إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق.

ماذا يقصد أمير المؤمنين عليه السلام من هذه المقولة؟، كأنه عليه السلام يريد أن يقول أيها الإنسان ان السلوك والأداء والموقف تجاه الآخرين تخضع لخلفية الرؤية والتقييم الذي يحمله الإنسان تجاه الآخر.

فلو استذكر كل منا الآن سلوكه ومواقفه داخل البيت والأُسرة، سواء مع الطفل الصغير أو مع الأولاد الكبار أو مع الزوجة، فإن له سلوكا خاصا مع كل واحد منهم، وله سلوك آخر خارج البيت مع الصديق والزميل في العمل والمسؤول في العمل ومن هو دونه في المسؤولية ومع الناس المجاورين ومع شيخ العشيرة إلى غير ذلك

١٢٥ . نهج البلاغة: الخطبة ١٠٩.
١٢٦ . نهج البلاغة: ١٥٣.

من العناوين التي يمكن أن نطرحها، إذا سأل كل منا نفسه؛ هل يتعامل مع كل هذه العناوين تعاملا واحدا؟، بالتأكيد سيكون الجواب كلا، فالتعامل مختلف.

لماذا يختلف التعامل بين شخص وآخر؟، الجواب: انه يرتبط بطريقة وطبيعة رؤيتنا ونظرتنا لهذا الشخص، فإذا كان هذا الشخص ابناً يتعامل معه من موقع الأب والابن، وهناك استحقاقات معينة والتزامات خاصة في التعامل مع الصديق، وإذا كان شيخا كبيرا أو شيخ عشيرة أو مسؤولا كبيرا في مكان ما أو وجيها فتوجد استحقاقات أُخرى..وهكذا.

وهذه الرؤية، هل هذا صديق أو عدو؟ هل هذا قريب أو بعيد؟ ما طبيعة هذا الشخص الذي نحن نتعامل معه؟، هذه الرؤية تنعكس تماماً على سلوكنا في التعامل مع هذا الشخص، سواء كان شيخاً كبيراً أو طفلاً صغيراً أو ولداً كبيراً، يمكن أن يكون التعامل مختلفا.

وهكذا، فالخلفية التي ينظر بها المسؤول إلى الناس تدفعه ليتعامل مع هؤلاء الناس بسلوك ينسجم مع هذه الرؤية وهذه الخلفية، فإن كانت خلفيته أن هؤلاء الناس ليس لهم قيمة، وأنا ملك عليهم، وهم عبيد لي، وأنا متسلط عليهم، وأنا أعلى سلطة في البلد، فهذا المنطق سيدفع هذا المسؤول أو الرئيس أو الملك أو القائد أو الوزير أو الزعيم أو السلطان أو أيا كان عنوانه في أي مكان، يدفعه بكل تأكيد إلى سلوك مختلف تماماً مع من ينظر إليهم على أساس أن هؤلاء هم أُناس مثله، وهم إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق.

فهو ليس أفضل منهم، والقدر هو الذي جعله مسؤولاً، وهم يشتركون معه إما في العقيدة أو في الإنسانية، فهم مثله، كما صرح بذلك القرآن الكريم بقوله:﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[١٢٧].

فهو أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريمﷺ، أي قل يا رسول الله وأخبرهم بأنك مثلهم، ولا تحتفظ بهذه المعلومة لنفسك، بل عليك أن تشيع هذه الثقافة بين الناس، فمع أن رسول اللهﷺ هو أعلى إنسان في كمالاته ولكنه بشر

١٢٧. الكهف: ١١٠.

مثل الآخرين، فالبعد الإنساني تجسد في كلمة «مثلكم»، وأما الكمال فهو محل التنافس بين البشر، كما صرح به القرآن الكريم في قوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[128]، فهي دعوة مفتوحة إلى كل من يستطيع أن يتكاملَ أكثر وأكثر.

وهذا منهج مهم وفريد، واعلم أيها المسؤول والمتصدي أيا كانت مسؤوليتك، سواء كنت رئيس دولة أو وزيراً أو مديراً، أن هؤلاء الذين هم تحت أُمرتك وأنت مسؤول عنهم ليسوا أقل منك شأناً، بل هؤلاء مثلك، وهم إما شركاؤك في العقيدة أو شركاؤك في الإنسانية.

وهذه الرؤية ستنعكس تماماً على سلوك المسؤول، حينما ينظر إلى الآخرين على أنهم مثله وليسوا أقل منه، بل يمكن أن يكون البعض منهم أحسن منه. وحينئذ سيكون التعامل معهم تعاملاً مختلفاً، ولا توجد فيه إساءة أو تعدّ أو تجاوز أو تطاول أو سحق أو مقابر جماعية أو إبادة جماعية، أو استعمال للدبابات والطائرات والمدافع.

فهذه كلها تنطلق من رؤية مختلفة عن الرؤية القائلة بالزعيم الأوحد والقائد الضرورة. والمسؤول حينما يشبع بفكر من هذا النوع، وحينما تكون رؤيته إلى الآخرين بأنهم لا يفهمون وليس لهم قيمه وهم عبيد، فحينئذ سيكون السلوك عدوانياً، وفيه إساءة وتطاول وتجاوز على الآخرين.

ولكن حينما يشعر أن هؤلاء أهله وشعبه، فإنه سيحسن إليهم ويحترمهم ويشفق عليهم، ويطلب لهم ما يطلب لنفسه، ويتمنى لهم ما يتمنى لنفسه، إلى غير ذلك من الاعتبارات.

إذن، هذه قضية مفصلية في الفهم الإسلامي لطبيعة العلاقة بين من يتصدى لمواقع المسؤولية، ومن هم خاضعون لتلك المسؤولية.

ويحتوي هذا الدرس على مجموعة من الإضاءات، هي:

١٢٨ . المطففين: ٢٦.

الإضاءة الأُولى

دولة الإسلام هي دولة المواطن

نتداول اليوم في أدبياتنا السياسية مصطلح دولة المواطن أو دولة المسؤول، فما هذه الدولة؟، ويطرح هذا السؤال: هل العراق دولة المواطن أو دولة المسؤول؟، كما يطرح هذا السؤال في بلدان أُخرى: هل افغانستان مثلاً دولة المواطن أو دولة المسؤول؟.

والجواب على هذا السؤال يرتبط في جوهره بالجواب على السؤال التالي: من صاحب القيمة والشأن في هذا البلد؟، فإذا كان الناس هم أصحاب الشأن والقيمة، وهم أصحاب المشروع والدار، وهم من يختارون موظفاً بدرجة متقدمة ليخدمهم ويرعاهم، ليحسن إليهم وينظم شؤونهم، فهذه الدولة هي دولة المواطن، وهي تتطلب سلسلة من القوانين والضوابط والاجراءات والسلوكيات والأدوات والمواقف على مختلف المستويات الإدارية.

وإذا كان صاحب القيمة والشأن هو المسؤول، فإن الدولة هي دولة المسؤول. ويتضح ذلك من خلال تعريفنا لموقع المسؤول، هل هو خادم وراع، أو هو حاكم ومتسلط، سواء كان اسمه سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء؟.

انظروا إلى المفردات التي تستخدم، مع قطع النظر عن مداليلها السياسية المعاصرة، فعندما يكون الشخص هو الرجل الأول في نظام ملكي يقال له ملك، ولنتوقف قليلاً عند المدلول اللغوي لكلمة ملك، فالملك هو من يملك شعباً، فهذا الشعب هو شعب مملوك، إذن هنا علاقة مالك ومملوك، مالك وعبيد. وهذه ستكون علاقة مختلفة. وكذا كلمة سلطان، فهناك متسلط ومتسلط عليه. فإذا كانت العلاقة بهذا المعنى فإن لها استحقاقات كبيرة وخطيرة جداً.

وإذا كانت المفردة التي تستعمل هي الراعي والرعية كما ورد استعمالها كثيراً في تراثنا الفكري، فالراعي هو الذي يرعى ويهتم بشؤون من يتولى أمرهم، والرعية هي التي تُرعى ويُهتم بشؤونها، فالعلاقة بين الراعي والرعية هي علاقة الرعاية والاهتمام بمصالح الآخرين. وهذه كلها ترتبط بطبيعة النظرة والرؤية التي يعتقد بها المسؤول والمتصدي لإدارة شؤون الناس.

وبهذا يتبين أن الفاء في قوله عليه السلام: «فإنهما صنفان» هي فاء التفريع. وهي إشارة إلى أن هذا الحديث والكلمة تعليل لما مر من قوله عليه السلام في الدرس السابق: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم»؛ لأنهم مثلك ـ يا حاكم ويا مسؤول ـ في العقيدة أو في الإنسانية، فعليك أن تلطف بهم وتكون ليناً معهم.

فأمير المؤمنين عليه السلام في هذه العبارة يعلل ويذكر سبب ما قاله في العبارة السابقة، من أن هذه العلاقة هي علاقة الرحمة وعلاقة الشفقة وعلاقة المودة وعلاقة المحبة.

لماذا يجب على المسؤول أن يستشعر الرحمة والمودة والمحبة واللطف تجاه من هم دونه في المسؤولية؟، الجواب: لأنهم مثله في العقيدة أو في الإنسانية، وليسوا أقل منه شأناً، فيجب أن يرأف بهم. وبهذا يتبين، وبحسب الرؤية الإسلامية، أن سلوك رجال الدولة لا يتحدد بمجرد لوائح انضباطية؛ فيقال مثلاً: قررنا أيها الضباط والمدراء والمسؤولون والموظفون، أن تتعاملوا برفق ومحبة مع الناس، فإن مثل هذا القرار لا يُنفذ؛ لأن المسألة ليست قرارات أو صرف تعليمات، بل هي ترتبط بالرؤية والنظرة إلى الناس.

ونحن نرى اليوم عندما يدخل المواطن ـ الذي هو الأهم ـ إلى دائرة، فبالإضافة إلى أنه لا يستطيع الوصول إلى المسؤول أو المدير في كثير من الأحيان، وإذا سلم على الموظف فإنه لا يرد عليه السلام، لأنه يعيش في عالم آخر، فلا يستحق المواطن حتى أن يرد عليه، ولكن أحياناً إذا كان الموظف خلوقاً فإنه يرد التحية ويقول تفضل بالجلوس.

فلماذا هذا التعامل المهين مع المواطن، مع أنه مثله في العقيدة، ومثله في الوطنية والانتماء لهذا الوطن والإنسانية، وما فضله عليه؟، بل قد يكون هذا المواطن أفضل منه ألف مرة، وكل ما في الأمر أن الفرصة لم تتح له ليصبح مسؤولاً.

إذن، فهذا المسؤول لم يفهم أن هذا الموقع يجعله خادماً لهذا المواطن الذي يراجعه، ولا توجد لديه هذه الرؤية. ونحن نحتاج اليوم إلى إشاعة ثقافة دولة المواطن، وثقافة المواطنة الصالحة بين الجميع.

وهنا أود الإشارة إلى ظاهرة ملفتة للنظر، وهي إرسال آلاف الموظفين في الثمان سنوات الماضية إلى خارج العراق والإنفاق عليهم من أموال الشعب العراقي مئات الملايين من الدولارات لدخول دورات تأهيلية، فيرسلون إلى لبنان وغيرها وينزلون الفنادق الراقية.

علماً أن مدة الدورة لا تزيد على ثلاثة أيام، وهي دورات لتعليم الكومبيوتر، في حين أن مصاريف دورة واحدة يمكن أن يشترى بها ألف كومبيوتر، وتجعل الدورات في الدوائر مجانية، ونعمل على تعليمهم القيم الإسلامية والقيم الوطنية التي نؤمن بها نحن كعراقيين، لما تمتاز به ثقافتنا وحضارتنا عن الآخرين، وينبغي أن نعلمهم الثقافة الوطنية، فإن الملاحظ أنهم يتعلمون سياقات العمل الإداري ولا يتعلمون كيف يتعاملون مع المواطن، فهذا الأمر مغفول عنه تماماً.

ففي الجيش والشرطة تعطى دروس كثيرة في كيفية إمساك السلاح وكيفية القتال، ولكن ما المحاضرات التوجيهية التي توضح لهذا الجندي العزيز كيف يتعامل مع المواطنين عندما يقف في السيطرة، فقد يكون بين هؤلاء المواطنين متهم ويخفي نفسه بينهم، لكن هؤلاء المواطنين هم الأساس وهم الأصل، ووقفة الجندي معهم وابتسامته لهم وتعامله معهم، يجب أن يكون فيها التوقير والاحترام والتكريم.

فمثل هذا الدرس لا يأخذه الجندي ولا الموظف، فلذلك يوجد علم وخبرة في شؤون مهنية صرفة، ولكن لا توجد عندهم روح التعامل، فتكون الآثار أحياناً آثاراً عكسية.

ولقد أكد الإسلام على جعل هذه العلاقة علاقة إنسانية وعلاقة محبة وشفقة، وهي التي تحل المشاكل، ويأتي الاحتراف والمهنية كعنصر مهم في تنظيم العمل ومساراته، وهذا الأمر ـ مع الأسف ـ غير ملتفت إليه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب له كتبه لمن يرسلهم لجباية الزكوات وجباية الضرائب، وهو أُنموذج لما يجب أن يكون عليه المسؤول في كيفية تعامله مع المواطنين: «انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً، ولا

تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم أمض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية عليهم ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته، لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه. فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها، ولا تسوءن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله من ماله. ولا تأخذن عودا ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه، رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم»[١٢٩].

يحتوي هذا النص الشريف على مجموعة من الوصايا إلى المتصدين للتعامل المباشر مع الناس.

الوصية الأُولى: تصفية النية

إن أول عمل ينبغي أن يقوم به المسؤول هو تصفية النية، بألا يكون ما يأتي به من أجل الراتب، حتى إن كان عملا وضيفيا معينا، لكن النية مهمة والإخلاص مهم. والإخلاص لله هو الذي يدفع الإنسان إلى الإخلاص في العمل. وتتجلى هذه الوصية من قوله عليه السلام :«انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له».

الوصية الثانية: عدم تخويف الناس

إن على المسؤول ألا يروع الناس ولا يخيفهم، ويتضح ذلك من قوله عليه السلام: «ولا

١٢٩ . نهج البلاغة: الرسالة ٢٦.

تروعن مسلماً».ولكننا نلاحظ اليوم أن الواقع على خلاف ذلك، فلو وضعنا سماعة القلب على قلب المواطن عندما يدخل إلى الدائرة، لسمعنا دقات قلبه، وكأنه يريد أن يخرج من مكانه، فلماذا هذا الخوف والقلق، وهو في مراجعة عادية لإنجاز عمل رسمي غير مخالف للقانون؟!.

وكذلك نلاحظ كيف أنه خائف ومرعوب إذا دخل المحكمة، مع أنه صاحب الحق، ولو سئل لماذا هذا الخوف وأنت صاحب الحق، لقال إنما أخشى ألا أُنصف ويدفع الطرف الآخر رشوة وتتحول القضية لصالحه!.

الإضاءة الثانية

الملاك في تقسيم الناس

تشير هذه العبارة المؤثرة من هذا العهد الشريف من قوله عليه السلام:«: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، إلى الملاك في تقسيم الناس في نظر الإسلام وفي نظر علي عليه السلام.

إن التقسيم السائد للناس في هذه الأيام هو تقسيمهم بحسب ولائهم للأنظمة إلى موالاة ومعارضة، فالمعيار في تقسيم الناس هو الموقف السياسي من الحكم، فالمعارضة في خندق والموالاة في خندق آخر.

وهناك تقسيم آخر للناس على أساس الولاء الشخصي، فلو سألنا بعض المتصدين: كيف تقسمون الناس حقيقة وبغض النظر عن الشعارات؟، فسيقول: نقسم الناس إلى صنفين: من يحبني ومن لا يحبني، ومن يطيعني ومن لا يطيعني. وكل من كان أكثر التصاقاً بي والتزاماً بكلامي وطاعة لي فإني أُقربه وأُعطيه المهام والمسؤوليات، ومن كان صاحب رأي ونقاش ووجهة نظر، فإني أُبعده شيئاً فشيئاً. فالمعيار إذن في تقسيم الناس إنما هو على أساس القرب والبعد من المسؤول والمتصدي.

ويقسم البعض الناس على أساس طبقي.. على أساس الفقر والغنى، فهذه طبقة برجوازية تتألف من أصحاب الأموال والإمكانات، وتلك طبقة الفقراء تتألف من المساكين والمعدمين والكادحين، فيكون التقسيم على أساس القدرات المالية.

ويقسم الناس أيضاً في مساحات معينة على أساس العمق الثقافي، إلى طبقة مثقفة وطبقة قليلة المعرفة.. إلى غير ذلك من الاصطلاحات التي يتداولها البعض.

ويصنف الناس أحياناً على أساس قومي، هذا من القومية الفلانية فهو محترم، وذاك من قومية أخرى فلا يحترم. ويصنف الناس أحيانا على أساس ديني، فهذا من دين معين فيقدر، وذاك من دين آخر فلا يكترث به. ويصنفون أحياناً على أساس طائفي، فهذا من المذهب الفلاني فيحترم، وذاك من المذهب الآخر فلا يكترث به.. إلى غير ذلك من التشقيقات والتصنيفات.

وكل هذه التصنيفات قد تأخذ مدياتها في مجالاتها الخاصة بها، ففي دور العبادة توجد اعتبارات دينية أو مذهبية، وفي الساحة الاقتصادية توجد اعتبارات اقتصادية، وفي المنظومة الفكرية والثقافية هناك اعتبارات فكرية، فلسنا بصدد تقييم هذه التصنيفات والتقسيمات؛ هل هي في مجالاتها المعينة، يمكن أن تكون مقبولة أو لا تكون؟، فهذا بحث آخر.

معيار المواطنة

ولكن أمير المؤمنينعليه السلام قد طرح فهماً آخر لتقسيم الناس من موقع القيادة، ففي المنظومة القيادية يكون المعيار الذي يقسم الناس على أساسه لمن يريد أن يتحمل المسؤولية عن عدد من الناس، هو أن الناس إما أخ للمسؤول في الدين أو نظير له في الخلق.

فالمعيار هو المواطنة، فلا يُفضل أحد على أحد في المنظومة القيادية، لأن القائد مسؤول عن أُمة ومسؤول عن عدد من الناس، لا أن هذا قريب منه أو من حزبه فيقدمه ويعطيه الفرص، ويبعد الآخر لأنه ليس من أقاربه أو حزبه، فهذا مما لا يكون في الرؤية الإسلامية بحسب ما يشير إليه عليعليه السلام، لأنه يوجد معيار القيم الدينية ومعيار القيم الإنسانية، ويجمعهما في مصطلحاتنا المعاصرة اصطلاح حق المواطنة. فلكل مواطن حقوق متكافئة مع الآخرين، مهما اختلفت الإمكانيات المادية أو وجهات النظر السياسية أو تبني قضية معينة أو عدم تبنيها.. إلى غير ذلك.

وفي هذه العبارة درس كبير يقدمه عليعليه السلام لفهم النظرية الإسلامية في القيادة و الإدارة، فهناك تكافؤ فرص بين المواطنين، ولا تميز لمواطن على آخر على أساس

اختلافه مع الحاكم أو اختلافه مع القيادي المتصدي في مذهب أو دين أو قومية أو توجه سياسي أو قدرات معينة أو إمكانات، إلى غير ذلك، بل الجميع سواسيه.

وهذا ما نلاحظ تطبيقه في فترة خلافة عليعليه السلام، فالخوارج الذين خرجوا وحملوا السلاح بوجه عليعليه السلام، وقف ليقول بحقهم :«لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه»[١٣٠].

فهؤلاء ظنوا أن ما هم عليه هو الحق، وأن علي بن أبي طالبعليه السلام كان مخطئاً، فنهى عن قتالهم وإن كانوا مخطئين ولكنهم كانوا طلاب حقيقة، فهناك فرق بين من يريد الإفساد والضلال والانحراف والتآمر، ومن يريد أن يصل إلى الحق ويرى الحق في موقف معين، فهو قد يكون مخطئاً في نظرته ورؤيته، ولكنه حتى لو أخطأ وشهر السلاح باعتقاد دفاعه عن حق يعتقده، فيجب أن نوضح له أنه مخطىء، ولا يوجد أعدل من علي بن أبي طالبعليه السلام بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله، وهذه دروس في القيادة والإدارة نجدها في منطق عليعليه السلام.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في بيان أنه لا شروط ولا قيود لاستيفاء الحقوق وتكافؤ الفرص بين المواطنين:«جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله»[١٣١].

إن من يريد الوصول إلى الله تعالى والوفاء بحقوقه وتأدية واجباته تجاه خالقه، فليبدأ بأداء حقوق خلق الله أولاً، فطريق عبادة الله يأتي من مراعاة خلق الله والاهتمام بهم والوفاء بحقوقهم.

وأما الاكتفاء ببعض العبادات الشخصية بين الإنسان وربه وتجاهل حقوق الناس، فهذا ليس هو طريق التكامل. ومن قام بحقوق الناس وأعطى المواطن حقه فإن ذلك سيؤدي به إلى القيام بحقوق الله، وسيكتب الله تبارك وتعالى له التوفيق وينور قلبه ويسهل له مهمة الوفاء بحقوق خالقه وعبادته.

هذه هي النظرية القيادية في الإسلام، فالإنسان المواطن هو المعني بالاهتمام والتركيز

١٣٠ .نهج البلاغة: الخطبة ٦١.
١٣١ . غرر الحكم ٣: ١٠٧.

بالدرجة الأساس. ومن لم يستطع تحمل المسؤولية بهذا الشرط، فليقدم استقالته، وليخرج ويعطِ فرصة لغيره ممن يستطيع أن يفي بهذا الواجب وبهذه المسؤولية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة لأسود بن قطبة قائد الجيش في منطقة حلوان، إحدى ولايات فارس: «أما بعد، فإن الوالي إذا اختلف هواه، منعه ذلك كثيراً من العدل، فليكن امر الناس عندك في الحق سواء، فانه ليس في الجور عوضاً من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل نفسك في ما افترض الله عليك، راجياً ثوابه ومتخوفاً عقابه»[١٣٢].

يحذر أمير المؤمنين عليه السلام ولاته وقادة عسكره من أنه إذا انشغل الحاكم والمسؤول بمصالحه الخاصة ومآربه الشخصية منعه ذلك كثيراً من تحقيق تكافؤ الفرص بين الناس وإيجاد العدل بينهم، وحينئذ إذا كانت المصالح الشخصية هي المعيار، فلا يمكن أن تسير الأُمور كما ينبغي، ولا يمكن أن يتحقق العدل. ولهذا يوصي عليه السلام أن يكون أمر الناس عند المسؤول في الحق على حد سواء.

ومن مصاديق هذه الوصية الكريمة: تمشية المعاملة التي جاءت ضمن الضوابط المقررة على أساس صحيح، وإن لم أعرف، أنا المسؤول، صاحبها، وعم تمشية المعاملة الأُخرى وإن كنت أعرف صاحبها، وقد أرسل لي هدية، وقام بالاتصال وأرسل وفودا، لأنها كانت فاقدة للضوابط المطلوبة.

ومن المصاديق الأُخرى قبول ابن الوزير الفلاني في الجامعة، مع أنه لم ينجح، وعدم قبول ذلك المسكين رغم نجاحه في الاختبار. فينبغي أن يكون الحق هو المعيار، فإدارة الموقع الفلاني مثلاً، تتطلب إنسانا بخصوصيات معينة، وهذا المرشح من حزبي ليس فيه هذه المواصفات، وذلك الآخر لديه هذه المواصفات، فأيهما ينبغي أن يقدم وفقاً لمنهج علي عليه السلام الذي أمر أن يجعل الناس في الحق على حد سواء؟.

ثم يبين عليه السلام أن الجور لا يمكن أن يكون بديلاً من العدل، فانهما طريقان متعاكسان ينتهيان إلى نتائج مختلفة، ولذا لا يكون أحدهما عوضاً من الآخر. ولا يظن

١٣٢ . نهج البلاغة: الرسالة ٥٩.

المتسلطون أنهم يستطيعون بالجور والغلبة وتفسير القوانين بالطريقة التي تلائمهم والإجراءات التعسفية، من ضرب الشعب بالطائرات والمدافع والدبابات، إنقاذ أنفسهم من مصيرهم المحتوم على يد شعوبهم.

أيها الحكام لا تضربوا شعوبكم بالهراوات ولا تضيقوا على الناس، واعلموا أن الآلة العسكرية عاجزة عن الوقوف أمام إرادة الشعوب، فإن كل رصاصة هي حاجز آخر وجدار آخر بين المسؤول والناس.

وانظروا ماذا يحصل في ليبيا واليمن والبحرين، إن الحكام كلما خطوا خطوة لقمع الشعب، ازدادوا عزلة وازداد الشعب جرأة وتقدم خطوة إلى الامام لتحقيق حريته وكرامته وعزته. إذن يجب أن يكون الحق هو المعيار، والعدل هو الأساس، ولا يمكن أن يكون الجور عوضاً من العدل.

ثم يتطرق أمير المومنين عليه السلام في الجملة التالية من هذه الفقرة إلى ضرورة اجتناب المسؤول ارتكاب ما ينكر أمثاله فيما لو وقع من غيره، فحري بالمسؤول ألا يدع الناس تنتظر، كما لا يقبل أن يوضع في خانة الانتظار، وألا يسمح بأن تذهب حقوق الناس، كما لا يحب أن يؤخذ حقه..وهكذا في كل قضية تعرض له، فيجب على المسؤول دائماً أن يضع نفسه في مكان الآخرين وينظر هل يقبل لنفسه ما يقبله لهم؟، فإن لم يكن يقبله لنفسه فحري به ألا يقبله لهم أيضاً.

ثم ينتقل علي عليه السلام إلى وصية أُخرى من وصاياه إلى القادة والمسؤولين، فيأمرهم بأن يبذلوا أنفسهم في ما افترض الله عليهم من الفرائض فيقيموها، وأن يفرغوا أنفسهم لهذا الأمر، رجاء ثواب الله عز وجل وخوفاً من عقابه.

لقد شاهدتم القذافي، ففي حين كان الشعب يرزح تحت خط الفقر، كانت عشرات المليارات في حساباته الشخصية في المصارف الأجنبية جمعها خلال أربعين سنة، ثم ذهبت بقرار واحد من مجلس الأمن وجمدت جميع الأرصدة وانتهت، وكذا صدام، ذهبت المليارات التي أودعها في مصارفهم بجرة قلم، ولو كان قد صرفها على الشعب لأصبح العراق اليوم بشكل آخر.

فاتعظوا أيها المسؤولون، ولا تظنوا أنكم عندما تجمعون الأموال يمكن أن تنفعكم،

والتزموا بما أمركم الله تبارك وتعالى به، وتعاملوا بالإنصاف واتركوا لكم ولذويكم السمعة الطيبة.

واليوم مازال شعبنا يتذكر حكاماً حكموه، بالرغم من ملاحظاتنا عليهم، ويترحم عليهم؛ إذ يقولون عن أحدهم أنه إذا كان في اجتماع لمجلس الوزراء، وحان وقت الغداء يدعوهم على حسابه الخاص، ويخرج النقود من جيبه ويطلب لهم الطعام من أقرب مطعم، ثم يواصلون الاجتماع، وأنه كان ينزل من سيارته وحده ويسير ويوزع الأراضي بين المواطنين.

فهذه الأشياء تبقى في ذاكرة الشعب يتناقلها عبر الأجيال، فكيف إذا كان الحاكم صاحب منهج صحيح، ولديه رؤية واضحة وجذور صحيحة، وكان عادلاً مع الناس، فلا شك في أنه سيبقي الذكر الحسن ذخراً له في الدنيا، وجزاء الله له في الآخرة . وهذا أهم شيء يمكن أن يهتم به الإنسان.

إن النظرية التي يتحدث عنها علي عليه السلام هي نظرية إنسانية، ولا نستطيع أن نقول عنها إنها نظرية إسلامية فقط؛ لأن الإسلام له قراءة واقعية ومنصفة لواقع الحياة، ولو طبقنا هذه المعايير لوجدنا الواقع اليوم يختلف عما نعيشه بكثير، ولكن علينا أن نذكر أنفسنا بهذه المعايير، وأن يخطو كل منا خطوة ويبذل جهداً ويقول كلمة ويدفع ويشجع ويضغط، لإعادة الأُمور إلى نصابها الصحيح .

الدرس الرابع عشر

مبدأ العفو والصفح في التعامل مع الاُمة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في تتمة الفقرة السابقة من عهده لمالك الأشتر:«يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه».

يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام مالكاً في هذه الفقرة ومن ورائه كل حاكم مسلم، ويطلب منه أن يتعامل مع الشعب على أساس مبدأ العفو والصفح، فإن هؤلاء

الناس قد تصدر منهم الزلات ويخطئون في مواقفهم، كما هو الملاحظ في أي شعب، وقد تعرض لهم أسباب فينحرفون عن الطريق السوي وتدعوهم لاتخاذ مواقف وسلوكيات معينة، وتصدر منهم سلوكيات ومواقف وتصريحات لا تنسجم مع تقديراتك للمصلحة، ويكونون مخطئين في نظرك، وقد يقومون بهذه السلوكيات عمداً وهم عارفون أنها تغيظك، وقد تصدر منهم هذه السلوكيات خطأ ومن غير عمد، وهذا أمر خلاف القانون والالتزامات.

والموقف الصحيح الذي ينبغي اتخاذه في مثل هذه الظروف، هو أن تتعامل معهم بمنطق العفو والصفح، فتعطيهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيه الله تبارك وتعالى لك من عفوه وصفحه، فينبغي أن يكون تعامل الحاكم مع أفراد الشعب على أساس مبدأ العفو والصفح، كما يحب هذا الحاكم أن يعامله الله سبحانه على أساس العفو والصفح.

فإن هؤلاء الناس يمكن أن تصدر منهم الأخطاء، فهم يخطئون في سلوكهم وشعاراتهم ومواقفهم، وتعرض لهم العلل والأمراض الخُلقية والخروج عن الاستقامة، وقد يخرقون القانون والضوابط والاجراءات في بعض الأُمور، وتصدر منهم سلوكيات لا تناسب ولا تعجب الحاكم والمسؤول، فيطلقون تصريحات ويتجمهرون في مسيرات، وقد تكون لهم سلوكيات أُخرى لا يرتاح لها الحاكم ولا يرتضيها.

وهم يأتون بهذه المواقف عن عمد أحياناً، وعن خطأ أحياناً أُخرى. فما الموقف من هؤلاء الناس الذين يخطئون ويخرجون عن القانون أحياناً، ويمارسون بعض المواقف والأعمال والأقوال، عن عمد أو عن خطأ، لا يرتضيها المسؤول والحاكم ؟.

يبين أمير المؤمنين عليه السلام الموقف الصحيح الذي ينبغي للحاكم اتخاذه في مثل هذه الحالة؛ وهو أن يعطيهم من عفوه وصفحه مثل الذي يحب ويرضى أن يعطيه الله تبارك وتعالى من عفوه وصفحه إذا أخطأ، وليكن شعاره معهم هو العطف والعفو والصفح، وألا يكون قاسياً معهم، ويتحمل بعض مخالفاتهم.

ولا ينبغي للحاكم أن يعتقد بأن الشعب يجب أن يكون نسخة طبق الأصل عنه، وأن عليهم أن يفكروا كما يفكر، ويقولوا ما يريد له أن يقال، ويسمعوا ما يريد له أن يُسمع. كلا، فليس هكذا تُساس الشعوب، فإن هؤلاء المعترضين قد يختلفون مع الحاكم في اشياء وقد يخطئون، ولكن حقهم عليه العفو والصفح.

ونتعرض في ما يلي إلى الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه العبارة، القليلة في كلماتها، لكن الكبيرة في مداليلها ومضامينها.

الإضاءة الأُولى

ضرورة سعة الصدر في الحكم والإدارة

إذا أراد الحاكم إدارة ناجحة وقيادة موفقة فعليه بسعة الصدر، وذلك باستعمال الحلم والصفح وغض الطرف عن بعض الأخطاء. وعليه أن يتظاهر بأنه لم يرَ ولم يسمع، وعليه أن يستوعب، وأن يتحمل.

إن سعة الصدر هي المفتاح السحري للنجاح الإداري والقيادي.. ومن أراد أن يعطي الحقوق لأهلها فعليه بسعة الصدر. ومن لم يكن عنده سعة صدر، وضاق صدره بما يرى من أفعال لا تروقه، أو بما يسمع من أقوال لا تعجبه، فسوف لن يبقى معه أحد. وإذا بقي في دوامة أن هذا صرح ضدي وهذا تحالف مع جهة ما على حسابي، ويبدأ بالهجوم على هذا وذاك ويتضايق من هذا وذاك ويشتد مع هذا وذاك.. فمن سيبقى معه في المجتمع؟!.

إن الحاكم أو المسؤول لا يستطيع أن يعطي الشعب حقه وهو ناقم عليه، بل سوف يسلبه حقه ويقع في الظلم من حيث لا يشعر.. وقد يكون الحاكم محقاً، ولكن حقانية رؤية الحاكم، وبطلان موقف المواطن في رأي الحاكم، لا يسلبان حق المواطنة، بل يبقى مواطناً وله كامل حقوق المواطنة حتى ولو اختلف معه، فهو معارض يحمل رأياً مخالفا لرأي المسؤول، ويعارضه بالكلام وليس بالسلاح، فهو لا يهدد النظام، ومعارضته سلمية، وله حق الخروج بمسيرة سلمية، وتبقى له كامل حقوق المواطنة.

فإذا هاجمه الحاكم ولم يكن لديه سعة صدر، فكيف سيعطيه حقه؟. من المؤكد أنه

سوف لن يعطيه حقه، لأن إحقاق الحقوق بسعة الصدر، والعدالة الاجتماعية بسعة الصدر، وإنصاف الناس بسعة الصدر. وهذا هو مفتاح الرئاسة.

وعلى الحاكم أو المسؤول إذا لم يكن عنده سعة صدر، أن يكتب استقالته ويخرج من الحكومة. ولا يقل المسؤول: إن هذا ابتلاء لي أن صرت مديراً أو وزيراً أو رئيساً، فكثير من الناس ينتقد أو يشكو أو يعاتب. إن هذا الموقع يتطلب سعة الصدر، ومن لم يكن مستطيعاً فليقدم استقالته، ليأتي بدلا منه من يمتلك سعة الصدر.

فإذا أراد المسؤول النجاح، وأراد العدل والإنصاف، وأراد أن يكون حقانياً، وأراد خدمة المواطنين فعليه بسعة الصدر، وإلا فكيف يستطيع المسؤول أن يخدم إنساناً قد ضاق صدره منه أو كان متحاملاً عليه؟!.

ومن علامات سعة الصدر الابتسامة العفوية وليست التصنعية، والمحبة الصادقة لا الكاذبة. وبعض المسؤولين يتصنع باظهار المحبة للناس، ولكن قلبه مليء بالبغض والكراهية والحقد والعياذ بالله، وهذه للأسف قد نقع فيها كثيراً. ومن علامات سعة الصدر اللسان الصادق، لا مجرد مجاملات وكلمات يلوكها اللسان، ثم سرعان ما يلفظها بعد لحظات لكي تتحول إلى سباب وشتم، بعد أن يخرج أو يغلق الهاتف.

ونذكر بما قلناه في الدروس السابقة من قول أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «واشعر قلبك الرحمة للرعية»، فالمسؤول يجب أن يستشعر الرحمة في قلبه قبل أن يشعر بها المواطن، فحينما تكون القضية في الشعور والإحساس القلبي فلا مجال ولا فرصة للتصنع، ويجب أن تكون الحالة واقعية.

وفي مقابل ذلك ضيق الصدر، فإذا فقد الإنسان مكرمة سعة الصدر وضاق صدره ماذا سيحدث؟. إن ذلك سيؤدي إلى حيرة كبيرة في اتخاذ القرار؛ إذ كيف يمكن أن يتخذ قراراً وهو مشدود ومتأزم ومستفز؟!. إنه سيتخد قراراً ويرجع عنه.. ويصدر قراراً وزارياً ثم يأتي القرار الثاني ليبطل السابق.

ويجد الإنسان في مؤسسات الدولة تعميمات وقرارات تصدر وسرعان ما تنقض ويأتي نقيضها، ثم ينقض هذا النقيض بنقض جديد، ويبقى الموظف المسكين لا يعرف بأيها يعمل، بالقرار الأول أم الثاني أم الثالث، وقد جاء أحدها بكتاب رسمي،

والآخر في قصاصة بخط اليد، والثالث بهاتف، وكل واحدة لا تشبه الأُخرى.

لماذا هذا التخبط؟!، إن ضيق الصدر يؤدي إلى الضجر، وإلى مواقف خاطئة، وإلى حيرة في اتخاذ القرار، وإلى سوء في التعامل مع الآخرين. فالمسؤول حينما يكون مستفزاً لا يمكنه أن يتعامل مع الآخرين بطريقة هادئة، وسرعان ما يغضب فتصدر منه عبارات غير لائقة ويورط نفسه أكثر وأكثر، فتكثر المشكلات.

ويقع الإنسان في سوء التعامل وسوء السلوك حينما يضيق صدره، ويؤدي إلى استخدام القوة المفرطة، وكل إنسان يستعمل هذه القوة على قدره، فسائق السيارة إذا غضب واستفز تحدث مشكلة، فيحمل ما تحت يده من سلاح أو عصا وينزل إلى من أغضبه، وسرعان ما تتحول القضية إلى ضرب بالعصي أو ماشابه!، ويحدث ذلك لأنه مستفز لضيق صدره، فتتولد ردود أفعال وانفعالات سريعة لا يمكن السيطرة عليها.

أما الحاكم أو المسؤول إذا ما استفز، فإن تحت يده جيشا وشرطة وستكون القضية أكبر بكثير، فسينزل أفواجاً من الجيش والشرطة لتضرب وتبطش وتفتك، فإن لم يجدِ ذلك استخدم الطائرات والدبابات والمدافع. وهذا ما نراه اليوم في عالمنا العربي..

إن ضيق الصدر يؤدي إلى استخدام العنف والقوة المفرطة تجاه الآخرين، فيدفع لمزيد من الظلم، وكلما زاد الظلم ازدادت ردود الأفعال فيضطر إلى استعمال جرعة إضافية من الظلم لكي يسيطر، فيزداد سخط الناس، فيزيد في قمعهم.. وهكذا تستمر العملية تصاعدية. فمن لم يكن عنده سعة صدر فلا يتصدّ للمسؤولية؛ لأن التصدي يتطلب سعة الصدر وإلا وقع المسؤول في ظلم الناس لا محالة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في تأييد هذا المعنى: «من ضاق صدره لم يصبر على أداء الحق»[١٣٣]، فمن أجل أن يكون الإنسان حقانياً، ومتمسكاً بالحق، وملتزماً بالحق، ومدافعاً عن الحق، يحتاج إلى صبر على أداء الحق. ويتحقق الصبر على أداء الحق من سعة الصدر.

---

١٣٣ . كنز الفوائد ١: ٢٧٨.

وقال علي عليه السلام أيضاً: «آلة الرئاسة سعة الصدر»[١٣٤]، أي أن الوسيلة التي ينجح بها المسؤول في رئاسته هي سعة الصدر، سواء كان رئيساً لعائلة أو مصنع أو بلد أو أي موقع آخر من مواقع المسؤولية.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١٣٥]، يا رسول الله، إنك برحمة من الله صرت لين العريكة مع الناس، فحالة اللين لا تأتي إلا بفضل من الله تعالى. ولو كنت ضيق الصدر؛ انفعالياً تصرخ بوجه المؤمنين لتركوك وانصرفوا، ولو كنت رسولاً لله.

فعليك بالعفو؛ فهو الطريق حتى لمن يسيء ويخطئ معك يا رسول الله، واطلب لهم المغفرة، وعليك بمشاورتهم في الأمور، فإذا صممت فتوكل على الله سبحانه وتعالى. وطبقاً لهذه الآية الكريمة على الحاكم والمسؤول أن يتعامل مع المواطنين على أساس العفو عنهم، وطلب المغفرة لهم، والمشورة، وإعطائهم الكرامة، وإعطائهم القيمة.

ماذا يحدث أيها الوزير لو بعثت على المدراء العامين الذين تحت إدارتك وجمعتهم في اجتماع وسألتهم عن آرائهم في القضية الفلانية، وما القرار الذي ينبغي أن يتخذوه حولها، وما رأيهم في المشكلة الفلانية، وكيف نعالجها؟، وهكذا.. اسمع منهم وشاورهم وأشركهم، ليروا أنك تحترمهم وتأخذ برأيهم وتسمع لأفكارهم ومقترحاتهم، فتبعث فيهم الحماسة حينما يرون أن كلامهم مسموع بالفعل.

ويا شيخ العشيرة، إذا أردت أن تأخذ قراراً فابعث الى وجهاء العشيرة وأجلسهم في مضيفك واسألهم عن آرائهم في المشكلة الفلانية، وكيف نتعامل معها؟. ويا رئيس الشركة اجمع العاملين المختصين واطرح عليهم المشكلة التي تواجه الشركة واطلب منهم الحل. وهكذا كل مسؤول ضمن حدود مسؤوليته عليه أن يشرك الآخرين ويشاورهم في الأمور التي تتعلق بعملهم وأن يعفو عنهم ويتسامح معهم. وهذه هي المسالك لنجاح الإدارة والقيادة، التي تعتبر سعة الصدر المدخل لها.

---

١٣٤ . نهج البلاغة: الحكمة ١٧٦.

١٣٥ .آل عمران: ١٥٩.

قال رسول اللهﷺ: «أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»[١٣٦]، أي كما أن الله تبارك وتعالى أمر رسوله الكريمﷺ بالصلاة والصيام أمره بمداراة الناس أيضاً، وبهذه المقارنة أوضح قيمة المداراة وموقع المداراة في التعامل مع الناس في الفهم الإسلامي.

وقال أمير المؤمنينعليه السلام في بيان أهمية الرفق في العمل الإداري والقيادي: «إذا ملكت فارفق»[١٣٧]، والمقصود من الملك هنا هو التصدي للمسؤولية، أي إذا صرت مسؤولاً في مكان ما، فالرفق هو الأساس لنجاحك في الإدارة والقيادة .

وقالعليه السلام أيضاً عن نفس الموضوع: «عليك بالرفق فإنه مفتاح الصواب، وسجية أولي الالباب »[١٣٨]، الرفق هو المفتاح لاتخاذ الموقف الصائب والصحيح، وإن طبيعة أصحاب العقول استعمال الرفق. وهكذا يتفق العقل والشرع في الحث على الرفق للنجاح في أي عمل في مختلف مجالات الحياة، وخاصة في مجال القيادة والإدارة. فالرفق هو طريق النجاح والتوفيق والفلاح.

وعنهعليه السلام أيضاً: «نِعم السياسة الرفق»[١٣٩]، أي أن أفضل السياسة الرفق بالناس.

وقالعليه السلام تأكيداً لدور الرفق في العمل السياسي: «رأس السياسة استعمال الرفق»[١٤٠].

وفي رواية اُخرى عنهعليه السلام قال: «الرفق ييسر الصعاب ويسهل الشديد من الأسباب »[١٤١]، أي أن المهام الصعبة والشاقة تتيسر بالمحبة والاخوانيات والنخوة، وكل مشكلة عويصة يمكن أن تعالج بالرفق. وأما الشدة والغلظة والأوامر والنواهي فهي تصعب الاُمور أكثر وتعرقلها.

فأصعب الاُمور وأشدها تتيسر من خلال استعمال الرفق واللين. والرفق يفل حد المخالفة، ويقلل من شدتها، فحينما نتعامل بإحسان ولطف مع شخص ما، فإنه متى

١٣٦ . الكافي ٢: ١١٧.
١٣٧ . غرر الحكم ١: ٢٧٥.
١٣٨ . غرر الحكم ٤: ٢٩١.
١٣٩ . غرر الحكم ٦: ١٦٧.
١٤٠ . عيون الحكم والمواعظ: ٢٦٣.
١٤١ . غرر الحكم ٢: ٤٥.

نختلف معه يتذكر طيب تعاملنا معه، فيقلل ذلك من حدة المخالفة، ويدخل بعض الحياء في سلوكه. فالرفق يخفف ويفكك المعارضة والمخالفة.

وقال عليه السلام أيضاً: «من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس»[142].. أيها المسؤول، أيها الحاكم إذا كنت تريد أن تحصل على ما تريد من الناس فتعامل معهم بلين ورفق، فهذا هو الطريق للوصول إلى ما تريد وما تتمنى.

ويشير القرآن الكريم إلى واحدة من التهم التي كان يُتهم بها رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[143]. كان المنافقون جالسين في مجلس النبي صلى الله عليه وآله ويسيئون إليه بكلامهم، فقال أحدهم: اخفضوا أصواتكم، فقد تصل الكلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أو يسمعها أحد الناس فيخبره بها. فأجابه أحدهم: إذا وصلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وجاء ليسألنا عن قولنا ننكر ذلك، وهو أُذن وسيصدق ما نقوله.

فاستصغروا النبي صلى الله عليه وآله بقولهم هذا واستهزؤوا به؛ لأنه كان يقبل من الناس أعذارهم، ولا يصر على أنهم قالوا ويأتي بالشهود ليثبت لهم ذلك. وهو أُذن، أي يسمع كل ما يقال له ويصدق به، ولا يستطيع أن يسيطر على سمعه.

ويريد الله تعالى أن يدافع عن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله من هذه التهمة، فقال: (قل أُذن خير لكم)، أي من مصلحتكم أن يكون عندكم نبي حينما تعتذرون إليه يقبل عذركم، وحينما تقولون انكم لم تفعلوا يقبل منكم ولا يصر عليكم ولا يثبت أنكم فعلتم؛ (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم).

إن الله تعالى يلعن هؤلاء المنافقين ويعذبهم، فرسول الله صلى الله عليه وآله مظهر الرأفة ومظهر اللين ومظهر المحبة.. والمداراة والمرونة دليل على صلابة النظام وليس على تفكك النظام.

ربما يقول البعض: يجب أن تهاب الحكومة، ولا تهاب إلا بالعصي ومظاهر القوة

---

١٤٢. الكافي ٢: ١٢٠ح١٦.
١٤٣. التوبة: ٦١.

والاستعراض العسكري، فتنشر الدبابات في الشوارع لكي تخاف الناس وتشعر بهيبة الحكومة.. انظروا إلى التبريرات!، إن الهيبة بالقوة وبالغلظة!، وإذا أردت أن تتعامل بتواضع ومحبة فلا أحد يسمع منك، ولا أحد يقبل منك وستضيع، فيجب أن تكون قوياً حتى تهاب.. هكذا يقولون.

والحال أن النظرية الإسلامية تقول شيئا آخر، تقول إن الذي يتخذ مواقف شديدة هو في قرارة نفسه خائف مهزوز. وإذا لم يكن للمسؤول القدرة على الاقناع فهو ليس مديراً ناجحاً . فهل يجب أن يصرخ في الشركة أو المصنع أو أي مكان آخر لكي يستمع إليه الناس. إنه لا يحتاج إلى الصياح، بل يحتاج إلى محبة ويحتاج إلى منطق، ويحتاج إلى قدرة على الإقناع.. وقد قيل: أقرع الطبل أجوفه، أي كلما كان جوف الطبل أكبر، كان صوته أعلى، ولكن إذا مُلئ فسوف لا يخرج منه صوت.

وكذلك المسؤول إذا كانت رجله على أرض صلبة، كان مسيطراً على الموقف أكثر.. وإذا ما اقتحم قلوب الناس الذين هو مسؤول عنهم كان مسيطراً على قلوبهم قبل أن يكون مسيطراً على أجسادهم، كما قال الإمام الكاظم عليه السلام لهارون العباسي: « أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم، »[١٤٤]، أي إذا كانت قدرة هارون وهيبته على هؤلاء الناس بالشرطة والجيش والزنازين والاعدامات، فإن مكانتي وتأثيري هما في قلوب الناس، فلا أحتاج إلى كل هذه الأشياء، أنك ياهارون تركض وراء الناس، بينما الناس تركض ورائي، فالقضية عكسية.

ولذلك فالمرونة دليل على الصلابة والاستقرار في المنظومة القيادية. ومتى كان الحاكم مسيطراً فلا يحتاج الى أن يصرخ، ولا يحتاج الى أن يفتك، ولا يحتاج الى أن يسيء، فكلامه مسموع من الجميع من دون حاجة إلى مثل هذه الاُمور.

ولكن هذه المرونة وهذه السعة في الصدر لا تعني غياب الحزم، فالحزم مطلوب. والإسلام لا يتماشى مع فكرة الترهل، ولا مع فكرة التشظي، فيعمل كل شخص ما يحلو له، بل الحزم والوضوح والأهداف المشخصة والعزيمة لتحقيق الأهداف كلها مطلوبة، ولكن طريق الوصول إلى الحزم ليس هو الشدة والغلظة، وإنما هو المرونة ومحبة الناس.

١٤٤ . تحف الأشراف: ٥٥. الصواعق المحرقة: ١٢٢.

الإضاءة الثانية

كيفية نظر المسؤول إلى الأخطاء

كيف ينظر المسؤول إلى أخطاء الناس؟ وكيف يقيمها؟ وكيف يتعامل معها؟ ورد في هذه العبارة قوله﵇:«وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه».

وكأن أمير المؤمنين﵇ يشير إلى أن الذين تصدر منهم سلوكيات ومواقف قد ينسجم بعضها مع القانون وقد لا ينسجم، وقد ينسجم بعضها مع رغبات المسؤول وفهمه وتقديراته للمصالح، وقد لا ينسجم، وقد يقومون بهذه الأعمال عمداً وهم عارفون بأنها تغيظه، وقد تصدر منهم خطأ، فيجب أن يتعامل معهم على أساس مبدأ العفو والصفح.

وهذا العفو أو الصفح لا يعني تجاهل الحق العام، فإن من يتجاوز الحدود والسلم الاجتماعي والنظام العام في البلد ويترك بلا محاسبة فإنه يؤدي إلى أن تفقد الحكومة هيبتها، وتفقد المؤسسات هيبتها، وينبغي ألا يكون هذا العفو والصفح مبرراً ووسيلة لكي تنفرط الأُمور وتخرج عن سياقاتها الصحيحة، بل لابد من الحزم والوضوح في تطبيق الإجراءات، ولكن المقصود من هذا المبدأ هو زرع الثقة بين المسؤول والناس على مختلف المستويات، من أجل أن تكون الأجواء أجواء ثقة ومحبة واحترام وتفهم، لكي يستطيع المسؤول أن يدفع الناس باتجاه المزيد من الالتزام بالضوابط والتعليمات التي يفترض أنها وضعت لخدمتهم. يقول أمير المؤمنين﵇ في الديوان المنسوب إليه:

وذي سفه يواجهني بجهل   وأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلما   كعود زاد بالإحراق طيبا

أي قد يكون الفعل الصادر من إنسان هو خطأ واقعاً، وقد صدر منه بسفه، وهذا السفيه بسبب جهله يواجهني بسلوك غير مناسب ولائق، وأكره أن أُجيبه بموقف انفعالي ورد فعل معين وأُحولها من أزمة صغيرة إلى أزمة كبيرة، ثم تتفاقم هذه الأزمات، فيزيد سفاهة وأزيد حلماً، كالعود كلما احترق أكثر انتشر طيبه.

فهذا السفيه يريد أن يستفزني بجهله وإساءته وشعار يرفعه وموقف يتخذه، ولكني أواجهه بمزيد من الحلم والاستيعاب والاحتضان وسحب كل الذرائع التي من شأنها أن تؤجج الموقف وتخلق أزمة، ولكن بشرط ألا يتعارض هذا العفو مع السلم العام والنظام العام ومع طبيعة الظروف المطلوبة للاستقرار في بلد ما.

الإضاءة الثالثة

الواقعية في نظرة المسؤول إلى نفسه

لا ينبغي أن يظن المسؤول أنه إذا كان وزيراً أو أميراً أو رئيساً أو زعيماً، فإنه صار خارج دائرة الخطأ وأصبح معصوماً، وأن الوزارة أو الرئاسة عاصمة لمن يتولاها عن الخطأ!، ولذا عليه ألا يعتقد بأن كل ما يفكر به ويتخذه من خطوات هو صحيح، فليس الأمر كذلك، وعليه أن يكون واقعياً في نظرته لنفسه وقدراته، ويحتمل الخطأ في كل كلمة وإجراء وسلوك وخطوة يخطوها، فإنه أيضاً يذنب ويعصي ويخالف رب العالمين، ويتخذ مواقف خلافاً للسياقات، ثم يمد يده إلى رب العالمين يطلب منه الصفح.

وإذا ما ادعى المسؤول أنه لا يخطئ، فمعنى ذلك أنه ممن تأخذه العزة بالإثم، فهو لا يملك خصوصية تميزه عن غيره، وكل ميزته أنه جاءته فرصة فأصبح مسؤولاً!، ومع غض النظر، هل هذه الفرصة قد أخذها بجدارة وكفاءة وعلم وتصدّ وحسن أداء، أو أخذها عن غير وجه حق من الحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية، وشفع له حظه الجيد فرشحه الحزب الفلاني وأصبح وزيراً، في حين كان يحلم أن يكون ملاحظاً في دائرة.

ولكن سواء كان هذا أو ذاك، فالوزارة والإدارة والمسؤولية لقضية ما ولموقع ما، شيء، وصدور الخطأ من قبل المسؤول أو عدم صدوره شيء آخر، فهو يمكن أن يصدر منه الخطأ، وهو بحاجة إلى رحمة الله تعالى وإلى صفحه وعفوه.

وإذا كان يتوقع أنه لا يحتاج، فهذه مشكلة كبيرة، وإذا كان يحتاج ويعرف من نفسه الوقوع في الخطأ فلماذا لا يقدم الصفح لغيره؟!، وإذا كان يعرف أنه يمكن أن يخطئ فليقبل من غيره أنه يمكن أن يقع في الخطأ أيضاً، لا أن يكون الخطأ

مقبولا منه، ولكن يجب على الآخرين ألا يخطئوا!، فهذه ازدواجية، وهذا كلام غير مقبول.

فثقافة علي عليه السلام هي ثقافة بناء الرؤية الموضوعية في نظره لنفسه، وعدم المكابرة في الاعتراف بالوقوع في الخطأ، والمسؤول بحاجة إلى العفو والصفح من الله تبارك وتعالى، فإذا كان كذلك فلماذا لا يسمح ولا يعترف بإمكانية أن يقع الناس في الخطأ، وهم بحاجة إلى العفو والصفح أيضاً؟! وهذه رؤية موضوعية يطرحها علي عليه السلام في طيات هذه العبارة.

الإضاءة الرابعة

العلاقة بين صفح الله وصفح الإنسان

إن هناك علاقة طردية مباشرة بين صفح الله سبحانه وتعالى عن عبيده، وصفح الإنسان عن الإنسان. إن من يريد أن يُرحم فعليه أولاً يرحم الآخرين، ومن يريد الصفح من الله فليصفح أولاً عن الناس.

إذن، فهناك علاقة بين فعل الإنسان وفعل الله؛ كيف تتعامل مع الناس، فتوقع أن يأتي التعامل من الله على أساس هذه الخلفية. وهذه قاعدة مهمة من قواعد تنظيم السلوك الإنساني بحسب الرؤية الإسلامية، إذ يصبح الإنسان دائماً مرآة لما يتوقع ويتطلع إليه في علاقته مع ربه.

فعليه أولاً أن يجسد هذه التوقعات في تعامله مع الناس، وحينما تسنح له الفرصة لخدمة أحد عباد الله، فليبادر إلى خدمته، فالذي يريد من الله أن يعطيه ويرحمه، فليرحم عباده أولاً، وأما من كانت لديه القدرة على الرحمة ولم يرحم، فكيف يطلب الرحمة من الله؟!.

إن هذه العلاقة تجعل الإنسان دائماً أمام كوابح تكبح جماحه وتمنعه من أن يتطاول على الناس؛ لأنه ضعيف أمام الله سبحانه وتعالى، وله توقعات كبيرة جداً، ومن منا ليس له قائمة طويلة من التوقعات والحوائج من الله سبحانه وتعالى، ويريد تحققها.

وقد تطرق القرآن الكريم إلى العلاقة بين فعل الله وفعل الإنسان، يقول الله تبارك

وتعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٤٥]، إذ ربطت الآية الكريمة بين العفو عن العباد ومغفرة الله تبارك وتعالى.

ونجد هذا الربط أيضاً بين الصفح عن الناس، ومغفرة الله تعالى على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ يقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[١٤٦]، فالذي يريد أن يرحمه الله عليه أن يرحم الناس، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. فمن يريد الرحمة من السماء عليه أن يبدأها في الأرض وفي تعامله مع عباد الله. وهذه أيضاً قاعدة مهمة، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[١٤٧]، فارحم الناس حتى تتوقع الرحمة الإلهية. وفي هذا أيضاً درس كبير وعظيم.

الدرس الخامس عشر

سلسلة المراتب

وتناولت العبارة الأُخرى في هذا المقطع الشريف من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر: «فانك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك»، موضوع سلسلة المراتب في العمل الإداري والقيادي. فالوالي فوق هؤلاء الناس في الهرم الإداري، ثم الحاكم مسؤول عن هذا الوالي، ثم الله سبحانه فوق هذا الحاكم.

وقد استطاع البشر أن ينظم حياته في جوانبها المختلفة على أساس تسلسل المراتب، فمثلاً تبدأ سلسلة المراتب المدنية من ملاحظ، ثم مسؤول قسم، ثم مدير، ثم مدير عام، ثم وزير، ثم رئيس وزراء. وأما سلسلة المراتب العسكرية فتبدأ من ضابط بدرجة بسيطة حتى يصل إلى رتبة فريق. وسلسلة المراتب عند علي عليه السلام تبدأ من المسؤول وتنتهي عند الإمام، ثم الله تعالى فوق الإمام.

---

١٤٥ . النور: ٢٢.
١٤٦ . مستدرك الوسائل ٩: ٥٥. كنز العمال ٣: ١٦٣..
١٤٧ . صحيح مسلم ١٥: ٧٧.

ماذا تعني سلسلة المراتب في عملية الإدارة والقيادة؟، وما الرؤية الإسلامية للعلاقة الإنسانية في إدارة الأُمور والشؤون؟.. هذا ما سنتطرق إليه في الإضاءات التالية.

الإضاءة الأُولى

الرؤية الصحيحة في سلسلة المراتب

سلسلة المراتب هي نوع من بسط النفوذ والرؤية السلطوية؛ فالمسؤول عن سيطرة تفتيش مثلاً يفتك بالناس ويؤخرهم حتى يشفي غليله من المسؤولية، ويأتي الضابط الأعلى منه رتبة فيسيء إليه حتى يشفي غليله أيضاً من المسؤولية، ثم يأتي الأعلى منه ليمارس نفس الدور.

وهكذا الموظف مع المواطن ومدير القسم مع الموظف والمدير العام مع مدير القسم والوكيل مع المدير العام. فهل سلسلة المراتب هي حالة تشفّ وحالة إشباع للروح السلطوية عند الناس؟، وهل هي اعتراف بهذا النفس السلطوي الذي يتحول إلى ثقافة وسلوكيات في الإدارة؟.

ونحن جميعاً نشاهد هذه الظواهر في حياتنا اليومية، فحينما يأتي مسؤول أدنى إلى مسؤول أعلى نراه يقف ساعة أو ساعتين ولا يقول له تفضل بالجلوس، وكأنما العملية قائمة على أساس أن كل واحد من موقعه يمارس هذه الحالة السلطوية على من هو دونه. وأما الموظف البسيط فهو يظهر حقد كل المسؤولين مع المواطن، الذي يقف بالانتظار ساعات على الشباك الخارجي للدائرة وعندما يأتي دوره يؤجل إنجاز عمله إلى الأُسبوع القادم، وعندما يقول المواطن: إن معاملتي تحتاج إلى توقيع فقط وعندي التزامات كثيرة أُخرى، يرد الموظف: ليس الأمر بهذه السهولة، فالمعاملة تحتاج إلى إجراءات روتينية وتحتاج إلى وقت، ولكن لو كان هذا المواطن يحمل قصاصة ورق من مسؤول أعلى، لما احتاج إلى ذلك الوقت.

وهكذا تتحول هذه السلوكيات إلى ثقافة، وكل واحد في سلسلة المراتب يريد أن يشبع غليله السلطوي ويمارس حالة التسلط على من هو دونه، فهل هذه هي النظرية الإسلامية في الإدارة، وهل يقبل الإسلام ويعترف بهذه السلوكيات؟،

والجواب: كلا، إذ كيف يمكن أن يقبل الإسلام بمثل هذا وهو الذي دعا إلى تكريم الإنسان، كما جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾[١٤٨].

إذن، السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا سلسلة المراتب هذه؟، أليست نوعا من الطبقية والتمييز بين الأفراد؟. إن سلسلة المراتب في نظر الإسلام هي مجرد حالة تنظيمية للعمل وإدارة شؤون الناس، فمصالح الناس تتطلب نوعا من التنظيم لتوجيه كل الطاقات باتجاه الهدف المنشود، فالشركة التي يعمل فيها ألف شخص تحتاج إلى مدير، والوزارة التي لديها مهام ومسؤوليات بلد تحتاج إلى وزير لإدارتها، ولا يمكن إدارة هذه الآلاف من العاملين والتواصل معهم إلا من خلال عملية تسلسل المراتب من أجل تنظيم العمل وتفعيل كل الطاقات لتحقيق الهدف المنشود.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته إلى الأشعث بن قيس عامله على آذربيجان:« وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك»[١٤٩].

ينبه أمير المؤمنين عليه السلام المسؤولين بأن الوظيفة التي انيطت بهم، كمدير ناحية أو شركة أو وزارة، ليست طعمة ومغنماً، فيستغلون مركزهم لجمع الأموال، ويحاولون الاستفادة الشخصية من هذه الوظيفة إلى أقصى الحدود، فهذا الموقع ليس غنيمة، بل هو أمانة في أعناقهم، وعليهم أداء هذه الأمانة على أحسن وجه.

فالمنصب عند علي عليه السلام هو أمانة يؤتمن عليها المسؤول في هذا الموقع أو ذاك. ثم يقول أمير المؤمنين عليه السلام في تعبير عجيب:«وأنت مسترعى لمن فوقك»، أي أن المسؤول معني بحفظ الأمانة لمن هو فوقه، ومن فوقه يحفظ الأمانة لمن فوقه، حتى يتحقق الهدف لخدمة الناس من خلال كل هذه المنظومة، وهذا ليس مغنماً، بل هي أمانة في أيدينا، وعلينا أن نحافظ عليها.

إذن، سلسلة المراتب هي عملية تنظيمية لإدارة شؤون أي منظومة قيادية لتحقيق

١٤٨ . الإسراء: ٧٠.
١٤٩ . نهج البلاغة: الرسالة ٥.

أهدافها المنشودة، وعلى جميع من يتصدى لهذه المسؤولية في أي مرتبة من المراتب، أن يحفظ هذه الأمانة ويرعاها ويسلمها كاملة، حتى تنجز مصالح الناس ويتحقق الهدف الأساسي وهو خدمة الناس.

وهذا يعني أنه لا توجد صلاحيات مطلقة لأحد، ولا يوجد مسؤول فوق القانون وفوق العدالة وفوق الاجراءات، فالمسؤول مهما كانت درجته الوظيفية ستبقى هذه المسؤولية أمانة في عنقه، والله تعالى فوقه يراقبه في حفظ هذه الأمانة.

لقد أعطى الإمام عليعليه السلام لمالك الأشتر رسالة ينقلها إلى أهل مصر، بالاضافة إلى العهد الذي أعطاه إياه وحمله فيه إدارة ولاية مصر وحدد له واجباته. وقد بين أمير المؤمنينعليه السلام في هذه الرسالة لأهل مصر الطريقة التي ينبغي أن يتعاملوا فيها مع الوالي الجديد.

يقول عليه السلام:« أما بعد، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له واطيعوا أمره في ما طابق الحق..»[١٥٠].

أول شيء يذكره عليعليه السلام في تعريف أهل مصر بمالك أنه عبد لله، فهو لم يبعث طاغية وسلطانا يتأمر عليهم، بل هو عبد من عباد الله عز وجل، بكل ما تتسع له العبودية من معنى.

ثم يصفهعليه السلام بأنه لا ينام أيام الخوف، فهو لا يتنصل من تحمل المسؤولية في أيام الشدة، ولا يلقي بأعباء المسؤولية على كاهل الآخرين أيام الأزمات والمشاكل، ليحملهم الفشل في حلها بعد حين، أو أنه يخفي رأسه تحت الرمال كالنعامة عند حدوث الأزمات، وكأنه لا مشاكل ولا شيء يعكر صفو الوضع، وأن كل شيء على أحسن ما يرام، أو يخرج في أحسن الأحوال ليخبر الناس عن وجود مشكلة ويطلب منهم أو من الجهات المعنية التصدي لحلها. فمثل هؤلاء لا يعرفون من المسؤولية سوى إيفادات وامتيازات وخدمات ومكاتب فارهة.

---

١٥٠ . نهج البلاغة: الرسالة ٣٨.

والصفة الأُخرى التي يصف بها أمير المؤمنين عليه السلام مالكاً هي أنه لا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، ولا يجبن أيام المعارك والحروب، بل يتقدم أمام الجميع ولا يفر من المواجهة. وهو أشد على الفجار من حريق النار لشدة بأسه وقوة شكيمته، فلا يتساهل مع الاعوجاج والانحراف الذي يخاطر بسلامة المجتمع. ثم يذكر لهم اسمه ونسبه، ويأمرهم بالسمع له والطاعة في ما يأمرهم به ما كان مطابقاً للحق.

ومع كل هذه الصفات والخصال التي يتمتع بها مالك فإن علياً عليه السلام لم يأمرهم بإطاعة أمره ويسكت، بل أمرهم بالطاعة في ما وافق الحق، فليس هناك أمر مطلق في الطاعة، بل يجب التأكد هل ما يأمر به المسؤول مطابق للحق فيؤخذ به، أو غير مطابق للحق فلا يؤخذ به. فالحق هو المعيار، والعدل هو المعيار. وهذا هو منهج علي عليه السلام الذي يضعه دستوراً للمسلمين، فمنهج علي عليه السلام هو منهج الإسلام، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والمأمور ليس معذوراً.

وينبغي أن يسأل الإنسان نفسه: هل هذا الأمر الذي يأمر به المسؤول ينسجم مع الحق وطاعة الله أو لا ينسجم؟، فإذا كان منسجماً فليعمل به وإلا فلا. ولاحظوا مثلاً يوم انتصرت الثورة الإسلامية كان الإمام الشهيد الصدر ينظر إليها بأنها ثورة يقودها مرجع من مراجع المسلمين وعالم من علماء الدين، ولكن مع ذلك قال: ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام. فأنا اليوم أرى الرجل ذائبا في الإسلام، ولكنه ليس معصوماً حتى لو كان عالماً كبيراً ومرجعاً من مراجع المسلمين.

الإضاءة الثانية

سلسلة المراتب وتوزيع الصلاحيات

تشير هذه العبارة الشريفة من العهد المبارك لأمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر إلى أن سلسلة المراتب تعبر عن عملية توزيع الصلاحيات والعمل الجماعي، فكأن الإسلام في منظومته القيادية يعتقد بضرورة العمل الجماعي، ولا يقبل باحتكار القرار والسلطة والموقع المتقدم لشخص واحد، فهو أمر بعيد عن النظرية الإسلامية في القيادة والإدارة.

وسلسلة المراتب تعني توزيع الصلاحيات بين مجموعة من الناس، فإن العمل المشترك، والعمل الجماعي هو الطريقة المثلى للإدارة الصحيحة من وجهة نظر إسلامية، وإن الرجل الواحد مهما كان كفؤاً ومقتدراً ويمتلك قدرات ذهنية عالية، لكنه لا يستطيع أن يلبي كل الاحتياجات ويغطي كل المساحات في الدائرة التي يتحمل مسؤوليتها، ولابد له من الاستعانة بالآخرين لضمان النجاح، فالرأي الواحد مهما كان حصيفاً ينزلق في الخطأ أحياناً، والجهد الواحد مهما كان كبيراً، لكنه قد لا يغطي كل المساحات، واليد الواحدة مهما كانت قوية فهي لا تصفق، والإنسان يحتاج إلى أكثر من يد حتى يتمكن من التصفيق، فالإنسان لوحده لا يستطيع تحقيق النتائج الكاملة للعمل الذي يضطلع به.

ومن ناحية أُخرى فإنه حينما يُحتكر القرار والسلطة في أي مساحة من المساحات بيد رجل واحد، فهذا لا يبعث الحماسة ولا يشجع الآخرين لكي يبذلوا جهدهم لهذا العمل، ويزعم أنه إذا أشرك الآخرين فإن جهوده ستصادر ويكون التصفيق لفلان من الناس ويغيب هو عن الإطار، ويتوهم أن النتائج إذا كانت خيراً فستنسحب للآخرين، وإذا كانت سوءاً فهو الذي سيتحملها.

فلا يمكن أن تحصل حالة الحماسة وحالة الاندفاع والاستعداد للتضحية من أجل نجاح مشروع ما، إلا من خلال العمل الجماعي وسلسلة المراتب ووجود صلاحيات تمنح لعدد من الناس في المنظومة الإدارية والقيادية، وحينئذ ستنبعث الحماسة والاندفاع في اطار العمل الجماعي، ما يؤدي الى استنفار كل الطاقات في العمل الواحد، وهذا يؤثر في مستوى العلاقة الإنسانية بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام من خطبة له في صفين في أثناء المعركة: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته، بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس، واقتحمته العيون، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه»[١٥١].

١٥١ . نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

أي مهما كان الإنسان عظيم المنزلة، لا في القدرة على القتال، ولا في الشجاعة، ولا في اللياقات البدنية، بل كان عظيم المنزلة في الحق، أي في حقانية المشروع والشعار والمسار والوسائل والأهداف والخلفيات والدوافع والمبررات، فهو ليس فوق أن يُعان على أداء مسؤوليته.

ومن الأمثلة البارزة على عظمة المنزلة في الحق، هو علي الأكبرعليه السلام حينما تجسد ذلك في قوله لأبيه الإمام الحسينعليه السلام : «أولسنا على الحق؟ إذن لا نبالي أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا». فالعظمة في الحق هي أعلى رتبة من العظمة في الشجاعة وفي المؤهلات الشخصية وفي الوجاهات وفي التأثير في الناس.

ومهما تقدمت فضيلة هذا الإنسان في الدين أيضاً، فهو غير مستغن عن المساعدة في أداء مسؤوليته. والتقدم بالفضل في الدين إنما يتحقق في الاعتماد على المعايير والقيم والثوابت الدينية، والالتزام بالأطر والسياقات والمبادئ والقيم، فهو رجل مثالي يسير في الاتجاه الصحيح، فشعاراته حقة ووسائله حقة. فمثل هذا الإنسان العظيم المنزلة في الحق، والمتقدمة فضيلته في الدين، ليس بمستغن عن أن يعينه الآخرون. ولقد كانت هذه الصفات تنطبق على عليعليه السلام في ساحة المعركة، فهو يريد أن يعطي الدرس في الوقت المناسب والمكان المناسب.

وقت طرح المعلومة

ربما يدور في خلد البعض، لماذا يطرح عليعليه السلام هذه المعلومة في هذا الوقت الحساس، وهو في خضم المعركة، والقائد في حاجة ماسة إلى طاعة جيشه وعدم إشراك الآخرين في قراره، ألم يكن من الأجدر أن يؤخر الحديث عن هذا الموضوع إلى حين حسم نتيجة المعركة والرجوع إلى الكوفة؟.

والجواب، ان هنا درس آخر يريد أن يعلمنا إياه أمير المؤمنينعليه السلام ، وهو متى ينبغي أن تعطى المعلومة حتى لو كانت تضر بالإنسان نفسه وبصلاحياته وقدراته. وعلى المسؤول أن يعلم أن هناك ضوابط معينة وثغرات ومداخل إذا اطلع عليها المواطن يمكن أن يستند إليها ويقف بوجهه ويعطل قراره ويدعوه إلى أن يسمع منه ويلزمه

بأن يأخذ منه، ففي حالات كهذه، هل يخبر المواطن بأن لديه هذه الحقوق، أو ينبغي أن يخفيها عنه خوفاً من أن يستفيد منها ضده؟.

وفي الوقت الذي كان فيه عليعليه السلام في ساحة المعركة ويحتاج إلى أن يكون هو الآمر والناهي، يختار هذه اللحظة ليقول للناس: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته، بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه». وهنا إشارة مهمة جداً إلى أن مسألة الإدارة والحكم هي حق الله سبحانه، فهذا المال وهذه المسؤولية ليسا ملك المسؤول، بل هما حق الله وهو مؤتمن عليهما، وعليه تأدية الأمانة كما ينبغي وفقاً لما حمله الله تعالى.

فالله هو من حمله هذه الأمانة، فأصبح مسؤولاً في مساحة ودائرة تلك المسؤولية، فالزوج مسؤول عن زوجته، وهي أمانة عنده، فلا يجوز له أن يظلمها، وهو مسؤول عن أولاده وهم أمانة في رقبته، فلا يجوز أن يضربهم ويحاول أن يهديهم ويربيهم من خلال الرفق واللين.

وكذلك المسؤول في المصنع والدائرة والمعسكر والعشيرة والمدرسة وفي أي مساحة من مساحات المسؤولية، فلا ينبغي أن يسيء إلى من هم تحت مسؤوليته، وليستعن بهم ويستخدمهم في العمل الجماعي.

ومن جانب آخر تتجلى عظمة عليعليه السلام في فهمه الدقيق للإسلام ورؤيته العميقة للعمل الاجتماعي في قوله:« ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه». فهناك رجل تزهد به الناس، ويتساءلون عما يملك هذا حتى يمكن أن يقدم ويعطي شيئاً، وما هي خبرته؟، ونحن أُناس أصحاب شهادات وتجارب، فمن يكون حتى نستشيره ونأخذ كلامه؟.

ومعنى صغرته النفوس تقليل قيمته، ومعنى اقتحمته العيون أي احتقرته، فهو برأيهم لا يساوي شيئاً، وليس عنده فكر ولا رؤية ولن يفيدهم بشيء. ومثل هذا الشخص لابد من أن تطلب مساعدته، ولا يجوز الاستهانة بقدراته، فهناك، أحياناً، رجل ذو ثقافة بسيطة، ولكنه يتكلم بمعان عميقة، نستطيع أن نأخذ الفكرة منها ونصيغها.

انظروا إلى ما يقوله رسول اللهﷺ:«عليكم بدين العجائز»[١٥٢]، واستغرب السامعون وتساءلوا: ما دين العجائز؟ سُئلت عجوز: ما الدليل على وجود الله؟، فقالت وهي تغزل بمغزلها: إني إذا أوقفت يدي وقف هذا المغزل وإذا حركته تحرك، فكذلك هذا الكون لا يمكن أن يتحرك من غير محرك، وإذا رفع يده عنه توقف، فهذا شاهد بسيط ومثال بسيط، ولكن يعبر عن دليل عقلي وفلسفي عميق للتوحيد، ولدور واجب الوجود في الكون. فليس المهم العبارات والشكليات، بل المهم هو المغزى والمضمون.

ويقال لمن يسترسل في الكلام بأنه رجل متكلم، ولكن نحن نبحث عن المضمون، فربما كان هناك شاب بسيط، ولكن يمكن أن تأتي في باله رؤية تمثل نقلة نوعية وتؤدي إلى انتصارات كبرى.

واليوم بدأ العالم يتكلم بالفيس بوك، وبدأت الشعوب تستخدم الفيس بوك وتقوم بثورات، فما قصة الفيس بوك؟، قصته أن شاباً بسيطاً عمره سبع عشرة سنة غضبت منه صديقته، فجلس في البيت مغموما، وسأل نفسه كيف أتواصل مع الناس؟. ففكر أن يفتح موقعاً في الأنترنت ويبحث عن أصدقاء، وهكذا بدأ من فكرة بسيطة من شاب بسيط، حتى أنه لم يكن عبقرياً في نظام الحاسبات، فبدأ وانتشر كالنار في الهشيم، وتحول اليوم إلى أكبر موقع للتواصل الاجتماعي.

وخلال أربع أو خمس سنوات، بعد أن بدأت الفكرة من شاب فقير، يقال إن هذا الموضوع يساوي اليوم ستين مليار دولار. فهذه فكرة جاءت في ذهن شاب بسيط وتحولت إلى ثورات غيرت حكومات، ولو جلس كبار الخبراء والمختصين لتجميع الشعوب وتحريكها لم يتوصلوا إلى هذه الفكرة.

والإسلام يقول في المنظومة الناجحة، لا تزهدوا بأي فكرة أو رأي، فربما أنتج مشاريع كبيرة، فمهما كان امرؤ بسيطاً في نظر الناس، وكانت تنظر إليه العيون باحتقار، ليس بأقل من أن تصدر منه الإعانة والمساعدة لمن يتصدى لتحمل المسؤولية، أو تعينوه إذا تحمل المسؤولية.

١٥٢ . بحار الأنوار ٦٦: ١٣٥.

إذن فمادام هذا الإنسان ليس كفؤا وأصبح مسؤولاً، فيجب مساعدته وعدم إظهار الشماتة به لعدم كفاءته، والحذر من تعريته والإساءة إليه، فإن ذلك سيعطل مصالح شعب كامل، فإذا كان ضعيفاً فيجب الوقوف إلى جانبه حتى ينجح، وإذا كان قوياً فلا ينبغي له أن يزهد بأبسط الناس لعله يقدم له رؤية وفكرة يستطع من خلالها القيام بعمل كبير. فيجب على المسؤول أن تكون له أُذن صاغية يسمع ويرى ويستفيد، ولا يصاب بالغرور، وهذه صفة مهمة جداً في نجاح المنظومة القيادية من وجهة نظر علي عليه السلام.

إذن، المنظومة الادارية الناجحة تعني العمل الجماعي، وتعني استنفار الطاقات والإمكانات البشرية والمادية في خدمة هدف المنظومة الإدارية الصالحة والناجحة، وتعني توزيع وتخويل الصلاحيات من المسؤول الأعلى لمن هو دونه في المراتب.

وأما نظامنا فيقول ان الوزير هو الأول والآخر والظاهر والباطن في شؤون وزارته، وهو أمر غير صحيح، وعلى الوزير تخويل وكلائه بعض صلاحياته، لا أن يجلس الوكلاء في غرفهم بلا عمل والوزير لا يستطيع حتى أن يتواصل مع البريد، ويصر على أن تكون كل الصلاحيات بيده، في حين يجب عليه تخويل الوكلاء بعض الصلاحيات، فإن نجاحهم نجاح له أيضاً، وعلى الوكيل أيضاً تخويل المدراء العامين الصلاحيات، وهكذا سلسلة المراتب. فالمدير الناجح ليس هو من يعمل ليل نهار، بل هو الذي يعرف كيف يجعل الآخرين يعملون ليل نهار.

إن تخويل الصلاحيات في الفهم الإسلامي هو أيضاً توسيع للشراكة في القرار وفي الإدارة، وتوسيع الشراكة في المنظومة القيادية من الوسائل الأساسية في الفهم الإسلامي لنجاح العمل، فحينما تخول الصلاحيات يصبح للمسؤول الأدنى مساحات أوسع يتحرك فيها، ولكن هذا التخويل لا يسلب منه المسؤولية، فيكون المسؤول الأدنى مسؤولا في المباشرة، والمسؤول الأعلى مسؤولا في الإشراف، وهو شريك مع الآخرين الذين يعملون معه في دائرة المسؤولية.

هكذا ينظر الإسلام إلى هذه الأُمور، حينما أعطى علي عليه السلام وصاياه الخالدة قال:«

الله الله في القرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم»[153]، إياكم أن تسبقكم الأُمم الأُخرى للعمل بهذه التوصيات فتتقدم، بينما تبقون متأخرين بسبب ترككم لهذه الوصايا.

قرأت قبل فترة في صحيفة أن قطاراً في أحد البلدان ارتطم مباشرة مع قطار آخر، فقدم وزير النقل استقالته؛ لأنه يعتقد بأنه لم يستطع أن يبني منظومة صحيحة، فهو المسؤول الأول عما حدث من أخطاء، وإن خول الآخرين صلاحياته.

وهذه هي النظرية الإسلامية في تخويل الصلاحيات، ولكن يبقى الوزيرهو الشريك في المسؤولية، ولا يتحمل المسؤولية فقط المسؤول الأدنى. ولكن في بلدنا، تعلق أكبر المشاكل التي تحصل في أعناق المراتب الدنيا، ويُبرأ أصحاب المراتب العليا من المسؤولين.

فمثلاً، في تفجير يذهب ضحيته ستون شهيداً، تُلقى المسؤولية على السيطرة الفلانية ويرمون في السجن، ويُبرأ الضابط الأعلى والمسؤول الأعلى ووزير الداخلية، ولا يتكلمون عنهم، ويقولون إن المشكلة حدثت من خرق تسبب به هذا الجندي، في حين يذهب الإسلام إلى إشراك المسؤول الأعلى في المسؤولية وإن منح صلاحياته إلى من هو دونه؛ لأن مهمة الإشراف تبقى من مهامه في هذه العملية.

ولا يحق للمسؤول الأدنى أن يتنصل من المسؤولية أيضاً ويمتنع عن توقيع بعض القرارات بذريعة أن وراءها نزاهة، ويقول ليوقع الوزير أو المدير العام، فإنه لو حدثت مشكلة فإن وراءهما حزباً يحميهما، ولو حصلت نتيجة إيجابية فستذهب إلى غيري. وهكذا لا يريد المسؤول الأدنى أن يتحمل المسؤولية، والمسؤول الأعلى يريد أن يحتكر المسؤولية، أو يعطيها حينما يكون وراءها مشاكل ليتنصل من تلك المسؤولية. وهذا كله خلاف الفهم الإسلامي والرؤية الإسلامية للمنظومة القيادية والإدارية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة كتبها إلى ابن عمه عبد الله بن عباس وكان قد ولاه محافظاً على البصرة، وهي تتألف من مقطعين، وشاهدنا في المقطع الثاني،

١٥٣ . الكافي ٧: ٥٧.

ولكن نذكر المقطع الأول هدية لأهل البصرة وهدية لبني تميم الذين يمدحهم كثيراً:« فحادث أهلها بالإحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، وقد بلغني تنمرك لبني تميم، وغلظتك عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجمٍ إلا طلع لهم آخر، وإنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام، وإن لهم بنا رحماً ماسة، وقرابة خاصة، نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها. فاربع أبا العباس رحمك الله في ما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإنا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك، ولا يفيلن رأيي فيك»(١٥٤)

يوصي أمير المؤمنين عليه السلام محافظ البصرة أن يكون حديثه وحواره مع اهل البصرة هادئاً، وأن يحسن إليهم ويسمعهم الكلام الطيب، فإن أهل البصرة يستحقون الإحسان. ويطلب منه أيضاً أن يحلل عقدة الخوف عن قلوبهم، ولا يجعلهم يشعرون بالخوف والقلق، وأن يفتح لهم الأبواب والقلوب.

ثم ينتقل إلى توبيخه على سوء تصرفه مع قبيلة بني تميم، وهي من أكبر قبائل البصرة، ويقول له إنه قد تناهى إلى سمعه تشدده على بني تميم، وإسماعهم كلاما شديدا، وغلظته في تعامله معهم.

ثم يحذره عليه السلام بإن بني تميم لم تغب لهم شخصية قيادية إلا طلع لهم قيادي آخر، فهؤلاء قبيلة معروفة بالأصالة والشجاعة، ولا أحد يجرؤ على حربهم، لا في زمن الإسلام ولا في الجاهلية؛ لأنهم أبطال أشاوس فلا أحد يسبقهم ويتقدمهم بقتال.

فلماذا تسيء إليهم؟، مع أن لهم ببني هاشم رحماً ماسة وقرابة حقيقة تعود إلى إلياس بن مضر وهو الجد السادس عشر لرسول الله صلى الله عليه وآله، فنسب بني تميم وبني هاشم يلتقي عند إلياس بن مضر، ونحن مأجورون على صلتها والتواصل معها، ومأثومون على قطيعتها وهجرانها. وهذه شهادة من علي عليه السلام لبني تميم على خصالهم الحميدة وقرابتهم الحميمة.

ثم يحذر أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس في ما يجرى على لسانه ويده من خير أو شر، ويبين له العلة في ذلك بأنه شريك له في كل ما يصدر منه من خير أو شر. ولا

١٥٤ . نهج البلاغة: الرسالة ١٨.

تظن أنك تتحمل المسؤولية بمفردك، فأنا علي بن أبي طالب الذي وضعتك في هذا المنصب أتحمل المسؤولية معك.

وأين أنت ياعلي لترى ما نحن فيه، فإنا لا نرمي فشل الحكومات المحلية على المحافظ ومجلس المحافظة فقط، بل نرمي مشاكل الحكومة الاتحادية أيضاً على الحكومات المحلية؛ فعندما يُسألون عن عدم توفر الخدمات، يقولون إن السبب هو أن مجالس المحافظات لا تعمل بشكل جيد. وإذا سئلوا عن الفساد المالي والإداري يحملون مجالس المحافظات ذلك..وهكذا.

فهل هذه مهام مجالس المحافظات؟، ولو كانت مهامها، فكذلك يجب على الحكومة الاتحادية ألا تتنصل من المهام التي هي شريكة فيها مع الحكومة المحلية، فما بالك إذا كانت هي من صلاحياتها؟!.

وعلى كل حال فهذا هو المنهج الذي يقدمه علي عليه السلام، فهو شريك في ما يقوله ويعمله المسؤولون الذين نصبهم. ولذلك يجب علينا جميعاً أن نتحمل المسؤولية.

وأخيراً يوصي أمير المؤمنين عليه السلام واليه على البصرة أن يكون عند حسن ظنه به، فإنه يحسن الظن به، ولا يجعل قناعته تضعف وتنتهي به، بسبب تصرفاته هذه. وفي هذا الكلام تحذير مبطن وتهديد بالعزل إن تكرر منه ذلك.

وأين نحن من نهج علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يتكلم مع ابن عمه بهذا الاسلوب، فتسقط اعتبارات القرابة والحزبية عندما يتولى المسؤولية، بينما نتستر على الفاسدين والمقصرين إذا كانوا من أقربائنا أو من حزبنا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الدرس السادس عشر

حسن الأداء والكفاءة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر حينما ولاه مصر: «وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم».

يخاطب أمير المؤمنين مالكاً بصفته مسؤولاً: لقد استكفاك الله سبحانه وتعالى أمر الناس، أي طلب منك الكفاية وحسن أداء المسؤولية، فإنها أمانة الله بين يديك، وعليك ألا تخونها، فأنت مسؤول أمام الله قبل أن تكون مسؤولاً أمام الناس الذين تتحمل المسؤولية تجاههم.

وهذه في جانب منها ترتبط بالثقافة التي تجعل المسؤول ناظراً إلى الله سبحانه، فهو الذي يراقب ويتابع، وحينذاك يرصد كل كبيرة وصغيرة وكل شاردة وواردة، ومن كان قادراً على إخفاء معلومة عن الآخرين فهو غير قادر على إخفائها عن الله سبحانه. وهذه تعطي الحصانة للمسؤول وتمنعه من أن يقع في الخطأ حتى إذا استطاع ذلك من دون أن يترك بصمات معينة، ولكنها من جانب آخر تشير وتؤكد أيضاً على أهمية حسن الأداء والكفاءة.

ثم يقول له إن هذه المسؤولية ليست تشريفاً أو امتيازات أو فرصة لتطوير وتوسيع النفوذ والامكانيات، وإنما هي ابتلاء واختبار من الله سبحانه وتعالى، ليرى كيف ستتعامل وتلبي طموحات المواطنين، وكيف سيكون التزامك بالمعايير المطلوبة لإنجاح هذه المهمة القيادية.

وهنا يمكن الإشارة إلى مجموعة من الإضاءات في فهم هذه العبارة القصيرة.

الإضاءة الأُولى

التصدي مسؤولية والتزام

إن التصدي لمواقع الخدمة العامة إنما هو مسؤولية والتزام، ولا مجال فيه للتساهل

والارتجال والمزاجية، فحينما يكون الإنسان في موقع الخدمة العامة ومواقع التصدي يكون مسؤولاً أمام الله سبحانه وأمام المواطنين.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام تأكيداً لهذا المعنى في عهده لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر: « فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة»(١٥٥).

عندما يُنصب الإنسان مسؤولاً فعليه أن ينظر أولاً إلى سلوكه وتعامله مع الناس، فيخفض جناحه ويتواضع لهم، وأن يكون سهلاً في التعامل معهم، وأن يبسط لهم وجهه، وبساطة الوجه هي الابتسامة، أي حينما يتعامل مع المسؤول عنهم يبتسم لهم، لا أن ينبض قلب المواطن قلقاً إذا أراد أن يدخل غرفة المسؤول وإن كان موظفاً بسيطاً لأنه لا يدري ماذا يجاب، وكيف سيتعامل معه. فعلى المسؤول أن يلقى الناس بطلاقة الوجه ويتعامل معهم بسهولة ويسر.

ثم يطلب منه المساواة بين المراجعين في نظراته الفاحصة ونظراته الخاطفة، فلا ينشغل مع شخص ويترك الآخر؛ لأن الأول يمثل الحزب الفلاني يجلس معه نصف ساعة ، والآخر مواطن عادي لا يجيبه ولا يرد عليه السلام، فينهار ويشعر بالتميز والتفاضل، لأن هناك من هو أفضل منه وهو الشخص الذي يولى له الاهتمام.

فلا يمكن لإنسان أن يكون مسؤولاً عن مجموعة وهو لا يعدل بينهم، ولا يواسي بينهم حتى في النظرة، في حين ينبغي على المسؤول أن ينظر للجميع على حد سواء؛ لكي يشعر الجميع بالاطمئنان، سواء كان فقيراً أو غنياً، ووجيهاً أو مواطنا بسيطاً. فلا يجوز للمسؤول أن يفرق بين الناس على أساس خلفياتهم المذهبية أو القومية أو السياسية أو المستوى الاجتماعي أو الطبقة الاجتماعية أو ما إلى ذلك، لأنه مسؤول عن الجميع ويجب أن يكون تعامله عادلاً مع الجميع ويتعامل معهم على حد سواء.

---

١٥٥ . نهج البلاغة: الرسالة ٢٧.

ثم يعلل أمير المؤمنين عليه السلام وجوب المساواة بين المواطنين بأنه حتى لا يطمع أصحاب الوجاهات والنفوذ وأصحاب الأموال في إمكانية ظلم المسؤول للناس من أجلهم، ولا ييأس الضعيف من عدل المسؤول، فيأتي ولديه أمل بأنه يستطيع أن يأخذ حقه ممن ظلمه.

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام حقيقة غائبة عن أنظار المسؤولين، وهي أن الله تعالى يسائلهم عن عباده يوم القيامة. وهذه رؤية لها خلفيات عميقة جداً تجعل الإنسان يراقب إيقاعات سلوكه، ويدقق في كل خطوة من خطواته وفي كل كلمة من كلماته وفي كل إشارة من إشاراته، لأنها يمكن أن تكون مثار المساءلة من الله تعالى، فإن الله تعالى يسأل المسؤولين عن كل أقوالهم وأعمالهم، الصغيرة منها والكبيرة، فحجم العمل لا يغير من طبيعة المساءلة، سواء كان الخطأ جسيماً وعظيماً أو كان بسيطاً وتافهاً.

وقد يقول البعض إن الأخطاء الصغيرة ليست مشكلة، كلا، بل كلها مشاكل، فالمرض مرض سواء كان زكاماً أو ورماً خبيثاً، وهو يحتاج إلى العلاج ومراجعة الطبيب. وكذلك يحاسبهم الله تعالى على أعمالهم الظاهرة للعيان أو المستورة والخفية على الناس، فهي لا تختلف عند الله تعالى، فالسرقة سرقة، علم الناس بها أو لم يعلموا، والخطأ خطأ عرفه الناس أو لم يعرفوه.

ولذلك عندما يكون الحساب دنيوياً فالمسؤول يتستر ويخفي أعماله غير الصحيحة عن الآخرين، ليكون في مأمن من الملاحقة القانونية، ولكن حينما تدخل السماء في هذه العملية فلا يمكن أن يخفى عليها شيء. فالله تعالى لا يخفى عليه شيء، وحينذاك يراقب الإنسان نفسه أينما كان وحيثما كان.

الإضاءة الثانية

العلاقة بين التصدي وحسن الأداء

هذه العبارة تربط بين التصدي وحسن الأداء. يجب على الإنسان إذا أراد أن يكون مسؤولاً أن يتأكد من قدرته على أداء الواجب في هذه المهمة المناطة به. انظروا إلى العبارة ماذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وقد استكفاك أمرهم»، أي أن الله تبارك وتعالى

طلب من المسؤول حسن الأداء وألا يتحمل المسؤولية بدون قدرة على تقديم الأداء الجيد.

فلا ينبغي له التصدي إلى المهمة التي ليس لديه اختصاص فيها، فمن كان مهندساً لا ينبغي له أن يتسلم مسؤولية الصحة، ومن كان طبيباً لا ينبغي له أن يتسلم مسؤولية التجارة..وهكذا. فلا ينبغي أن يتصدى الإنسان إلى مهمة بعيدة عن اختصاصه، وعليه أن يتصدى إلى مهمة بإمكانه أن يحقق النجاح فيها ويصلح أمر الناس من خلالها.

إذن، يقول الإسلام إن من لا يجد في نفسه الكفاءة في مهمة معينة، لا يحق له أن يتصدى لها، ومن لا يجد في نفسه الاختصاص في مهمة معينة حتى لو عرضت عليه، لا يحق له قبولها. ولا يجوز له أن يبرر قبوله بإلحاح الجماعة عليه أو أن الواجب الشرعي أو الواجب الوطني يحتم علي القبول، وما إلى ذلك من تبريرات واهية.

فمن قال إن هذا واجب شرعي؟. لقد أصبح المسؤولون اليوم كلهم فقهاء يفتون كما يشاؤون! وإلا كيف أصبح التصدي لما هو خارج عن الاختصاص واجبا شرعياً؟! وكيف يصبح مثل هذا التصدي واجباً وطنياً لمن لا يستطيع أن يقدم في هذا الاختصاص شيئاً؟!. وإنه لمن المخجل حقاً أن نلوذ ونتستر خلف شعارات الواجبات الشرعية والوطنية في خطوات تتقاطع مع هذه الواجبات.

فمن كان وطنياً وهو غير كفوء يسيء لنفسه وللموقع وللناس، ومن كان متشرعاً فالإسلام لا يجيز له أن يتصدى لمهمة ليس مختصا فيها، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها»[١٥٦]، فمن كانت لديه الأهلية والكفاءة والقدرة على حسن الأداء، يجوز له التصدى للرئاسة والمسؤولية. ولا يجوز أن يتصدى لمن ليست له القابلية على تحمل المسؤولية أن يتصدى، وإن اقترح عليه البعض ذلك، وسيكبر حينئذ في عيون الناس، كما أن له الأجر العظيم عند الله تبارك وتعالى؛ لأنه غير قادر على تحقيق النتائج المطلوبة. وتصدي غير الكفوء عبث وتضييع للجهود، وابتعاد عن الأهداف المرجوة في أي مساحة من المساحات.

١٥٦ . الكافي ١: ٤٧ ح٦.

ويشهد لذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه:« وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون من أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأُمة»[١٥٧].

يذكر أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع الشريف مجموعة من الصفات التي لا يصلح من كانت فيه أن يتصدى للحكم والمسؤولية، وهي صفات البخل والجهل والجفاء والحيف والرشوة وتعطيل السنة.

فينبغي للحاكم على الفروج والأعراض والدماء والأموال والحاكمية العامة على المسلمين ألا يكون بخيلاً؛ لأن نهمته ستكون في أموالهم، ومن كان كذلك فلا يمكن أن يؤتمن على أعراض الناس أيضاً ودمائهم وحاكميتهم، فمن كانت له القابلية على الخيانة في الأموال فهو خائن أيضاً في الأعراض والدماء والحكم، وسيسهل عليه بيعها بأتفه الأثمان. فلا يجوز تسليم المسؤولية للبخيل إذ ستتحول بيده إلى معول يهدم فيه كيان المسلمين الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

كما ينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون جاهلاً، فيسلك بهم طريق الضلال بجهله. فهذا الجاهل حتى لو كان إنساناً طيباً ولكنه غير مختص وغير خبير فيسيء إلى المهمة المناطة به، وحينئذ سيضل الناس في ما هو مكلف به.

وينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون جافياً فيقطع الناس بجفائه ويمنعهم من الوصول إليه، والجافي من الجفاء وهو الظلم، والظالم لا يستطيع أن يمد جسور التواصل مع الناس، بل هو خبير بقطع هذه الجسور بعدوانه وتجاوزه وظلمه للآخرين.

ولهذا لا يستطيع الظالم أن يكون مسؤولاً وحاكماً، لأن العدل أساس مهم للحكم. وحينئذ سيدبر الناس عنه، وإذا أدبرت الناس عن الحاكم تحول الحكم بيد من هم دونه من المتملقين وضعاف النفوس وغير الكفوئين وضاعت مصالح الناس.

١٥٧ . نهج البلاغة: الخطبة ١٣١.

وينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون حائفاً للدول، والحيف هو الجور، والدول هو المال الذي يتداوله الناس، فالجائر على أموال المسلمين لا يمكن أن يكون أميناً على الأُمة؛ لأنه سيتخذ قوماً دون قوم، فيقدم جماعة ويؤخر آخرين، فتكون التعيينات مثلاً لحزبه، والأموال والمشاريع لأقربائه، والإمكانيات وتخصيصات قطع الأراضي لأصدقائه والمقربين منه.

إن هذا المنهج الذي نبحثه يتقاطع مع ثقافة المكرمات التي نراها في مجتمعنا اليوم، إذ نسمع كثيراً أن هذه مكرمة السيد رئيس الوزراء، وهذه مكرمة السيد الوزير!، فهل هذه الأموال التي تتكرمون بها قد ورثتموها من آبائكم، أو هي أموال شركاتكم الخاصة، أو هي أموال هذا الشعب؟. فإذا كانت أموال الشعب فهل يحتاج صرفها على الشعب إلى مكرمة منك؟! أي كلام هذا؟!.

إن الحديث عن المكرمات لشيء غريب!، فحينما يوضع موظف على الخزنة، ثم يقوم بإرجاع الأموال إلى أصحابها، فهل يستطيع أن يقول تفضلت عليكم بها؟، أي تفضل هذا والشعب هو من نصبك موظفاً في هذا المكان؟!. وهل للمحاسب في المصرف أن يتعامل بهذه الطريقة مع أصحاب الأموال المودعة في المصرف ويعتبرها مكرمة؟!.

إنه من المستهجن والقبيح الحديث عن مثل هذه المكرمات، وهي تنم عن عقدة حقارة، يحاول المسؤول التنفيس عنها بهذا الاسلوب.

ولا ينبغي للحاكم والمسؤول أن يكون مرتشياً في الحكم فيذهب بالحقوق. فالمرتشي يسير الأمور على غير سياقاتها، ويبتعد عن الحدود والضوابط والموازين والإجراءات الصحيحة، ولو سئل كيف صرفت هذا المال مثلاً لجاء بمائة دليل عن صحة تصرفه، وإن كان لا ينطبق مع سياقات العمل.

وهو يحاول أن يكيف كل الإجراءات مع مصالحه الشخصية، ولا يعرض مصالحه على الضوابط. وهذه هي مشكلة المرتشي، وهو يبحث دائماً عن الثغرات ليتاح له من خلالها أن يأخذ ما ليس له. وإذا تفشت الرشوة ضاعت الحقوق، إذ يمنعها عمن يمتنع من دفع الرشوة إليه. ولهذا لا يصلح المرتشي للتصدي للمسؤولية.

كما ينبغي للحاكم والمسؤول ألا يكون معطلاً للسنة، فيسبب هلاك الأُمة. فالمسؤول حينما لا تكون عنده منظومة أخلاقية ومنظومة دينية وقيم وطنية سيضيع ويضيع الناس معه. إن وجود قيم أخلاقية وقيم وطنية وقيم دينية يجعل الإنسان أمينا على الأمانة التي يؤتمن عليها في المسؤولية التي هو فيها، فالموظف البسيط يؤتمن على مساحات من الصلاحيات محدودة، والموظف الأكبر منه يؤتمن على مساحة أكبر، ورب الأُسرة مؤتمن على عائلته..وهكذا.

فلا يجوز لهم خيانة هذه الأمانة والتفريط بها، وعليهم اتباع السنة في تعاملهم مع من هم تحت مسؤوليتهم، فلا يجوز لرب الأُسرة مثلاً أن يتعامل بعنف مع زوجته وأولاده، وقد ورد فيها ضرورة التعامل بالرفق واللين والإحسان. ولكن الإنسان الذي لا يملك القيم سيضيع ويضيع الآخرين معه.

من المشاهد التي يجب التركيز عليها في الحديث عن مسائل الديمقراطية والحرية هي هذه القيم، فأين الحديث عن المنظومة القيمية بين العراقيين على اختلاف توجهاتهم؟، وإذا لم نتعرف على المجموعة القيمية ستبقى الكثير من المشاكل من غير حل.

إذن، هذه هي المعايير التي يضعها أمير المؤمنين﷣ لمن يجب اختياره للترشح للمسؤولية، فلا يمكن تسليمها لشخص ممن يتصفون باحدى الصفات الست، وهم: البخيل والجاهل والجافي والحائف والمرتشي والمعطل للسنة. فإمامة المسلمين والحاكمية عليهم لا يجوز أن ينالها شخص تكون سمته البخل أو الجهل أو الجفاء أو الحيف أو الرشوة أو التعطيل للسنة؛ لأن أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ستكون في خطر محدق، وسيؤول أمر الأُمة إلى الهلاك.

الدرس السابع عشر

السمات القيادية

تشير مجمل النصوص الواردة في هذا الموضوع إلى ضرورة توفر خمس صفات في من يتصدى لأي موقع من مواقع المسؤولية، وهي: الدراية والمعرفة والعدالة والقدرة على الأداء والنزاهة.

وكما ذكرنا أكثر من مرة، فإن نظرية القيادة والادارة في الإسلام لا تحدد ملامح الشخصية القيادية في المواقع المتقدمة فحسب، ولا تتحدث عن الرئيس والزعيم والوزير وما شابه ذلك من كبار المسؤولين فقط، وإنما تمتد من إدارة الأُسرة وإدارة الشركة أو المصنع أو أي مشروع من المشاريع الأُخرى وصولاً إلى إدارة الدولة، وبالتالي فهذه الصفات الخمس ستكون مطلوبة وتتعمق أهميتها وحجمها بحجم المهمة المناطة بالشخص المسؤول.

فدرجة هذه المواصفات في المسؤول عن مشروع صغير أو أُسرة صغيرة تختلف عما إذا كان مسؤولاً عن ملايين من البشر في دولة معينة، ولكن تبقى هذه السمات والصفات مطلوبة لمن يتصدى لأي موقع من المواقع القيادية. ونتناول الآن هذه السمات بشيء من التفصيل.

السمة الأُولى: الدراية

وهي الرؤية التي يجب أن تتوافر في المسؤول تجاه المهمة المناطة به، وسعة الأُفق التي يستشرف بها المستقبل، ويكون طموحاً في تحقيق مستويات عالية من النجاح في ما أُنيط به من مهمة، وهو ما نسميه في مصطلحاتنا اليوم التخطيط الاستراتيجي.

فعندما يكلف شخص بمهمة معينة، يجب أن تكون له قدرة على إيجاد تصورات ووضع خطط ملائمة ومناسبة لنجاح هذه المهمة بأعلى المستويات وأفضلها حينما يتصدى لهذه المهمة. إذن الحديث عن الرؤية الثاقبة وسعة الأُفق هو حديث عن

إشراك العقل وإدخاله في تحديد ملامح المهمة والاطار الذي يتحرك به الإنسان، وهو حديث عن الشمولية والسعة في النظرة إلى هذا الواجب وإلى هذه المسؤولية حتى يحقق أفضل حالات الإنجاز في ما يناط به من مهام.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنينعليه السلام: "يحتاج الإمام إلى قلب عقول"[158]، ويقصد من الإمام هنا هو من يتصدر المهمة والمسؤولية، والقلب على نوعين، فهناك قلب عاطفي، وهو القلب الذي تأخذه مشاعر الحب والبغض والانطباعات السريعة لاتخاذ القرار، وهناك القلب العقول والقلب المتدبر، وهو القلب الذي لا يتأثر بالعواطف ويضع الرؤية الصحيحة ويصر عليها لتحقيق الإنجازات الكبيرة.

إن أي مهمة ومسؤولية تغيب عنها الدراية ويغيب عنها العقل والتخطيط تكون محفوفة بالفشل والتلكؤ في تحقيق الأهداف المرجوة من تلك المهمة.

ولذلك نجد في كلام أمير المؤمنينعليه السلام ما يشهد لهذا المعنى، يقول: "نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل، وبه نستعين"[159]، فكأن العقل ينام ويرقد كما ينام البدن. فالبعض منا يبطل عقله ولا يحرك قدراته العقلية في المهام التي تناط به، فيكون كثير العمل والحراك وقليل التدبر والتفكير، فيكثر خطؤه. ولكن هناك من يتدبر ويخطط ويستشرف المستقبل ثم يخطو فتكون خطواته أقرب إلى النجاح والتوفيق.

ويعبر أمير المؤمنينعليه السلام عن هذه الحالة بسبات العقل وقبح الزلل ويتعوذ بالله منها، فحينما يرقد العقل وينام، وحينما يعطل التفكير سيأتي الزلل والخطأ والانحراف والضلال وعدم إمكانية تحقيق النتائج الصحيحة.

وما أقبح أن يقع الانسان في الخطأ، ولكن قد يغتفر الخطأ أحياناً للإنسان إذا كان مواطناً بسيطاً ممن لا يتحمل مسؤولية، وإن كانت القاعدة التي تحكم البشرية أن القانون لا يحمي المغفلين، كما أن القانون لا يلاحظ علم الإنسان وعدمه بالقوانين النافذة، إذ كان عليه أن يتعلم ذلك، فمن يسوق سيارة يجب عليه أن يكون عالماً

١٥٨ . غرر الحكم ٦: ٤٧٢.
١٥٩ .نهج البلاغة : الخطبة ٢٢٤.

بقوانين المرور، ومن يقع في الخطأ ستكتب عليه غرامة وإن كان جاهلاً بها، وليس له حق الاعتراض. وإذا كان لا يُغفر للمواطن البسيط عند مخالفة القانون، فكيف يمكن أن يُغفر للمتصدي؟!.

وفي الجملة الأخيرة يستعين أمير المؤمنين عليه السلام بالله عز وجل حينما يأتي الحديث عن التخطيط وعن استخدام العقل وعن الأضرار المترتبة على تجميد التفكير والعقل والدراية، مما يشير إلى حجم الخطورة في مثل هذا المنحى.

السمة الثانية: المعرفة

الصفة الثانية المطلوب توافرها في المتصدي للمسؤولية هي المعرفة والخبرة أو ما نعبر عنها اليوم بالكفاءة. فيجب أن يكون المسؤول كفوءا وخبيراً وعالماً بالمهمة المناطة به. والدراية غير المعرفة، فالدراية هي التخطيط والرؤية، بينما الكفاءة هي القدرة على تنفيذ الخطة وتحقيق الرؤية على الأرض.

ولا يمكن تحقيق النجاح إلا حينما يكون المسؤول عارفاً بمهمته، فإن كان جاهلاً وقع في أحد محذورين: إما الإفراط في الأداء، وبالتالي يحمل المهمة المناطة به ما لا تحتمل، وإما التفريط في الأداء فيقصر في أداء الواجب. ومن الصعب تشخيص الحدود الصحيحة بين الإفراط والتفريط فيبقى دائماً بينهما.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه: "أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه"[١٦٠]، أي أن الأقدر على هذه المهمة هو الأعلم بما أمر الله في الضوابط والسياقات والقوانين والسنن، سواء كانت هذه الضوابط في الاطار الشرعي أو الاطار الوضعي، حسب القوانين التي تحيط بمهمة من مهام بلادنا. إذن فالأعلم هو الأولى أن يتصدى لهذه المهام.

ويؤيده أيضاً قوله عليه السلام: "لا ترى الجاهل إلا مفْرِطاً أو مفرّطاً"[١٦١]، فالجاهل إما متطرف فيزيد على الحد المطلوب، أو يفرط ويضيع جزءا من الواجب والمهمة المناطة به.

١٦٠ . نهج البلاغة: الحكمة ١٧٣.
١٦١ . نهج البلاغة: الحكمة ٧٠.

السمة الثالثة: العدل

العدل أساس الحكم، وأساس الملك، وأساس التصدي وتحمل المسؤولية. والعدل هو وضع الشيء في موضعه، أي هو اتخاذ الإجراء الصحيح في الوقت المناسب وفي الظرف الصحيح، ووضع الرجل المناسب في الموقع المناسب، وتوزيع الأدوار بطريقة صحيحة، وقول الكلمة في وقتها الصحيح. ولابد للمسؤول من أن يكون عادلاً.

والعدل هو إيصال الحق إلى أهله، سواء كان فيه مضرة او منفعة للمسؤول، فالمواطن يجب أن يعطى حقه، سواء كان متفقاً أو كان مختلفاً مع المسؤول في قضية أو توجه سياسي أو حزبي أو عشائري أو ديني أو قومي، وحقوق المواطنة يجب أن تؤدى كاملة.

والعدل هو عدم التمييز بين الناس، فلا يشعر مواطن حينما يدخل إلى دائرة ما بأنه صاحب حظوة أكبر، بينما يشعر مواطن آخر بعدم الرعاية والاهتمام. ويتحقق عدم التمييز بين الناس بالابتعاد عن الهوى، وعن المصالح الخاصة، وعن المزاجيات.

ويجب أن يكون القانون هو المعيار، سواء أعجب هذا القانون المسؤول أو لم يعجبه، لأنه موظف بدرجة رفيعة معني بتطبيق القانون لا غير، ويجب ألا يكون لإعجابه ورغباته أثر في تعطيل مصالح الناس وتمرير قضايا البعض على خلاف القانون. فهذا هو العدل كما يفهم من روايات أهل البيت عليهم السلام.

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام هذه الكلمات التي قالها وهو في طريقه إلى صفين لحرب القاسطين: "فإن الرعية الصالحة تنجو بالإمام العادل، ألا وان الرعية الفاجرة تهلك بالإمام الفاجر "[١٦٢]، أي أن نجاة المواطنين الصالحين بالحاكم والمسؤول العادل، فهو سبب في تحقيق النجاة للرعية الصالحة.

أما الرعية غير الصالحة فلا يحقق لها الحاكم العادل النجاح؛ لأن غير الصالح لا يتبع الصالح، فتحدث مشاكل سببها المواطن غير الصالح؛ إذ المسؤول قد أدى واجباته، فهذه ليست مشكلة المسؤول الذي أعطاه الطريق الصحيح. فالإمام العادل والمسؤول العادل هو الضمان لنجاح المواطنين الصالحين.

---

١٦٢. الارشاد: ١٢٤.

وفي الاتجاه الاخر يبين أمير المؤمنين عليه السلام أن الحاكم والمسؤول حينما يكون فاجراً ويتنصل من إقامة العدل سيهلك المواطن الفاجر؛ لأن الفاجر يتبع الفاجر، بينما المواطن الصالح لا يتبع الحاكم الفاجر، فإنه حتى لو انحرف المسؤول فالإنسان الملتزم بالقانون لا ينحرف معه، ولكن لو تماشى مع المسؤول غير العادل وأعطاه الرشوة مثلاً، فإنه سيضيع أيضاً.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في خطبة له يصف فيها الحاكم العادل: "قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها، قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله.

وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكا من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمن الناس من العظائم، ويهون كبير الجرائم، يقول أقف عند الشبهات، وفيها وقع، ويقول اعتزل البدع، وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميت الأحياء "[١٦٣].

يجب علي المتصدي أن يلزم نفسه العدل، والعدل مر كما الحق مر، ومن أراد أن يكون عادلاً قد يتشدد على جماعته، ولكن من الممكن أن يتساهل مع الآخرين.

وإلزام المسؤول نفسه العدل حينما يتصدى، في أن يكون أول عدله نفي الهوى عن نفسه، فمن يريد أن يكون عادلاً مع الآخرين، فليبدأ بنفسه أولاً ويحاول أن يصلح نفسه، حتى يكون قادراً على إصلاح الآخرين، وعليه أن يسحق المزاجية والهوى والرغبات الخاصة لكي يستطيع أن يفي بواجباته كما ينبغي.

والمهمة الثانية للحاكم العادل والمسؤول العادل أن يصف الحق ويعمل به. فيجب عليه أن يضع المعايير الصحيحة للتمييز بين الحق والباطل، ويبين الحق للناس،

١٦٣ . نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

ويكون هو أول من يعمل به. فالمسؤول الذي يضع قانون المرور يجب عليه أن يكون أول من يلتزم بهذا القانون، وأما إذا كان هو أول من يخالفه فكيف سينتظر من المواطن تطبيق هذا القانون.

وكذا الأمر في الالتزام بأوقات الدوام، فالموظف يأتي الساعة الثامنة إلى الدائرة، وإذا تأخر سجلوه غائباً، بينما المسؤول لا يلتزم بأوقات الدوام الرسمي غالباً. ولكن حينما توضع الضوابط وموازين الحق، يجب أن يكون المسؤول هو أول من يلتزم بها.

ومن سمات المسؤول العادل أنه لا يدع للخير غاية إلا توجه إليها، وليس هناك فعل خير إلا وركض وراءه، فهو دائماً يريد الخير والتقدم والإبداع ويشجع على الابتكار لكي يقدم شيئاً جديداً لإنجاح المنظومة القيادية وإنجاح الآخرين.

ومن سماته أيضاً أنه لا يوجد شيء فيه مظنة الخير إلا وقصده وتحرك نحوه؛ لأنه عنصر خير ويريد الخير. فمثلاً، هناك مسؤول يسعى لمساعدة المواطن، وعندما يرى أن في قضيته ما يخالف القانون، يقول له إن هناك فرصة واستثناء يمكن أن أُساعدك بواسطتها، فهدفه مساعدة المواطن وتكييف القانون بالشكل المناسب مع الحفاظ على القانون، ويحل مشكلته، ولا يدخر تلك الاستثناءات والثغرات إلى جماعته ومعارفه فقط.

وهناك مسؤول يتعامل بالعكس، فيتشدد في إنجاز معاملات المواطنين ويحاول تأخيرها.

ومن سماته أيضاً أنه قد أمكن القرآن من زمامه وقيادته، فيعمل وفقاً لما يطلبه القرآن منه، فيتخذ الاجراءات الملائمة للسياق العام للعمل الشرعي. ونفس الكلام ينطبق على الحالة المحكومة بضوابط معينة وقوانين ملزمة تشريعية ووضعية، فيكون مطية للحق ويعطي زمامه للضوابط والالتزامات الشرعية والقوانين، فهي قائده ويمضي فيها، ويحاول أن يتعامل مع الجميع على هذا الأساس. ويمضي مع القرآن ومع القانون والاطار الصحيح، فيحل حيثما حل في أدائه وإجراءاته.

وفي مقابل ذلك نرى الحالة المعاكسة حينما يخرج المسؤول عن العدل، ويصف نفسه بالعلم، وهو ليس كذلك، ويدعي الكفاءة والقدرة، ويدعي العدل في التعامل، ولكنه ليس من ذلك في شيء.

فاقتبس جهائل وأضاليل من جهال وضلال ممن يحيطون به، فمن كان جاهلاً وضالاً يكون مستشاروه والمحيطون به من الجهال وأهل الضلال؛ لأن الطيور على أشكالها تقع، فالخبير يكتشف الخبراء ويقربهم إليه ويأخذ مشورتهم، ولكن الجاهل يأتي بالجهال فيضعهم حوله، ويأخذ بأضاليلهم، فيزداد ابتعاداً عن الحق، ويزداد انحرافاً عن الجادة الصحيحة.

ولذلك ترى منظومة المسؤول والخبراء، إما أن تتحول إلى حالة مثالية تحقق انجازات كبيرة جداً، وإما أن تتحول إلى عصابة يصعب على أحد من الناس أن يخترقها ويتجاوزها، وتتحول إلى عبء كبير على المجتمع.

في حين كان يجب على المسؤول أن يحفظ النظام ويسهل مصالح الناس ويخطو بالاتجاه الصحيح. ثم إن هذا المسؤول حينما ينحرف، والمحيطون به أُناس جهلة يحرضونه على الآخرين، يبدأ ينصب الفخاخ والشباك لمن هو مسؤول عنهم، ويستعمل أنواع المكر والخداع.

وهذه كلها عوارض تطرأ على المجتمع حينما يتصدى غير الكفوء لموقع المسؤولية، فيقتبس الجهائل والأضاليل وينصب للناس أشراكاً من حبائل الغرور وقول الزور من الكلام الباطل والوعود الزائفة.

ثم يبدأ بتكييف القانون وفقاً لآرائه، فبدلاً من أن يتكيف هو مع القانون يقوم بتكييف القانون مع آرائه وأفكاره، ولقد سمعنا من الطغاة قولهم: إن القانون شخطة قلم، أي أن القانون هو ما أقوله، ومعنى ذلك أنه يرى نفسه أنه الحق المطلق، فيعطف الحق على أهوائه ورغباته ومصالحه، ويكيفه مع أفعاله، فإن بطش بالناس وفتك بهم وقتلهم أظهر أن ذلك هو الحق، وإن قام بفعل آخر يحاول أن يبرر أنه هو الحق.

وهذا ما نجده اليوم في الأنظمة الديكتاتورية التي تمارس قتل الناس على قارعة

الطريق، ثم يخرج القائد ويتحدث عن الحق، وما سواه لا يساوي شيئاً، كما نرى ذلك في تجارب نعيشها اليوم.

ومن سمات الحاكم والمسؤول الظالم أنه يؤمّن الناس من الأُمور العظيمة والأخطار الجسيمة. فحينما يخالف القانون والسياقات ويكثر الجهلة من حوله الذين يحرضونه على الناس، تزداد المشاكل الأمنية والاقتصادية، وتنشأ أخطار عظيمة، فيلجأ الى تطمين الناس بعدم وجود أي خطر، وأن ما يسمعونه مجرد تهويلات إعلامية، وتقارير كاذبة بعيدة عن الواقع.

وهكذا تسير الأُمور، ويُغرر المسؤول بالتقارير التي يقدمها المتزلفون والانتهازيون وأصحاب المصالح. إن على المسؤول أن ينظر إلى الحقيقة كما هي، ويشخص المشكلة ويعالجها علاجاً صحيحاً، فالتقارير التي تقلل من قيمة الأخطار والمشاكل لا يمكن أن تكون حلاً لها، ففي بعض الأحيان عندما يهمل الإنسان مرضاً بسيطاً ولا يعالجه يتحول إلى معضلة كبيرة ومرض مزمن يصعب علاجه، فكذلك لا تحل المشاكل بإنكارها أو التهوين منها، وينبغي التصدي لها بمجرد حدوثها، فإن علاجها سيكون يسيراً.

كما لا ينبغي السكوت عن الذنوب الكبيرة وتجاوز القانون وانتهاك حرمة المجتمع، فإن من يريد أن يرتكب الموبقة والحرام ويشرب الخمر فعليه على الأقل أن يفعل ذلك في بيته، لا أن يخرج في الشارع والأماكن العامة ويسيء إلى المجتمع بذريعة الحرية الشخصية، فهل أنت وحدك من يمتلك هذه الحرية؟.

فعلينا أن نضع الضوابط لمثل هذه السلوكيات التي لا تنسجم مع قيمنا الإسلامية وقيمنا الوطنية. ويجب ألا تتعارض الحرية التي يمارسها الشخص مع حريات الآخرين، فحينما لا تحفظ هذه الحرية حرمة المواطن وحينما لا تستطيع العوائل الخروج إلى الشارع في أماكن معينة بسبب هذه المظاهر، فيجب أن توضع الحدود لهذه الحرية، ويجب ألا تتعارض مع حريات الآخرين.

إن هذه الأُمور منظمة في الغرب اليوم، ولكن يراد فرضها في مجتمعنا الإسلامي والعربي بهذه الطريقة. فالسائق هناك إذا كان قد تناول مسكراً وقبض عليه يغرم

بأقصى الغرامات، وإن كان وزيراً أو مسؤولاً، ولا يشفع له هذا المنصب الكبير؛ لأن من يجلس خلف المقود ليس له الحق في تناول المسكر.

ونحن الآن في مجتمعنا العراقي الذي تغلب عليه الثوابت والقيم والمبادئ، يراد له أن تداس كل هذه الأُمور تحت يافطة الحرية، وتمنح مجموعة قليلة من الناس الحرية في أن تفعل ما تشاء من المنكرات وتتجاهر بها، وتتجاهل مشاعر الملايين من أبناء الشعب العراقي.

ثم يزعم هذا المسؤول أنه يقف عند الشبهات وهو ملتزم بالقانون، ولكنه في الشبهات وقع، وارتكب مخالفة القانون. ويزعم أيضاً أنه يعتزل البدع، ويدعي عدم التجاوز على صلاحية الآخرين وعدم الاعتداء على أدوارهم وعدم مخالفة الضوابط والاجراءات، بينما هو غارق في التجاوز على صلاحيات الآخرين.

فهذا التداخل الكبير بين دوائر الدولة أو بين القطاع العام والقطاع الخاص أو بين الحكومة المحلية والحكومة الاتحادية، هذا كله تجاوز على الصلاحيات، ولابد من الالتزام بهذه الصلاحيات.

وأخيراً يلخص أمير المؤمنين عليه السلام هذا المشهد بأن هذا المسؤول هو في الظاهر بصورة إنسان ولكن قلبه قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيبتعد عنه، وتلتبس عليه الأُمور فلا يعرف الهدى من الضلال، وأين الصحيح من الخطأ، فتكون القرارات تخبطية، وذلك ميت الأحياء، فهو حي ولكن جوهر الحياة وفلسفة الحياة غائبة عنه، فهو ميت يتحرك على الأرض.

السمة الرابعة: القدرة على الأداء

ولا يقصد بالقدرة هنا السطوة، ولا الجيوش، ولا استخدام القوة مع الناس، فالقوة والقدرة في المنظومة القيادية والإدارية لها معنى أوسع، وهي تعني مجمل السمات والصفات التي تجعل المسؤول قادراً على إنجاح المهمة من خلال الوسائل الصحيحة والطبيعية والمألوفة، وليس من خلال الضغط على الناس وإرهابهم.

وحينما نتحدث عن القدرة والقوة فإنما نتحدث عن سعة الصدر وتحمل المنافسين

وتحمل المخالفين؛ إذ كل من يتصدى لعمل ما فهناك من يخالفه؛ لأن الناس على أطوار مختلفة، وعلى الجميع أن يتفقوا على رؤية واحدة. وعلى المسؤول أن يعرف كيف يتعاطى مع المخالفين له، ولذا يجب عليه أن يكون له منطق قوي وشجاعة كافية في اتخاذ القرار. ومقدار الشجاعة المطلوبة أن يعرف أن الواقع يتطلب إجراء ما وقرارا ما، ولكن هذا القرار يعرضه إلى بعض المضايقات التي تتطلب أن يخاطر بمصالحه وتوقعه في إشكاليات.

فالشجاعة هي في اتخاذ القرار الصحيح وتحمل التبعات. والمسؤول يجب عليه أن يتخذ القرار، وحينما يصل إلى القرار ينبغي ألا يدع الآخرين يتخذون القرار نيابة عنه، لأن مصالح الناس يجب أن تضمن من خلال هذا الموقف. فالقوة في الأُمور تعني استقامة المسؤول وثباته وعدم تزلزله بسبب الضغوط التي يتعرض لها من هنا أو هناك.

والحكمة مطلوبة في مراعاة الاستقامة واتخاذ الموقف الصحيح. وربما يخشى المسؤول من اتخاذ القرار الصحيح على مصالحه، أو يخشى المسؤول الأعلى منه أن ينقله أو يقيله من منصبه، فهنا يجب عليه اتخاذ الموقف الصحيح المنسجم مع مصالح الناس مع مراعاة الحكمة، فإن أُخرج فضميره مرتاح. ولا يجوز له التنازل عن مصالح الناس لكي يبقى في منصبه، بل العكس هو المطلوب.

وهذا تحول كبير في مجمل الغايات والأهداف، فالمصلحة العامة هي الهدف، وينبغى أن يسعى الإنسان لتحقيق المصالح العامة من خلال المنصب، وليس العكس.

وينبغي أن تكون للمسؤول القدرة في مواجهة التحديات، فيواجه التحدي وهو في موقع المسؤولية. ويجب عليه أيضاً الحفاظ على حقوق من هو مسؤول عنهم ما دام مسؤولاً، فرب الأُسرة يجب عليه أن يحافظ على أُسرته، فلا يتركهم جياعاً ليشبع بطون الآخرين، فالأقربون أولى بالمعروف، وهم واجبو النفقة عليه، وهو المسؤول عنهم، ثم ينطلق بعدها إلى الآخرين الأقرب فالأقرب.

وهكذا كل مسؤول عن دائرة، يجب عليه أن يعرف كيف يتعامل مع الموظفين

الذين تحت مسؤوليته ومع المراجعين في هذه المسؤولية، في حفظ المسائل العامة للمساحات التي يتحمل المسؤولية فيها. وهذه قضية اساسية مهمة.

كما يجب على من يتصدى للمسؤولية أن يكون الالتزام بالقانون محط نظره، وعليه مراعاة المعايير الصحيحة في القيم والمبادئ، مع إمكانية تبرير مواقفه فلا يخشى الاستجواب، لأن لديه المستندات والمنطق والحجة الكافية التي يدافع من خلالها عن كل موقف يقوم به.

والاستجوابات أحد المؤشرات على صحة القرارات والأعمال. ففي الدول الديمقراطية هناك استضافات دورية مسجلة بشكل طبيعي، فكلٍ وزير يحضر في الشهر مرة لمدة نصف ساعة في مجلس النواب ويعطي تقريراً خلال شهر على ما قام به، والنواب من اللجنة المختصة يسألونه أربع أو خمس أسئلة، والأسئلة الاضافية يقوم بالإجابة عليها خطياً.

قضية الاستضافات والاستجوابات مسألة طبيعية جداً، وهذا ما نجده في الدول الكبيرة؛ كيف يستجوب الرؤساء وأصحاب المناصب السيادية، بل ليس هناك قضية إلا ويكون فيها حضور واستجواب في البرلمان.

ويجب أن يتحلى المسؤول بالهمة العالية، بأن يحاول تحقيق أقصى ما يمكن من المهام والواجبات في الفترة المعطاة له. وإذا كانت الهمم متواضعة، فلا يستطيع أن ينجز ما أُنيط به من المهام، أو أن يقدم أكثر ويدفع البلد إلى الأمام في الظروف الصعبة.

سأل العلامة الحلي، وهو من كبار علماء الإسلام، ابنه وكان من العلماء والفقهاء أيضاً: ماذا تريد أن تكون؟، فقال: اريد أن أكون مثلك. فقال العلامة الحلي: أنا كنت أُريد أن أصير مثل جعفر الصادق عليه السلام، فصرت العلامة الحلي. يجب أن يتحلى المسؤول بالهمم الكبيرة والطموحات العالية والمعقولة ثم يعمل جاهداً لتحقيقها، فإذا لم تتحقق جميعها فلا أقل من أن يتحقق سبعون بالمئة منها مثلاً.

ولكن حينما تكون الهمم متواضعة، فماذا يريد أن يعمل الوزير في السنوات

الأربع من عمر وزارته؟. هل يريد أن يوقع البريد ويزور الدوائر فقط؟. إن هذا سوف لن يدفع البلد إلى الأمام، فيجب أن يكون الطموح عالياً، ويجب أن تكون هذه أيضاً ضمن مقاييس القوة المطلوبة في المسؤول.

ويجب على المسؤول أيضاً أن يبث الأمل في نفوس الآخرين، لا أن يشكو ويصرح باستمرار: لا نملك الميزانية الكافية، ولا توجد تخصيصات، ومجلس المحافظة والحكومة لا يتعاونون معنا، ونأتي إلى بغداد فلا تتعاون الوزارة المختصة معنا ولا المالية تعطي ولا التخطيط تخطط.

فالمواطن حين يسمع المسؤول يشكو ويشكو، يقول: أنا أشكو والمسؤول يشكو، فمن يعالج هذا الواقع ويغير الظروف الصعبة التي نمر بها؟. إن على المسؤول أن يتحمل مسؤوليته ويبث الأمل ويشيع ثقافة تحقيق الإنجازات الكبرى في أسوأ الظروف، ولا يكون مثل ذاك القائد العسكري الذي يقول: أرسلتموني إلى الأعداء!، فهل يبعث القائد العسكري إلى الأصدقاء؟!. أو يقول: إنهم يطلقون النيران، فماذا تريد في المعركة، هل يوزعون الحلوى؟!.

إن القائد العسكري يتألق حينما يحقق نصرا في ساحة المعركة في أسوأ الظروف، وكذا المسؤول السياسي يجب أن يحقق الإنجاز في أحلك الظروف. وعندما لا نحتاج إلى حالات استثنائية، وكل واحد منا يستطيع أن ينجز ما أُنيط به، فهو من مؤشرات القوة أيضاً.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه: «أيها الناس أن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه»(١٦٤)

أي أن الأقوى على أداء المسؤولية هو الأحق بها، وليس الأقوى هو من استقوى على الضعفاء، فإنه ضعيف حتى يستطيع أداء الأمانة الملقاة على عاتقه. ومن يخشى أن يتكلم عنه الآخرون فلا ينبغي له أن يتصدى، وليتركها للقوي الذي يتحمل ويقف ويعالج ويخدم الناس ويدفع الضريبة في سبيل الله. هكذا يجب أن تكون المسارات والامور.

١٦٤ . نهج البلاغة: الخطبة ١٧٣.

وإذا كان المسؤول قوياً فإنه لا يقع تحت تاثير السلطة وإغراءاتها، فالسلطة مغرية. فعندما يكون الإنسان رب أُسرة، تكون مسؤوليته محدودة ومنحصرة في أفراد أُسرته، ولا تبعث فيه الغرور لأنها مسألة عادية يمارسها الملايين مثله.

ولكن إذا توسعت دائرة مسؤوليته وأصبح مسؤولاً عن خمسة آلاف شخص أو عن خمسين ألفا أو أكثر فإنه قد يصاب بالغرور. وكلما ازدادت مساحة التأثير ازدادت درجة الإغراء. وتكمن القوة الحقيقية للمسؤول في درجة سيطرته على أعصابه، وعلى نفسه، وعلى هواه، فلا يندفع ليستغل المنصب في غير المصالح العامة أو المهام المناطة به ليشبع غليله وسطوته من خلال هذه السلطة.

والسؤال والتحدي الكبير، هو كيف يستطيع المسؤول أن يحيد الحاشية التي تحيط به، فلا يقع تحت تأثيرهم؟، فهناك دائماً من يحيط بالمسؤول، وهؤلاء لهم مصالح، ويصورون الأُمور له بالطريقة التي تخدم مصالحهم، لا مصالح الناس. فعلى المسؤول أن يكون قوياً ولا يتأثر بالحاشية التي تصور له الأُمور بالطريقة التي لا تضمن مصالح الناس، فترضي أقلية منهم وتغضب الملايين من أفراد الشعب.

وإذا وقع المسؤول تحت تأثير الحاشية فسيصاب بتشتت في المواقف وتخبط ومزاجية، وتشتت في القرارات فينقض الواحد تلو الاخر. ولهذا السبب لا نرى أي تأثير وهيبة للقرار، سواء كان صادراً من مسؤول أو مدير أو وزير، لأنه يصدر اليوم وينقض غداً، وهو يعبر عن حالة التخبط والإرباك، ويكشف عن تشتت في الرؤية والقرار والإجراءات المطلوبة، ويكشف أيضاً عن وجود تأثيرات خارجية على المسؤول تمنعه من اتخاذ الموقف الصحيح والقرار الصحيح.

ويشهد لذلك قول أمير المؤمنينعليه السلام:» أقوى الناس من قوي على غضبه بحلمه«[١٦٥]. فمن يريد أن يكون قوياً عليه أن يمسك مشاعره وغضبه وأحاسيسه ورغباته ومصالحه ومصالح أقاربه وحزبه وحاشيته ويغلب عليها المصلحة العامة، بالحلم والعلم والحكمة.

وهنا تكمن القوة الحقيقية، لا في امتلاك الجيوش ليهاجم بها في كل يوم شعبه أو

١٦٥ . غرر الحكم ١: ١٩٨.

الآخرين. فسطوة القوة الحقيقية هي أن يكون المسؤول ماسكاً لنفسه وملماً بمهمته وقادراً على اتخاذ الموقف الصحيح، ويمضي قدماً في تحقيق مصالح الناس، ويحيد المؤثرات والأضرار والعوارض الأخرى التي قد يتعرض لها.

السمة الخامسة: النزاهة

يجب على المسؤول أن يكون نزيهاً، ولكن النزاهة في الرؤية الإسلامية لها معنى أوسع بكثير من معنى النزاهة المالية التي تتبادر إلى الذهن. فالنزاهة تعني في مجتمعاتنا اليوم عدم السرقة، ولكن النزاهة في الفهم الإسلامي لها معنى أوسع من قضية المال، فهي تعني الطهارة، أي أن يكون الإنسان طاهراً نقياً، وهذا النقاء المعنوي له آثاره في مساحات مختلفة، ويوجد تغيرات وتحولات كبرى في سلوك الإنسان المسؤول حينما يتصدى إلى مواقع المسؤولية، فالمسؤول يحتاج إلى أن يكون طاهراً ونقياً من الدنيا وحب الدنيا.

فإذا كان يحب الدنيا فإنها ستوقعه في سلسلة طويلة من الإجراءات والسياقات والبروتوكولات..إلى آخره، وكلها تتخذ في الظاهر شكل القانون والسياقات والالتزامات، وهي في المضمون حب الدنيا، يريد أن يشفي غليله ويستفيد ويتنعم بهذه الدنيا، إنه حب الأنا، وهذه هي البداية التي توقع المسؤول في الكثير من المشاكل، والنزيه لا يحب الأنا، ولا يكرر في كلامه: أنا قلت.. أنا أرى، ثم ماذا ستكون النتيجة إن انفرد بالقرار، ألا توجد لجنة استشارية، أليس هناك مسؤولون وخبراء، ألا توجد سياقات عمل يجب أن تحترم؟!. إن هذه الأنا التي تريد أن تقدمها على كل شيء لا تحقق نجاحاً.

إن إحدى إشكالياتنا اليوم التي تدعو إلى التلكؤ في الأداء، ليست في غياب العقول والخبراء في دوائر القرار وفي الوزارات، بل هي خشية العقل والخبير أن يقول كلمته خلافاً لما يقوله المسؤول أو الوزير، فهو لا يريد أن يسمع سوى كلمات الإطراء والمديح، وأن تكون كلمته هي النافذة.

فالأنا تتقاطع مع النزاهة، وحالة الاحتكار والاستحواذ هذه تتقاطع مع النزاهة،

فالمسؤول حينما يضع اليد على كل شيء، ويريد أن يكون قرار كل المهام بيده وليس بيد الآخرين، لا يعطي فرصة لمن يعمل معه.

إن المسؤول الناجح ليس هو من يتخذ القرار بمفرده، وإنما هو الذي يبعث الحماسة والشجاعة في عدد كبير من المسؤولين ليتخذوا القرار في مساحاتهم.

إن حالة الاستحواذ وحالة الاحتكار وحالة الاعتداد بالرأي التي يقع فيها المسؤول هي من حالات الأنانية، حيث يعتقد بأن رأيه هو الصائب، ويرفض الاستماع إلى آراء المستشارين والخبراء الذين معه، فمسؤولنا يريد أن يتكلم ولا يريد أن يسمع، وليس لديه الوقت لكي يسمع، ويرى وظيفته هي أن يجلس ويدير الاجتماع فقط، بل في بعض اجتماعات المفاصل الإدارية في الدولة لا مجال للمسؤول أن يُسأل.

وقد أخبرني أحد المسؤولين الكبار في وزارة سيادية، قال إنهم برغم الموقع المتقدم جداً في هذه الوزارة، لا يرون الوزير إلا مرة في كل ثلاثة أشهر وأحياناً في كل ستة أشهر. وهذا هو الواقع الذي كنا نعيشه في ظروف سابقة.

إن حب الرئاسة والسلطة يدعو المسؤول إلى التشبث بالمنصب، ويكون همه الأول كيف يحافظ على موقعه، فليس هناك نزاهة، وسيكيف كل القرارات والاجراءات والخطوات وفقاً للقاعدة التالية: هل هذا القرار يخدمني أكثر في البقاء في المنصب أو سيؤثر في إخراجي؟، فإذا كان الثاني أتركه وأرفع اليد عنه. وتمر السنة والسنتان ومصالح الناس معطلة، والمهم لديه هو جلوسه على الكرسي. وهذه من المشاكل الكبيرة.

ومن مشاكل النزاهة الرغبة في الشهرة والمديح والإطراء، فهو يريد عندما يدخل الدائرة أو يخرج أن يصطف له الموظفون سماطين ويأخذوا له التحية، ويستقبلوه ويودعوه بعبارات التفخيم والإطراء، فهو حائر بنفسه، لا بالمهمة المناطة به، ويعيش حياته الخاصة ويعيش التفكير في كيفية استثمار هذه الفرصة واستغلالها لمزيد من النفوذ والتأثير.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضاً الرغبة في الشهرة، عندما تكون هي الهاجس الوحيد للمسؤول؛ كيف يصفق له الآخرون، وتكون مسألة ظهوره كاسم لامع في الساحة

هي القضية الوحيدة التي يقف عندها ويهتم بها، ويعيش الأماني والآمال العريضة لشخصه ونجاحاته.

وهذا كله يجعل الشخص المسؤول غير قادر على أن ينظر بموضوعية للأُمور، وضعيفاً أمام المغريات والمحفزات المالية من أصحاب العقود والمقاولين فيغض النظر عن تلاعبهم بالمال العام. فعندما يخرج هذا المقاول وقد ربح مئتي مليون دولار، يقدم مليونين أو ثلاثة ملايين أو عشرين مليون دولار لهذا المسؤول أو ذاك بطريقة ما.

كما يجعله ضعيفاً أمام الضغوط، فمثلاً هناك بعض القوى السياسية تلوح بالانسحاب، فتشعر جهات معينة بالخوف من الضغوط.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضاً خوف المسؤول على سمعته ومصالحه. ومن كان كذلك ينبغي له ألا يتصدى، فمن يتصدى يجب أن يكون حريصاً على مصالح الناس في المنظومة التي يريد أن يتصدى فيها. ومن المؤكد أنه حينما يتصدى مسؤول ما فهناك من يعارض خوفاً على مصالحه، وهناك من يمدح وهناك من يقدح، ولذا ينبغي على من يتحمل المسؤولية أن يتقبل ملاحظات الآخرين ولا يضيق صدره بها. فيجب أن يكون قوياً أمام هذه الضغوط.

ويجب أن يكون المسؤول عفيفاً في نظرته وفي تعامله مع المسائل المختلفة، ويتجنب هتك الحرمات ونشر الغسيل وكشف المستور من أعراض الناس، وألا يكون منطلقه أن فلاناً من حزب آخر فيحاول أن يؤذيه، وبحكم موقعه كمسؤول يمكنه أن يطلع على وثائق ومعلومات وتقارير قد يكون بعضها كيدياً ويظهرها علانية، وهذا أمر سيئ جداً.

واليوم حينما نجد كل هذا التشويش في ساحتنا ونرى سائل الإعلام تتحدث عما يليق وما لا يليق، وبما هو صحيح وما هو غير صحيح، فإن مثل هذه الأُمور تكشف عن حالة من الضعف في نزاهة المسؤول الذي تتوافر لديه هذه المعلومات ويشهر بها قبل التدقيق بصدقيتها وفي صحتها، بناء على قاعدة أن كل صحيح يجب أن يشاع وينشر حتى إذا كان رذيلة، وإن كانت هذه القاعدة لا وجود مثل لها .

فمن يكون في موقع المسؤولية يجب أن يكون صبوراً وكتوماً وألا يعمل قناعاته الخاصة لتسقيط الآخرين، والعفة ليست في السلوك الشخصي والأخلاقي فقط، بل هناك العفة الاجتماعية أيضاً، وهي إشاعة الهدى والمنع من انتشار الفضيحة والمحافظة على أسرار الناس وأعراضهم. وحينما تنشر معلومات وهي غير ممحصة عن هذا المسؤول أو ذاك فإن المواطن ستتولد لديه قناعة بأن ساسة القوم مجموعة من السراق والخونة ويتشجع حينئذ لارتكاب الحرام والوقوع في الخطأ. وهذا أيضاً من القضايا التي تحتاج إلى معالجة.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة ضيق الأُفق والتحجر، فيجب على المسؤول أن يستوعب الآخرين، وأن يكون عنده بعد نظر. فإن ضيق الأُفق وعدم تحمل الآخر وعدم قبول الآخر، يجعل المسؤول غير قادر على اتخاذ القرارات الموضوعية ومراعاة التوازنات المطلوبة لتحقيق النجاح.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضاً حالة الغدر وعدم الوفاء، وعندما يقال للمسؤول الغادر: ألم نتفق؟ أليس هناك التزامات سياسية يجب الوفاء بها؟ أليس المؤمنون عند شروطهم؟ يقول: هذه سياسة. والتاجر يقول: هذا اقتصاد. فإذا كانت السياسة تعني عدم الالتزام بأي وثيقة، وإذا كان الاقتصاد يعني التلاعب وتحقيق أعلى الأرباح على حساب مصالح الناس.

فأي صدقية تبقى في المجتمع؟!، وأين هي الأُطر والمبادئ التي يجب أن تراعى حينما يبرر للأخطاء والغدر وعدم الوفاء بالالتزامات بتبريرات مصلحية أو باصطلاحات مثل مناورات سياسية أو تكتيكات سياسية، وما أكثر الاصطلاحات التي تستخدم اليوم في تبرير هذه الأُمور.

وعندما ينقض المسؤول عهوده ومواثيقه والتزاماته، فستشيع حالة من الشك بين الأطراف السياسية المختلفة، ويصبح من الصعب الاعتماد على كلام ووعد في ما بين المسؤولين أنفسهم أو بين المسؤول والمواطن. وحينئذ يفقد المسؤول صدقيته، ويفقد الناس ثقتهم بكلام المسؤول، ولذلك فإن الالتزام بالعهود والمواثيق يعتبر جزءاً أساسياً في عملية النزاهة.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضاً الطمع، فالمسؤول حينما يكون عنده طمع في

المال وفي الوصول والتسلق إلى المناصب يفقده ذلك التوازن، ويفقده القدرة على اتخاذ القرار الصحيح، ويصبح صعبا عليه جدا أن يفكر بالمصلحة العامة، بل يرى دائماً مصلحته في الموقع الذي يريده، والفرصة والمال اللذين يريد أن يحصل عليهما، ويفكر أن الخطوة الفلانية ربما تغضب المسؤول الأعلى أو التاجر الفلاني الذي يريد أن يعطيني الشيء الفلاني، فيبقى يعيش هواجسه الخاصة، وبالتالي لا يتقدم خطوة بالاتجاه الصحيح.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضاً سوء الخلق والتعامل السيئ مع المواطنين، فينظر إليهم شزراً، ويتعامل معهم بطريقة جافة، ويجلس متغطرساً على الكرسي ليرهب من يدخل عليه، متناسياً أنه في موقع الخدمة لهؤلاء الناس وليس في غرفة تحقيق.

كما نلاحظ حالة استخدام العبارات البذيئة، إذ يظن أن أحداً لا يطيعه إذا لم يفعل ذلك، فيصيح ويشتم من هو دونه في المسؤولية، ظاناً أن لا مجال للضبط الإداري إلا من خلال الإساءة للآخرين!. إن هذه الضوابط الغريبة تتقاطع مع أخلاقياتنا العربية والإسلامية. وإنه شيء مؤسف أن تتحول هذه الأُمور إلى ثقافة، ثم ينظر لها على أن تحقيق النجاح يتطلب مثل هذه الإساءات.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضاً الحقد، فالمسؤول الحقود لا يستطيع أن يكون نزيهاً، ولا يستطيع أن يكون متوازناً دائماً، فنار الحقد تشتعل في صدره ويبحث عن الانتقام من هذا وذاك، ويريد أن يوظف الموقع المعنوي والإمكانات المادية التي تتيحها السلطة له لتصفية الخصوم وضرب المنافسين والإساءة إلى الآخرين والضغط عليهم.

ومثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون مسؤولاً نزيهاً وهو يتصف بصفات المكر والخديعة واللف والدوران بذريعة أن الحرب كر وفر، فيقول في لحظة واحدة لهذا شيئا وللآخر شيئا آخر، ويطمع الجميع في نفسه، ويؤمل الجميع في شيء ما، ويجعل الأطراف السياسية تتنافس وتتصادم وتتصارع، ويبقى هو عنوانا يستفيد من خلال ضرب الأطراف بعضها ببعض، وهذا الخُلق لا ينسجم مع مفهوم النزاهة للمسؤول كما يراها الإسلام.

ومما يتقاطع مع مفهوم النزاهة أيضاً الغلظة والشدة في التعامل واستخدام القوة المفرطة. فترى الضابط مثلاً يعاقب الجندي على أتفه الأسباب بحلق الرأس أو السجن، متناسياً أن هذا الإنسان عنده عائلة، وهو لا يستحق مثل هذه العقوبة الصارمة.

إن المسؤول عندما يملك مستوى من الصلاحيات، فذلك لا يعني أن يستخدم أعلى السقوف الممنوحة له في العقوبة. فهل يأتي المسؤول ليؤذي الناس أو ليجعلهم في منظومته القيادية محبين ومخلصين؟.

إن سياسة الغلظة تجعل الآخرين يبتعدون عن المسؤول ويتربصون به الدوائر للنيل منه، ولذلك نراهم، عندما يخرج مسؤول ويأتي آخر بدلا منه، يتراكضون إلى المسؤول الجديد، وكل واحد يخفي عدداً كبيراً من الملفات، ويتراكضون إلى المحاكم ويرفعون دعاوى قضائية ضد المسؤول الأول، ويساعدون كل الخصوم ويمكنونهم من هذا المسؤول. ونفهم من هذه الحالة أن هناك حقداً وضغينة ضد المسؤول بسبب سياسة الشدة التي استعملها بدل علاقة المودة والمحبة.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضاً أزمة الثقة والشك ومنطق المؤامرة. فترى المسؤول يتساءل دائماً عن صحة كل ما يسمعه، ويضع كل شيء في دائرة الشك، وحينئذ يصبح شغل الناس في مثل هذه المنظومة القيادية تبرير مواقفهم مقابل حالة الشك التي يعيشها المسؤول، ويفقدون الثقة بكل منظومته القيادية. وهذا أمر فيه اتهام للناس بتهم خطيرة.

ومما يتقاطع مع النزاهة أيضاً اللجاج في الرأي، وكأن المسؤول هو الذي يعرف كل شيء، بينما لا يعرف الآخرون شيئا، ولا ينفع معه نصح الناصحين والمستشارين والخبراء وذوي الاختصاص، ويبقى معانداً ومصراً على رأيه ويتناسى أن المنصب الذي هو فيه هو منصب سياسي، وأنه لم يتعرف بعد على الوزارة أو الدائرة وتفاصيلها، وينبغي له أن يصغي إلى الآخرين ويترك العناد والاصرار جانباً.

ومن المؤسف أن تكون هذه الآراء التي يصر عليها المسؤول هي آراء خاطئة في كثير من الحالات، والبلد هو الذي يدفع ضريبة هذه الآراء.

الدرس الثامن عشر

المسؤولية ابتلاء

أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الجملة الثانية من هذا المقطع في قوله:«وابتلاك بهم» إلى أن التصدي لمواقع المسؤولية هو محطة مهمة وعصيبة من محطات الاختبار الإلهي. فالمسؤولية ليست مغنماً، وليست امتيازات، وإنما هي ابتلاء من الله سبحانه وتعالى وامتحان عسير لمن يتصدى لهذا الموقع، وذلك من خلال كيفية تعامل هذا المسؤول وتمكنه من تحقيق الأهداف المرجوة والوسائل التي يعتمد عليها في إنجاح المهمة وانطباعات الناس عنه في مهمته الخاصة من خلال المؤشرات.

فالإنسان المتصدي يختبر ويمتحن لهذا الموقع أو ذاك، معتبراً التصدى للمسؤولية كالدخول إلى قاعة الامتحان، وعندها يكون تحت المجهر الإلهي في كل خطوة وكلمة وحركة وسكنة؛ كيف سيتعامل، وهل ما يفكر ويتكلم به، وما يخطوه، كلها لتحقيق الهدف المطلوب، أو أن ذلك كان لأجل أغراض شخصية ومطامع خاصة ومصالح فئوية، إلى غير ذلك؟.

لقد شدد أمير المؤمنين عليه السلام على أن المسؤولية اختبار عسير، وفيه دروس عظيمة، وعلى الإنسان أن يعرف حينما يتصدى للمسؤولية بأنه قد عرض نفسه للاختبار الإلهي والوسائل الإلهية وهو في موقع المسؤولية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب أرسله إلى معاوية بن أبي سفيان مؤيداً لهذا المعنى: «أما بعد، فإن الله سبحانه قد جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها، فأبناؤها معرضون للابتلاء والاختبار ليعلم أيهم أحسن عملاً، ولسنا للدنيا خلقنا، ولا بالسعي فيها أُمرنا، وإنما وضعنا فيها لنبتلى بها. وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي، فجعل أحدنا حجة على الآخر»[١٦٦].

١٦٦ . نهج البلاغة: الرسالة ٥٥.

يبدأ أمير المؤمنين عليه السلام في هذه المقولة الشريفة ببيان حقيقة مهمة، وهي أن الله جل جلاله قد خلق الدنيا لغيرها، وقد أشار عليه السلام إلى هذا المعنى في قول آخر له، يقول: «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم»[١٦٧]، فهي بمثابة الممر إلى غيرها.

ثم يبين أننا لم نؤمر بالعمل للدنيا، وإنما أُمرنا أن نعمل في هذه الدنيا للآخرة، وهذا أمر لا يتعارض مع قول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[١٦٨]، أي ينبغي أن نعمل للدنيا كأننا نعيش فيها الدهر كله، فيتوفر عملنا على الإتقان والعمل الصحيح والخطوات الصحيحة، ولكن الغاية والهدف والخلفية والنية في هذا العمل يجب أن تكون للآخرة.

ثم يتطرق أمير المؤمنين عليه السلام إلى بيان مفهوم آخر وهو أن الله تبارك وتعالى إنما وضعنا في هذه الدنيا ليختبرنا فيها، وينظر كيف نتعامل، ومن هو المحسن منا ومن هو المسيء. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله عز من قائل: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[١٦٩].

ثم يبين عليه السلام لمعاوية أن الله تبارك وتعالى قد ابتلى أحدهما بالآخر، فجعل علي بن أبي طالب عليه السلام بلاء عظيما لمعاوية، وجعل معاوية بن أبي سفيان بلاء عظيما لعلي عليه السلام؛ لأن الاستحقاقات والأدوار مختلفة بينهما. ثم جعل سبحانه وتعالى أحدهما حجة على الآخر. وهذا من أدب الحوار مع الخصم، فإن الله تعالى قد جعل أمير المؤمنين عليه السلام حجة على معاوية ولم يجعل معاوية حجة على علي عليه السلام، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام لو كان قد قال لمعاوية قد جعلني الله تعالى حجة عليك لم يكن ليقبل معاوية بذلك.

وقد ورد نظير ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[١٧٠]، فهنا يأمر الله تبارك وتعالى نبيه الكريم أن يخاطب الكفار بهذا الأسلوب، مع أنه قطعاً على الهدى والكفار على ضلال.

١٦٧ .نهج البلاغة: الخطبة: ٢٠٣.
١٦٨ . بحار الأنوار ٤٤: ١٣٩ ح٥.
١٦٩ . الملك: ٢.
١٧٠ . سبأ: ٢٤.

إن الدنيا دار ابتلاء واختبار، ومن يتصدى للمسؤولية عليه أن يستعد للاختبار والابتلاء الإلهي؛ لأن المسؤولية محطة الابتلاء والاختبار.

والدرس الذي نستفيده من هذه العبارة الكريمة، هو أن على المسؤول حينما يتسلم مسؤولية معينة أن يكون مهيأ نفسياً وواقعياً لهذا الابتلاء. وكأن الامام علي عليه السلام يريد أن يقول: يا من تتصدى للمسؤولية، هل أنت قادر على تحمل أعبائها؟، وهل هيأت نفسك لاستحقاقات هذه المسؤولية؟، وهل أنت مسلح بسلاح العلم والمعرفة لتحقيق النجاح في هذه المهمة؟.

فإذا كنت متهيئا لتحمل المسؤولية وقادراً على النجاح فادخل على بركة الله، وأما إذا كنت غير مهيأ وتسلمت المسؤولية فان ذلك يؤثر سلباً في أدائك، وبالتالي سيكون الفشل حليفك في تقديم الخدمة، ويبقى الناس يعانون، فالمسؤولية ومواقع الخدمة مكان من تعلم وليس من يريد أن يتعلم، فهي ليست محطة من محطات التعلم، وإنما هي محطة العطاء والخدمة لمن هو قادر على العمل.

ويشهد لذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[171]. فقد يكون المتقدم للمسؤولية مخلصاً ويريد الخدمة ولكنه لا يعرف ولا يستطيع، فتكون الأضرار المترتبة على مسؤوليته أكثر من المنافع التي من الممكن أن تتحقق على يده.

١٧١ . تحف العقول: ٣٣.

المقطع الخامس
الأخلاق القيادية

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «ولا تنصبن نفسك لحرب الله، فإنه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة».

الدرس التاسع عشر

محاربة الله

يخاطب أمير المؤمنينعليه السلام في المقطع الأول من هذه الفقرة الحاكم والمسؤول ويطلب منه ألا ينصب نفسه لمحاربة الله سبحانه. ويكون ذلك عندما لا يمتلك المسؤول القدرة على رد النقمة الإلهية والغضب الإلهي، وعندما لا يستطيع أن يستغني عن عفو الله ورحمته ولطفه.

ويقصد أمير المؤمنينعليه السلام بمحاربة الله، أنه يجب على المسؤول أن يكون كفوءاً، فإن لم يكن كفوءاً وتصدى للمسؤولية فقد نصب الحرب لله سبحانه وتعالى. وينصب غير الكفوء الحرب لله سبحانه وتعالى لأنه لا يستطيع أن يحسن التصرف فيهدر المال العام ويضر بالمصلحة العامة ويتجاوز على حقوق الناس ويعتدي عليهم. وكل من يتصدى لمسؤولية وهو لا يحسنها يكون قد حارب الله سبحانه وتعالى، سواء كان إسلامياً أو علمانيا.

ونستفيد من هذه العبارة أهمية الإنسان وحق المواطن في نظر الإسلام، فالإساءة للمواطن حرب على الله، والاعتداء عليه حرب على الله، وأن المسؤول إن أحسن إلى المواطن فقد أطاع الله، وإن أساء إليه فقد عصى الله. وهذا هو منطق الامام عليعليه السلام.

إن التساهل في تلبية احتياجات المواطن وعدم الاعتراف بحقوقه وهمومه ومحنته ومطالبه يعتبر في منطق الإمام عليعليه السلام حربا على الله سبحانه وتعالى. وهذه هي قيمة المواطن وأهمية الإنسان في رؤية الإسلام.

ويشهد لهذا المعنى قول أمير المؤمنينعليه السلام:«من أبدى صفحته للحق هلك»[١٧٢]، أي من واجه الحق وقاومه هلك؛ إذ لا أحد يستطيع الوقوف بوجه الحق. فحينما يعتز المسؤول بمنطق خاطئ وهو يعلم أنه خطأ ويصر عليه، ويبرر ذلك بأن تراجعه

١٧٢ . نهج البلاغة: الحكمة ١٣٨.

سيكشف عن خطئه أمام الآخرين!، فوفقاً لهذا المنطق تبقى الناس في عناء بسبب خوف المسؤول على سمعته.

ويشهد له أيضاً قولهعليه السلام في رواية أُخرى: «من صارع الحق صُرع»[١٧٣]. وقولهعليه السلام: «الغالب بالشر مغلوب، والمحارب للحق محروب»[١٧٤]. أي حتى لو حصل على مكاسب معينة فإنها سوف ترتد عليه وسوف يُفضح على رؤوس الأشهاد في الدنيا قبل الآخرة.

إن من يعتقد بأنه من خلال الشر وظلم الناس يستطيع أن يحصل على شيء وتسير الأُمور كما ينبغي فهو مخطئ، لأنه ما ان تتغير الأُمور وتتحول الأوضاع سيتعرى أمام الناس وتظهر حقيقته جلية للعيان، وهذا تماماً ما نراه اليوم في محيطنا العربي من التحولات التي تحصل، فبعض هؤلاء الحكام كانوا يتحدثون ويتعاملون بعنجهية مع شعوبهم، ولكنهم اليوم أصبحوا في خبر كان وبعضهم بالسجون والبعض الآخر في ظروف لا يحسدون عليها كما تعلمون. فالغالب بالشر مغلوب حتى لو تقدم خطوة، فلا يظن أنه هو الغالب أو انه حقق شيئا لنفسه.

كما أن من حارب الحق سوف يرتد كيده إلى نحره ويكون هو المحروب، ولا يمكن أن ينتصر وسوف يخسر المعركة على الأمد الطويل.

ثم يعلل أمير المؤمنينعليه السلام نهيه لمن يريد نصب الحرب على الله عز وجل بقوله: «فإنه لايد لك بنقمته»، أي لا أحد يمتلك القدرة للوقوف بوجه نقمة الله سبحانه وتعالى. فعلى غير الكفوء ألا يتقلد المسؤولية ولو عُرضت عليه، وهو بعمله هذا ستزداد منزلته عند الناس وعند الله تبارك وتعالى.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنينعليه السلام: «لا تغالب من يستظهر بالحق، فإن مغالب الحق مغلوب»[١٧٥]، أي لا تنصب العداء والحرب لأهل الحق أصحاب الموقف الرصين؛ لأن من يحارب الحق مغلوب لا محالة، فالحق يعلو ولا يعلى عليه.

---

١٧٣ .نهج البلاغة: الحكمة ٤٠٨.
١٧٤ . غرر الحكم ١: ٢٧٢.
١٧٥ . غرر الحكم ٦: ٣٢.

ولا يجوز الوقوف ضد شخص هو في خانة الحق، ويجب الابتعاد عن محاربته؛ لأن من حارب الحق خاسر، وهذه سنة الله، حتى على الأمد القصير، فانها سوف ترتد عليه. ويجب على غير الكفوء ألا يتورط بالتصدي للمسؤولية. وإذا كان كل إنسان يحتاج إلى رحمة الله وصفحه، فإن حاجة المسؤول لرحمة الله أعظم؛ لأن التعامل مع الناس قضية حساسة، وفيها منزلقات خطيرة، وفيها تداعيات كبيرة، فعلى الإنسان أن يدرك هذه الأُمور ويستعين بالله سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول أمير المؤمنينعليه السلام في الجملة الأخيرة من هذه الفقرة: «ولا غنى بك عن عفوه ورحمته»، مشيراً إلى أن الإنسان لا يستطيع ـ مهما كانت قدرته ـ على الاستغناء عن رحمة الله وعفوه، فلا ينبغي للإنسان أن يأخذه الغرور بالمسؤولية؛ لأن الأُمور تتغير بين عشية وضحاها.

ولذا ينبغي له ألا يشعر بالاستغناء عن رحمة الله وعفوه؛ لأنه حينئذ سيطغى، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى × أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[١٧٦]، فالشعور بالطغيان والتمرد والأنفة والأنانية والاستغناء بداية الانحراف وظلم الآخرين.

وهكذا الديكتاتوريات تبدأ من زاوية ثم تتعمق وتصل إلى ما تصل اليه . بينما الغنى الحقيقي لله وحده، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّه وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[١٧٧] ، فالفقر والغنى صفتان متقابلتان لا تجتمعان في وقت واحد، وهذا التقابل بينهما فقدان ووجدان، والله تعالى يقول: أنا الغني، ويحصر الغنى في ذاته الشريفة والمقدسة، ويقول: وأنتم الفقراء، فالإنسان صفته ووجوده الفقر، وهو بحاجة إلى الغني. فعلى الإنسان ألا يشعر بالاستغناء فيكون ذلك بداية الانحراف، نسأل الله أن يجيرنا من ذلك.

---

١٧٦ . العلق: ٦-٧.
١٧٧ . فاطر: ١٥.

الدرس العشرون

التنزه عن الصفات السلبية

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في المقطع الثاني من الفقرة السابقة من عهده لمالك الأشتر:« ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة».

يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام مالكا الأشتر ومن ورائه كل حاكم ومسؤول أن يتنزه عن مجموعة من الصفات السلبية:

الأُولى: الندم على العفو

ينبغي للحاكم والمسؤول إذا عفى عن شخص ألا يندم؛ لأن من كان في موقع المسؤولية عليه أن يصفح ويعفو ويتساهل، وعليه أيضاً أن ينفتح ويستوعب الآخرين.

الثانية: عدم التبجح بالعقوبة

وينبغي للحاكم والمسؤول أيضاً ألا يشعر بالفرح والسعادة والتشفي حينما يعاقب إنسانا حتى لو كان هذا الإنسان يستحق هذه العقوبة، وحتى لو كان مجرماً قد ارتكب خطيئة واعتدى على الآخرين. فإن لهذه العقوبة أسبابا ومناشئ، ويراد لها أن تعالج إشكاليات معينة في الواقع الاجتماعي، وليست محطة للشماتة حتى يفرح المسؤول ويسعد بها.

الثالثة: عدم التسرع في ردود الأفعال

ويوصي أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم والمسؤول بعدم الإسراع إلى بادرة يجد منها مندوحة. والبادرة هو ما يبدر من الإنسان عند الغضب من الشدة والحدة، فلا ينبغي الإسراع في ردود الفعل ولا يتخذ قراراً وهو غاضب؛ لأن حالة الغضب يمكن أن تدفعه إلى اتخاذ قرارات يندم عليها لاحقاً.

والمندوحة هي الفرصة للتخلص من ردة الفعل، فقد يكون الغضب غضبا مستقرا؛ لأن المفروض أن الإنسان يغضب لله تعالى، ويغضب لوجود خلل ما، وربما يكون هذا الغضب ناتجا من حالة مشاعرية، فحينذاك يقول أمير المؤمنين‏عليه السلام: يا مالك إذا واجهتك حالة من الغضب والشد والتوتر فلا تتخذ قراراً؛ لأن قرارك في حالة التوتر لن يراعي كل الجهات والخصوصيات والحيثيات المطلوبة في اتخاذ القرار الصائب والناجح.

حينما توضع الأوامر الإدارية بين يديك يامسؤول وكنت غاضباً فلا تكتب ولا توقع؛ لأن هذا التوقيع قد لا يكون فيه كل معايير المصلحة التي قد تتوصل إليها وأنت في ظرف آخر.

وتحتوي هذه الفقرة الكريمة من العهد المبارك على مجموعة من الإضاءات.

الإضاءة الأُولى

العفو أساس العمل

إن الأساس في الإدارة والتعامل مع الآخرين هو الصفح والعفو والتساهل، ولا سيما حينما يكون الإنسان في موقع القوة، وهو قادر على أن يتخذ موقفاً ما بحق الآخر، ولكنه يصفح ويتسامح ويحكم فرص التسامح مع المواطنين وليس التشدد عليهم.

الإضاءة الثانية

المرونة والتساهل مع المواطنين

يجب على المسؤول عدم استعمال التشدد ليتشفى من المواطن، بل المفروض أن يبحث للمواطن عن الثغرات والاستثناءات والصلاحيات التي تمنحه الفرصة لكي يتساهل مع المواطنين، ومع من هو مسؤول عنهم، فإن الأساس حسب القاعدة التي يذكرها أمير المؤمنين‏عليه السلام هي العفو والتساهل ما لم يؤد ذلك إلى حالة التجرؤ على القانون وكسر شوكة الدولة وهيبتها، ففي ذلك الحين لابد من الشدة ، لكي نضمن أن تكون العلاقة علاقة شفقة ومودة كما مر شرح ذلك بالتفصيل.

ويؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾[١٧٨]، فحينما يصدر السوء من شخص ما ينبغي أن يكون الموقف هو العفو والصفح عن تلك السيئة والخطيئة، فإن الله هو العفو والقدير. فالعفو قد يجتمع مع القدرة، إذ حينما يكون المسؤول قادراً يعفو ويصفح، فإن لم تكن لديه القدرة على إنزال العقوبة فإن العفو ليس له معنى.

وتتجلى أهمية العفو حينما يكون المسؤول في موقع المسؤولية ويعفو عن المسيء؛ يقول العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية الشريفة: « والعفو عن السوء هو الستر عليه قولاً وفعلاً »[١٧٩]، ومعنى الستر بالقول هو ألا يذكر ظالمه بظلمه، فقد يكون الإنسان في موقع المسؤولية ويتخذ إجراء عنيفاً بحق شخص ما، وقد تنقلب الأمور ويصبح ذلك الشخص هو المسؤول، فإن التستر هو ألا يذكر الظالم بظلمه، فهي صفحة قد انطوت فلماذا التذكير بأخطاء الآخرين!.

وإذا كان هناك شخص ما قد أخطأ فنحن أيضاً قد نخطئ، فما فرقنا عن الآخرين؟، وإذا أردنا أن نتعامل مع الآخرين بنفس تعاملهم معنا في سنوات خلت وفي ظروف سابقة، فما فرقنا عنهم، في حين أننا نقول إننا في عراق جديد فيه الديمقراطية والتسامح والتعددية؟.

إذن، فالقضية المهمة هي أن يتجاوز الإنسان ويطوي صفحة معينة متمثلة بحالة الغل، كما ورد في الدعاء الشريف في القرآن الكريم: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾[١٨٠]. وهذه الأمور يجب التخلص منها، فلا يجوز التشهير بالاساءة. ويشهد لهذا المفهوم قول العلامة الطباطبائي:« ولا يذهب بماء وجهه عند الناس ولا يجهر عليه بالسوء من القول»[١٨١]، أي لا يتحدث عنه أمام الناس ويشهر به، بل المفروض ألا يقف عند هذه المسائل ويتخطاها، ولا يجهر عليه بالسوء من القول.

وفسر العلامة الطباطبائي التستر بالفعل، بألا يواجهه بما يقابل ما أساء به ولا ينتقم منه في ما يجوز له ذلك. أي ألا يتعامل معه بما يتناسب وإساءته، فالمسؤول في موقع

---

١٧٨ . النساء: ١٤٩.
١٧٩ . الميزان ٥: ١٢٤.
١٨٠ . الحشر: ١٠.
١٨١ الميزان في تفسير القرآن ٥: ١٤.

القدرة والمسؤولية حينما يريد التستر على هذا الإنسان، ينبغي ألا يتعامل معه بما ينسجم وإساءته إليه؛ لأنه سوف يتعامل بنفس الطريقة أيضا .

وأما قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾(١٨٢) ، أي يجوز الاعتداء عليه في حينه، ولكن يقول المتصَدِّي أنا من موقع المسؤولية لا اريد استخدام صلاحياتي، ولا اريد الاعتداء عليه.

ويشير قوله تعالى: ﴿ إن الله كان عفواً قديرا﴾إلى أن العفو صفة من صفات الله جل جلاله الكمالية. وربما يخطر تساؤل أن الآية الكريمة تتحدث عن مسؤول متصدّ يعفو ويصفح، فلماذا انتقلت للحديث عن الصفح الإلهي؟. إن هذا يعني أن العفو عن السوء هو اتصاف بصفة من صفات الله تعالى الكمالية، فالمسؤول عندما يصفح فهو يجسد صفة من الصفات الكمالية لله تعالى.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(١٨٣) فإن هذه الصياغة الإلهية (أَجْرُهُ عَلَى اللَّه) تستخدم في عدم وجود فرصة لتحديد حجم الأجر والثواب، فالأجر حينما يكون عظيماً ولا يمكن حصره برقم معين يقال قرآنياً (أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ). إذن حالة الصفح عن المسيء والمخطئ من الموارد التي وقع أجرها على الله.

ويقول أيضاً في آية أُخرى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١٨٤) ، أي أن الانفاق في السراء فيه فوائد، وحينما تكون الناس في شدة تكون الفوائد أعظم. كما أن كظم الغيظ والعفو عن المسيء من مصاديق الإحسان وفيهما الأجر العظيم.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العفو تاج المكارم»(١٨٥)، وكم هو تشبيه رائع يقدمه علي عليه السلام لمكانة العفو بين الأخلاق، فالعفو عن المسيء هو تاج مملكة المكارم الأخلاقية والصفات الحميدة، وهو أرفعها شأناً، وأعلاها منزلة.

١٨٢ . البقرة: ١٩٤.
١٨٣ . الشورى: ٤٠.
١٨٤ . آل عمران: ١٣٤
١٨٥ . غرر الحكم: ١٤٠.

ويقول عليه السلام أيضاً: «العفو زكاة القدرة»[186]، فكل شيء له زكاة، وزكاة القدرة هي العفو. وكما أن الزكاة حق الفقراء في المال فكذلك هي حق المسيئين والمقصرين. وكما أن الزكاة تعني النمو والزيادة ولذا تزداد أموال من يخرج الزكاة، فكذلك هي تنمي وتزيد أخلاق من يعفو ويصفح عن الآخرين.

وفلسفة العفو على الصعيد الفردي، أنها تحول دون أن يتحول الإنسان إلى وحش كاسر يبطش بالناس ويستغل هذه القدرة والصلاحيات والفرص والإمكانات لإشباع شهوة الانتقام من الآخرين والإساءة اليهم.

وفي رواية أُخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «أحسن أفعال المقتدر العفو»[187]، انظروا إلى ثقافة الإسلام والإدارة التي يراد لها أن تكون على أساس الانفتاح والتسامح وطي صفحة الماضي والنظر لحاضر الناس وليس في تأريخهم، وهذا هو المنهج الإسلامي في الإدارة والقيادة، الذي من لوازمه عدم الشعور بالندم بعد العفو والصفح عن الآخرين.

الإضاءة الثالثة

عدم التشفي عند تطبيق العقوبة

علينا ألا نكون سعداء عند تطبيق العقوبة على مستحقها، كما أنه على المسؤول الابتعاد عن حالة التشفي عند تطبيق العقوبة، فقد يكون العقاب حداً من حدود الله، أو قد يكون تطبيقاً لقانون هذه العقوبة، ولذا يجب ألا يكون بها حالة التشفي، ويجب ألا يدس فيها حالة الانتقام، ويجب ألا نكون سعداء حينما نعاقب الآخرين، وأن ننظر إلى العقوبة على أنها علاج ودواء.

وأتذكر موقفاً لشهيد المحراب عندما أُعلن عن مقتل عدي وقصي ابني صدام حسين، فقد كنت حينها في النجف الأشرف، وبدأت الأفراح والاطلاقات النارية، فدخلت على شهيد المحراب ورأيته متأملاً وليس هناك من آثار فرح على وجهه، فجلست عنده وأخبرته أن الله تعالى قد انتقم لدماء الشهداء وقد قتل عدي

١٨٦ . عيون الحكم والمواعظ: ٣١.
١٨٧ . غرر الحكم ٢: ٣٩٩.

وقصي، فلماذا لا أجد علامات الفرح على وجهك؟ فقال: إننا لسنا أهل شماتة، بل نحن أهل اعتبار، وإن الظالم له نهاية.

ودولة المواطن هي الدولة التي يحترم فيها الإنسان، لأن الأساس فيها هو الإنسان، وكل إنسان له كرامة حتى لو كان مجرماً وقاتلاً ومخطئاً، فإنسانية الإنسان لا تسمح بأن نفرح بعقوبته؛ لأن العقوبة يراد منها تطهير المجتمع حينما تنتشر فيه فيروسات الجريمة، فإن المجرمين والذباحين الذين يقطعون أشلاء الناس هم فيروسات تتحرك في المجتمع يلوثون البيئة الاجتماعية، وعقابهم تطهير للمجتمع.

ومن الآثار الايجابية لتطبيق عقوبات الحدود والتعزيرات أيضاً، هي أن من أمن العقوبة أساء الأدب، فمن اجل وضع حد للإساءة والتعدي على الناس لابد من العقوبة، فنعاقب لنضع حداً لتفشي الجريمة في المجتمع، ولكننا لسنا سعداء لهذه العقوبة.

الإضاءة الرابعة

الجريمة مرض بحاجة إلى علاج

إننا لا نفرح بالعقوبة لأنها تكشف عن وجود جريمة، والجريمة مرض من الأمراض الاجتماعية، وكلما ازدادت العقوبات عبر ذلك عن ازدياد المرض وتفشيه. كما أن الفرح بعقوبة هذا أو ذاك يؤدي إلى الانشغال بالتشفي بهؤلاء الناس، ونترك البحث في أسباب ومناشئ مثل هذه العوارض.

فمهما بررنا ووجهنا العقوبة، فلابد من البحث عن أسباب المشكلة، وفي واقعنا اليوم مهما عاقبنا من مجرمين وذباحين فلا يمكن حل المشكلة إلا إذا عالجنا الفكر الذي يربي الذباحين وأمثالهم، فعندما قُتل ابن لادن، هناك من قال إنه تم القضاء على القاعدة، والواقع أن القاعدة ليست أفرادا فقط، ولكن القاعدة فكر هدام، والقاعدة رؤية ظلامية لا تريد الحياة للناس، والقاعدة تعني عدم القبول بالآخر لأنه يختلف بالفكر. فالفرح بعقوبة الناس يشغلنا عن النظر في الأسباب والمناشئ التي دعت إلى صدور هذه الاعتداءات.

والمسؤول حينما يعاقب يجب أن يستشعر الألم، كما ينقل ذلك عن رسول

الله صلى الله عليه وآله أنه يتحدث بألم عن المشركين والكفار والعصاة والمذنبين، والله تعالى بعدله قد أدخل أهل النار فيها، بينما رسول الله صلى الله عليه وآله يتألم ويتقطع حرقة على هؤلاء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[١٨٨]، والبخع هو حالة الهلاك، وهي أعلى مراتب الألم، وهنا تتدخل الرحمة الإلهية لتطييب خاطر رسول الله صلى الله عليه وآله لجرحه العميق وأسفه الشديد الذي يصل إلى حد البخع (الهلاك) على حال المجرمين والظلمة والعصاة في النار.

وهذه هي أخلاق الإنسان الكامل المتمثل برسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام. وهكذا كان علي عليه السلام في تعامله مع الناكثين في الجمل، فقد أشارت النصوص إلى هذا المعنى، فبعد أن انتهت المعركة وانتصر علي عليه السلام لم تقرع طبول النصر، ولم يعبر عن سعادة وفرح بهذا الانتصار، بل لما مر بطلحة بن عبد الله وهو مقتول وقف على جثته وقال: « لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً، أما والله كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب»[١٨٩].

وهنا يعبر أمير المؤمنين عليه السلام عن أسفه في أن تكون جثامين قريش تحت أضواء الكواكب، ولكن ليس في اليد حيلة لعدم وجود خيار إلا بمعالجة المرض بإنزال العقوبة بحق من تجاوز وتعدى وأصبح السكوت عليه مخاطرة . وينقل الطبري كلمة عن أمير المؤمنين عليه السلام في نفس المشهد يقول: «والله لوددت أني مت من قبل اليوم بعشرين سنة»[١٩٠]. وهؤلاء الذين يتحدث عنهم علي عليه السلام هم الناكثون الذين نكثوا بيعته، فهذه ثقافة الإسلام، وعلينا أن نعتمد هذه الثقافة.

---

١٨٨ . الكهف: ٦.
١٨٩ . نهج البلاغة: الخطبة ٢١٩.
١٩٠ . تاريخ الطبري ٤: ٥٣٧.

الدرس الحادي والعشرون

نبذ سياسة ردود الأفعال

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة»، إن معنى هذه العبارة، أن على المسؤول ألا يسرع إلى المبادرة باتخاذ الموقف والقرار، وعليه الابتعاد عن اتخاذ القرارات في حال الغضب. إذ ليس من الصحيح أن يبدر إلى الحاكم والمسؤول الغضب ويأخذه الانفعال حينما يسمع كلمة أو يصله تقرير أو يشاهد خبراً في وسيلة إعلامية أو ينقل له شيء فيدون أمراً معيناً وهو في حالة الغضب غير قادر على اتخاذ القرار الصحيح.

وما دام هناك فرصة لحمل الخبر على محمل حسن، فلا ينبغي التفريط فيها، فقد يكون التقرير خاطئاً أو كيدياً أو المعلومة غير دقيقة أو لم تعكس الصورة كاملة. ولذا ينبغي للمسؤول أن يجد مبرراً حتى يخرج من ذلك الموقف دون اتخاذ قرار.. فعليه أن يهدأ ويحقق بالموضوع ثم يتخذ القرار الذي لن يعيد النظر فيه ولا يتراجع عنه، حتى لا يكسر قراره في وقت لاحق.

فمسألة الغضب والانفعال في البعد الإداري والقيادي هي من أخطر الأُمور التي تؤدي إلى تضييع الحقوق، وتجعل المسؤول في موقف محرج، فإن تراجع كسر قراره وضاعت هيبته، وإن أصر يكون قد أصر على الخطأ في قضية لا تستحق مثل هذه القرارات المجحفة في موضع ما، التي قد تكون قد جاءت على خلفية الانفعال.إن التريث والصبر والحكمة والهدوء في هذه المسألة مطلوبة جداً.

التوصيات التي يجب على الحاكم مراعاتها

وقد ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض عماله في وصيته له، قال:«فاستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدة بضغث من اللين، وارفق مادام الرفق أرفق، واعتزم بالشدة حين لا تغني عنك إلا الشدة، واخفض للرعية جناحك وابسط

لهم وجهك، وألن لهم جانبك وساوِ بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا ييأس الضعفاء من عدلك »[١٩١].

تضمنت هذه الفقرة المباركة مجموعة من التوصيات التي يجب على الحاكم والمسؤول مراعاتها، وهي:

أولاً: استحضار الله في الأُمور المهمة

فيجب على المسؤول أن يستحضر الله عز وجل في الأُمور المهمة ليعطيه القوة والعزيمة والإرادة. إن الالتصاق والارتباط بالله سبحانه واستحضار العلاقة معه تعطي المسؤول قوة كبيرة في الشدائد والمهمات، ولذا يجب عليه أن يضع الله سبحانه وتعالى بين عينيه.

ثانياً: مزج الشدة باللين

ينبغي للمسؤول أن يمزج الشدة باللين دائماً، وألا يتعامل بقسوة وغلظة، فإن لكل فعل ردة فعل، فلعل موقفاً شديداً سوف يرتد عليه في ما بعد، ولذا عليه دائماً أن يمزج الشدة باللين حتى تتحقق حالة الحزم، ولكن يجب عليه أيضاً ألا يكسر من هو مسؤول عنهم.

ثالثاً: استعمال الرفق ما كان أرفق بهم

ويجب على المسؤول استعمال الرفق بمن هو مسؤول عنهم ما كان الرفق أرفق بهم، ففي كل موضع فيه مجال للتعامل بالرفق والليونة والمرونة يجب التعامل بها؛ لكي تبقى أنظار المواطنين شاخصة دائماً إلى لحظة تنفيذ العقوبة ويبقوا مترقبين لها؛ لأن العقوبة إذا كثرت سهلت وتجرأ الناس على مخالفة القانون.

ولا يجوز إصدار الأوامر بالاعتقال بسهولة ويسر، وكذلك الإيداع في السجن؛ لأنه حينذاك سيفقد السجن قيمته المعنوية في إصلاح الناس. إذن مادام الرفق ممكناً فيجب التعامل به.

---

١٩١ . نهج البلاغة: الرسالة ٤٦.

رابعاً: استعمال الشدة حين لا ينفع الرفق

يجب على المسؤول استعمال الشدة حين لا ينفع الرفق ولا تغني إلا الشدة. أي لا يُلجأ إلى القوة إلا حينما لا يكون هناك طريق سوى موقف الحزم والشدة. ولكنها يجب أن تبقى مضرباً للمثل ولا تتكرر كثيراً، لكي تساعد في خلق حالة صحية بين الناس.

خامساً: خفض الجناح وبسط الوجه

ويجب على المسؤول أن يخفض للمواطنين جناحه، ويتواضع لهم ويبسط لهم وجهه، فالابتسامة والبشاشة تريح المقابل، فقد يدخل مواطن على مسؤول ويراه مبتسماً وينتقي عبارات المودة والمحبة في مخاطبته، فيؤدي إلى شعور المواطن بالطمأنينة ويستطيع أن يعبر عما في داخله ويشرح قضيته من غير خشية وقلق.

سادساً: مبدأ المساواة في المعاملة

ويجب على المسؤول أن يكون ليناً مع المواطنين ويساوي بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، إذ لا يمكن ترقب العدالة من مسؤول منحاز إلى طرف دون طرف، بل يجب المساواة بين الناس حتى في التحية وتقاسيم الوجه، وأما الصداقة والقرابة فمكانها البيت والعلاقات الخاصة، لا محل العمل واللقاءات العامة. فعلى المسؤول مادام هو فيٍ موقع المسؤولية، أن يشعر الجميع أنه على مسافة واحدة منهم حتى يكون قادراً على إدارتهم.

والعلة التي من أجلها تراعى المساواة أمران:

الأول: لكي لا يطمع العظماء في حيف المسؤول. أي حتى لا يطمع أصحاب الأموال والوجاهات والتأثير ويشعروا بالأمل في حكمه، وأنه سوف يميل على الضعفاء والفقراء بغير وجه حق لصالح هؤلاء العظماء.

والثاني: ولا ييأس الضعفاء من عدل المسؤول، أي يجب ألا يشعر الضعيف باليأس من إمكانية استعادة حقه من خلال المسؤول.

ولقد وردت الكثير من النصوص والروايات التي جاءت لتشدد على أن اتخاذ القرار في ظرف الغضب والانزعاج قرار خاطئ في أغلب الأحيان، إذ يضطر المسؤول لكسرها لاحقاً والرجوع عنها، وهذا ما يكسر هيبة المسؤول حينما تتعدد قراراته في القضية الواحدة.

الغضب يفسد الألباب

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الغضب يفسد الألباب، ويبعد من الصواب»[١٩٢]، أي أن العقل يتعطل حينما يكون الإنسان غاضباً، ولا يستطيع التفكير بشكل سليم، ولا يقدر على اتخاذ القرار الصحيح. وحينئذ سيقع في إشكاليات كثيرة وكبيرة.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «شدة الغضب تغير المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الفهم»[١٩٣]، إذ كلما اشتد الغضب أصبح المنطق الذي يفكر فيه الإنسان ويتعامل به مغايرا لسجيته وطبعه الصحيح، وحينما يتخذ موقفاً غير صحيح بسبب الغضب سيكون غير قادر على البحث عن سياقات الحجة والبرهان، بل ستكون الانفعالات والمشاعر الجياشة هي السائدة.

ولاسيما أن المتملقين حول المسؤولين ـ وهم كثر في كل عصر ـ يعملون على الإبقاء على حالة الغضب عند المسؤول مستمرة تجاه الآخرين، بل ويجعلونه في أجواء عزلة عن الواقع الخارجي، لكي يتخذ أقسى العقوبات والقرارات بحق الآخرين. ولكن أول من يكتوي بنار هذه القرارات هو المسؤول نفسه حينما ترتد عليه وتضطره الى أن يكسر هذه القرارات ويتراجع عنها.

كما أن حالة الغضب تفرق الفهم وتشتته، ويحصل ذلك عندما يصدر المسؤول تعليمات وقرارات وهو في ثورة الغضب وفي حالة من عدم الاتزان وعدم الاستقرار النفسي.

إذن حري بنا التريث والهدوء والاستقرار لننظر ما هو حجم المشكلة، ثم ننظر في الحلول والمعالجات المطلوبة لحلها .

١٩٢ . غرر الحكم ١: ٣٥٧.
١٩٣ . كنز الفوائد: ٣١٩.

المقطع السادس

تحديات موقع التصدي

يشير أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع إلى مجموعة من المواصفات والخصائص ذات الصلة بتحديات موقع التصدي، فحينما يكون الإنسان مسؤولاً عن جمع من الناس فإن هذا الموقع يعرضه إلى مجموعة من المخاطر والأعراض، وهنا يحدد أمير المؤمنين عليه السلام الموقف المطلوب تجاه هذه الأعراض.

الدرس الثاني والعشرون

المسؤولية والاستبداد

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في عهده لمالك الأشتر:«ولا تقولن إني مُؤمر، آمُرُ فأُطاع، فإن ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرب من الغير».

ينبغي للمسؤول ألا يقول أنا مُؤمر وقد نُصبت في موضع المسؤولية ويجب أن يطاع أمري، لكي لا تأخذه حالة التجبر، والتكبر والاستبداد، والنرجسية، فمثل هذه الظواهر توقع الإنسان في فخ عظيم. ومثل هذه السلوكية وهذه النرجسية حينما يصاب بها المسؤول،فإن فيها إفسادا للقلب، وتعرض الإنسان إلى مشاكل ومطبات أخلاقية كثيرة. وهذه الحالة منهكة للدين ومضيعة له.

إذن هناك مشكلة دينية وعقيدية حينما يصاب الإنسان بحالة الاستبداد والنرجسية. كما أن هذه الحالة تقرب الإنسان من عملية التغيير والتحول، ويكون أمام واقع يجعل الناس يصطفون أمامه ويهتفون: «الشعب يريد اسقاط النظام». فحينما يصاب الحاكم أو المسؤول بالنرجسية والاستبداد، واحتكار السلطة والتجبر، والتكبر على الناس والهيمنة عليهم، فإن الناس لا ترتضي ذلك، وتفقد فرصتها في الإدارة والقيادة.

ولذلك فإن هذا الكلام هو تحذير من هذه الأخلاقية التي قد يصاب بها المسؤول، وهي تختلف بين مسؤول وآخر، ولعله بسبب اختلاف موقع المسؤولية من شخص لآخر، ولكن هذه الأخلاقيات قد نجدها في أي مسؤول لم يتخذ الاحترازات والاجراءات الكافية والمناسبة للسيطرة على نفسه.

وهذه القضية لاعلاقة لها بحجم المسؤولية، إذ يمكن أن يكون مسؤول قسم لم يهذب نفسه يقع في هذه المشكلة الأخلاقية الكبيرة، وقد يكون مسؤول كبير مسيطراً على نفسه وعلى أعصابه فلا يقع فيها . وهذه إشكاليات يتعرض لها الإنسان حينما يتصدى لمواقع المسؤولية.

وهناك مجموعة من الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه الكلمة القصيرة ومن هذا الدرس البليغ من دروس أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الاشتر.

الإضاءة الأُولى

ظاهرة الاستبداد والنرجسية

إن خطورة حالة الاستبداد والنرجسية التي يصاب بها المسؤول، تتجلى عندما لا يرى فيها إلا نفسه، ولا يستشعر إلا مشاعره الخاصة، وحينئذ، يفقد القدرة على أن يتماشى مع الناس ويتفهم معاناتهم ويحمل همومهم، ويصبح لديه عجز عن ذلك، ولا يستطيع أن يفهم كيف يفكر الناس، وماذا يريدون؛ لأنه يعيش في هالة خاصة من الفردية، ومحاط بفريق وجماعة يطبلون له ويمدحونه على الدوام، ويكبرون من شأنه ومن قيمة أقواله وأفعاله، ويقللون كل رأي وكل موقف يختلف مع رأيه وموقفه، فيصبح في حالة يعجز فيها عن التواصل مع الآخرين وفهم معاناتهم.

وتتعزز هذه الحالة شيئاً فشيئاً فيصبح لا يرى إلا نفسه، ولا يرى الأفكار الحسنة، ولا يرى في ما سواه أي حسن أو أي موقف صحيح أو خطوة صحيحة، فيخطئ الآخرين، ويصحح مواقفه، ويقلل من قيمة الآخرين، ويبالغ في إطراء نفسه وإلى غير ذلك.

وهو مرض عضال من الأمراض النفسية المزمنة التي يقع فيها المسؤول حينما يكون في موقع المسؤولية.

ويؤيد هذا المعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «بئس الاستعداد الاستبداد»[194]. فهل يعتقد المسؤول بأنه حين يشدد القبضة يستعد لدوام الحكم ودوام المسؤولية؟، وهل يعتقد بأنه كلما أحتكر السلطة ووضع يده على مساحات أوسع وغيب الآخر وضيق عليه، وأنه كلما انتصر لإرادته ورغباته، وكلما كبح جماح الآخرين، فإنه يعمق ويجذر إدارته وحكمه؟.

إذا كان اعتقاده ذلك فهو مخطئ، في كل خطوة يخطوها، بل هو يتبع أسوأ طريق ويمهد لنفسه أسوأ مصير، فالحفاظ على المسؤولية لا يكون من خلال احتكار السلطة

١٩٤ . غرر الحكم ٣: ٢٥٦.

وعدم إعطاء دور للآخرين في المشاركة، بل سيؤدي بهم إلى الانتفاض عليه وإسقاط حكمه وإخراجه من المسؤولية. فإن من أصعب الأُمور هو الوصول إلى مرحلة لا يرضى الشعب فيها بأقل من هلاك المسؤول أو الطاغية .

إن المداخل التي تضمن للمسؤول دوام المسؤولية واستمرار ثقة الشعب هي: توزيع الصلاحيات، واحترام الرأي الآخر، وتفهم معاناة الآخرين، والتحسس بهمومهم وهواجسهم، وأن يضع نفسه في موضعهم، ويكون منصفاً معهم.

إن أسوأ حالات الاستبداد التي يصاب المسؤول بها هي عندما تهتز ثقة الشعب به، وهذه سنة إلهية لا تختص بزمان ومكان معينين، فأي شعب من الشعوب وأي أُمة من الأُمم وفي أي زمان من الأزمنة، حينما تبتلى بحاكم مستبد أو مسؤول لا يرى إلا نفسه، تبدأ الفجوة تزداد بينه وبين شعبه شيئاً فشيئاً، وتؤدي إلى مزيد من الاستبداد ومزيد من الظلم، وكلما ازدادت هذه الفجوة اضطر المسؤول إلى ممارسات أكبر من الاستبداد والقهر والتخويف والترويع للآخرين؛ حتى يستطيع أن يشدد قبضته، وهكذا نجد أن العلاقة تتخذ منحى عكسياً.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في تأييد هذا المعنى أيضاً: «من استبد برأيه زل»[١٩٥]. فحينما يكون هناك استبداد بالرأي من قبل المسؤول تحصل الزلة والانحراف والضياع والابتعاد عن جادة الصواب.

ويقول عليه السلام في رواية أُخرى: «من استبد برأيه خاطر وغرر»[١٩٦]، فحينما يستبد المسؤول فإنه يضع نفسه في موضع المخاطرة، فيخاطر بموقعه ومسؤوليته ويغرر بنفسه أمام الآخرين ويأخذ بنفسه إلى الهاوية.

ويقول عليه السلام أيضاً: «الاستبداد برأيك يزلك، ويهورك إلى المهاوي»[١٩٧]، واستبداد المسؤول برأيه بداية الزلل والانحراف، وبداية الوقوع في الهاوية والتراجع وفقد الشعبية وأزمة الثقة بينه وبين الآخرين.

---

١٩٥ .غرر الحكم ٥: ١٧٠.
١٩٦ . غرر الحكم ٥: ٤٦٠.
١٩٧ . غرر الحكم ١: ٣٩٠.

ويقولعليه السلام أيضاً:«من استبد برأيه هلك»[١٩٨]، فالاستبداد يؤدي إلى الهلاك والضياع. ونشاهد اليوم في منطقتنا العربية، أن الحاكم أصبح هو الذي يدعو إلى الانتخابات بعد ثلاثين سنة أو أكثر من الحكم، ولكن حلم الناس بهذه الانتخابات لا يصير واقعاً، ورغم اصرار الزعيم في الدعوة إلى انتخابات حرة وإشراف دولي وألا يكون هناك تزوير أبداً، ولكن الناس تخرج وتهتف«الشعب يريد إسقاط النظام»، فيتراجع الزعيم أكثر ويقبل بتسليم الحكم، مقابل أمواله وعائلته وضمان عدم الملاحقة فقط، ولكن الناس تخرج وتهتف«الشعب يريد اسقاط النظام».

وهذا معناه الوصول إلى مرحلة لا يرضى الشعب فيها بأقل من هلاك المسؤول أو الطاغية، وتسير الأُمور هكذا عندما يصل الاستبداد إلى ذروته، فتحصل أزمة الثقة وتصل الأُمور إلى مستوى اللارجعة. ولذا يوصي أمير المؤمنينعليه السلام بتجنب هذه الحالة. والنظرية الإسلامية تعتمد على مثل هذا الأساس .

الإضاءة الثانية

المنطلقات القيادية في الرؤية الإسلامية

ما منطلقات القيادة والطاعة والعلاقة بين المسؤول أو الحاكم ومن هو مسؤول عنهم أو الرعية؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟ وكيف تصان إسلامياً؟ وهل هذه المنطلقات هي منطلقات الاستعلاء والهيمنة وفرض السلطة على الآخرين والإذلال والتحقير والتهديد والترويع وإخافة الناس حتى ينصاعوا، أو هي منطلقات التطميع والاغراء؟ وكيف تبنى هذه العلاقة في الرؤية الإسلامية؟.

يعتبر الإمام عليعليه السلام جميع هذه المنطلقات منطلقات خاطئة، ولا يمكن أن تحقق النتيجة المطلوبة والغرض المنشود، بل لها آثارها العكسية. ويكمن الحل في نظر أمير المؤمنينعليه السلام وفي الرؤية الإسلامية بأمرين:

الأول : العلاقة القلبية بين المسؤول وبين الناس؛ فيجب أن يستشعر المسؤول الرحمة تجاه الرعية، كما يجب أن تحب الناس المسؤول وتحسن الظن به وتثق به، وهذه العلاقة الإنسانية هي علاقة قلبية.

١٩٨ . نهج البلاغة: الحكمة ١٦١.

الثاني: الحقوق المتبادلة والضوابط والقوانين التي تنظم العلاقة، فلا يوجد شيء فوق القانون، ولا يوجد شخص بمعزل عن الاطار والضوابط. فعلى المسؤول كما يضع الضوابط والاجراءات للآخرين، أن يضع الضوابط لنفسه، وأن يقبل بالضوابط التي تضعها الناس له.

وكما يريد من الآخرين أن يتقيدوا بالضوابط، يجب عليه أن يتقيد هو بالضوابط أيضاً، فإن هذه العلاقة ليست علاقة من طرف واحد، بل هي علاقة بين طرفين، والحقوق متبادلة بينهما، فالمسؤول يجب أن يطاع، ولكن في نفس الوقت، هناك التزامات تجاه الناس عليه أن يلتزم بها.

فإذا صلحت العلاقة القلبية الإنسانية بين المسؤول وبين من هو مسؤول عنهم، وإذا نظمت الحقوق المتبادلة بينهما، وإذا وضعت الأُطر والسياقات التي تضمن مصلحة المسؤول وقدرته على أداء الواجب ومصلحة الناس وقدرتهم على الانسجام والالتزام، فحينذاك يمكن أن نعتقد بأن هناك علاقة رصينة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أما بعد، فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الاشياء في التواصف وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد ألا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون غيره، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب، تفضلاً منه، وتوسعاً لما هو من المزيد أهله»[١٩٩].

يبين أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع الشريف من خطبته القاعدة التي يستند إليها حق الحاكم في طاعة المحكومين، وهي أنه بعد ثبوت الولاية للحاكم يتفرع منها ثبوت حق الطاعة له. أي أنه بعد أن أصبح ولياً ومسؤولاً وخليفة، فبمقتضى هذه الولاية يثبت له حق على الناس.

١٩٩ . نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

ولكن هذه الولاية في الوقت الذي تثبت فيه حق الحاكم على المحكوم، تثبت أيضاً حقاً للمحكوم على الحاكم، ولم يتغافل أو ينسى علي عليه السلام ذكر حقوق الناس تجاهه كحاكم.

فالحق أوسع الأشياء بالتواصف، أي عندما نأتي إلى الوصف والشعارات والأقوال نرى المساحة واسعة، وما أكثر ما نسمعه من القيادات والحكام والمسؤولين من شعارات لطيفة وحديث جميل عن حقوق الإنسان وعن حقوق المواطنة وعن الحريات والالتزام بالقانون إلى غير ذلك مما تسمعون، ولو أصغيتم يوماً لخطاب زعماء أشد الأنظمة ديكتاتورية في العالم، لوجدتموها أكثر الخطابات ديمقراطية وانفتاحاً وتفهماً لحقوق الآخرين.

ولكن في الوقت الذي يكون فيه الحق أوسع الأشياء في التواصف، نجده أضيقها في التناصف. أي عندما نأتي إلى الإنصاف والكلام الحقيقي والتطبيقات والأمر الواقع، سنجد عند ذاك أن الحق ضيق، ومساحة الناس الملتزمة بالحق مساحة ضيقة، وهم قلة، والحق مرّ في أنظار الكثيرين؛ لأن الالتزام بالحق يعني التخلي عن الكثير من الامتيازات والاستحقاقات والأُمور الأُخرى.

لذلك نجد أن الحق هو الأضيق في التناصف. فكما أن الحق يجري لك ولصالحك يجري عليك أيضاً، فلا يمكن أن يكون الحق لطرف ولا يكون في مقابله حقاً عليه، والحق الذي يقف إلى جانب الإنسان في قضية سيقف ضده في قضية أُخرى. ولذا يجب القبول بالحق سواء كان لنا أو علينا.

وإذا وقف الحق بالضد منك يوماً، فإنه سيكون معك في يوم آخر، وهذه هي القاعدة المتوازنة في شؤون الحياة وفي سنن الحياة، ولو كان لأحد أن يجري له الحق ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون غيره.

ولا نستطيع أن نتخيل مخلوقاً من المخلوقات يكون الحق له ولا يكون عليه، فهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله سبحانه وتعالى، إذ هو المالك والخالق ومن بيده كل شيء. وأما نحن فليس بأيدينا شيء، فنحن في الواقع لا نملك شيئاً، حتى الكلمة التي نطلقها والفعل الذي نصنعه محتاج إلى جهد وقدرة منحها لنا الله سبحانه وتعالى.

وعلة انحصار الحق لله تعالى من غير أن يكون عليه حق، هي لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه. فالله سبحانه وتعالى عادل في تعامله مع الناس، وهو القادر، وهو العادل، وبالرغم من أنه قادر ويملك كل شيءٍ، ولكن لا يرضى لنفسه إلا العدل، فيتعامل بالعدل مع الناس، فجعل لهم حقوقاً عليه بالرغم من أنه الوجود الوحيد الذي يمكن أن يكون الحق له ولا يمكن أن يكون عليه.

وليس هناك حقوق متبادلة حقيقة مع الله تعالى، والحق كله لله سبحانه، ولا منة على الله مهما فعلنا؛ فجعل حقه علي العباد أن يطيعوه، ولكن الله تعالى مع ذلك جعل بلطفه وكرمه وإحسانه، حقوقاً متبادلة بينه وبين عباده، وجعل حقهم عليه جزاءهم على هذه الطاعة والعبادة بمضاعفة الثواب، وهذا لطف من الله تبارك وتعالى، وفضل منه سبحانه.

حقوق الحاكم والمواطن

يقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في تأييد هذا المعنى من خطبة له:« أيها الناس إن لي عليكم حقاً، ولكم علي حق. فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم»[٢٠٠].

ويتضح من هذا النص الشريف أن هناك حقوقاً متبادلة بين الحاكم والمواطن، يجب على كل طرف مراعاتها.

حقوق المواطن

،فأما حقوق المواطن التي تناولتها هذه الفقرة الكريمة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فهي:

الأول: حق النصيحة

إن من حق الأُمة على الحاكم أن يستفرغ وسعه في نصيحتها، ويبين لها مواطن الخطأ والصواب ومواضع الحق والباطل بكل صدق وإخلاص؛ لأن من دواعي قبول

٢٠٠ . نهج البلاغة: الخطبة ٣٤.

النصيحة هي أن يكون الناصح صادقاً ومخلصاً. وعلى الأُمة إذا علمت من حاكمها هذه الخصال أن تقبل نصيحته في أُمورها ولا تعصيه، وإلا أورثها الحسرة والندامة، كما بين ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه حين قال:«إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة»[٢٠١].

الثاني: حق المعيشة

ومن حقوق الأُمة على الحاكم والمسؤول، توفير فيئها عليها، والفيء هو الأموال العامة من الضرائب والثروة العامة، وذلك من خلال التوزيع العادل لها. وهو يستلزم حماية هذه الأموال من السراق والمتلاعبين بالمال العام، فأموال الشعب للشعب وليست (للحرامية)، وهذا الكلام الذي يقال في الشارع ليس كلاما طارئا أو انفعاليا، بل هو كلام ينطبق مع حقوق المواطنة في النظرية الإسلامية كما بينها علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويستنتج من هذا النص الشريف، أنه يجب أن يكون الحاكم والمسؤول الذي يتولى هذه المهمة أميناً على أموال الأُمة، وأنه ليس للخائن ولاية على الأُمة، وأنه متى طرأت عليه الخيانة فللأُمة عزله من منصبه الذي اختارته له، بل ينعزل تلقائياً وتسقط كل ما له من حقوق في ذمة الأُمة.

الثالث: حق التعليم

وهو من الحقوق المهمة التي يجب على الحاكم والمسؤول توفيرها للأُمة، بل ينبغي أن يصل هذا التعليم في مستواه العام إلى التخلص من الجهل في كافة مجالاته العلمية والعملية المتنوعة. وهذا واجب الحكومة وواجب الدولة والمسؤولين أن يوفروا فرص التعليم لجميع أبناء الأُمة من غير استثناء أو استئثار، وخاصة فرص التعليم العالي.

ويدخل في هذا الحق أيضاً تعليم الناس جميع حقوقهم القانونية، وإخراجهم من دائرة الجهل حتى لا يقعوا في الخطأ؛ لأن القانون لا يحمي المغفلين كما يقال. وهذه المقولة لها أُصول وجذور صحيحة، فيجب أن يُعلم المواطن حتى يكون قادراً على معرفة التزاماته ليفي بها.

٢٠١ . نهج البلاغة: الخطبة ٣٥.

الرابع: حق التأديب

ومن حق الأُمة على الإمام أن يحسن تأديبها وتربيتها، لكي تتعلم حسن السيرة والسلوك، وذلك بإرشادها وتهذيبها ببيان الأخلاق الحسنة، وحثها على اتباعها، وبيان الأخلاق السيئة وأمرها باجتنابها.

حقوق الحاكم

كما تناولت هذه الفقرة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بيان حقوق الحاكم والمسؤول، وقد ذكر منها أربعة حقوق هي:

الأول: حق الوفاء بالبيعة

إن أُولى حقوق الحاكم الشرعي على الأُمة هو حق الوفاء بالبيعة، أي حق الطاعة، إذ البيعة عقد بين الحاكم والأُمة يجب الالتزام به من الطرفين، ويعد الاخلال به من أي طرف نقضا له. ويجب على الأُمة طاعة إمامها في ما يأمرها به من جهاد عدوها أو كف أيديها عن القتال مثلاً، فإن لم تفعل فقد خانت البيعة التي ألزمت بها نفسها.

إن الوفاء بالبيعة ،هو الوفاء للنظام السياسي الذي يختاره الناس والالتزام بالاطار العام للعملية السياسية كما نعبر عنه اليوم، ولذا ينبغي الوقوف إلى جانب الحاكم الشرعي ومساندته ودعمه.

الثاني: حق النصيحة في المشهد والمغيب

وهو من الحقوق المشتركة والمتبادلة بين الأُمة والإمام، وبين المسؤول والناس، فكما يجب على الحاكم أن يمحض النصيحة للأُمة، فكذلك على الأُمة أن تمحض النصيحة للحاكم والمسؤول في حضوره وغيابه. وعلى المسؤول ألا ينزعج أو يغضب إذا وقف أحد المواطنين وقدم له النصح، ووضع اليد على الأخطاء، وأشار إلى مكامن القوة والضعف، فهذا هو حقه على الناس.

وينبغي ألا يتعالى المسؤول عن الاستماع إلى النصيحة وقبولها فيصاب بالنرجسية، ويرى أنه عبقري قد جادت به السماء على الناس، وليعلم أنه كأحدهم لا يختلف

عنهم، وقد جاء به القدر ووضعه في هذه الدائرة أو الوزارة وأصبح نائباً أو وزيراً أو رئيساً.

وهكذا ينبغي المحافظة على سلامة المسيرة من خلال تبادل النصيحة بين الحاكم والمحكوم، ويتم ذلك بتأسيس مجالس النصح لعقلاء الأُمة مع المسؤولين لتدارس الأوضاع والمسائل المختلفة. وبهذا يتم الخروج من حالة اللامبالاة وعدم الاهتمام، وتربية الناس على الشعور بالمسؤولية وتحملها لئلا يضيع البلد جراء السياسات الاستبدادية الخاطئة للحكام.

إن الشعب شعبنا، والبلد بلدنا، والوطن وطننا، ومصالحه مصالحنا، والمسؤولين اخواننا وأولادنا، فيجب أن نكون في موقع النصيحة لهم في حضورهم وغيابهم.

الثالث: حق الإجابة

ومن حق الحاكم والمسؤول على الأُمة إجابته حين يدعوها لأمر من الأُمور، كالاجتماع أو التفرق، ولا يجوز لها التخلف عما يدعوها إليه؛ لأنه المدافع عن مصالحها والحامي لثرواتها وأموالها والحريص على مستقبلها. فإن لم تفعل تشتت أمرها وانفرط عقدها وضعفت هيبتها وطمع فيها عدوها وصارت أكلة سائغة لغيرها من الأُمم.

الرابع: حق الطاعة

ومن حق الحاكم والمسؤول على الأُمة أيضاً طاعته في ما يأمر وينهى، وعدم عصيانه والتمرد عليه.

وقد جعل الإسلام لطاعة الحاكم والمسؤول حدوداً، ولا يجوز اطاعته في كل ما يأمر وينهى، قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته لأهل مصر عندما عقد الولاية فيها لمالك الأشتر: «فاسمعوا له وأطيعوا أمره في ما طابق الحق»[٢٠٢]، فإن كان أمره لا يطابق الحق فلا طاعة له.

٢٠٢ . نهج البلاغة: الرسالة ٣٨.

فيجب على الأُمة أن تقف إلى جانب المسؤول الذي يفي بواجباته لها وتطيعه؛ لأن هذا المسؤول لا يأمر بخلاف ما أنزل الله تعالى، ولا بخلاف المصلحة العامة للشعب، ولا يأمر بتبديد الامكانات والثروات والميزانيات في غير محلها. فهذه هي الحقوق المتبادلة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم في الرؤية الإسلامية.

الإضاءة الثالثة

عوارض الاستبداد والنرجسية

إن حالة الاستبداد والنرجسية تترك آثاراً وتخلف تبعات في سلوك الإنسان ووجوده. وقد استعرض أمير المؤمنين ثلاثا من هذه التبعات والعوارض الأساسية لظاهرة الاستبداد والاستعلاء والاستكبار والهيمنة والنرجسية التي يصاب بها المسؤول:

العارض الأول: عارض ذاتي فردي، وهو ما جاء في قولهعليه السلام: «إدغال للقلب»، أي إفساد للقلب. وهذه قضية شخصية يصاب بها المسؤول ويفقد الفرصة في الحفاظ على إنسانيته .

العارض الثاني: عارض عقائدي، وهو ما جاء في قولهعليه السلام:«ومنهكة للدين» أي مضيعة للدين. فعلى المسؤول أن يحذر من تسلل الاستبداد إلى نفسه، حذراً على دينه من الضياع، وعلى دين الناس من الضياع أيضاً تبعاً له، لأن الناس على دين ملوكهم، فإن دين الناس يتعرض للمخاطرة حينما يقع المسؤول في شراك حالة الاعتداد بالذات إلى حد كبير .

العارض الثالث: العارض الاجتماعي والسياسي، فإن الاستعلاء والاستبداد يؤديان إلى مزيد من السخط الشعبي الذي يدفع باتجاه التغيير ويهز عرش المسؤول حينما يمارس مثل هذه المنهجية.

العارض الأول: العارض الفردي

إن حالة الهيمنة والاستعلاء على المستوى الفردي كما قلنا تجعل قلب الإنسان قلباً مظلماً، تغيب عنه المشاعر والأحاسيس، وتغيب عنه الفرصة في تحسس آلام

الناس، ويعيش الإنسان في عالمه الخاص وينقطع عن آلام وهموم المجتمع، ولا يفكر إلا بنفسه وهمومه وقضاياه، وتنكسر الحواجز النفسية والمعنوية، وإذا انكسرت فسيجد الإنسان نفسه بؤرة للانحراف والضلال والاستعداد للقيام بكل شيء، من أجل الحفاظ على عرشه وكرسيه وموقعه، ويضحي بكل شيء ويهتك كل حرمة من أجل الحفاظ على موقعه. فتضيع القيم الإنسانية وتغيب الحالة المبدئية، وهذه مشكلة ومعضلة كبرى يصاب بها الفرد المسؤول حينما يكون في مثل أجواء النرجسية العالية والاستبداد.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالقاصعة، أي المحقرة التي تحقر الجبابرة، لما ورد فيها من التركيز على هذا الجانب:« فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال: (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين)»[٢٠٣].

يحذر أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المباركة هذه الناس من الشيطان الرجيم وإغوائه ومن أن يعديهم بدائه، وداء الشيطان هو الاستكبار، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾[٢٠٤]، وهذه مشكلة الشيطان في الجوهر.

ثم يحذرهم من أن يستفزهم بندائه، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله، أي ألا يستنهضهم إبليس بسيرته السيئة باتجاه الأخلاق التي يمتلكها، وألا يخيفهم بجيوشه، في إشارة إلى أعوان السوء. وليحذر المسؤول من أن تحيط به بطانة السوء التي لا ترى إلا مصالحها، وكل ما يهمها كيف تنتفخ وتبالغ في الاستفادة من الفرص والامكانات، فيتزلفون للمسؤول ويظهرون له المودة، ليس حباً به ولا خشية من مكروهه، بل هم يبحثون عن فرص ومواقع وأدوار وامتيازات.

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام إرصاد إبليس لبني آدم ووقوفه على أُهبة الاستعداد للإيقاع بهم وحرفهم عن طريق الهدى إلى طريق الضلال والردى. وقد شبه استعداده بمن

٢٠٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.
٢٠٤. طه: ١١٦.

وضع السهم في كبد القوس وسحبه بشدة ثم رمى هدفه من مكان قريب، وفي مثل هذه الحالة لابد من أن يصيب السهم هدفه.

وكذلك الشيطان الرجيم هو قريب منا ، ويرانا من حيث لا نراه، وهو لنا بالمرصاد يتحين الفرصة المناسبة لرمينا بسهامه المسمومة. وهذا هو حال الشيطان من المسؤول حينما يكون في موقع المسؤولية، فإنه يكون أكثر عرضة لإغوائه، لكثرة المغريات التي يتعرض لها المسؤول.

ويحكي القرآن الكريم كلام الشيطان الرجيم مع رب العالمين في هدفه على الأرض باغواء بني آدم، قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢٠٥]، وهذا قسم للشيطان أقسم به أمام الله سبحانه وتعالى حينما عرف أن لا مكان له في الجنة بعد عصيانه رب العزة والجلالة وامتناعه عن السجود لآدمعليه السلام. ولما كان الإنسان في موقع المسؤولية أكثر عرضة للاغراءات، كان تركيز الشيطان عليه أكثر وأكبر.

وهذا هو الأثر الفردي والنفسي الذي يصاب به المسؤول. فعلى المسؤول ألا يفرح بالامتيازات التي يحصل عليها، بل عليه وهو في موقع المسؤولية التفكير في مثل هذه الأخطار التي تتربص به من عدو لدود، موقعه قريب منه، وقد صوب سهامه نحوه، وهو على اهبة الاستعداد ليستهدف صدره وقلبه.

العارض الثاني: العارض العقائدي

لا يمكن أن يجتمع الخضوع والخشوع لله، مع حالة الاستعلاء والتجبر، ومن كان خاضعاً لله فيجب أن يستشعر حالة الخضوع في وجوده وفي نفسه، وهذه الحالة تحصنه من الوقوع في حالة الاستبداد والنرجسية والاستعلاء.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة له يذكر فيها أسباب هلاك الناس ويتحدث عن الجبابرة وسلوكهم:«فيا عجباً! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم

---

٢٠٥. الحجر: ٣٩.

ماعرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه»[٢٠٦].

يتعجب أمير المؤمنينعليه السلام في خطبته من خطأ هذه الفرق المختلفة من أصحاب الأديان والمذاهب على اختلاف حججها وأدلتها على أفكارها، كيف لا يبحثون عن الحق، وكل منهم يريد أن يبرر لنفسه وللآخرين أن الموقف الذي اتخذه هو أفضل المواقف، وأنه أحسن الناس، وأنه يفكر أفضل من غيره، وأن الحزب أو الجماعة التي ينتمي إليها والتوجه الذي يؤمن به هو أفضل الأحزاب والتوجهات.

ويتعجب منهم كيف أنهم لا يقتصون أثر نبي ولا يقتدون بعمل وصي من أجل معرفة الحقيقة والوصول إلى الحق. وكيف أنهم لا يؤمنون بغيب، فإن الإنسان إذا لم يؤمن بالغيب لا يبقى حجر على حجر.

فإننا نؤمن بالله والجنة والنار والدار الآخرة إيمانا غيبيا، وهؤلاء لا يؤمنون بالغيب وكل شيء يرونه بالمنظور المادي، مع أننا نرى في الواقع أن نصف أثرى أثرياء العالم أُميون، بينما نجد بروفيسوراً في الاقتصاد لا يملك لقمة عيشه، فهناك إذن أسباب ومسببات، والأُمور تسير بأسبابها الطبيعية، ولكن هذه الاستثناءات تلقي علينا الحجة البالغة على وجود أمر غيبي يصرف الأُمور كيفما شاء، وأن لله تعالى كلمة يقولها تأتي منسجمة مع أغلب السياقات في أغلب الأحيان، ولا تأتي في بعض الاحيان، حتى تقول إن الأمر ليس مادياً صرفاً، وبذلك يضع أكثر الناس إلحاداً بالله عز وجل أمام مواقف محرجة حين يرون أن جميع قواعدهم التي بنوا عليها قناعاتهم قد ضربت.

ففي الطب هناك معاجز لا أحد يعرف أسبابها، وجاءت نتيجة الاستغاثة بالله تعالى والتوسل بالأئمة الأطهارعليهم السلام، وهذه الأُمور كلها جاءت لكي تعطي رسالة إلى هؤلاء الملحدين والمنكرين لوجود عالم الغيب. ونرى أيضاً أن القلوب تميل إلى حب من لا يملك شيئاً، بينما نراها لا تميل إلى من يمتلك الجيوش والمليارات، لأن قلوب الناس لا تشترى بالمال، بل الله سبحانه وتعالى يهدي الأنفس والقلوب لتهوى هذا الشخص أو ذاك.

---

٢٠٦ . نهج البلاغة : الخطبة ٨٨.

وما أكثر من ينفق، ولديه وسائل إعلام، ولكن الناس لا تحبه، وهناك من لا يملك شيئاً ولا يملك الإعلام ولكن تجد قلوب الناس تهواه؛ كما نشاهد اليوم أن أكثر الناس محبوبية في هذا البلد الكريم هو الإمام السيد السيستاني، مع أنه لم يصرف ديناراً واحداً على الإعلام، ولم يظهر في وسيلة إعلامية وقد ألقى الله محبته في قلوب الناس.

فيجب على المسؤول أن يكون لديه الإيمان بالغيب، ولا يأخذه الغرور بالموقع.

ثم يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الفرق والأحزاب المختلفة بأنهم لا يعفون عن عيب، فهناك من المسؤولين من ينظر ويتحدث في مؤتمرات صحفية، ثم يظهر بعد يومين ويتحدث بخلاف ما قال!.

ثم يذكر عليه السلام صفة أُخرى لهم، وهي أنهم يعملون في الشبهات، فنجد المسؤولين يبحثون عن الشبهة وخرق القانون وحقوق الإنسان. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على كل المسؤولين، بل فيهم المخلصون والشرفاء ومن يتسم بالنزاهة، وغالباً يُحارب هؤلاء ويطاردون ويهمشون.

ونرى أن أخطر شيء يرجف قلوب المسؤولين هو الاستضافة في البرلمان، فضلاً عن الاستجواب، فلماذا هذا الخوف؟، في حين أنه يجب أن يمتلك المسؤول التبرير الواضح لمواقفه.

ثم يشير عليه السلام إلى صفة ثالثة وهي أنهم يتبعون الشهوات، وقد تركوا العقل جانباً، وكل همهم بطونهم وفروجهم، قد هجموا على الدنيا هجوم مفترس لا يرعي إلاً ولا ذمة.

وأما الصفة الرابعة التي اتصف بها هؤلاء فهي أن المعروف فيهم ماعرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا. أي أن الشيء الحسن هو ما يرونه حسناً، والشيء المنكر هو ما يرونه منكراً، ولا وجود لميزان تعرض عليه المواقف، بل هناك مواقف تكيف القوانين والدساتير والمبادئ والقيم معها.

وإن من أخطر الأُمور أن يكون المسؤول بمستوى يلبس الحالة المبدئية ثوبه وسلوكه وأداءه، لا أن يعرض أداءه على الثوابت والمبادئ.

ثم يذكر عليه السلام صفة خامسة لهم وهي أن مفزعهم في المعضلات والمشكلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم. فتجدهم عندما تحصل لهم مشكلة يلجؤون إلى أنفسهم، ولا يرون إلا رأيهم، ويتجاهلون الخبراء والمستشارين.

وعندما تحدث أزمة سياسية كبيرة مع دولة جارة أو قضية أمنية خطيرة أو قضية اقتصادية وغيرها من الأُمور التي يتوقف عليها مصير البلاد والعباد، لا يصلح أن يرجع فيها المسؤول إلى رأيه الشخصي، وكأن كل امرئ منهم إمام نفسه، أي يقتدي بقناعاته وميوله ورغباته، وهذه من سمات المسؤول حينما ينحرف ويتجبر ويتكبر.

إن أكبر الأخطاء التي يقع فيها المسؤول ليس في خطئه فحسب، بل في تقمص الثوب الديني والموقف الشرعي والقانوني لمواقفه. وأكبر خطر هم أُولئك المستشارون القانونيون من مستشاري السوء الذين يبحثون عن الثغرات والمخارج القانونية لتصرفات وقرارات المسؤولين. وتكمن خطورة استبداد المسؤول في تكييف القانون والثوابت والقيم والدستور مع موقفه الشخصي وقناعاته الشخصية.

ونرى اليوم الكثير من الجدل السياسي القائم في بلدنا، يستند فيه الجميع إلى الدستور، مع أن الدستور واحد، فكيف يستنبط كل منهم حكماً مختلفاً؟!، وهذا يبرهن على أن هناك رؤية خاطئة .

علماء الزور

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في هذا الصدد: «وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمن الناس من العظائم، ويهون كبير الجرائم. يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع، ويقول أعتزل البدع وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصد عنه، وذلك ميت الأحياء»[٢٠٧].

٢٠٧ . نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

هناك من يرى نفسه عالماً، وأنه يفهم كل شيء، ويعرف كل شيء، ويعطي رأيه في كل شيء، ولكن لو سُئل من قال إنك عالم؟، هل عندك شهادة اختصاص في هذا المجال؟، هل عندك خبرة طويلة في هذا المجال؟، لأجاب: إن من حولي يقولون ذلك. ما شاء الله ما هذا الفكر النير!، ومن قال لك إن هؤلاء المحيطين بك ليسوا متزلفين وليسوا انتهازيين، وانهم لا يوقعونك في الفخ ويصعبون عليك المهمة؟، ولماذا تصدق بهم وأنت تعرف أنك لا تملك الاختصاص؟، وأنت تدري أن غيرك يعلم أكثر منك وهو خبير في هذا المجال، فلماذا لا تذهب وتستعين به؟، ولا تظن نفسك علامة في المسؤولية، وأن الآخرين لا يفهمون شيئاً.

وهنا تكمن المشكلة، فعندما يبحث المجتمع عن مصالح خاصة، ويصفق لكل مسؤول، فهذه ظاهرة توقع المسؤول في وهم أنه يفهم جداً ومحبوب جداً. ويجب على مجتمعنا ألا يقدم المشاعر والعواطف لمن هب ودب وبدون اعتبار، بل عليه أن يحترم الناس على قدر عطائهم، فيصفق للمسؤول الذي يقدم الخدمة ولا يصفق للمسؤول الفاشل، لكي يشعر بفشله ويعلم أن الناس لا ترضى عن أدائه.

فهذه قضية مهمة، وهي أن يسمى شخص نفسه عالماً وهو ليس كذلك، بل يدعي شيئاً ليس فيه، ويدعي علماً لا يملكه. وكل ما لديه جهل أخذه من جهال وضلال، ويتحقق ذلك عندما يكون من حوله وحاشيته من أهل الجهل والضلال، وبدلاً من أن يأخذ علمه من العلماء وذوي الاختصاص وضع حوله جهلة وضلالاً من بطانة السوء، فيقدمون له النصائح التي تزيده جهلاً إلى جهله، وضلالاً إلى ضلالته، فيزداد بُعداً عن اتخاذ القرارات الصحيحة، وكلما استمع إليهم أكثر ازدادت المشاكل والعقد أكثر.

فحينما يكون الإنسان غير سوي وانتهازيا ويبحث عن مصالح خاصة، وحينما يتزلف إلى المسؤول، فإنه سيقدم نصيحة غير صادقة تعجب المسؤول، لأنه يعلم أنها تتلاءم مع ذوقه وهواه، فتكون ضلالاً. وحينما يأخذ بها المسؤول يزداد ضلالاً.

أفعال أدعياء العلم

ثم انتقل أمير المؤمنين عليه السلام إلى بيان بعض أفعال من يدعي علماً وهو ليس كذلك.

الأُول: نصب الشراك للناس

واول هذه الأفعال انه يقوم بنصب أشراك من حبائل غروره للناس، أي يضع المكائد والحيل عندما يقع في مطبات خطيرة تخرجه عن الشفافية والوضوح والحرص على مصالح الناس، فيكون همه كيف يستخدم التكتيكات لكي يبقى في المنصب، وكيف ينصب الفخ للناس، ويوظف الإمكانات والامتيازات التي تعطيها له السلطة، ويضرب هذا بذاك، ويخلق الفتن بين الناس، كل ذلك من أجل البقاء في السلطة.

فعلى المسؤول مهما كانت مسؤوليته في السلطة ألا يضرب موظفا بآخر، فيقول لهذا شيئاً ويقول للآخر شيئاً آخر ليوقع الفتنة بينهما، وألا يمارس سياسة فرق تسد الاستعمارية، لكي يصور نفسه بأنه هو المنقذ.

الثاني: قول الزور

وثاني هذه الأفعال التي يفعلها من يدعي علماً وهو ليس كذلك، هو قول الزور، فيخدر الناس بالوعود الكاذبة، وتحتل السين وسوف مساحات واسعة من حديثه، وتمضي مدة الوعود التي يقطعها المسؤول على نفسه ولا شيء على أرض الواقع غير وعود جديدة، وهكذا تمضي الشهور والسنين ولا شيء غير كيل من التهم المتبادلة بين المسؤولين، وكل يحمل الآخر تبعات الفشل. والنتيجة أن الأُمة ستفقد ثقتها بهؤلاء المسؤولين وترفع أيديها عن تأييدهم وتندفع إلى الشارع لتحطم عروشهم الكارتونية المهزوزة.

الثالث: تفسير القرآن برأيه

وثالث هذه الأفعال التي يقوم بها هذا المدعي هي حمل الكتاب على آرائه، فيقوم بتوجيه القيم والمثل والضوابط والقوانين على مزاجه ووفقاً لمصلحته الشخصية، فيعطي لأعماله وأقواله سمة القداسة وسمة الشرعية، وهنا يكمن الخطر العظيم.

الرابع: إمالة الحق على هواه

ورابع هذه الأفعال أنه يعطف الحق على أهوائه، أي يحمل الحق على رغباته ونوازعه الشخصية، فالمسؤول حينما يرى نفسه هو الحجة الكبرى، وموقفه هو الموقف الصحيح دائماً، ولو قيل له ان المادة الفلانية في الدستور أو القانون تقول هكذا، يقول نطلب لها تفسيرا، فهذه وظيفة خبراء القانون، هذا المسؤول يعمل بما يشتهي ويرغب، ثم يطالب المستشار القانوني أن يجد مخرجاً قانونياً.

الخامس: تصغير الأخطار العظيمة

وخامس هذه الأفعال أنه يؤمن الناس من المشاكل العظيمة والأخطار الداهمة، أي يهونها ويصغرها، ويطلب من الآخرين عدم المبالغة في عرض المشاكل والأخطار وعدم تسييسها.

إنه يهدئ الناس ويخدرهم بقوله إنه ليست هناك مشاكل وأزمات، أو إنها بسيطة وهينة وليست ذات أهمية. ولو قيل له إن جريمة عرس الدجيل من الجرائم الكبرى، حيث ذبح الأطفال والنساء والرجال كما يذبح الكبش ومثلوا بالعروس بعد اغتصابها، والضحايا أُناس أبرياء مسالمون فرحون بعرسهم، لهونها وقلل من قيمتها في أنظار الناس، وقال إنها بسيطة.

كيف تكون بسيطة وهي جرائم كبرى ترتكب بحق الإنسانية؟!، ولو قيل له ان نصف مليون إنسان قتلوا في الانتفاضة في غضون أُسبوعين، وهي أكبر مجزرة في تأريخنا المعاصر، لقال: لا تبالغوا، فالقتلى ليسوا بهذا العدد!. إنه يقلل من قيمة الجرائم، وهذه مشكلة يقع فيها المسؤول.

السادس: ادعاء الوقوف عند الشبهات

وسادس هذه الأفعال أنه يدعي الوقوف عند الشبهات، ويقول أنا التزم بالدستور، وأنا أحتكم إلى القانون، وإن أعمالي كلها قانونية، وأنا لا اتخطى الحواجز، وأنا أهتم بالحريات، وأنا أتمسك بحقوق الإنسان.

أنه يزعم أنه يقف عند الشبهات ولكنه فيها وقع، فهو أول من يخرق القانون، وأول

من يتجاوز على المال العام، وأول من يصادر الحريات ويسيء إلى كرامة المواطنين.

ويزعم أيضاً أنه يعتزل البدعة، وأنه يريد السير على الطريق الصحيح، ويريد أن يرسي الشفافية في البلد، ويريد أن يعمل ضمن السياقات الصحيحة. ولكن لو نظرت إلى سلوكه لرأيت أنه كله بدع ، وكله خروج عن المألوف، وكله تجاوز للسياقات الصحيحة.

ومثل هذا المسؤول الذي يبتلى بهذه السلوكيات سيئ كله، ويحاول أن يغطي على الرائحة النتنة للهوى والشهوات والاستبداد والتكبر على الناس، يغطيها برائحة الدين الطيبة. وعندما يكون المسؤول من هذا النوع فإن حاله تكون ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ الصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، أي تراه يمشي على الأرض مثل بقية البشر ولكن ليس لديه شيء من الإنسانية.

السابع: الجهل بالهدى والضلال

وسابع هذه الأفعال أنه لا يعرف باب الهدى فيتبعه، فلا يدري أين الموقف الصحيح، قد اشتبكت عليه الأُمور، وكثر عليه المشيرون، كل يعطيه رأيا بما يتلاءم مع مصلحته.

ولا يعرف أيضاً باب العمي فيصد عنه، فلا يعرف أين هي المشكلة والحفرة حتى لا يقع فيها، وتلتبس عليه الأُمور.

ومثل هذا المسؤول هو ميت الأحياء، ترونه حيا يأكل ويشرب وينام ويتحرك، ولكن ليس لديه سمة من سمات الحياة؛ إذ الحياة ليست أكلا وشربا، وإنسانيتنا ليست في الأكل والشرب، فالنبات أيضاً يأكل، وكل الكائنات الحية تأكل وتشرب أيضاً. وإنما إنسانيته تتجلى عندما يكون قادراً على أن يخطو في الاتجاه الصحيح، وأن يحقق خدمة للناس، وأن يزيل مظلمة من مظالمهم، وأن يقرب الناس إلى ما فيه صلاحهم. فهذه هي الحياة، والذي لا يملك هذه الحالة فهو ميت الأحياء كما يعبر أمير المؤمنين عليه السلام.

العارض الثالث: العارض الاجتماعي

عندما يستبد المسؤول برأيه، ولا يعترف بأحد غيره، ولا يقبل بالرأي الآخر؛ ويرى

نفسه يفهم أكثر من غيره؛ سيتقاطع مع الآخرين وتزداد الاحتجاجات الشعبية وتتسعٍ المعارضة السياسية وتتكتل القوى الشعبية الأُخرى ضده، وسيرى نفسه معزولاً، فهو في واد والشعب كله في واد آخر.

وهذه تجربة الربيع العربي كما يسمونها ماثلة أمامنا، فقد كانت مقدرات الشعوب بأيدي حكامها ثلاثين سنة أو أكثر، إذا ضحك الزعيم فعلى الشعب أن يضحك، وإذا غضب الزعيم فعلى الشعب أن يغضب، وتتزايد هذه الضغوط حتى وصلت إلى مستوى انفجر فيه الناس ونزلوا إلى الشارع، ولم تنفع مع موجة الغضب العارم كل دباباتهم وأسلحتهم الثقيلة وجيوشهم ومنظوماتهم الاستخبارية.

ويظن المسؤول أنه يستطيع أن يمسك الوزارة بحزبه وجماعته، وهو لا يعلم أنه كلما أزاح شخصاً وجاء بآخر بدلا منه من جماعته، يكون قد حرض عدداً أكبر من الناس ضده، وكلما ازدادت المعارضة فإنها ستصل إلى حالة الذروة وحالة التغيير، هذه سنة إلهية تحدث عنها أمير المؤمنين عليه السلام وأشارت إليها الآيات القرآنية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «احذر الحيف والجور، فإن الحيف يدعو إلى السيف، والجور يعود بالجلاء، ويعجل العقوبة والانتقام»[208].

يحذر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الحكمة الحاكم والمسؤول من الحيف والجور، فإن الظلم والقسوة والاعتداء على الناس تلجئهم إلى العنف، ويدعوهم إلى الاصطفاف والتمحور ضد الحاكم. كما أن جور الحاكم على الأُمة يعود بالجلاء، ويضطرهم إلى الهجرة وترك البلاد، وحينئذ لا يستطيع أن يمسكهم، وسيسخرون كل طاقاتهم للضغط عليه. كما أن الحيف والجور سيؤديان إلى تعجيل العقوبة الإلهية.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً:«من جارت ولايته زالت دولته»[209]، أي من كان حكمه قائماً على أساس الجور فإن حكومته ستسقط وتنهار.

وفي حكمة أُخرى لأمير المؤمنين عليه السلام يقول:«من جار أهلكه جوره»[210]، فالظلم

٢٠٨. غرر الحكم ١: ١٤٠.
٢٠٩. غرر الحكم ٢: ١٨٧.
٢١٠. غرر الحكم ٢: ١٥٨.

يطيح بالمسؤول، ويؤدي إلى هلاك الظالم. ويؤدي أيضاً إلى هلاك الأُمة الظالمة، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٢١١]، فحينما يشيع الظلم ينهار الحكم ويأتي الهلاَك، وعلى العَكس من ذلكَ الأمة المصلحة، كما نطق بذلك القران الكريم في قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٢١٢].

إذن، الصلاح والعدالة يدفعان عن الأمم الهلاك، وإذا كان هناك ظلم يتدخل الله سبحانه ليطيح بهذا الظلم. فعلى المسؤولين تجنب الاستبداد والعمل بدماثة الخلق والترابية والإصغاء إلى الرأي الآخر، فإنه المدخل لرضا الناس ورضا الله تعالى ودوام الحكم. وهذا هو طريق الدنيا وطريق الآخرة، ولا مناص من الدخول والولوج من هذا المدخل الصحيح، والتواضع للناس، والاستماع للخبير والأخذ بكلامه.

الدرس الثالث والعشرون

أمراض السلطة وعلاجها

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر:« وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يُطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك ما عزب عنك من عقلك».

إن موقع السلطة، سواء كان سلطة بلد أو سلطة نائب في برلمان أو وزير أو مدير عام أو مدير في شركة أو أي سلطة كانت، يعطي الإنسان الفرصة في أن يأمر ويعطي التوجيهات للآخرين، فهذا الموقع إذا أوجد عنده شعورا بالأُبهة والعظمة والكبرياء، أو أوجد عنده حالة من الخيلاء والعجب؛ فعليه أن يتبع الخطوات التالية:

أولاً: أن ينظر إلى عظم ملك الله فوقه، لكي يستطيع السيطرة على نفسه ولا يصاب

٢١١ . القصص: ٥٩.
٢١٢ . هود: ١١٦.

بالعجب وبحالة الاستعلاء؛ فإنه لا قيمة لملك الحاكم والمسؤول أمام ملك الله سبحانه وتعالى غير المتناهي، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك.

ثانياً: أن ينظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى من الإنسان على ما لا يقدر عليه هو من نفسه، فعملية التنفس والهضم والتفكير وغيرها من العمليات التي يقوم بها الإنسان بشكل تلقائي ولا يستطيع أن يتحكم بها، وهو سبحانه وتعالى قادر عليها، فما قيمة قدرة الإنسان في محضر قدرة الله تبارك وتعالى، وما هو إلا عبد من عبيده! وهذا يؤدي إلى أن يستصغر الموقع الذي هو فيه مهما كان كبيراً ومؤثراً.

إن النظر في هذين الأمرين يخفض ويقلل ويهدئ من حالة الطغيان والتمرد التي يشعر بها الحاكم والمسؤول، لأن الإنسان إذا تسلم مسؤولية معينة يكون بحالة أُخرى غير التي عهدناه عليها، وهكذا يمكن له السيطرة على حالة الطغيان التي تبرز لديه، وذلك باستحضار أن الله فوقه وهو القادر على كل شيء، وأنه لا قيمة لهذا الموقع مهما عظم وكبر بالنسبة إلى موقع الله سبحانه وتعالى ومكانته.

وحينئذ يستطيع أن يكف عن نفسه حالة الغضب وحالة الحدة. وهذا الاستحضار لمكانة الله سبحانه وتعالى يجعله يمسك نفسه عن حالة الغضب والاندفاع اللامبرر والانفعالات غير المنضبطة. وحينئذ يرجع إليه ما غاب عنه من عقله.

فأيها المسؤول، ما بك تخليت عن عقلك بمجرد أن أصبحت مسؤولاً، وأخذت تتعامل بدون عقل ومنطق، ومواقفك غير مبررة عقلياً، وفقدت توازنك ولم تستطع أن تتخذ القرار الصحيح؟، ولكن اعلم أنه حينما تستحضر الله سبحانه وتعالى فوق رأسك، وتعرف أنه القادر والعليم بكل شيء وبيده الأُمور كلها، وأنه يرفع من يشاء ويضع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فإنه سوف يعود إليك عقلك وتبدأ بالتفكير وتسيطر على نفسك.

إن هذه العبارة على قصرها تحمل مضموناً كبيراً ودرساً مهماً في الحياة لكل من يتصدى ويتحمل المسؤولية. وهناك عدة إضاءات يمكن استفادتها من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام هذه، وهي كالتالي:

الإضاءة الأُولى

الالتفات إلى العوارض الناتجة من السلطة

تتناول هذه الإضاءة أهمية الالتفات إلى العوارض الناتجة من السلطة والنفوذ، فكما أن على الإنسان حينما يذهب إلى بيئة معينة أن يعرف ما العوارض المترتبة على التواجد في تلك البيئة، وكما على من يريد الدخول في مسابقة أن يعرف من الخصم وما طبيعته ونقاط قوته وضعفه، وما العوارض والأخطار التي يتعرض لها الإنسان في كل قضية، فكذلك على من يريد التصدي وتحمل المسؤولية أن يعرف العوارض الناتجة من السلطة والنفوذ ومواقع الخدمة العامة.

فهنا يحذر أمير المؤمنينعليه السلام من يتصدى لموقع المسؤولية بأنه أمام عوارض وأخطار عليه أن يتنبه لها. يقولعليه السلام في هذه العبارة:« وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك»، معنى أحدث أنه كان مفقوداً ووجد، فحالة الحدوث هي الوجود بعد العدم. إذن هي عوارض لم تكن موجودة عند من هو متصد للمسؤولية ثم وجدت في الوقت الذي تصدى فيه، فهذه العوارض هي عوارض السلطة، وعوارض الوجاهات والمواقع، وعلى المسؤول أن يتنبه لها.

وهذه العوارض هي: الاستئثار، الكبرياء، العظمة، العجب، والاعتداد بالذات. فليحذر المسؤول أن يقع في هذه الأمراض ويفقد السيطرة على نفسه. وسنذكر في ما يلي مجموعة من هذه العوارض:

الأول: الاستئثار

يقول عليعليه السلام: «من ملك استأثر»[٢١٣]، أي من ملك ووصل إلى موقع القدرة والتصدي أُصيب بحالة الاستئثار بالقدرة، فيحتكر السلطة والمال والقرار وكل شيء، ولا يترك للآخرين مجالاً للمشاركة. وهذه من طبائع الإنسان لو خُلي وطبعه. وهي من العوارض الخطيرة لمن يتصدى للمسؤولية.

٢١٣ . نهج البلاغة: الحكمة ١٦٠.

الثاني: الاستعلاء

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من نال استطال»[٢١٤]، أي أن الذي يصل إلى مسؤولية معينة يصعر خده للناس ويستعلي ويتكبر على الآخرين.

آثار التكبر

وللتكبر آثار وخيمة في الإنسان، نذكر بعضها:

منها: الصرف عن آيات الله

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٢١٥]، فمن يتكبر ويستعلي بغير وجه حق سينال عقوبة الصرف عن التوجه إلى آيات الله تبارك وتعالى. ففي قضية بسيطة يرى المواطن الحل ولكن المسؤول لا يستطيع أن يهتدي إلى هذا الحل بالرغم من بساطته؛ لأنه تكبر فحجبه الله سبحانه عن رؤية الطريق والحل، وبالتالي سيفشل ويتوقف وتزداد الخصومات والسخط الشعبي عليه؛ لأنه لا يرى بعين الله، فلا يرى الحق؛ لأنه متكبر ولم يتجنب الوقوع في عوارض وأمراض الموقع.

ومنها : التبختر في المشي

يقول الله تبارك وتعالى:﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً × كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾[٢١٦]. على المسؤول ألا يشعر بالبهجة والسرور والتبختر حينما يسير، فإنه لا يستطيع أن يشق الأرض عندما يمشي، ولا يستطيع أن يصل إلى الجبال في طولها مهما رفع رأسه إلى أعلى. والمشي بتبختر كناية وإشارة لحالة التكبر التي يصاب بها الإنسان حينما يصل إلى مسؤولية معينة.

ومنها: إنكار المعاد في يوم القيامة

يقول الله تعالى:﴿اسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا

---

٢١٤ . نهج البلاغة: الحكمة ٢١٦.
٢١٥ . الأعراف: ١٤٦.
٢١٦ . الإسراء: ٣٧ ـ ٣٨.

يُرْجَعُونَ × فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[٢١٧]، تتحدث الآية المباركة عن استكبار فرعون وجيوشه بالباطل، وظنهم أنهم لا يرجعون إلى الله سبحانه في يوم القيامة فيحاسبهم على طغيانهم وتجبرهم في الأرض بغير الحق.

فيتعامل المسؤول بطريقة تجبرية ظنا منه أنه سوف يبقى في هذه المسؤولية إلى الأبد. فعلى المسؤول ألا يعتدي على الناس فيعتدى عليه في ما بعد، وهناك من المسؤولين ما ان يخرج من المسؤولية، حتى يفاجأ بقائمة طويلة من الشكاوى وفتح الملفات، وكان باستطاعته أن يفكر بهذا اليوم ويتعامل مع الناس بالطريقة الصحيحة.

ومنها: منازعة الله

ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله رداءه»[٢١٨]، فمن يتكبر ينازع الله في كبريائه وعظمته، وله الخزي في الدنيا والآخرة؛ لأن التكبر لا يليق إلا بالله عز وجل.

ومنها: حلول اللعنة

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنما الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق». فقال له الراوي: وما الغمص؟ فقال عليه السلام: « من حقر الناس وتجبر عليهم»[٢١٩]، فالذي يحقر الناس ولا يرى قيمة لهم، ويستخف بعقولهم، ويظن أنهم ينسون ما يقول، فاليوم يتحدث بشيء وغداً يتحدث بشيء آخر، بل هم يتذكرون جيداً الوعود الكاذبة؛ هذا الشخص يكون جباراً في الأرض وتحل به اللعنة الإلهية.

الثالث ومن عوارض التصدي للمسؤولية العجب، فقد ورد عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إن يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب دخله عز الملك فلم ينزل إليه. فهبط جبرئيل فقال: يا يوسف ابسط راحتك. فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء ، فقال يوسف: يا جبرئيل ما هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال:

---

٢١٧ . القصص: ٣٩ ـ ٤٠.
٢١٨ . الكافي ٢: ٣٠٩.
٢١٩ . الكافي ٢: ٣١١ ح١٣.

نزعت النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي»[٢٢٠].

وقد اختلفت الروايات في أنه كان على كرسي الحكم، وفي رواية أُخرى تقول إنه كان صاعداً على ظهر الفرس. ولكن النتيجة واحدة وهي أنه لم يقم من مكانه لأبيه.

إن يوسف نبي من الأنبياء وهو معصوم، ولأنه معصوم لا يمكن أن يكون قد تكبر، ولا يمكن أن يكون قصد الإهانة لأبيه في هذا الموقف، ولعل يوسف كان أمام الناس وضمن البروتوكولات شعر الناس أن قيامه لشخص آخر غير مسؤول فيه انتقاص من هذا الموقع، وكان يجب عليه أن يحافظ على هذا البروتوكول ويحافظ على هذا الموقع لكي يخدم من خلاله عباد الله، فهو لم يقصد أن يتكبر، ولم يقصد أن يقلل من قيمة أبيه.

ولكن كان الأولى ليوسف عليه السلام أن يقدم احترام الأب على مصلحة الحكم، فترك الأولى ولم يقع في معصية. فهبط جبرئيل وأخرج نور النبوة من عقبه، عقوبة له لعدم نزوله إلى والده الشيخ يعقوب. وهكذا تعلقت إرادة الله في نزع النبوة من ذريته لأنه ترك الأولى في هذا الموقف.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من دخله العجب هلك»[٢٢١]، فهلاك الإنسان يتحقق حينما يصاب بالعجب، نستجير بالله من ذلك، ونسأل الله لكل من يتصدى لمسؤولية أن يمن عليه بخفض الجناح والترابية والتواضع؛ لأنه لابد من أن يعرف أن هذا المنصب مهما كبر ومهما التفت الناس حوله فله نهاية، وهذه هي سنة الحياة، فقد يكون في هذا اليوم بطلا قوميا والأُمة العربية كلها تصفق له، وفي اليوم الثاني ترميه بالحجارة.

و لم يستثن الأنبياء من هذه السنة، فهناك حروب اشتركوا فيها ولم يكتب لهم الانتصار، فما بالك بغيرهم. لذلك علينا ونحن في مواقع المسؤولية أن نتذكر أن هذه المسؤولية لا تدوم إلى الأبد، ويجب على الإنسان أن يكون خافض الجناح للناس.

---

٢٢٠. الكافي ٢: ٣١١ ح١٥.
٢٢١. الكافي ٢: ٣١٣ ح٢.

الاضاءة الثانية

عوارض السلطة

يشير أمير المؤمنين عليه السلام في هذه العبارة إلى ثلاثة من عوارض السلطة وموقع المسؤولية:

الأول: الطماح

إن من أهم عوارض السلطة، هي حالة الطغيان والتمرد والغدر والمكيدة ونقض العهود والمواثيق، حتى ذهب البعض إلى أن السياسة في معناها لا تصدق إلا على المكر والخديعة، ولا توجد سياسة شريفة ونبيلة، بل السياسة تعني الغدر ونقض العهود والمواثيق.

وهذا التفسير ناتج من ملاحظة الواقع الذي يسير على الأرض، فالكثير من السياسيين على مر العصور والدهور والأماكن والمواقع، ينقضون ويكيدون ويتآمرون ويغيرون المسارات، حتى أصبح البعض يعتقد بأن السياسة ترادف المكر والخديعة، فإذا وجدوا متديناً يمارس السياسة ينكرون عليه ذلك، متناسين أن السياسة في واقعها على نمطين؛ فهناك سياسة مكر وخديعة ولعب، وهي من يقع في هذا العارض من أعراض التصدي، ولذلك اعتبر عارضا ومرضا.

ولكن هناك سياسة أُخرى لمن حصن نفسه، فلا يصاب بهذا العارض، فتكون سياسة الشرف والنبل والقيم والمبادئ والدفاع عن الإنسان والمطالبة بالحقوق واستحضار المصالح العامة إلى غير ذلك. وقد عبر أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه السياسة في إحدى خطبه، فقال: «وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»[٢٢٢]، أي أن الله قد أخذ على العلماء أن يتصدوا لتحمل المسؤولية وإدارة شؤون الناس.

وقد تصدى الأنبياء من قبل لإدارة الدولة ورعية شؤون الناس، وكان آخرهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذي أسس الدولة الإسلامية في يثرب.

٢٢٢ . نهج البلاغة: الخطبة ٣.

سمات الحكومة الظالمة

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة له في بيان تحديات التصدي للمسؤولية والحكم، في بني أُمية كأنموذج: «وَاللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتى لاَ يَدَعُوا لله مُحَرماً إلا اسْتَحَلوهُ، وَلاَ عَقْداً إلا حَلوهُ، وَحَتى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَر وَ لاَ وَبَر إلا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا به سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتي يَقُومَ اَلْبَاكِيَان يَبْكيَان بَاكٍ يَبْكي لِدِينه وبَاك يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ اَلْعَبْدِ مِنْ سَيِده إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ ، وَحَتى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ باللهَ ظَناً، فَإِنْ أَتَاكُمُ اَللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا وَإِن ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا فَإِنَ اَلْعَاقِبَةَ لِلْمُتقِينَ »(٢٢٣).

يشير أمير المؤمنينعليه السلام في هذه الخطبة إلى مجموعة من سمات وملامح حكومة بني أُمية، وهي كالتالي:

أولاً: استحلال المحارم

إنهم لا يتركون لله حرمة إلا انتهكوها، يفعلون ما يشتهون وهم يتجلببون بجلباب الدين ويحكمون باسم الدين.

ثانياً: خيانة العهود

وإنهم لا يدعون عهداً إلا نقضوه، ولا عقداً إلا حلوه، إذ لا يوجد في قاموسهم شيء اسمه الوفاء، فهم لا يعرفون غير الخيانة والغدر.

ثالثاً: إشاعة الظلم

وإنهم سيتوغلون في الظلم حتى يدخل ظلمهم بيوت الأغنياء والفقراء، وقد وقعت الإشارة إلى بيوت الأغنياء في قولهعليه السلام «وَحَتى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَر» وبيت المدر هو البيت المبني من الحجر ، ووقعت الإشارة إلى بيوت الفقراء في قولهعليه السلام « وَ لاَ وَبَر» وبيت الوبر يعني الخيمة. فظلم بني أُمية ليس له حدود يقف عندها، وإن شدة ظلمهم ستملأ الآفاق.

٢٢٣ . نهج البلاغة: الخطبة ٩٨.

رابعاً: تشريد الناس

ومن ملامح حكمهم أن سياستهم الظالمة ستؤدي إلى تشريد الناس، فعندما لا يجد الإنسان ملجأ للخلاص من الظلم يفكر بالفرار والعيش في بلد آخر، وإن كان ترك الديار وهجران الوطن والأحباب أمرا في غاية الصعوبة، حتى أن القرآن الكريم قد جعله مساوياً لقتل النفس، قال تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[٢٢٤].

خامساً: تحطيم دين الناس ودنياهم

ونتيجة لشدة ظلم الحكم الأُموي الذي يشمل دين الناس ودنياهم، فلا يسلم من ظلمهم أحد، حتى يقوم الباكيان، باك يبكي لضياع دينه، وباك يبكي لضياع دنياه، فالفتنة عامة لا يسلم منها صاحب دين ولا صاحب دنيا.

سادساً: استعباد الناس.

ومن سمات الحكم الأُموي وسياستهم الغاشمة أنهم سيحولون الناس إلى عبيد لهم، بحيث لو حاولوا الانتصار لأنفسهم والتخلص من حكومتهم الظالمة، فإنه سيكون كانتصار العبد من سيده، فالعبد محكوم ومملوك ليس له إلا أن يعبر عن آيات الطاعة والخضوع لسيده.

سابعاً: شيوع ظاهرة النفاق

إن سياسة الإرهاب والتخويف الشديد تؤدي إلى شيوع ظاهرة النفاق في المجتمع. فيتظاهر الناس بالطاعة في حضور الحاكم الظالم، ويغتابونه إذا غاب عنهم. وعندما يضطر الإنسان إلى العمل على خلاف قناعاته بسبب الخوف، تمسخ شخصيته ويتحول إلى مواطن سلبي في المجتمع.

ثامناً: استهداف المتدينين

وعندما تستحكم سلطة النظام الغاشم، تقوم باستهداف أهل الصلاح والدين في

٢٢٤. النساء: ٦٦.

المجتمع حتى يكونوا أعظم الناس عناء فيه. وهكذا سيكون حال المؤمنين في ظل حكومة بني أمية كما يستقرئها أمير المؤمنينعليه السلام.

وأخيراً يقدم عليعليه السلام المنهج في مواجهة مثل هذه الحكومة الظالمة التي لا يستطيع الناس مواجهتها والثورة عليها، وهو القبول بالعافية إن أتاهم الله تعالى بها، وبالصبر في حال الابتلاء، فإن العاقبة للمتقين لا محالة، وحينئذ سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

ويقول أمير المؤمنينعليه السلام أيضاً في إشارة إلى هذه الحقيقة: «لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة»[٢٢٥].

إن المنظومة القيمية هي التي لا تسمح لعليعليه السلام أن يمارس الغدر والدهاء، لأن الغدر فيه فجور وخروج عن جادة الصواب، والفجور يؤدي إلى الكفر. فإن لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، وهم مصنفون حسب أنماطهم، ومن أشد ما يواجهه الإنسان يوم القيامة هو الفضيحة، والفضيحة في الدنيا لا تكون إلا في مساحات محدودة، ومع ذلك فهي محرجة ومريرة، فكيف بالإنسان حينما يفضح أمام الخلائق جميعاً، وهي تتفرج على ما يصدر منه؟!.

ثم يقسم أمير المؤمنينعليه السلام أنه لا يمكن أن يستغفل بمكيدة، لأن القيم والمبادئ التي يحملها الإمام عليعليه السلام والقيود والمحددات غير الموجودة عند الآخرين الذين يبطشون ويعتدون، لا تسمح له أن يمارس الغدر. كما أنهعليه السلام لا يستغمز بالشديدة، أي لا يمكن أن يخاف من الجيوش والقوة والأجهزة الأمنية، ولكن المنظومة القيمية هي التي تجعل الإمام عليعليه السلام يتعامل بهذه الطريقة وليس تلك.

العارض الثاني : حالة الغرب

وهي حالة الحدة والغضب والانفعال والأنانيات، بما تتضمنه من التعسف والشدة والغلظة والحدة، وكأن المسؤول له الحق في أن يشتم ويسب ويهين من يشاء،

---

٢٢٥. نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٠.

ويطلق على هذه الحالة في اللغة: الغرب. ونلاحظ مثلاً أن أباً قد يؤذي ويعذب أبناءه في البيت، فليس لهذا الامر علاقة بحجم المسؤولية، فقد يكون هناك شخص مسؤول عن الآلاف من الناس ولا يبتلى بهذا العارض.

ونلاحظ هنا أهمية وضرورة أن يتحلى المسؤول بسمات ضبط النفس، والتعامل بهدوء وحكمة، والخلق الحسن في التعامل مع من هو مسؤول عنهم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢٢٦].

الآية الكريمة خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أشارت في فقرتها الأولى إلى أهمية اتصاف المسؤول بحالة اللين، أي لو كنت يا رسول الله صلى الله عليه وآله قاسياً مع الناس لتفرق الناس من حولك. ولذلك فإن هذا اللين وهذا التعامل الطيب مع هؤلاء الناس هو السبب في التفافهم حولك، وبقائهم قريبين منك، وفي التزامهم بتوجيهاتك.

إن التعامل باللين مطلوب ولو كان المسؤول معصوماً ونبياً مرسلاً، بل حتى لو كان خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وآله فهو محتاج إلى هذا التعامل اللين، وإلا لانفضت الناس من حوله، فما بالك بمن هو دونه في المواصفات؟!.

وأشارت الآية في فقرتها الثانية إلى أهمية المشورة وتعليمهم المشاركة في الرأي والقرار. فالشراكة في القرار مبدأ قرآني حتى لو كان المسؤول والقائد نبياً مرسلاً كرسول الله صلى الله عليه وآله، فعليه أن يشرك الآخرين ويتشاور معهم.

وأشارت الآية في فقرتها الثالثة إلى أهمية العزم والتوكل الذي ينبغي أن يتصف به المسؤول، فهي تخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله ألا يتردد، وأن عليه بعد المشاورة ثم العزم، التوكل والمضي في اتخاذ القرار؛ لأن القرار القيادي هناك دائماً من يعارضه، فإن وقف عند كل معارضة وعند كل حديث فإنه لا يستطيع اتخاذ

٢٢٦ .. آل عمران: ١٥٩.

القرار، ولا يستطيع أن يخطو خطوة. فيا رسول الله بعد أن أخذت هذه الإجراءات فامض على بركة الله، واعلم أن الله يحب المتوكلين.

ويقول أمير المؤمنينعليه السلام أيضاً في تأييد هذا المعنى:«الخرق شر خُلق»[٢٢٧]، أي أن الخرق وحالة الحدة والشدة شر خُلق؛ إذ من أسوأ الأخلاق أن يكون الإنسان شديداً وأن يكون عنيفاً وغليظاً في التعامل مع الآخرين.

ويقولعليه السلام أيضاً: «من خشنت عريكته افقرت حاشيته»[٢٢٨]، أي قلت جماعته، وقل أنصاره يوماً بعد آخر وذهبوا إلى غيره ولا يبقى معه أحد. فلا تستطيع الناس تحمل الشدة والغلظة. بل تريد محبة ولطفا ورعاية.

ويقول أمير المؤمنينعليه السلام أيضاً في حكمة له: «استعمل العدل واحذر العسف والحيف، فإن العسف يعود بالجلاء، والحيف يدعو إلى السيف»[٢٢٩]. يدعو أمير المؤمنينعليه السلام الحاكم والمسؤول إلى اتباع العدل، ويحذر من استعمال التعسف، وهو التعامل بالشدة والغلظة بغير وجه حق، ومن استخدام الحيف وهو الخروج من العدل، فإن العسف يعود بالجلاء، أي أن الضغط المستمر على الناس يسبب هجرة الناس؛ لأن الجلاء يعني الهجرة. والحيف يدعو إلى السيف، فإذا تجاوز الحاكم والمسؤول العدل وظلم الناس فإن المظلوم سيقف بوجهه؛ لأن الضغط المستمر سوف يوصل الناس إلى مستوى من الاحتقان يجعلها تثور.

وقد لاحظنا ما حصل مع أبناء شعبنا وكيف نهضوا بوجه الطاغية صدام، ونلاحظ اليوم التحولات الكبرى في بعض بلادنا العربية وكيف وقفت شعوبها ضد حكام ظلموها وابتزوا حقوقها واعتدوا عليها. ومهما كان الزعيم والمسؤول قوياً ومتفرعناً، فإن الشعب حينما تكون عنده الإرادة الجماعية، لا تقف بوجهه الدبابات ولا الجيوش والأجهزة الاستخبارية ولا المنظومات الحديدية.

وورد عن الإمام أبي عبد الله الصادقعليه السلام أنه قال: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: الغضب

٢٢٧ . غرر الحكم ١: ٢٠٠.
٢٢٨ . غرر الحكم ٥: ٣٢٥.
٢٢٩ . نهج البلاغة: الحكمة ٤٧٦.

يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[٢٣٠]. تشبه الرواية الغضب والانفعالات والشدة والقسوة بالخل وكيف أنه يفسد الإيمان الذي هو كالعسل، وتخرج الإنسان عن جادة الصواب مهما كانت الأعمال التي يقوم بها أعمالا صالحة.

وفي رواية أُخرى عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:«مكتوب في التوراة: في ما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه، أكف عنك غضبي»[٢٣١]. فمن يُرد أن يتخلص من غضب الله عز وجل، فليكظم غيظه ويمسك أعصابه حينما يتعامل مع من هو مسؤول عنهم. وكذا ينبغي على المسؤول أن يتعامل مع من هم تحت مسؤوليته.

في رواية أُخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال:«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كف نفسه عن أعراض الناس أقاله الله نفسه يوم القيامة، ومن كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة »[٢٣٢].

تتحدث الرواية عن ظاهرتين خطيرتين في المجتمع، الأُولى هي ظاهرة الغيبة والبهتان، وتقول إذا كف الإنسان لسانه عن هتك أعراض الناس وكشف ما أخفوه وستره الله تعالى عليهم من العيوب؛ كان الله تبارك وتعالى بنفسه هو من يقيله من أخطائه يوم القيامة ويعفو عنه. وهذه ظاهرة سيئة، فحينما يطلع شخص على خطأ أو ذنب لشخص آخر، فالمفروض منه الستر والحفاظ على حرمة الناس ولا يجوز له إشاعتها.

والظاهرة الثانية التي تتحدث عنها الرواية هي ظاهرة الغضب، وتقول ان من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة، ومن كف الله تعالى عنه غضبه دخل الجنة وكان من الفائزين. وهكذا يكون الطريق إلى الله من خلال خدمة العباد والتواضع للناس والعمل الصالح لهم والتعامل الرقيق معهم.

العارض الثالث :عزوب العقل

---

٢٣٠. الكافي ٢: ٣٠٢.
٢٣١. الكافي ٢: ٣٠٣ ح٧.
٢٣٢. الكافي ٢: ٣٠٥ ح ١٤.

وهو ضياع العقل، فيصبح المسؤول في حركته غير خاضع لمعايير العقل والمنطق، وتكون قراراته ارتجالية وليس فيها عقل أو دراية أو منطق بسبب ما يدخله من العجب.

فقد يظن الإنسان أنه إذا كان في موقع مسؤولية معينة يكون قراره صائباً، وهنا يتبين أن من عوارض السلطة غياب العقل، وهذا ما يلاحظه الإنسان أحياناً في قرارات مصيرية لحكام وامبراطوريات نقرأها في التاريخ، كأن تكون قرارات لدول عظمى أو قرارات لمجلس الأمن، ومع ذلك نراها غير خاضعة للمنطق وليس فيها حكمة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رصد هذه الظاهرة: «عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله»[٢٣٣]، فإذا كان الحسد هو تمني زوال نعمة الغير، فإن العجب هنا يمنع الإنسان عن استعمال عقله، وحينئذ تصبح قراراته ارتجالية ويبادر إلى اتخاذ مواقفه بمعزل عن العقل والتدبر.

ويقول عليه السلام أيضاً: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير»[٢٣٤]، أي أن الهوى والشهوات وحب الذات تصبح هي الأمير، ويصبح العقل أسيرا لها، فتكون قراراته ومواقفه في حدود ما تأمره وتنهاه، ولا يستطيع الخروج عن إرادتها.

علاج أمراض السلطة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بخطبة الوسيلة: «أيها الناس من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يأسف على ما في يد غيره ، ومن سل سيف البغي قُتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسي زلته استعظم زلل غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل»[٢٣٥].

تناول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع من خطبته مجموعة من النصائح الأخلاقية

٢٣٣ . نهج البلاغة: الحكمة ٢١٢.
٢٣٤ . نهج البلاغة: الحكمة ٢١١.
٢٣٥ . الكافي ٨: ١٩.

التي ينبغي على الإنسان الالتزام بها، لئلا يقع في تبعات مخالفتها وآثارها، إلى أن يصل في أُخراها إلى موضع الشاهد، وهو خطر العجب.

وأُولى هذه الوصايا هي أن ينشغل الإنسان بالنظر في عيوب نفسه، فإن فعل ذلك انشغل عن عيوب الناس؛ لأن ما هو فيه من العيوب يكفيه عن ذكر عيوب الآخرين.

وفي رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[٢٣٦]. فالأفضل أن يشتغل الإنسان بنفسه لينظر ما هي عيوبه وما هي أخطاؤه ويهتم بتصحيحها وإصلاحها، فهو أفضل من ترصد عيوب الآخرين.

وثانيتها هي أن الإنسان إذا قنع برزقه لم ينظر أسفاً الى ما في أيدي الناس من النعم التي يفتقدها، وعاش سعيداً في دنياه.

وثالثتها هي أن الشخص إذا شهر سيفه بالاعتداء على الآخرين والإساءة إليهم فقد يستطيع إيذاءهم، وقد يستطيع أن يربك الصورة ويشوش على الحقيقة، ولكن ليعلم أن هذا السيف هو نفسه الذي سيذبحه، وأن الإشاعة التي أطلقها واتهم الآخرين بها في أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم وسلوكهم هي نفسها التي سترجع إليه لتشمله وتستهدفه بسهمها.

فلنحذر من أن نبدأ بالاعتداء على الآخرين؛ لأن «البادئ أظلم»[٢٣٧] كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام.

ورابعتها أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن نصب الشراك ليصطاد بها أخاه، فهو الذي سيقع فيها. وهذه سنة إلهية. ولا يتظن أحد أنه يستطيع الخروج عن هذه السنة؛ لأنه لا تبديل وتغيير في السنن الإلهية.

وخامستها أن من هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ولو ستر المسؤول أعراض الآخرين لستر الله عورته بحكم مسؤوليته، فقد تصل إليك تقارير أمنية عن تفاصيل داخلية، فلماذا يذهب بها إلى وسائل الاعلام ويهتك أعراض الناس بمعلومة قد تكون غير صحيحة، ولكن ليعلم أن هذا الأمر سيرتد عليه.

---

٢٣٦. بحار الأنوار ١: ٢٠٥ ح٣١.
٢٣٧. بحار الأنوار ٧٥: ٣٢٤ ح٢٥.

وسادستها أن من نسي زلته وخطأه استعظم زلل وأخطاء غيره، فالذي لا يرى أخطاءه سوف تكبر في عينه أخطاء الآخرين. ومن تذكر أخطاءه هانت في عينه أخطاء الآخرين.

وسابعتها أن من يعجب برأيه ضل عن سبيل الهدى، وهنا الشاهد، فالإعجاب بالرأي يؤدي إلى الضلال والانحراف وضياع العقل.

وثامنتها أن من استغنى بعقله زل، أي من شعر بالاستغناء عن الرجوع إلى عقول الآخرين ومشاورتهم ابتعد عن طريق الصواب.

وتاسعتها أن من تكبر على الناس أذله الله سبحانه؛ لأن إرادة الله أن تبقى الشعوب عزيزة، وأن يبقى المجتمع هو العزيز والعالي، فمن يريد أن يتكبر على الناس فليترقب الذل والهوان.

الإضاءة الثالثة

طرق السيطرة على عوارض السلطة

وقد استعرضناها في طي الاضاءات السابقة، ونتناول فيها طرق السيطرة على عوارض السلطة والنفوذ، وذلك من خلال الإجابة على الأسئلة التالية: كيف يمكن الحد منها؟ وكيف يمكن علاجها؟ وكيف نمنع من تأثيراتها؟.

وقد جاءت الإشارة إلى العلاج في كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك». فالنظر والتدبر والتفكير في عظمة خلق الله تبارك وتعالى فوقنا، هي التي تجعلنا نسيطر على مشاعرنا ونتجاوز العقبات والتحديات التي تقف في وجوهنا، فإن من لا يستطيع أن يصلح نفسه، لا يستطيع أن يصلح شخصا آخر، فضلاً عن أن يصلح مجتمعا بأكمله.

وإذا أراد المسؤول أن يلتزم الناس بالقانون، فلابد من أن يبدأ من نفسه. وكذا إذا أراد أن يلتزم الناس بالقيم، فلابد من أن يبدأ من نفسه، وحينما يبدأ من نفسه ويصلح سريرته، فحينذاك بإمكانه أن يتوقع إصلاح سريرة الآخرين.

ومن لا يدرك جلال الله وجبروته، ومن لا يستحضر عظمة الله سبحانه وتعالى، لا يستطيع أن يكتشف نفسه وحقيقة وجوده؛ إذ لا يمكن الفصل بين المخلوق وخالقه، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

وكلما تعرف الإنسان أكثر على عظمة الله جل جلاله، تعرف على نفسه وجوهره ووجوده وحقيقته أكثر، ومن لا يدرك حقيقته لا يعرف قيمتها، ومن لا يعرف دوره في هذه الحياة ومنزلته ومكانته في هذا الكون لا يستطيع أن يسيطر على نفسه، وسوف يقع في الزلل والانحراف وسيؤذي الآخرين ويعتدي عليهم، وسوف يصاب بالغرور ولا يرى الدنيا إلا من خلال هذه اللقطة القصيرة التي يراها لنفسه وهو وزير أو مسؤول أو ما إلى ذلك.

فمن لا يعرف نفسه سوف يقع في الغرور وينحرف، ومن ينحرف سوف يهزم من الهوى ومن الحالات النفسية والنرجسيات التي يصاب بها. والمسؤول حينما يكون مهزوماً داخلياً لا يستطيع أن يبعث الأمل والحماسة والحياة في المجتمع وفي من هو مسؤول عنهم، ولذا نرى هذه الحلقات مترابطة.

فالمسؤول إذا أراد النجاح فعليه أن يبدأ من نفسه ويعرف قيمتها ومنزلتها كإنسان وليس كمسؤول، حتى يتلاشى الهوى ويقف أمام العوارض، وحتى يكون قوياً ويمنح القوة للآخرين، ويحقق النجاح في منظومته القيادية، وبدون ذلك لا يمكن أن يتحقق النجاح .

الدرس الرابع والعشرون

تشبه الحاكم بالله في جبروته

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال».

يحذر أمير المؤمنين عليه السلام مالكا الأشتر ويحذر كل مسؤول من خلاله، يتصدى للمسؤولية، أن يسامي ويجاري الله سبحانه في العظمة أو يتشبه بالله سبحانه وتعالى في الجبروت؛ لأن الجبروت والعظمة والفخر لله وحده، فلا يجوز له التشبه بسمات الله سبحانه، وعليه أن يحافظ على تواضعه ويخفض الجناح للناس الذين هو مسؤول عنهم، وهو الشرط السادس من شروط نجاحه في هذه المهمة.

تتناول هذه الفقرة الشريفة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام محذورين مهمين، على الحاكم والمسؤول تجنبهما بشدة؛ لما فيهما من منازعة الله سبحانه وتعالى في سلطانه.

المحذورالأول: مساماة الله

يحذر أمير المؤمنين عليه السلام مالكاً ومن ورائه كل حاكم ومسؤول أن ينافس الله سبحانه في عظمته. والمساماة هي المباراة في السمو والعلو، وهي منافسة الله سبحانه في العظمة، فيختار من الأدوات والسياقات في التعامل مع الآخرين ومع من هو مسؤول عنهم بطريقة فيها العلو والسمو والرفعة والعظمة، وهي لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى وحده.

وعلى المسؤول سواء كان مديراً أو وزيراً أو أميراً أو رئيساً أو ملكاً، أن يضع نصب عينيه أنه مجرد إنسان مخلوق أمام خالقه العظيم، فيجب ألا يصدر منه ما يعتبر منافسة له عز وجل.

المحذور الثاني: التشبه بالله في جبروته

يحذر أمير المؤمنينعليه السلام مالكاً ومن ورائه كل حاكم ومسؤول من التشبه بالله سبحانه وتعالى في جبروته؛ لأن الجبروت لا تنبغي إلا لله وحده. إن هناك بعض المسؤولين ما إن يتسلموا مناصبهم حتى يعمدوا إلى تبديل كل الأثاث بأثاث مذهب يصل سعره إلى عشرات الملايين أو مئات الملايين، في حين أن هذه الأموال هي أموال الشعب وثروته وإمكانياته. لذا يجب على المسؤول ألا يضيع نفسه ويتشبه بالعظمة والجبروت، فهذا شأن الله سبحانه وحده، وليس شأن عباده.

ثم ينتقل أمير المؤمنينعليه السلام إلى بيان مصير الجبارين والمتكبرين في الدنيا والآخرة، فيقولعليه السلام:«فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال». فقد أخذ الله سبحانه وتعالى على نفسه أن تكون نهاية كل من يتظاهر بالجبروت الذل والهوان.

وكم رأينا من رؤساء كان لهم من القصور ما لا يقدر بثمن، وإذا به يجلس في زنزانة وفي قفص في المحكمة! فأين المليارات والقصور! وأين تلك القاعات الفارهة والأثاث الجميل؟!. وبعض الرؤساء مختف لا يعرف مكانه اليوم، بينما كان الناس بالأمس القريب يتدافعون لرؤيته، وإذا هم اليوم يهربون منه لئلا يحسبون عليه!. وهكذا يذل الله عز وجل كل جبار ويهين كل مختال.

والمختال هو المعجب بنفسه، فكل إنسان يعجب بنفسه ويصاب بحالة العجب والنرجسية فإن الله سبحانه وتعالى أخذ على نفسه أن يهينة ويحط من قيمته؛ لكي تبقى هذه الحقيقة ناصعة أمام الناس جميعاً، وهي أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الجبروت والعظمة لله وحده. وهذه هي سنة الله سبحانه وتعالى في الحياة.

ونفهم من هذه العبارة القصيرة عدة أُمور:

أولها: يجب تشخيص العوارض السلبية والأمراض التي تترتب على المنصب وتحمل المسؤولية. فينبغي للمسؤول قبل الجلوس على الكرسي أن يعرف الأمراض الأخلاقية التي من المحتمل أن يصاب بها ليحصن نفسه منها، لأن عدم استحضار هذه العوارض والأمراض سيوقعه في ما لا تحمد عقباه.

فربما يصاب المسؤول بالنرجسية والاعتداد بالذات حتى تصل هذه أحياناً إلى حالة ادعاء الربوبية كما حصل لفرعون، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه الظاهرة: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾[٢٣٨].

وهكذا يؤدي الإعجاب بالنفس إلى الكفر. وهناك من الحكام والطواغيت من لا يقول مثل هذا الكلام ولا يدعي مثل هذا الادعاء؛ لأنهم يعرفون أن لا أحد يقبل منهم ذلك، ولكن سلوكهم وعملهم ومنطقهم وتعاملهم، كلها تؤكد على أنهم يرون ويعتقدون بذلك، فسلوكهم سلوك مولى مع عبده، وسلوك مالك مع مملوكه، وسلوك حاكم متسلط مع محكوم أسير بيده.

وهذا السلوك في كثير من الأحيان ـ كما يشير عليعليه السلام ـ لكي يسوقه المسؤول ويقنع به الآخرين يعطيه شيئاً من القداسة ويربطه بالدين والقيم والسماء، ولإشباع أنانيته يحاول أن يكيف ويطوع الموقف الشرعي مع رغباته ونزواته، لا أن يعرض موقفه على الموقف الشرعي والحكم الشرعي.

كما أن الدين واسع في مفاهيمه، والقرآن الكريم تحدث عن كل شيء، فحينما يريد المسؤول أن يقتل، يستحضر كل آيات الجهاد وقتل المشركين ويطبقها على من يستهدف. وإذا أراد أن يصالح يأتي بآيات الصلح والتسامح لتبرير موقفه.

والواقع أن رسول اللهصلى الله عليه وآله قاتل بشروط وضوابط معينة، وصالح بشروط وضوابط معينة أيضاً، ولم يقاتل ويصالح كيفما اتفق. ثم يأتي الحاكم الظالم ويسقط هذه الآيات على مواقفه من غير محددات وضوابط. ولذلك نراه حينما يضغط ويصعد الموقف ضد الآخرين ويزج بهم في السجون، يأتي بآيات من القرآن الكريم تتحدث عن الشدة والغلظة، وفي اليوم الآخر إذا اقتضت المصلحة المصالحة والتحالف، يذهب إلى آيات التسامح والسلام والمحبة ليبرر موقفه. اذن هو ينتقي من الآيات والنصوص ما يحلو له وما يشتهي ويطبقها على مواقفه دون الرجوع إلى ضوابطها وشروطها ومحدداتها.

ويحدثنا عليعليه السلام عن هذا الأمر أيضاً في نص آخر رواه الشيخ الصدوق عن سليم

---

٢٣٨. النازعات: ٢٤.

بن قيس الهلالي، قال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «احذروا على دينكم ثلاثة (نترك الحديث عن الأول والثاني لأنهما خارج موضوعنا)، ورجلاً آتاه الله عز وجل سلطاناً فزعم أن طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، كذب؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فكيف تكون طاعة من هو غارق في أنانيته ومصالحه هي طاعة لله عز وجل؟ وأين يكون قربه من الله تعالى لتكون طاعته من طاعة الله؟ «لا ينبغي للمخلوق أن يكون حبه لمعصية الله، فلا طاعة في معصية، ولا طاعة لمن عصى الله»، أي أن الله تعالى هو الذي ينبغي أن يطاع وليس من يعصيه عز وجل. «إنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، وإنما أمر الله عز وجل بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر»، أي أن عصمة وطهارة الرسول صلى الله عليه وآله هي التي تجعل ما ينطقه الرسول هو ما يريده الله عز وجل، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى × إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[239]. «وإنما أمر بطاعة أُولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته»[240]، فالطاعة لله وحده، والطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام لأنهم معصومون، فالطاعة لهم هي طاعة لله؛ لأنهم لا يأمرون بما فيه معصية لله سبحانه وتعالى.

ثانيها: على المسؤول بحكم مسؤوليته أن يهتم بتدبير الأُمور وتدبير مسارات العمل في مساحة مسؤوليته، فإن من واجب المسؤول أن يضع الخطط والبرامج لإنجاح ما هو مسؤول عنه، فمن واجبه أن يحشد الإمكانات ويعبئ الطاقات لتحقيق الهدف المنشود.

إن على وزير الكهرباء مثلاً أن يضع الخطط والثوابت، وعليه أن يسخر كل الإمكانات المتاحة في هذه الوزارة لتوفير الكهرباء للناس، وعلى وزير التجارة أن يوفر البطاقة التموينية للناس، وعلى وزير الصحة أن يضع الخطط لمستشفيات تعمل بشكل صحيح لتوفير الرعاية الصحية للناس..وهكذا جميع الوزارات.

إن من واجب المسؤول أن يمارس الإشراف والرقابة على سير العمل، ومن واجبه

---

٢٣٩ . النجم: ٣-٤.
٢٤٠ . الخصال ١: ١٣٩. بحار الأنوار ٧٢: ٣٣٧ح٨.

أن يوجه العاملين ليعرفوا واجباتهم ومهامهم حتى يعبئ الطاقات لتحقيق الهدف المرجو، ومن مسؤوليته أيضاً أن يخلق الدوافع ويوجد المحفزات الذاتية التي تجعل الجميع يسعون من أجل تحقيق هذا الهدف، وكذلك من واجبه أن يوجد وينظم علاقات وثيقة مع فريق العمل، فالعلاقة مع فريقه ينبغي ألا تكون علاقة حاكم ومحكوم، ولا علاقة متسلط ومتسلط عليه، بل علاقة راع ورعية، فالمسؤول خادم يخدم والناس هم الرعية، وهم من يستحق هذه الخدمة التي يقدمها المسؤول لهم.

العلاقة السليمة بين القائد والاُمة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة خطبها في صفين في بيان ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم: «إن منْ حَق مَنْ عَظُمَ جَلاَلُ اَلله سُبْحَانَهُ في نَفْسه، وجَل مَوْضعُهُ منْ قَلْبه، أن يَصْغُرَ عنْدَهُ كُل مَا سوَاهُ، وَأن أَحَق مَنْ كَانَ كَذلك لَمَنْ عَظُمَتْ نعْمَةُ اَلله عَلَيْه وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْه، فَإِنهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اَللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلا ازْدَادَ حَق اَللهِ عَلَيْهِ عِظَماً.

وَإن منْ أَسْخَف حَالاَت اَلْوُلاَة عنْدَ صَالح اَلناس أن يُظَن بِهِمْ حُب اَلْفَخْرِ ويُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى اَلْكبْر، وَقَدْ كَرهْتُ أَن يَكُونَ جَالَ في ظَنكُمْ أني أُحب اَلْإطْرَاءَ، وَاسْتمَاعَ اَلثنَاء ، وَلَسْتُ بحَمْد اَلله كَذَلك، وَلَوْ كُنْتُ أُحب أن يُقَالَ ذَلكَ لَتَرَكْتُهُ انْحطَاطاً لله سُبْحَانَهُ، عَنْ تَنَاوُل مَا هُوَ أَحَق به منَ اَلْعَظَمَة والْكبْريَاء، وَرُبمَا اسْتَحْلَى اَلناسُ اَلثنَاءَ بَعْدَ اَلْبَلاَء، فَلاَ تُثْنُوا عَلَي بجَميل ثَنَاء لإخْرَاجي نَفْسي إلَى اَلله سُبْحَانَهُ وَإلَيْكُمْ منَ اَلتقيَة في حُقُوق لَمْ أَفْرُغْ منْ أَدَائهَا، وَفَرَائضَ لاَبُد منْ إمْضَائهَا، فَلاَ تُكَلمُوني بمَا تُكَلمُ به اَلْجَبَابرَةُ، وَلاَ تَتَحَفظُوا مني بمَا يُتَحَفظُ به عنْدَ أَهْل اَلْمبَادرَة، وَلاَ تُخَالطُوني بالْمُصَانَعَة، وَلاَ تَظُنوا بي اسْتثْقَالاً في حَق قيلَ لي، وَلاَ اَلتمَاسَ إعْظَام لنَفْسي، فَإنهُ مَن اسْتَثْقَلَ اَلحَق أَن يُقَالَ لَهُ أو اَلْعَدْلَ أَن يُعْرَضَ عَلَيْه كَانَ اَلْعَمَلُ بهمَا أَثْقَلَ عَلَيْه، فَلاَ تَكُفوا عَنْ مَقَالَة بحَق أَوْ مَشُورَة بعَدْل، فَإني لَسْتُ في نَفْسي بفَوْق أن أُخْطئَ، وَلاَ آمَنُ ذَلكَ منْ فعْلي، إلا أن يَكْفيَ اَللهُ منْ نَفْسي مَا هُوَ أَمْلَكُ به مني، فَإنمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبيدٌ مَمْلُوكُونَ لربٍ لاَ رَب غَيْرُهُ، يَملكُ منا مَا لاَ نَملكُ منْ أَنْفُسنَا،

وَأَخْرَجَنَا مما كُنا فيه إلى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ اَلضلاَلَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا اَلْبَصِيرَةَ بَعْدَ اَلْعَمَى»[٢٤١].

يتناول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع المبارك شكل العلاقة السليمة بين القائد والاُمة، ويبدأ بمقدمة يمهد فيها بيان هذا الموضوع.

يتعرض عليه السلام في المقدمة إلى إيضاح حقيقة مهمة وهي أن من عظم الخالق في نظره صغر في عينه كل ما سواه، وأن أحق من يعظم الخالق في نظره هو من عظمت نعمة الله تعالى عليه. وعلى هذا الأساس فإن من يعظم شيئاً آخر، سواء كان مسؤولاً أو غيره، فهو دليل على صغر الخالق سبحانه في نظره.

والاُمة التي تنظر بتعظيم لحكامها ومسؤوليها قد أخطأت في مسارها، إذ كان ينبغي لها أن تعظم خالقها عز وجل، وحينئذ سيصغر هؤلاء الحكام في نظرها. ومن النتائج المترتبة على تعظيم الحاكم هو استخفافه بالناس واستصغارهم، ما يؤدي إلى عدم رعاية شؤونهم وعدم الاهتمام بخدمتهم، بل تحويلهم إلى خدم له.

كما أنه كلما كبرت نعمة الله على الإنسان، ينبغي له أن يشعر بالتصاغر أكثر أمام الله عز وجل ويستشعر عظمته سبحانه أكثر. ولذا فالحاكم والمسؤول الذي وصل إلى هذا المنصب بتوفيق الله تعالى، عليه أن يستشعر عظمة الله سبحانه أكثر من الآخرين.

ثم يتناول أمير المؤمنين عليه السلام بيان ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وقد أوضحها بمجموعة من الاُمور كالتالي:

الأول: حب المديح

إن من أسخف حالات الحكام والمسؤولين أن يظن بهم صلحاء الاُمة أنهم يحبون الفخر والمديح والإطراء، وأنهم من أهل التكبر. ولذا لا ينبغي أن يُشعر الناس بأنه يحب هذه الاُمور، فإن ظن أنهم يظنون ذلك فعليه أن يبين لهم حقيقة شعوره من

---

٢٤١. نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

حب الثناء، كما فعل علي عليه السلام ذلك حينما شعر من الناس أنهم يظنون ذلك فيه، فأنكر أن يوجد فيه وحمد الله تعالى على ذلك.

ثم أوضح أنه حتى لو كان يحب المديح لتركه تواضعاً لله عز وجل الذي هو أحق بالعظمة والكبرياء، وإن الناس بطبيعتهم يحبون أن يُحمدوا على ما يقومون به من أعمال، ولكن علي بن أبي طالب وهو في موقع الخلافة والمسؤولية لا يريد منكم هذا الثناء، وانه ليعاقب نفسه على حقوق يشعر أنه مهما قدم فهو مقصر في أدائها، ويشعر أن هناك واجبات كثيرة لم يؤدها حتى الآن.

وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قدم الغالي والنفيس وبذل كل ما في وسعه من أجل الله ومن اجل الناس، يقول إني أرى نفسي مقصراً في أداء كل الحقوق.

الثاني: عبارات التفخيم

جرت العادة أن يخاطب الجبابرة والفراعنة بأُسلوب خاص وعبارات خاصة تميزهم عن غيرهم، تتضمن الكثير من كلمات التمجيد والتعظيم والتفخيم. وهنا يطلب أمير المؤمنين عليه السلام ألا يخاطب بما تخاطب به الجبابرة. ولذا ينبغي على الحاكم والمسؤول أن ينبه من يستعمل هذا الاسلوب معه على تركه.

الثالث: التحفظ من الكلام

يحذر الناس من الحديث مع أصحاب المبادرة، وهم أهل الغضب، كما يتحدثون مع بعضهم. وهنا يطلب علي عليه السلام ألا يتحفظوا من الكلام كما يتحفظ من أهل الغضب، وأن يسترسلوا بالحديث بحضرتهم وتبيان آرائهم ومشاكلهم.

الرابع: مخالطة المصانعة

يتصنع الناس عادة عند مخالطتهم الحكام الجبابرة ويستعملون معهم حركات معينة تدلل على الخضوع والتملق. ويطلب علي عليه السلام من الأُمة ألا تتكلف معه في حديثها وسلوكها. وهكذا ينبغي أن يكون شأن من هو في مواقع المسؤولية.

الخامس: استثقال الحق

ويجب ألا تظن الأُمة بالحاكم أنه يستثقل سماع الحق وإن كان مراً، ويجب أيضاً

ألا تشعر بأنه يطلب العظمة لنفسه، فيتوقفون في ما يريدون قوله؛ لأن الحاكم والمسؤول إذا استثقل من الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، فإن العمل بهما يكون عليه أثقل. فمن لا يستطيع أن يصغي إلى الحق كيف يستطيع العمل به؟!. وإذا كان غير مستعد أن يسمع الانتقاد من معارضيه، فكيف يمكن له أن يأخذ بالنصيحة ويعمل على تصحيح المسار؟!. ومن لا يقدر على تحمل أن يعرض عليه العدل والإنصاف، فكيف يتوقع منه أن يعمل بهما؟!.

السادس: قول الحق والمشورة بالعدل

يطلب أمير المؤمنين عليه السلام باعتباره حاكماً من الأُمة ألا تكف عن قول الحق والمشورة بالعدل له، أي تقدم له الاستشارة، ولكن بنحو ليس فيه ظلم وإجحاف. ويعلل ذلك بأنه في نفسه ليس فوق أن يخطئ، فهو كشخص وإن كان خليفة للمسليمن، فليس فوق القانون، والمسؤولية لا تعطيه حصانة من الخطأ، فمواقع التصدي لا تمنع الإنسان من أن يقع في الخطأ، وحينما يخطئ المسؤول فإن نتائج خطئه تكون كارثية ما لم يبادر إلى تصحيحها من خلال تنبيه الأُمة له.

ثم يبين بأنه وإن كان حاكماً فليس لديه حصانة عن صدور الخطأ. وقد بين أمير المؤمنين عليه السلام هذا المطلب لئلا يتصور الناس بأن الحاكم والخليفة فوق أن يخطئ كما كان متصوراً آنذاك. ثم يستدرك بأنه معصوم في فعله وقوله عن الخطأ، وذلك بكفاية من الله تعالى له باعتباره مالكاً له، بل الله تعالى أكثر مالكية لأنفسنا من أنفسنا، يتصرف بها كيف يشاء، والله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وإنما الناس جميعاً عبيد مملوكون لرب الأرباب الذي لا رب سواه، وهو الذي يخرجنا مما كنا فيه إلى ما فيه صلاحنا، وهو الذي أبدلنا بالهدى بعد الضلالة وبالبصيرة بعد العمى.

فكل من يفكر بشكل صحيح ويتحدث بشكل مؤثر ويخطو خطوات جريئة صحيحة، فإن كل ذلك إنما هو بتوفيق من الله تبارك وتعالى، وهو الذي جعل في ذلك البركة والتوفيق، فكل خير من الله، وكل شر مردود علينا وعلى أنفسنا نتيجة تقصيرنا.

ولو شاعت هذه الثقافة بين المسؤولين فإن البلد يصبح في خير وازدهار، فالمسؤول

يتواضع ويسمع ويأخذ الكلام من الآخرين ويصحح مواقفه ويكون في خدمة الناس، وهذا هو الإسلام، وهذه هي النظرية الإسلامية في إدارة الدولة وتحمل أي مسؤولية من المسؤوليات. ولذلك إذا حصلت مشكلة فهي منا، وليس من ديننا وإسلامنا، ويجب ألاّ نحمل تبعات أخطائنا على الدين، بل الخطأ نتحمله نحن؛ لأن الخطأ حينما يحصل فهو يعني أننا ابتعدنا عن الإسلام وتعاليمه، ولو أخذنا بهذه التعاليم لكانت الأُمور مختلفة.

ويشير أمير المؤمنينعليه السلام إلى العوارض المترتبة على حالة النرجسية والتشبه بجبروت الله سبحانه في هذه العبارة: «فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال». والله سبحانه وتعالى يمهل، ولكنه في هذه القضية لا يمهل فيها، بل يذل الحاكم والمسؤول الجائر في الدنيا قبل الآخرة، ويريه نتائج الكبرياء أو التكبر الذي تلبس به.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في الخطبة القاصعة:«الْحَمْدُ لله الذي لَبِسَ الْعز وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لنَفْسه دُونَ خَلْقه»، فهذه الأشياء لا يعطيها الله سبحانه لغيره، بل هي من شأنه وَحَده.«وَجَعَلَهُمَا حمىً»، والحمى هو الحماية من وصول الآخرين إليه، «وَحَرَماً عَلَى غَيْره»، أي حرمهما على الآخرين ومنع من الوصول إليهما. «وَاصْطَفَاهُمَا لجَلاَله وَجَعَلَ اللعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فيهِمَا منْ عبَاده»[٢٤٢]، فكل من ينازع الله سبحانه وتعالى في الكبرياء والعز فإن الله سبحانه وتعالى ينتقم منه ويعاقبه، نستجير بالله من ذلك ونسأل الله أن يهدينا إلى سبيل الرشاد .

٢٤٢-. نهج البلاغة : الخطبة ١٩٢.

المقطع السابع

إنصاف الحاكم وظلمه

الدرس الخامس والعشرون

إنصاف الله وإنصاف الناس

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إن لا تفعل تظلم».

يبدأ أمير المؤمنين عليه السلام هذه الفقرة في حديثه عن الإنصاف بإنصاف الله تبارك وتعالى، فهو الأولى بالإنصاف قبل غيره؛ لأنه الخالق والمنعم والذي بيده كل شيء. ويتحقق إنصاف الله تعالى بأداء حقوقه، وأهمها حق العبودية له سبحانه وتعالى، وحق شكره على نعمه التي لا تحصى، وحق الصبر على بلائه. ثم يتحدث في الفقرة الثانية عن إنصاف الناس، وعن المحسوبيات والمنسوبيات، وعن الظلم والإجحاف الذي يتعرض له المواطنون من المسؤول، وعن أهمية الإنصاف الذي ينبغي أن يتصف به الحاكم والمسؤول.

الملازمة بين إنصاف الله وإنصاف الناس

ويمكن استشفاف هذه الملازمة من قوله عليه السلام:« أنصف الله وأنصف الناس»، وكأن هناك ملازمة بين الأمرين؛ إذ كيف يمكن إنصاف الناس دون أن يكون هناك إنصاف لله سبحانه وتعالى؟، وكيف يتحقق الإنصاف لله من دون مراعاة للناس وحل مشاكلهم ومعالجة همومهم؟، فهناك نوع من الترابط بينهما، فمن يريد رضا الله سبحانه يجب عليه مراعاة الناس.

إنصاف الناس من النفس

ويبدأ المسؤول بإنصاف الناس من نفسه أولاً، فيجب أن تكون امتيازاته ومخصصاته وحياته الخاصة وطريقة تعامله في أُموره وشؤونه قريبة من حالة الناس. أن يكون الإنسان مسؤولاً لا يعني تجاوز القانون في ما يلزم الآخرين بتطبيقه، فالأولى أن يلتزم هو بالقانون. وفي ما يريده ويتوقعه من المواطنين، يجب أن يرى نفسه أولاً؛ هل يطبق هذا الأمر لكي يتوقع من الآخرين العمل به؟.

إنصاف الناس من الأهل

لا يكفي أن يكون المسؤول منصفاً للناس من نفسه، بل يجب أن يكون منصفاً للناس أيضاً من أولاده وأقربائه وأرحامه، فلا يدعوه حب الأهل والعشيرة إلى الوقوف إلى جانبهم ضد الآخرين.

إنصاف الناس من الأصدقاء

قد يكون للمسؤول بعض الناس الذين له فيهم هوى، وهم من جماعته أو حزبه أو طائفته أو قوميته، فهؤلاء أيضاً يجب أن يكون منصفاً للناس منهم، فلا يميزهم في التعامل عن الآخرين.

فإن لم ينصف الناس من نفسه وأهله ومن له فيه هوى يكون قد وقع في الظلم، فليس هناك محسوبيات ومنسوبيات، بل هناك ضوابط ومعايير يجب أن تنطبق على الجميع من المسؤول وذويه وجماعته إلى عموم الناس.

وهذه هي رؤية الإسلام في الإدارة والقيادة، التي من أهم ميزاتها عدم التمييز بين المسؤول وسائر الناس.

ونستفيد من هذه الكلمات المعبرة لأمير المؤمنين عليه السلام مجموعة من الإضاءات:

الإضاءة الأُولى

أهمية الإنصاف في العلاقة بين المسؤول والناس

يجب على المسؤول عدم استغلال الموقع للوصول إلى مآرب خاصة وشخصية، وعدم التعدي على الآخرين؛ لأن المسؤول لديه وجاهة وتأثير ويستطيع تمييز نفسه عن الآخرين. وهذا هو منهج عليعليه السلام، وهذه هي أهمية الإنصاف في نجاح العملية القيادية والإدارية.

الإنصاف زينة الحكم

يقول عليعليه السلام في إحدى حكمه في تأييد هذا المعنى:« الإنصاف زين الأُمره»[٢٤٣]، فزينة المسؤولية والأُمره هو الإنصاف في التعامل مع الآخرين، وهذا الإنصاف يخلق حالة من المحبة والمودة والتقارب بين المسؤول والناس. فالناس حينما ترى مسؤولا يخدم الجميع، وينصف الناس من نفسه ولا يفرق بينهم، فإنهم سيحترمونه ويحبونه ويتقربون منه، ولا تبقى فجوة بينه وبين عموم الناس.

الإنصاف يوجب المحبة والإلفة

يقول عليعليه السلام: «الإنصاف يؤلف القلوب»[٢٤٤]. ويقولعليه السلام أيضاً: «الإنصاف يستديم المحبة»[٢٤٥]، فالقلوب تتآلف وتتقارب من خلال الإنصاف. ويقولعليه السلام أيضاً: «الإنصاف يرفع الخلاف ويوجب الائتلاف»[٢٤٦]، وهذه هي فائدة الإنصاف العظيمة، فهو الذي يجمع أبناء الأُمة ويوحدها رغم اختلاف آرائها وقومياتها ومذاهبها.

الإنصاف يوجب الثقة

الإنصاف يوجد أيضاً حالة من الثقة بين المسؤول وبين الناس، وكلما كان المسؤول أكثر إنصافاً، كانت ثقة الناس به أعظم وأشد. يقول علي عليه السلام: «أنصفوا الناس

٢٤٣. غرر الحكم ١: ٢٣٠.
٢٤٤ غرر الحكم ١: ٢٩٤.
٢٤٥. غرر الحكم ١: ٢٦٩.
٢٤٦. غرر الحكم ٣: ٣٠.

من أنفسكم يوثق بكم»[٢٤٧]، إذا أراد المسؤول أن يكسب ثقة الناس فعليه بانصافهم؛ فالإنصاف هو طريق الثقة، وإن فقدت فهذا يعني أن الإنصاف غير موجود؛ لأن الإنصاف أينما حل تحل الثقة معه.

الإنصاف حق المسؤولية

يقول أمير المؤمنينعليه السلام مخاطباً عماله على الخراج في رسالة طويلة، منها: «فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم؛ فإنكم خزان الرعية، ووكلاء الأُمة، وسفراء الأئمة، ولا تحشموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته»[٢٤٨].

يتطرق أمير المؤمنينعليه السلام في الجملة الأُولى من هذه الفقرة إلى أن المسؤولين هم خزان الرعية، أي أن هذه الأموال التي في أيدي الدولة هي أموال الشعب، والحاكم والمسؤول مؤتمن عليها من الشعب، وقد أعطاه مفاتيح الخزينة بعد أن وثق به، فلا يعني وجود المفتاح بيده أن يمد يده ويأخذ منها ما شاء، فهذه أموال الشعب، وما هو إلا مؤتمن عليها، ولا يعني أيضاً أن ينفق هذه الأموال بمزاجه؛ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بل هذه الأموال هي أموال الشعب ويجب أن تصرف بعدل وإنصاف على الشعب نفسه.

ثم يصفعليه السلام المسؤولين في الجملة الثانية بأنهم وكلاء الأُمة، أي أنهم ممثلون عن الناس. يا عضو مجلس النواب ويا وزير ويا عضو مجلس المحافظة إنما أنتم وكلاء عن الناس تمثلونهم، فكل عضو في البرلمان هناك مائة ألف انتخبوه، وهم من يقف له على الصراط يوم القيامة يطالبونه بحقوقهم.

ثم يصف المسؤولين في الجملة الثالثة بأنهم سفراء الأئمة، أي أنهم يمثلون الحاكم والمسؤول الأول في الدولة، وأن أي تصرف منهم سينعكس على هذا الحاكم سواء كان حسناً أو سيئاً، ولذا ينبغي عليهم انطلاقاً من هذه السفارة أن يكونوا حريصين على تحقيق الإنصاف في تعاملهم مع الناس.

---

٢٤٧ . تحف العقول: ١٤٩.
٢٤٨ .نهج البلاغة: الرسالة ٥١.

ثم يطلب عليه السلام من موظفيه ألاّ يحشموا أحداً عن حاجته، أي لا يغضبوا أحداً، فهناك من الموظفين من يتفنن في كيفية إيجاد مشكلة بسيطة لعرقلة أمر الناس، وهناك من يتفنن في تمشية أُمور الناس وحل مشاكلهم والبحث عن ثغرات قانونية لحل مشاكلهم ومعالجة قضاياهم وفق القانون، فالقانون واسع وفيه الكثيرمن الفرص.

ثم يطلب عليه السلام منهم ألاّ يحبسوا أحداً عن طلبته، أي إذا كان لديه مطلب فلا تضيقوا عليه، فأي مطلب مشروع للمواطنين يجب أن يقضى، وأي حاجة صحيحة للمواطنين يجب أن تلبى، فقوة المسؤول ليست بتعطيل أُمور الناس، بل قوته في كيفية تمشية أُمور الناس وتسهيلها لهم وتخفيفها عليهم، وخاصة في مثل هذه الظروف الصعبة، ويجب ألاّ تتحول البيروقراطية الإدارية إلى معضلة تجعل المواطن يشعر بالعجز عن حل مشكلته.

الإضاءة الثانية

مساحة الإنصاف

لا تنحصر مساحة الإنصاف بالمسؤول نفسه، وإنما تمتد لذويه ولجماعته، فحينما يعتبر المسؤول نفسه غير معني بجماعته، لا تكفي نزاهته بذريعة أنه لا تزر وازرة وزر أُخرى. كلا، بل هذا وزرك أيضاً، لأن هذا من جماعتك. فإن كان لا يدري فيجب عليه أن يدري، وإذا عرف المشكلة في جماعته فيجب عليه حلها، وينبغي أن يكون أقسى على القريبين منه من الآخرين، فنحن بحاجة اليوم إلى حزم وشدة من المسؤول تجاه جماعته خاصة قبل الآخرين، وحينما يرى الآخرون أن المسؤول قام بتوبيخ وعقوبة المقربين منه حينما أساؤوا وأخطؤوا، فإن الأُمور تسير وتتعالج لوحدها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رسالة له لواليه على البصرة عثمان بن حنيف: «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولُباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمن من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً

وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة... وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي أن يقال هذا أمير المؤمنين«، فهل يقتنع الحاكم من نفسه بأن تضفى عليه الألقاب كفخامة الرئيس ودولة الرئيس ومعالي الوزير، «ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش؟!»[٢٤٩]. فالمسؤول لا يكون مسؤولاً إلا إذا اهتم بالناس وعاش ظروفهم وحينها يشعر الناس بالثقة.

ونلاحظ اليوم مراجعنا العظام تجبى لهم الحقوق الشرعية، وهي أموال طائلة ينفقونها على المصالح العامة، ولا يأخذون منها ألا القليل لمعيشتهم، وأغلب مراجعنا يعيشون في بيوت مستأجرة أو صغيرة وقديمة وأثاثها بسيط، هكذا هم يعيشون ويتعاملون، وحري بنا أن نطبق هذا المنهج العلوي في حياتنا.

وروى بكر بن عيسى قال: كان علي‌عليه السلام يقول: «يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فأنا خائن». إذن علي‌عليه السلام هو أول مسؤول قدم لائحة بممتلكاته، وهي راحلة ورحل وغلام. «وكانت نفقته تأتيه من غلته في المدينة بينبع»، أي أن نفقاته الشخصية والبيتية لا يأخذها من بيت المال، بل كانت تأتيه من مزرعته بينبع. «وكان يطعم الناس الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت»[٢٥٠]، والثريد هو الخبز اليابس المبلل بالزيت. لقد كان الخبز اليابس قوت علي بن أبي طالب‌عليه السلام، والخبز الجيد واللحم للمواطنين.

هذا هو منطق علي‌عليه السلام، وهذا هو منهجة وعدالته، فلقد كان منصفاً ولذلك أصبح اسطورة، نسأل الله أن يجعلنا من السائرين على نهجه ومنواله.

---

٢٤٩ . نهج البلاغة: الرسالة ٤٥.
٢٥٠ . بحار الأنوار ٤١: ١٣٧.

الدرس السادس والعشرون

ظلم الناس

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن كان خصمه الله دحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع أو يتوب».

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرة من عهده لمالك الأشتر عن طبيعة المحسوبيات والظلم الذي قد يمارس من المسؤول تجاه من هو مسؤول عنهم. وهنا يوصي أمير المؤمنين عليه السلام مالكا بالإنصاف مع الناس، ويتمثل هذا الإنصاف بعدم توظيف الموقع الذي هو فيه لمصلحته الخاصة.

وقد يكون المسؤول نفسه نزيهاً، ولكن أولاده أو أقرباءه غير جيدين وغير نزيهين، فلا يكفي أن يكون الإنسان نزيهاً؛ لأنه مسؤول عن خاصة أهله، وممن له فيه هوى من رعيته. وقد لا تكون لأولاده وأقربائه مشكلة في هذا الاطار، ولكن المشكلة في حزبه وعشيرته والناس المحسوبين عليه، وهؤلاء قد يسيئون وقد يظلمون، وحينها يكون المسؤول ظالماً أيضاً. فالمسؤول بحكم مسؤوليته ليس مسؤولاً عن نفسه وحدها، بل هو مسؤول عن نفسه وعن الناس الذين أتى بهم وجعلهم معه في المكان الذي يشغله . وإذا لم ينصف الناس فهذا هو الظلم بعينه.

ويتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في الجملة الأُولى من هذه الفقرة عن أن الله تعالى لا يترك المظلوم حتى يأخذ له بحقه، وأنه تعالى شأنه ينتصر للمظلوم فيكون خصماً لظالمه وينتقم منه.

ويبين عليه السلام في الجملة الثانية أن من كان خصمه الله دحض الله حجته وأبطلها واتضح زيف ما يحتج به لظلمه. ثم يكون هذا الظالم لله حرباً حتى يدركه الموت أو يتوب من ظلمه.

وهناك مجموعة من الإضاءات يمكن استفادتها من هذا الكلام المبارك.

الإضاءة الأُولى

مكانة المسؤول الظالم وموقعه عند الله

وإن من أصعب الأُمور أن يكون الإنسان في موقع الظلم لعباد الله، وموقع الخصومة مع الله تعالى؛ لأنه عالم بكل شيء وحسابه عسير وعذابه أليم، ولذلك فإن أشد الخصومات هي الخصومة مع الله تعالى، حتى أن أُسرة الإنسان أو جماعته أو حزبه حينما يمارسون الظلم فإنه يكون ظالماً أيضاً.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره»[٢٥١]. أي أن للظالم عذابين: عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة، فالله تعالى ينتقم من الظالم في الدنيا والآخرة.

وكم رأينا من الطغاة وكثير من الناس ممن لهم مظالم بمستويات أقل، قد أذاقهم الله سبحانه ألوان العذاب والمصائب في الدنيا.

روى الشيخ الكليني قال: صعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر في الكوفة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إن الذنوب ثلاثة، ثم أمسك. فقال له أحد الجالسين: يا أمير المؤمنين قلت الذنوب ثلاثة ثم أمسكت. فقال: ما ذكرتها إلا وأنا أريد أن أفسرها، ولكن عرض لي بغر حال بيني وبين الكلام. نعم، الذنوب ثلاثة: فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه. قال: يا أمير المؤمنين بينها لنا. قال عليه السلام: نعم، أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين.

وأما الذنب الذي لا يغفره فمظالم العباد بعضهم لبعض،إن الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال: وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كف بكف، ولو مسحة بكف، ولو نطحة ما بين القرن إلى الجماء حتى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثم يبعثهم للحساب.

---

٢٥١ . كنز العمال ٣: ٥٠٦ ح ٧٦٤١.

وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه خائفاً من ذنبه راجياً لربه، نحن (أهل البيت) له كما هو لنفسه نرجو له الرحمة ونخاف عليه من العذاب»[٢٥٢]. والبغر: حالة انقطاع النفس من الإعياء والتعب، فحينما يستذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه الأقسام الثلاثة من الذنوب تحصل عنده حالة من الرعب والخوف من الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر عليه السلام الأقسام الثلاثة، أما الذنب الأول فهو الذنب المغفور، وهو الذنب الذي ينال الإنسان عقوبته في دار الدنيا، وإذا أراد الله تعالى أن يتفضل على عبد عاقبه في الدنيا على ذنوبه، فمثلاً يصاب الإنسان أحياناً بالمرض لتخفيف الذنوب، وقد يصاب بالمرض أحياناً لرفع الدرجات. فالبلاء والحزن والهم والمصيبة والعناء كلها وسائل لله تعالى يخفف بها عن عباده، فيعاقبهم بها في الدنيا.

وأما الذنب الثاني فهو الذنب الذي لا يغفره الله سبحانه، وهي مظالم العباد بعضهم لبعض، ويقتص الله تعالى من أصحابها في الدار الآخرة. ثم يحكي عليه السلام مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهي أن الله تعالى إذا برز الناس للحساب يقسم قسماً على نفسه بأن يقتص لكل مظلمة وإن كانت صغيرة، ولو كانت نطحة ما بين القرن إلى الجماء، والجماء: هي الشاة التي ليس لها قرن، في إشارة إلى الاعتداء على الإنسان البريء الذي لا يحمل السلاح.

وأما الذنب الثالث فهو الذنب الذي يرجى لصاحبه الرحمة، إن ستر الله تعالى عليه ورزقه التوبة منه، أو يخاف على صاحبه منه وهو الذنب الذي لم يرزق التوبة منه. فقد يذنب الإنسان ثم يتكرم الله تعالى عليه، ويلتفت ذلك الإنسان ويظهر الندم على ما أذنب ، وتدمع عينه وينكسر قلبه ويتوب إلى الله، ويكون عنده رجاء أن يصفح الله تعالى عن خطيئته، ولكنه في نفس الوقت يبقى خائفاً من ألاّ يغفر له الله تعالى ذنبه. وأهل البيت عليهم السلام هذه طريقتهم ومنهجهم مع أوليائهم ومع الناس ، وهكذا يتعاملون .

---

٢٥٢ . الكافي ٢: ٤٤٣.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أُجر في الأغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى أفولها، ويطول في الثرى حلولها».

«..والله لو أُعطيت الأقاليم بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ، ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى! نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل »[٢٥٣].

لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام هذه الكلمات في خطبة له وتعرض فيها لما جرى له مع أخيه عقيل عندما جاءه ملتمساً بعض المال لكثرة عياله، وقد اعتذر له عليه السلام بأنه لا يملك مالا ليعطيه ولكن لينتظر إلى حين حلول العطاء من بيت المال فيعطيه حصته أيضاً، ولكن عقيلاً أراد شيئاً من بيت المال، فأحمى له علي عليه السلام حديدة وقربها من يده فأمسكها عقيل ـ وكان بصيراً ـ ظناً منه أنه مال، فأنّ من ألمها.

ومعنى الحسك أي الشوك، والسعدان نوع من الزهور ذات أشواك. ومسهداً من السهاد وهو عدم النوم، والمسهد هو الممنوع من النوم. والأغلال: القيود، ومصفداً أي مقيداً. والمعنى: لو أني نمت على الشوك وسُلبت الراحة مني، لهو أحب إلي من أن أقع في ظلم أحد من عباد الله، أو أغصب شيئاً من الحطام، فأمد يدي إلى أموال الناس والمال الحرام.

وكيف يمكن أن أظلم أحداً من أجل نفسي التي تسرع إلى الهرم والشيخوخة، وأضحي بربي وبآخرتي من أجل نفس تسرع إلى الضعف والوهن والموت، ويطول في التراب بقاؤها؟! إذ يعمر الإنسان في الدنيا خمسين أو مئة عام، ولكن تبقى النفس في التراب آلاف السنين.

ثم يقسم عليه السلام بلفظ الجلالة بأنه لو أعطي ملك الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن يعصي الله في نملة يسلبها حبة شعير لما فعل. ثم يبين عليه السلام قيمة الدنيا

٢٥٣ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤،

عنده بأنها لا تساوي شيئاً أبداً. ثم يقول ما له ولنعيم فان ولذة زائلة. ثم يتعوذ بالله من نوم العقل وقبح الخطأ.

الإضاءة الثانية

سقوط الذرائع من يد المسؤول

إن المسؤول حينما يظلم لن يكون له أي تبرير أو حجة أو دليل، والسبب في ذلك أن المسؤول بحكم موقعه وهو يملك السلطة والنفوذ يستطيع أن يضغط على من هو دونه في مساحة مسؤوليته ويسيء إليه، كما أنه أقدر على الظلم من الإنسان العادي، بالاضافة إلى أن إمكان استغلاله لموقعه وتأثيره القيادي للضغط على الناس يكون أعظم، والطبع البشري يجعل الإنسان راغباً دائماً في أن يهيمن ويتسلط على الآخرين، ويريد أن تسير الناس وفقاً لما يفكر فيه وتقتدي بسلوكه.

وهذا الطبع الإنساني حينما يكون له سلطة ونفوذ ومسؤولية في أي مستوى قيادي معين، من الممكن أن يستغل هذا النفوذ وهذه السلطة لإرغام الناس على أن يتعاملوا بالطريقة التي يريدها هو، فيسلبهم حرياتهم، وهو يعتقد بأن ما يقوم به ويفكر به وما يقوله هو المصلحة لهؤلاء الناس دائماً، وهو الأنسب والأنفع لهم، ويحاول أن يحول الناس كلهم إلى لون واحد وإلى طريقة واحدة في التفكير.

فلذلك يصبح الظلم من المسؤول أخطر وأكثر ألماً وتأثيراً من الظلم الذي قد يصدر من غيره. وهذا ما يجعل التبريرات والحجج والأدلة التي يقدمها المسؤول لتبرير سلوكيات معينة تبريرات غير مقنعة في المنهج الإسلامي، وهذا ما يلاحظه الإنسان في حياته، حتى أن الطغاة والظالمين الذين صنعوا المقابر الجماعية وقتلوا آلاف الناس تراهم يبررون أعمالهم.

إن المسؤول في موقع المسؤولية يسعى دائماً الى أن يكيف سلوكه ومواقفه تكييفات قانونية، فالمظلوم يكون هو الظالم وهوخارج عن القانون والالتزامات والسياقات وما إلى ذلك في حكم ورأي هؤلاء الظلمة، وهنا يكمن الخطر من المسؤول، فإنه حينما يظلم فإن المظلوم يصبح مدانا وليس الظالم، ولذلك نجد التشدد الكبير

والتحذير من قبل الله تعالى من ممارسة الظلم من قبل المسؤول، أياً كان في مواقع القيادة.

يقول أمير المؤمنين‌عليه السلام: «ظالم الناس يوم القيامة منكوب في ظلمه، معذب محروم منكسر يطأطئ برأسه»(٢٥٤)، وذلك حينما تنكشف حقيقته أمام الناس، ففي يوم القيامة تظهر الأمور على واقعها، فالظالم يصبح مدانا ومكسورا ومحروما كما تعبر الرواية .

وجاء في الرواية: سئل أمير المؤمنين‌عليه السلام: أي ذنب أعجل عقوبة لصاحبه؟ فقال: «من ظلم من لا ناصر له إلا الله، وجاور النعمة بالتقصير، واستطال بالبغي على الفقير، »(٢٥٥). يبين أمير المؤمنين‌عليه السلام في هذه الرواية الشريفة ثلاثة ذنوب تعجل عليها العقوبة، وهي:

الأول: ظلم من لا ناصر له إلا الله، فالإنسان الذي ليس له حزب يدافع عنه ولا ظهر يحميه حينما يُظلم يتوجه مباشرة إلى الله تعالى بقلب منكسر، فينتقم الله له ممن ظلمه، وهذه معادلة السماء العجيبة، التي هي على عكس معادلة الأرض، ففيها أن كل من له مال ووجاهات وعلاقات، ومن له مكانة اجتماعية مرموقة، فإن له حصانات أكثر، ولكن في منطق السماء كلما كان الإنسان لا يمتلك هذه الوجاهات والمواقع التي تحميه، كان له حظوة أكبر في السماء ومكانة أعظم.

وهذه مسألة مرتبطة بالإنسان حينما يكون لدى الإنسان وسائل ضغط معينة نفكر بها أولاً، مثلاً حينما يريد الإنسان أن يستلف مبلغا من المال، فهو يتوجه إلى معارفه الأغنياء والميسورين، فلذلك أقلنا وجاهة أكثرنا منزلة عند الله تبارك وتعالى؛ لأنه أكثرنا انقطاعاً إلى الله تعالى، وأكثرنا إلحاحاً للطلب من الله تعالى.

الثاني: مجاورة النعمة بالتقصير، فيجب الإيفاء بواجبات النعمة ومسؤولياتها، أي نعمة كانت، ومنها نعمة المنصب وخدمة الناس وحل مشاكلهم. ويتحقق شكر النعمة بالوفاء بالتزاماتها، وأما الذي يحصل على النعمة ولا يشكر الله تعالى عليها،

---

٢٥٤ . غرر الحكم ٤: ٢٨٠.
٢٥٥ . بحار الأنوار ٧٥: ٣٢٠.

ولا يوظفها التوظيف الصحيح، كأنْ يعطى المال والجمال مثلاً ولكنه يستخدمهما ويوظفهما في معصية الله، فإن الله سبحانه وتعالى يعجل له العقوبة.

الثالث: الاستطالة على الفقير بالبغي، فعلى المسؤول ألاّ يبرز قوته وعضلاته على الفقير والمسكين، كمن يريد تطبيق القانون على المتجاوزين مثلاً، وكأنه ليس هناك مشكلة أُخرى في العراق!، مع أنه بنى على أرض موات، وهو أحق بها شرعاً؛ لأنه ملكها بالإحياء.

وعن أمير المؤمنينعليه السلام أنه قال: «يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم»[٢٥٦]، فالمظلوم حينما يُظلم تظهر فئة من الناس تتعاطف معه وتدعو له وتنصره في السر أو العلن، كما أنه يدعو بقلب مكسور وهو متوجه إلى الله تعالى ويشعر أنه مضغوط عليه، فيمنحه الله تعالى صبراً وكمالاً وقوة، فتراه وهو في الزنازين ولكنه يشعر بالقوة بسبب إخلاصه ومظلوميته وتعاطف الناس معه.

لكن الظالم يوم يلقى حسابه وتنكشف أوراقه، تجد الناس تتشفى به وتفرح بعد أن عرفت أن لهذا الظالم نهاية، كما رأينا في الأشهر الأخيرة الطغاة الذين نالوا جزاءهم في بلدان عربية عديدة، كيف أنه لا أحد يتعاطف معهم، وإنما العكس هو الصحيح، فالناس تتذكر اعتداءاتهم وظلاماتهم لهم، لذلك فإن يوم الظالم أشد من يوم المظلوم.

الإضاءة الثالثة

حقيقة الظلم من المسؤول

ظلم الحاكم والمسؤول هو في حقيقته حرب مع الله سبحانه وتعالى، كما بين ذلك أمير المؤمنينعليه السلام بقوله في الجملة الأخيرة من الفقرة أعلاه: «وكان لله حرباً»، ولم يقل أمير المؤمنينعليه السلام: المسؤول الظالم محارب، بل استعمل المصدر فقال حرباً، لشدة التنكيل، فحينما يستعمل المصدر يعني أن هذه الصفة حقيقة ثابتة ودائمة عند هذا الإنسان، فالمسؤول الظالم ليس محارباً لله عز وجل فقط، بل هو حرب

٢٥٦ . نهج البلاغة: الخطبة ٣٤١.

ومجدد للعداء مع الله سبحانه ومع القيم والمبادئ حينما يسيء لعباد الله ويستغل موقعه لظلم الناس .

الإضاءة الرابعة

خلاص الظالم

لا خلاص للظالم إلا بأن يرعوي ويعود إلى رشده، ولا يكون ذلك إلا بأن ينسجم مع القيم والثوابت ويعيد للمظلوم حقه، وليس هناك حل آخر، كما بين ذلك علي عليه السلام بقوله: «وكان لله حرباً حتى ينزع أو يتوب»، فما لم ينزع عن الظلم ويتُب إلى الله تعالى، فحرب هذا المسؤول الظالم مع الله سبحانه مستمرة.

يقول علي عليه السلام من خطبة له: « ألا وأن الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله»، كما ذكر الله تعالى بقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به)، «وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد لنفسه عند بعض الهنات»، فقد يرتكب الإنسان بعض الهنات، كما لو فكر في شيء، أو نظر إلى شيء، أو قرر شيئاً ثم تراجع عنه، لأنه حرام.

وهناك ذنوب صغيرة قد يرتكبها الإنسان، وكان ينبغي أن يتجنبها جهد الإمكان، ولكن الإنسان غير معصوم وتصدر منه أخطاء معينة، وهذه الأخطاء الصغيرة إذا تاب الإنسان منها، فالله تعالى يصفح عنها ويغفرها له.

«وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً». وهذا الظلم لا يغفر حتى إذا تاب الإنسان منه، ما لم يعفُ صاحب المظلمة أو يقتص منه. «والقصاص هناك شديد، ليس هو جرحاً بالمدى»، أي ليس طعنا بسكين، «ولا ضرباً بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه»[٢٥٧].

القصاص يوم القيامة لمن يظلم إنساناً أعظم بكثير من الطعن بسكين أو الضرب بسوط، فقصاص الظالم أشد ، والظالم يتمنى أن يطعن بسكين أو يضرب بسوط حينما يرى العقوبة الإلهية على ظلمه. ومن هنا نجد تأكيد الإسلام على هذه القضية، وأن عدم الاعتداء والتجاوز على الآخر يمثل واحدة من السمات الأساسية والمهمة

٢٥٧ . نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.

التي تنظم العلاقة الاجتماعية. فعلى المسؤول ألاّ يمتد بسلطته ونفوذه ليسيء إلى الآخرين ويسلب حقوقهم . نسأل الله تعالى أن يبعدنا عن الظلم، ويشيع بيننا التسامح والعدالة والإنصاف .

الدرس السابع والعشرون

الظلم وحلول العقوبة الإلهية

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد».

لا يوجد شيء يبعد الإنسان عن النعمة ويقربه من النقمة بقدر الظلم، فهو أقصر الطرق إلى نقمة الله وعذابه، وأبعد الطرق إلى نعمة الله ولطفه، لأن الله سبحانه وتعالى يسمع دعوة المظلومين المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد، فهناك تأثيرات وعوارض دنيوية للظلم قبل العقوبة الأُخرية. ولأنها من حق الناس فلا تكفي التوبة وحدها.

في منطق علي عليه السلام الذي هو منطق الإسلام، حينما يظلم المسؤول فإنه ينزع إنسانيته ويتحول إلى وحش كاسر، يعتدي على الآخرين ويسيء إليهم ويتجاوز عليهم، ولذلك يتخلى عن إنسانيته. وفي اللحظة التي يظلم فيها المسؤول سيكون على سكة الأُفول والزوال والسقوط، والمسألة مسألة وقت.

وهذه سنة الله تعالى، وهو منطق الإسلام، فما دمت تظلم وتصر على الظلم فهذا مدعاة لتعجيل النقمة، ونزول البلاء يصبح قريباً، وفي رؤية القرآن الكريم، فإن الظلم يؤدي إلى السقوط، ويؤدي إلى انهيار الأنظمة، والظالم سيتعرض للعقوبة الإلهية في الدنيا قبل الآخرة.

ولقد كنا نحتاج قبل أشهر إلى شرح لهذا الموضوع، ولكن اليوم وبعد تحولات

الربيع العربي كما يسمونه أصبح الأمر واضحاً جداً، فقد تحول الحاكم ـ الذي كان يتحكم ويسعى الجميع لتحقيق وتنفيذ أوامره ويمتلك الجيوش والهيبة والأدوات ـ خلال أسابيع في خبر كان بعد أن أصبح الشعب يريد إسقاط النظام بدون تحرك الجيوش، فقد تهاوت كل القوى التي كان يعتقد بأنها أذرع للدفاع عن هذا الحاكم. إذن، فالظلم له نهاية بالفعل ، وان الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وان النتيجة حتمية .

وفي منطق علي عليه السلام كل شيء في غير موضعه ظلم، ويقع في ضمن العوارض التي تحدثنا عنها .

فالموقف غير السديد، أو الذي لا حكمة فيه، أو المتسرع، أو الانفعالي، أو الذي في غير موضعه، فكل هذه من مصاديق الظلم. وعلى المسؤول أن يكون مستقراً وهادئاً ويدرس الأُمور بترو وتشاور ثم يتخذ القرار الصحيح .

وكذا النرجسيات والمزاجيات في إدارة الأمور من مصاديق الظلم ، ويجب ألاّ يفرض المسؤول موقفه ورأيه ومزاجه على الآخرين .

وكذلك فإن التنصل عن أداء الحقوق والتخلف عن الإيفاء بالالتزامات والوعود والعهود يعرض الإنسان إلى هذه العوارض والتبعات .

كما أن وضع غير الكفوء في مواضع المسؤولية فيه ظلم للناس وظلم للموقع، ويؤدي إلى تراجع البلد وتبدد الثروات والإمكانات، وهذا ظلم خطير.

ومن مصاديق الظلم أيضاً الانحراف عن المعايير والقوانين والالتزامات التي يجب أن تتحكم في قرارات المسؤول، فكثيراً ما نرى في نفس القضية موقفا متشددا مع فلان وتساهلا مع آخر، وهذا ظلم صارخ وابتعاد عن مسارات الدين والعقل.

والخلاصة أن أي شيء في غير موضعه ظلم، ويتعرض صاحبه إلى التبعات التي تحدثنا عنها .

الجور وزوال الدولة متلازمان

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان أسباب زوال الدول وهلاك الأُمم: "الظلم يدمر الديار"[٢٥٨]، فلدينا العقول والإمكانات، ولا يوجد حصار، ولكن ليس هناك تقدم،

٢٥٨ . غرر الحكم ١: ٢٦٧.

وهذا معناه أن هناك ظلما، وحينما نرفع الظلم سوف تكون الأُمور على السكة الصحيحة .

ويقول عليه السلام أيضاً: "سبب التدمير سوء التدبير"[٢٥٩]، فسوء التدبير، وعدم الحكمة، وعدم مراعاة الضوابط، والانفعالات والمواقف الارتجالية والمتسرعة، تؤدي كلها إلى مثل هذه المضاعفات الخطيرة .

ويقول عليه السلام أيضاً: "من جارت ولايته زالت دولته"[٢٦٠]، أي إذا كان هناك جور، فإنه يؤدي إلى زوال الدولة، فالجور وزوال الدولة متلازمان.

ويقول عليه السلام أيضاً: "تولي الأراذل والأحداث الدول دليل انحلالها وإدبارها"[٢٦١]، ومن علل زوال الدول والحكومات، تولي من لا ذمة له ولا ضمير ولا تأريخ ومن لا يعرف سوى مصلحته والحصول عليها بشتى الطرق غير اللائقة وغير الأخلاقية، وهؤلاء هم الأراذل.

وكذلك من علل زوال الدول والحكومات، تولي الأحداث لأُمور البلاد، وهم من جاءت بهم الصدفة وجعلتهم في المقدمة. ونقرأ في تأريخ الطغاة والظالمين السابقين، أن فرصة معينة تأتي لأحدهم، ليكون الزعيم الأوحد والامبراطور، ولكنه لا يستطيع إدارة الأُمور بالشكل الصحيح؛ لأنه لا يملك الحصانة والحصافة الكاملة، وربما يفقد توازنه، وتكون مواقفه غير مدروسة وغير ناضجة.

وهنا يبين علي عليه السلام حقيقة مهمة وهي أن تولي الأراذل والأحداث مسؤولية الدولة دليل على انحلالها وإدبارها، وسوف يكون مثل هذا المسؤول غير قادر على تحقيق النتائج، وتكون النتيجة تراجع وانهيار الحكم وانحلاله.

وفي رواية أُخرى لأمير المؤمنين عليه السلام يذكر فيها أربعة أسباب لزوال الحكومات والدول، يقول: "يستدل على إدبار الدول بأربع: تضييع الأُصول، والتمسك بالفروع، وتقديم الأراذل، وتأخير الأفاضل"[٢٦٢] .

٢٥٩ . عيون المواعظ والحكم: ٢٨١.
٢٦٠ . غرر الحكم ٥: ٢٨٠.
٢٦١ . غرر الحكم ٣: ٢٩٥.
٢٦٢ . غرر الحكم ٦: ٤٥٠.

إذا كانت هذه الدول لا توجد فيها استراتيجيات، ولا ضوابط ومعايير وأُصول يلتزم بها، ولا توجد رؤية واضحة، وقراراتها سريعة، وأُصولها ضائعة؛ فهذه أول سمة لزوال الدولة .

كما أن تمسك المسؤولين بالفروع، وانشغالهم بالأُمور الصغيرة والتافهة، وترك كبائر الأُمور وعظائمها، تعتبر السمة الثانية لزوال الدولة.

كما أن تقديم الأراذل وتسليمهم السلطة، والأراذل هم أصحاب الرذائل الأخلاقية، يعد السمة الثالثة لسقوط الدولة.

وأما السمة الرابعة لزوال الدول فهي تأخير الأفاضل من الكفوئين والنزيهين عن مسؤوليات الدولة وإبعادهم عن تسلم المسؤولية بشتى الأساليب وأخبثها.

ويقول عليه السلام: "من جار ملكه تمنى الناس هلاكه"[٢٦٣]، فإذا تمنى الناس هلاك الحاكم والمسؤول فهي البداية للانهيارات، لأن الناس أصبحوا يشكون من الظالم، وهذا الدعاء وهذه الشكوى تسمع من الله تعالى فيكون فيها هلاك الظالم .

ويقول عليه السلام: "من عامل رعيته بالظلم أزال الله ملكه وعجل بواره وهلكه"[٢٦٤]، فالجور يؤدي إلى زوال الملك والهلاك .

ويقول عليه السلام: "ما من سلطان آتاه الله قوة ونعمة فاستعان بها على ظلم عباده ، إلا كان حقاً على الله أن ينزعها منه. ألم تر إلى قول الله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)"[٢٦٥]، فالمسؤولية أمانة، فإذا لم تؤد الأمانة بالشكل الصحيح سوف يسترجعها الله تعالى.

وأما إذا أحسن المسؤول الأداء فقد ضمن لنفسه الموقع، بل وسيتولى الأدوار المتزايدة، ولكن إذا قصر المسؤول فإن المشكلة به ولا بد من أن يترقب زوال هذه المسؤولية .

ويقول عليه السلام أيضاً: "ولئن أمهل الله تعالى الظالم فإنه لن يفوته أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه، وموضع الشجى من مجاز ريقه"[٢٦٦]، ففي الوقت

---

٢٦٣ . غرر الحكم ٥: ٣٥٩.
٢٦٤ . غرر الحكم ٥: ٣٥٨.
٢٦٥ . إرشاد القلوب: ٦٨.
٢٦٦ . نهج البلاغة: الخطبة ٩٧.

المناسب ينقض الله تعالى على الظالم، فهو تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، فلا يمكن إخفاء الوثائق والحقائق إلى ما لا نهاية، بل ستنكشف بالتأكيد في يوم من الأيام، وهنا يوضح أمير المؤمنين عليه السلام كيف أن الله تعالى يقف بالمرصاد للمسؤولين الظالمين، وأنهم سينالون جزاءهم العادل ولو بعد حين.

المقطع الثامن

محورية الاُمة في القيادة والإدارة

الدرس الثامن والعشرون

تغليب مصالح الاُمة على مصالح الطبقة الأرستقراطية

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «وليكن أحب الاُمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية».

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع الشريف عن أهمية محورية الشعب ومحورية الاُمة في القيادة والإدارة.

يجب ألاّ يكون رضا أو سخط النخبة السياسية الحاكمة والحالة الأرستقراطية لأصحاب المصالح الخاصة، هو محور أداء المسؤول، وإنما ينبغي أن يكون المحور هو ما يريده الشعب وما تريده الاُمة.

مبادئ النجاح في الحكم

يبدأ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع بوضع المعايير الأساسية والمبادئ التي تحقق النجاح في الحكم، إذ يذكر ثلاثة مبادئ، وهي:

المبدأ الأول: حالة الاعتدال، ويتجسد في قوله عليه السلام: «وليكن أحب الاُمور إليك أوسطها في الحق»، أي الركون إلى الحق والموقف الحق.

المبدأ الثاني: العدالة، ويتجلى في قوله عليه السلام: «وأعمها في العدل»، وتعميمها في كل السلوكيات والمواقف التي يحتاج إليها في موقع المسؤولية.

المبدأ الثالث: رضا الناس، ويتضح في قوله عليه السلام: «وأجمعها لرضا الرعية»، أي يجب أن يكون هذا الموقف أقرب إلى رضا المجموع، وقطعاً، رضا الناس غاية لا تدرك، ولكن يتم ذلك من خلال مراعاة ظروف الناس ومن هو مسؤول عنهم حينما يصدر التعليمات.

ولابد من أن نقف عند هذه المبادئ الثلاثة بشيء من التفصيل.

المبدأ الأول: الوسطية في الحق

القيادة الحكيمة والقيادة الواعية والقيادة الرشيدة هي القيادة التي تأخذ الوسطية في مجمل أدائها، وتقدر ظروف وقدرات الناس المسؤولة عنهم، ثم تصدر التوجيهات والتعليمات والقرارات والضوابط بالشكل الذي يتماشى مع الحالة الوسطية لهم.

فإن الإفراط والمبالغة في الضغط قد يؤديان إلى شعورهم بحالة من اليأس، كما أن التفريط والتضييع والسياقات والأُطر والقواعد ستؤدي إلى حالة من الترهل وإلى الشعور بالرضا المبالغ به وغير الواقعي، حتى يصل إلى لحظة الصدمة، فيجد الإنسان نفسه في صورة ارتسمت له، وهذا ما يفعله الطغاة في أحلك الظروف وأصعب الأُمور، فتسمعه حينما يتحدث وكأنما يتحدث عن جنة؛ هكذا حلت المشاكل، وهكذا الإنجازات والمشاريع، وكأنه يتحدث عن غائب أو عن أمر مجهول.

فحالة الترهل وحالة التفريط وحالة الخروج عن الوسطية إفراطاً وتفريطاً ستؤدي إلى مضيعة في المنظومة القيادية والإدارية وفي الخطط وفي السياسات وفي المشاريع وفي التصريحات وفي الإجراءات. ففي كل هذه المساحات يجب أن يعتمد الحق، وأن يؤخذ طريق الاعتدال والوسطية، حتى تتحقق حالات المنظومة القيادية. هذه رؤية الإسلام كما يذكرها علي عليه السلام.

إن مستوى ومعيار النجاح لأي قيادي وأي مسؤول، بقدر التزامه بالوسطية والحق في مجمل سلوكه وأدائه والمواقف التي يتخذها.

يقول علي عليه السلام في إحدى حكمه في بيان هذا المعنى:« الفقيه كل الفقيه من لم يقنط

الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله»[٢٦٧].

فجوهر الفقه ليس أن تذهب إلى الناس وتقول: هذا حرام وهذا لا يجوز وهذا مكروه وهذا ينبغي ألاّ يكون، وتجلب كل هذه المحددات وتضعها أمامهم، وتقتصر على ذكر هذا الجانب فقط.

وليس جوهر تفسير القرآن أن تقتصر على ذكر آيات النار والعذاب والنقمة والبلاء؛ تأتي بها وتشرحها، وكأن الحياة ليست إلا هذا الجانب، فيشعر الناس بالإحباط واليأس، والناس بطبيعتهم خطاؤون، بل حتى من لا يرتكب خطأ حينما تستحضر هذه الرؤية أمامه وهذا الجانب من الحقيقة فقط، يختل عنده التوازن ويشعر بالإحباط الكبير.

كما إن الفقيه الحقيقي هو الذي لا يلقي اليأس من رحمة الله في قلوب الناس، ولا يضع أمامهم صورة يستنتجون من خلالها أنهم من أهل النار قطعاً، فإذا شعروا بذلك فقدوا كل حالة للعبادة والحركة والإقدام.

ومن جانب آخر لم يؤمنهم من مكر الله، أي ألاّ يأتي فقط بكل ما هو إيجابي من رحمة وجنة، وتساهل وشريعة سمحة، والله غفور رحيم، ويضعها أمامهم، فيظنون أنفسهم من أهل الجنة قطعاً.

فالإفراط والتفريط كلاهما يمثل جزءا من الحقيقة المتكاملة، وهي الحقيقة التي فيها تلك العقوبات والمخاوف والمحددات، وفيها هذه الآفاق والآمال والفرص أيضاً. ولذلك ينبغي أن يكون الطرح بشكل متوازن، هذا في الجانب الفقهي الشرعي.

والمنظومة القيادية تمثل أُنموذجاً من نماذج إدارة هذه الحياة التي تعتمد على حالة الوسطية. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه: «من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه»[٢٦٨]، فالذي يأخذ الاعتدال ويمسك العصا من الوسط ويعمل بالحق بوسطية وموضوعية وواقعية يحظى بالحمد والشكر من قبل الناس، ويقبلون منهجه، ويعتمدون هذا المنهج، ويسيرون معه فيه، ويبشرونه بالنجاة، وتنجح المنظومة

٢٦٧ . نهج البلاغة: الحكمة ٩٠.
٢٦٨ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٢.

القيادية حينما تعتمد الوسطية، وحينما تأخذ الحق ولكن بوسطية ومراعاة الظروف.

وأما من أخذ يميناً وشمالاً وذهب خارج الطريق، فهنا سيأتيه التحذير من الناس، ويذمون الطريق الذي هو سائر فيه، ويحذرونه من الهلكة، مثل سائق السيارة حينما يغفل وينزل من الشارع إلى خارج الطريق، فإذا كان هناك شخص في السيارة سيصيح به: هل ستأخذنا إلى المهالك؟ فالخروج عن الاعتدال هو ذهاب إلى الهلكة، وهو تعريض المنظومة القيادية والناس المسؤول عنهم إلى مطبات كبيرة، ولا أحد يسلم إلا بالاعتدال والذهاب إلى الحق الذي يراعي الظروف الموضوعية للناس الذين نتحمل المسؤولية تجاههم.

المبدأ الثاني: عمومية العدل

لا يكفي أن يكون المسؤول عادلاً مع البعض، بل لابد من أن يكون عادلاً مع الجميع، ولا يجوز أن يستثني أهله وحزبه وجماعته، فهذا مخل بعمومية العدل، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأعمها في العدل»، فيجب أن تكون في العدل عمومية، ويجب أن تكون مواقف المسؤول ومشاريعه وخطواته عادلة، ويجب أن يكون العدل في كل شيء.

فالحريات العادلة لا يكون فيها ضيق على البعض وفسحة للبعض الآخر، فهذا ليس عدلاً، ولا يمكن أن يحقق نجاحاً في المنظومة القيادية، بل يجب أن يكون العدل حاضراً في فهم الحريات، وفي تعريف هذه الحريات، وفي تمكين الناس من حقهم في الحرية، ولكن بعدالة وضوابط تسري على الجميع دون استثناء.

ويجب أن تكون في الالتزام بالقانون عمومية العدل أيضاً، فيكون لعموم المواطنين ولا يستثنى منه أكابر المسؤولين والخواص من الناس ومن لديه وساطة، وعدم العمومية في العدل لا يحقق نجاح المنظومة القيادية.

ويجب أن تكون الحقوق عادلة للجميع، لا أن نأخذ كل الحقوق ونعطيها للصديق، ونسلب من البعيد حقوقه بقدر ما نستطيع. وكل منظومة قيادية تمارس عملها بهذه الطريقة مآلها إلى السقوط. فالأب مثلاً حينما لا يوزع ماله بين أبنائه بشكل عادل تسقط هيبته أمام عائلته، وهكذا في كل منظومة قيادية.

وكذا أن تكون العدالة في الامتيازات، فلا تستأثر بها طبقة دون أُخرى، ويجب أن تردم الفجوة بين الناس، ويجب أن يحظى الجميع ضمن قدراتهم ومواقعهم بفرص متساوية، فيعطى كل إنسان بحسب قدرته وكفاءته الدور الذي يقوم به، والمهام المناطة به.

ويجب أن تكون هناك عدالة في الممتلكات، فلا يعطى الوزير ستمائة متر على نهر دجلة، بينما لا يملك المواطن العادي قطعة أرض صغيرة يمكن أن يشيد عليها داراً، أو يمنح الموظف قطعة أرض في الصحراء، بينما يعطى المدير قطعة أرض في مكان تجاري!، وهذا ليس عدلاً في توزيع الفرص. والعدل في الامتيازات وفي الممتلكات هو المدخل الصحيح لإنجاح المنظومة القيادية.

وقد يتساءل البعض: لماذا واقعنا بهذه الصورة؟، لماذا لا ترتب أُمورنا؟. والجواب هو لأننا لا نسلك الطريق الصحيح، ولا نأخذ النتائج الصحيحة، فالمقدمات الخاطئة لا توصل إلى نتائج صحيحة؛ لذلك إذا أردنا إصلاح أُمورنا يجب أن نعود إلى هذه الرؤية الإسلامية في القيادة كما يذكرها عليعليه السلام.

وينبغي أن تتحقق العدالة في المهام والمسؤوليات، فيعين الكفوء والقدير والخبير بالمهمة والمسؤولية اللائقة به، ومن كان أكفأ وأقدر هو الذي يجب أن يتمتع بالفرصة الأكبر.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في حكمة له: «سئلعليه السلام: أيهما أفضل، العدل أو الجود؟ فقالعليه السلام: العدل يضع الأُمور في مواضعها» أي كل واحد تعطيه ما يناسبه، «والجود يخرجها من جهتها» أي تضيف عليه أكثر من حقه وأكثر مما يستحق لسبب من الاسباب، «والعدل سائس عام» أي يجب أن يشمل العدل الجميع، فعندما يحدث توزيع عادل يحصل الجميع على حصة وفرصة. «والجود عارض خاص» وأما الجود فلا يشمل الجميع، بل يختص بالشخص الذي تجود عليه، «فالعدل أشرفهما وأفضلهما»[٢٦٩].

أي إذا قسنا العدل بالجود يكون الجود خاصاً ببعض الناس؛ فيعيش البعض تخمة

---

٢٦٩ . نهج البلاغة: الحكمة ٤٣٠.

بينما يبقى البعض الآخر محروماً، فالعدل أولى لأنه يعم الجميع. ومحل الجود بعد العدل، فعندما يطبق العدل، ويبقى واحد كان قد عمل أكثر وقدم أكثر، فهنا يأتي الجود ليكافئه، ولكن لا على حساب الآخرين، أي لا أن تقطع من أحد وتعطيه إلى آخر.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حكمة له: «من كمال السعادة السعي في صلاح الجمهور»[٢٧٠]. كيف نستطيع أن نبني أُمة صالحة؟ وكيف نستطيع أن نوجد حقوق المواطنة الصالحة؟. إن السعادة هي نجاح المنظومة القيادية، أي حينما يشعر الجميع بالراحة والاطمئنان، ولا يشعر أحد أنه مظلوم، فإن الشعور بالمظلومية يؤدي إلى ردة فعل، وردة الفعل تواجه بفعل معاكس. إن الذي يحقق الاستقرار هو شعور الجميع بالحصول على فرصته واطمئنانه، وبالتالي النجاح في المنظومة القيادية.

إن العدالة في رؤية الإسلام هي حقيقة واحدة لا تقبل التجزئة، فلا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية من غير تحقيق العدالة الاقتصادية؛ إذ كيف يمكن تحقيق عدالة اجتماعية من دون أن توزع الثروة بشكل عادل على الشعب.

وكذا لا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية من غير تحقيق العدالة السياسية؛ إذ لا يمكن وجود عدالة في الجانب السياسي وتوزيع الأدوار بشكل صحيح ما لم تتحقق العدالة الاجتماعية والاقتصادية. وكذلك لا يمكن تحقيق العدالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما لم تتحقق العدالة القضائية، فهذه جميعاً حقيقة واحدة متكاملة، وأما إذا انخرم أحد هذه الجوانب فستنخرم العدالة برمتها؛ لأن العدالة هي وضع الشيء في موضعه.

المبدأ الثالث: رضا الناس

يجب أن يستطيع الموقف والقرار والسياسات والخطط والمشاريع استيعاب المساحة الأوسع من رضا الناس. ولا يتحدث علي عليه السلام عن رضا الجميع؛ لأن رضا الناس غاية لا تدرك، حتى الأنبياء والأوصياء والمصلحون حينما توفرت لهم الفرص للإصلاح لم يستطيعوا أن يحققوا رضا عامة الناس على الاطلاق، فكان هناك

٢٧٠. غرر الحكم ٦: ٣٠.

دائماً من يعترض، وهذه حالة طبيعية؛ لأن الناس على أصناف، فبعضهم انتهازيون، وبعضهم لهم مطامع، وبعضهم لهم نظرة أحادية للأُمور ولا يقتنع إلا إذا حصل على شيء. ولذلك يهدف المبدأ الإسلامي إلى تحقيق رضا المساحة الأوسع من الناس، وليس من الضرورة تحقيق الإجماع الكامل على موقف القيادة والمسؤول.

إذن، في نهج عليعليه السلام الذي يمثل فكر الإسلام الأصيل، يكون الشعب هو مالك الدولة، والدولة يجب أن تكون في خدمة الشعب، وملبية لمطاليبه، ومعالجة لمشاكله وأزماته، وواقفة عند همومه. والدولة التي تخدم شعبها وتحقق الرضا لعموم مواطنيها هي الدولة التي يمكن أن تحظى بالنجاح، ولكن الدولة التي لم يرض الناس عنها لا يمكنها تحقيق النجاح، وهي تتلكأ وتقع في الظلم، كما أشرنا في مقاطع سابقة في هذا العهد الشريف.

الشعب هو الحاكم والمالك ومن بيده القرار، وهذا هو منهج عليعليه السلام في التصدي والمسؤولية.

وقد روى الشيخ المجلسي في بحار الأنوار[٢٧١] أنه لما قُتل عثمان أقبل الناس على الإمام عليعليه السلام وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته، وهو يأبى ذلك ويقول: «دعوني والتمسوا غيري»، فهل كان رفضه هذا لزهد في خدمة الناس، أو لزهد في التصدي لمواقع المسؤولية، أو فرارا من الزحف، أو تلكؤا في الأداء؟، حاشا أمير المؤمنينعليه السلام أن تنطبق عليه هذه الصفات.

فهؤلاء أكابر الصحابة اليوم يقولون يا علي أنت لها، وعليعليه السلام يأبى ذلك؛ لأنه لا يجد شروط النجاح متوفرة، فالأُمة تتقاسمها تيارات لها مصالح ومآرب خاصة، وكل منها يريد خلافة عليعليه السلام لمصلحة ومطمع في نفسها.

وهنا لا نتحدث عن الجميع، وإنما عن الذين كانوا يريدون توليه الخلافة بعد عثمان، وأمير المؤمنينعليه السلام كان يعرف أن هؤلاء الانتهازيين لا يدعونه يعمل بجد وبشكل صحيح يرتضيه الله تعالى، لئلا ينجح، وكان حينما يجد الجد ويتخذ القرارات الصحيحة تبدأ الإشكالات والتشويشات من قبل هؤلاء. فالحكم ليس مغنماً

٢٧١. بحار الأنوار ٣٢: ٧.

ووجاهات وامتيازات، بل الحكم مسؤولية وأمانة كما ذكرها عليعليه السلام في مقاطع سابقة.

وهوعليه السلام عندما يقول «دعوني والتمسوا غيري» يعني أنه لا يريد هذه الخلافة بهذه الشروط التي لا تؤدي إلى النجاح في المهمة المقدسة.

ثم يبينعليه السلام السبب الذي دعاه إلى رفض تولي المسؤولية، يقولعليه السلام: «فإنا مستقبلون أمراً له وجوه»، أي نحن داخلون في معترك والتباسات، وسوف تختلف اجتهاداتكم، ولا تستطيعون التماشي مع الرؤية الحقة للمشروع، فابحثوا عن الشخص الذي تسيرونه كما تريدون.

ثم يوضحعليه السلام الصفة الأُولى لهذا الأمر بأنه: «لا تثبت عليه العقول». فعلي عليه السلام يتحرك وفق ثوابت ومبادئ، وأما الآخرون فإنهم يتحركون وفقاً لمبادئ ترتبط بمصالحهم، ولذلك سوف تختلف تقديراتهم لهذه المصالح من حالة إلى أُخرى.

ثم يوضحعليه السلام الصفة الثانية لهذا الأمر فيقول: «ولا تكن له القلوب»، أي أن المشاعر والعواطف لا تنسجم تماماً مع النهج الذي يقدمه عليعليه السلام وهو منهج الحق، فالحق ينصف المظلوم من الظالم، والحق يعطي الفرصة لهذا مرة ولذاك مرة أُخرى. فالقلوب تختلف حينما تكون المعايير معايير حقة.

فرفض الناس ما يقوله عليعليه السلام، وقالوا: «ننشدك الله ألا ترى ما حدث في الإسلام!»، أي لقد تشوهت صورة الإسلام، والناس لا يعرفون الحق والقانون والصحيح والخطأ، وكل يطلب الحق لنفسه.

ثم قالوا: «ألا تخاف الله!». يا علي أنت أمير المؤمنين ألا تخاف الله حين تتركنا في هذه الظروف الصعبة؟!، فهؤلاء يظنون أن علياًعليه السلام يتحجج ويستغل الموقف وغياب البديل حتى يرفع من سقف شروطه ويحصل على المزيد من الامتيازات!.

«فقال: قد أجبتكم»، أي لم أكن متنصلاً عن الواجب الديني، وإنما ما أراه فيكم يجعلني أعتقد بأن طريقي في الإدارة لن يكون مجدياً معكم، واعلم أنكم لن تلتزموا به وربما نختلف.

ثم يواصل عليه السلام كلامه معهم فيقول: «واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم»، فلن استطيع أن أسير بكم وفقاً لشهواتكم ورغباتكم، وحينما أصبح خليفة للمسلمين سوف أطبق المعايير والضوابط والشروط الإسلامية فيكم، فدعوني جالسا في بيتي وسوف أُعطي النصائح للخليفة الجديد كما أعطيت النصائح والإرشادات للخلفاء السابقين؛ لأني لا أعمل إلا بالمبادئ الإسلامية الصحيحة، وقد لا تنسجم مع طموحاتكم ورغباتكم، فأنا علي أعمل بالحق والعدل، ولا أخاف في الله لومة لائم.

ثم يقول لهم: «وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم»، وسوف لن أتآمر عليكم، وأترك المجال لكم، لا أريد أن اضعفكم أو أكون حجر عثرة، فلا تحملوني المسؤولية، فأنا كواحد منكم لا أكثر.

فعلي عليه السلام ليس عنده مساومة أو مجاملة، حكم المسلمين بالنسبة لعلي عليه السلام بقدر ما يستطيع أن يحل مشكلة ويعيد الأُمور إلى نصابها، فهو كمنهج ومبدأ وعقيدة وإطار، يبحث عن دوره في خدمة الناس شريطة الالتزام بالمعايير الإسلامية الحقة، فليس عند علي عليه السلام خصوصية لأحد إلا بالحق، وإذا سلمتم الراية له فلديه ثوابت لا يتخطاها، فالتكليف والمواقف الشرعية هي التي تحرك علي عليه السلام.

ثم يبين موقفه في ظل الحكم الجديد: «بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم «. فرفضوا ذلك وأصروا على مبايعته خليفة للمسلمين. «فقالوا: ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك»، بعد أن قال لهم كل هذه الشروط ووضعهم تحت الأمر الواقع وتفحص أمرهم، قالوا له إننا نقبل بكل ما تقوله ونبايعك يا علي. وهنا اكتملت الحجة بعد أن صارحهم بمنهجه وطريقته في الإدارة والقيادة.

فقال عليه السلام: «إن كان لابد من ذلك ففي المسجد». أي أنتم ايها النخب والمفاوضون والكتل السياسية قبلتم، ولكن المهم كلمة الشعب في المسجد، وليس خلف الأبواب المغلقة، لنرى الناس ماذا تقول في المسجد، وما رأي الجمهور والشعب والمواطن.

معللاً ذلك بقوله: «فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين وفي مرأى وفي جماعة». وقبل بتولي الخلافة بشرط وجود رأي عام مساند، لأنه إذا لم يكن هناك رأي جامع لا يكون هناك نجاح.

«فقام والناس حوله فدخل المسجد، وانهال عليه المسلمون فبايعوه «. وهذا هو منهج عليعليه السلام، وهذه هي السياقات والضوابط التي يضعها لإنجاح المنظومة القيادية. فمنذ اليوم الأول أشعر الناس أنهم هم الأساس والقاعدة، وأن الشعب هو الحاكم وهو المالك وهو من بيده القرار. هذا هو المنهج الذي وضعه عليعليه السلام في التصدي للعمل السياسي .

ويقولعليه السلام في موضع آخر: «إن هذا أمركم ـ أي الحكم، لأن حكم الشعب للشعب وهو المالك وهو الحاكم ـ ليس لأحد فيه حق إلا ما أمرتم». وفي منهج المرجعية التي دعمت الانتخابات، ثم بعد انتظام الأُمور، كانت أول من نادى بالقائمة المفتوحة؛ لأن القائمة المغلقة تجعل كل حزب يأتي بجماعته بغض النظر عن رأي الناس، فيصوت الناس ولا يدرون لمن تذهب أصواتهم، أما القائمة المفتوحة فيكون التصويت لمن يريدهم الناس، وهم يتحملون المسؤولية في خيارهم.

بالاضافة إلى أن القائمة إذا كانت مفتوحة لا يستطيع أحد من المنصفين أن يلوم المرجعية لأن الاختيار كان للناس ولأن المرجعية لم توجه إلا للانتخابات. إذ الانتخابات تعني تحمل المسؤولية، وتعني أن يأخذ المواطن حقه، وأما لمن يعطي صوته، فإن المرجعية لا توجه بذلك، ويعود الأمر إلى اختياره، بل لعل البعض استغرب وقوف المرجعية على مسافة واحدة من الجميع حتى تبرئ ذمتها أمام الله تعالى وأمام التاريخ وأمام الشعب.

وقد يكون في نظرها من هو أقرب ومن هو أبعد، فهذا ممكن، وكل إنسان لديه تقييمات، والمرجع ليس استثناء عن هذا المبدأ، والمرجع الذي عنده مبادئ وقيم تكون تقييماته مبدئية على ضوء القيم والمبادئ والثوابت، ولكنها كانت على مسافة واحدة، حتى يتحمل الجميع مسؤولياتهم.

واليوم لا يستطيع احد أن يعتب على المرجعية في أي شيء، فإن تحقق إنجاز فهو لنا وللمرجعية؛ لأنها نادت بالانتخابات وشجعتنا عليها، وهي مشكورة على كل إنجاز، وأما إذا أخطأنا الاختيار، فإن حسن المشاركة للمرجعية وسوء الاختيار مردود علينا، ولا تتحمل المرجعية ذلك. وعلى كل حال، فهذا هو المبدأ الذي يضعه عليعليه السلام في التعامل وفي التصدي لموقع المسؤولية.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً حول هذا الموضوع: "فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أُخرى وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى يقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)، بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها. أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز"(٢٧٢).

يتحدث امير المؤمنين عليه السلام في هذا النص المبارك عن موضوع بيعة المسلمين له خليفة، ويستعمل عليه السلام هنا مفردة الروع في قوله "وما راعني"، وهو الرهبة والخوف. و"عرف الضبع" العرف هو الشعر الكثيف في رقبة الضبع، كناية عن شدة الزحام. أي حصلت له حالة من الرهبة من كثرة التدافع عليه في يوم البيعة.

و"ينثالون علي" أي يتقاطرون علي من كل جانب، فالناس كلها ملتفة حول علي عليه السلام وجاءت تريد مبايعته خليفة عليها. "حتى لقد وطىء الحسنان" أي سحق الحسن والحسين عليهما السلام بأقدام الناس، إذ كانا آنذاك صغيرين في السن. "وشق عطفاي" أي مزق ثوبه من جانبيه نتيجة الزحام. "مجتمعين حولي كربيضة الغنم"، أي اجتمعوا حوله كما تجتمع الغنم على الماء، إشارة إلى استفتاء شعبي كاسح.

ثم يتحدث عليه السلام عن الخيانة التي حصلت بعد إتمام البيعة والنهوض بالأمر: "فلما نهضت بالأمر" أي عندما أصبح الكلام حقيقة وبدأ تطبيق منهج الإسلام الأصيل في إرساء قواعد العدالة والانصاف وعدم التمييز، "نكثت طائفة" والناكثون هم الذين خرجوا ونقضوا البيعة، في إشارة إلى أصحاب الجمل طلحة والزبير. "ومرقت أُخرى" والمارقون هم الخوارج، في إشارة إلى حرب النهروان. "وقسط أُخرون" أي جاروا، في إشارة إلى معاوية وحرب صفين.

٢٧٢ . نهج البلاغة: الخطبة ٣.

وكأن الناكثين والقاسطين والمارقين لم يسمعوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢٧٣]، فهؤلاء كلهم خرجوا يريدون الاستكبار والفساد في الأرض، فحرموا بسبب ذلك من نعيم الآخرة التي جعلها الله تبارك وتعالى للذين يسيرون على الطريق الصحيح ويقبلون بالعدل والانصاف، وكأنهم لم يقرؤوا هذه الآية الشريفة.

ثم يستدرك علي عليه السلام ويقول: "بلى والله لقد سمعوها ووعوها" أي عرفوها، وعندما يريدون شرحها يشرحونها أفضل من الآخرين، ولديهم قدرة عالية على الإقناع وإيضاح هذه المبادئ، وليس لديهم مشكلة نظرية، فالرؤية واضحة جداً. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يسيروا مع علي عليه السلام؟.

وهنا يبين عليه السلام السبب فيقول: "ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم"، أي رأوا الدنيا جميلة فآثروها على الآخرة. "وراق لهم زبرجها" أي أعجبتهم زينة الدنيا، التي تتمثل في أيامنا هذه بالسيارات الحديثة والخدم والحشم والامكانات والمكاتب اللطيفة والمرفهة والقصور والخدمات والامتيازات والايفادات، فاستأنسوا بها وارتاحوا لها. فليست المشكلة أنهم لا يعرفون، بل هم يعرفون جيداً، ولكن الدنيا لا تدعهم يسيرون على طريق الصواب والصلاح.

ثم يبين عليه السلام الأسباب التي دعته إلى تحمل المسؤولية، فيقول: "أما والذي فلق الحبة" يُقسم عليه السلام بالله الذي فلق الحبة فأخرج منها الزروع والثمار. "وبرأ النسمة" أي خلق البشر. "لولا حضور الحاضر" أي لولا هذه البيعة الشعبية، ولولا الناس المساكين، ولولا المواطنون الذين جعلوا أملهم في علي بن أبي طالب في أن يعمل لهم شيئاً.

"وقيام الحجة بوجود الناصر" أي، لولا وجود أُناس مخلصين طيبين مستعدين للتضحية، ولا يريدون مصلحة ولا يبحثون عن الدنيا، بل يريدون الآخرة، ويريدون الحق والعدل، ولا يطلبون من علي شيئاً، وهم مستعدون لنصرة المشروع، وليس لديهم حسابات ضيقة ولا حسابات مادية، لولا وجود هؤلاء. "وما أخذ الله

٢٧٣ . القصص: ٨٣.

على العلماء ألاّ يقاروا على كظة ظالم"، أي، لولا العهد الذي قطعه الله سبحانه مع العلماء ألاّ يقبلوا على تخمة ظالم، والتخمة إشارة إلى البطر والاستئثار. "ولا سغب مظلوم" السغب: شدة الجوع، وجوع المظلوم يعني هدر الحقوق، أي أن حقوقه مهدورة، فقد أخذ الله تعالى على العلماء أن يقفوا مع المظلوم لاسترجاع حقه من الظالم.

إذن، فالأسباب التي دعت أمير المؤمنين عليه السلام للتصدي وتحمل المسؤولية هي: قيام الحجة الشرعية، ووجود الناس الشجعان والمخلصين، وإرادة الشعب والاستفتاء العارم للناس، وما أخذه الله على العلماء أن يقفوا لنصرة المظلوم. "لألقيت حبلها على غاربها"، استعار أمير المؤمنين عليه السلام هنا صورة نزول الفارس من صهوة جواده وإلقائه الحبل على الفرس، لتركه الأُمة وشأنها، أي، أن يترك القضية كلها، فهو ليس طالب دنيا ولا ساعيا وراء شيء من حطامها، وإنما التكليف الشرعي هو الذي جاء به ليكون في موقع التصدي والمسؤولية .

"ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز"، فالدنيا عند علي عليه السلام ليس لها قيمة، وإن الأساس رضا الناس وتحقيق العدل والانصاف. وهذه هي النظرية التي طرحها الإمام علي عليه السلام في الحكم و الإدارة.

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه: "دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله ـ أي يصلحها ـ فقال لي: ما قيمة هذه النعل يا ابن عباس؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من أُمرتكم، إلا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً".

وهذا ما جعل الإمام علي عليه السلام اسطورة، لقد قالها وكان يؤمن بها، وليس هذا كلام سياسي يقول بلسانه خلاف ما يضمر في قلبه، فعلي بن أبي طالب عليه السلام صريح وواضح، وهذه الدنيا في منطق علي عليه السلام وهذا الحكم والكرسي ليس لها قيمة نعل بالية، إلا أن يقيم عدلاً ويدافع عن حق أو يوقف ظالما عند حده ويدفع باطلاً.

"ثم خرج وخطب الناس، فقال: ما لي ولقريش!" فأنا من قريش، وأنا ابن قريش، وليس لدي مشكلة مع قريش، ولست حاسدا لقريش، فانا ليس لدي عقدة حقارة

لكي أحقد على قريش وتأريخها وأصالتها، فمالي ولقريش. "والله لقد قاتلتهم كافرين" حينما حملت السيف بوجه قريش؛ لأني أردت أن أصلح الانحراف، لقد كانوا كفاراً لا يؤمنون بالحق والعدل. "ولأقاتلنهم مفتونين" واليوم إذ أقف بوجوههم فلأن لديهم تطلعات ومطامع ورغبات ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد أصبح لديهم طموحات في أخذ الحكم، فإن القضية مبدئية، وفي اليوم الذي يقف فيه علي بن أبي طالب ويعترض، فهذا الاعتراض لم يكن لأحقاد أو لقضايا شخصية، بل هذه قضية مبدئية. "وإني لصاحبهم بالأمس" فأنا ابن قريش بالأمس. "كما أنا صاحبهم اليوم" وأنا اليوم ليس لدي مشكلة شخصية معهم، فهم إخوتي وأجلس وأتحدث معهم، وإذا اعترضت عليهم فالاعتراض ليس لقضية شخصية، بل على خلفية ابتعادهم عن المنهج القويم وعن العدالة والإنصاف الذي طلبه الله سبحانه وتعالى من المسؤول والمتصدي، وهذه مشكلتي معهم.

"والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم" فمشكلة قريش معنا حسدهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام؛ لأن الله اختارهم وجعل فيهم الوجاهة والمنطق والعلم والانصاف وجعل فيهم محبة الناس، ولذلك هم يحقدون علينا. "فأدخلناهم في حيزنا"[٢٧٤] يوم جاءنا الناس فتحنا أبوابنا، وقلنا يا قريش تفضلوا، لا نريدها لنا وحدنا، فحقدوا علينا.

٢٧٤ . نهج البلاغة: الخطبة ٣٣.

المقطع التاسع

المبعدون

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر أيضاً عن سمات وصفات الأشخاص الذين يجب عليه إبعادهم، لأن هؤلاء سيكون لهم تأثير ما في قرار الحاكم والمسؤول وفي سمعته أيضاً، ويذكر أمير المؤمنين عليه السلام هنا صنفين ممن لا ينبغي أن يكونوا قريبين من الحاكم، وهما المتتبعون لعيوب الناس، والسعاة في الناس عند السلاطين.

الدرس التاسع والعشرون

صفات وسمات المبعدين

(طلاب العيوب)

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: "وليكن أبعد رعيتك منك، وأشأنهم عندك، أطلبهم لعيوب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك".

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع الشريف من عهده لمالك الأشتر عن أُولى الصفات السلبية التي يجب ألاّ توجد في المستشار، وهي تتبع عيوب الآخرين. ويجب على الحاكم والمسؤول أن يترك الإصغاء إلى ما ينقله البعض ممن يتتبع عثرات الناس، ويحذره من تقريب مثل هؤلاء، بل يقول له ليكن هؤلاء أبعد الناس منك وأبغضهم إليك، وهم مجموعة من مرضى النفوس التي تسخر طاقتها لتتبع عثرات الآخرين والتفتيش عن عيوبهم، ويكتبون بها التقارير ويرفعونها إلى السلطات للوشاية بهم وليقطعوا بها الرقاب والأرزاق.

ومثل هذه الفئة مقربة عند حكام الجور، بل هم عماد سلطانهم. ولكن في مدرسة الإمام علي عليه السلام لا يوجد لهؤلاء مكان في دولته، بل يوصي عليه السلام أن يكونوا أبعد الناس وأبغضهم عند ولاة العدل، وكلما أُبعدوا سلمت إدارة الدولة وقيادتها.

إن أصحاب التقارير الكيدية ونقلة أخبار السوء إلى الحكام والمسؤولين، ليحرضوهم على الناس، ويكشفوا عن عثراتهم إليهم، هم في الحقيقة يعزلون المسؤولين عن الناس، ويبنون بينهما جداراً من الشكوك والشبهات وسوء الظن، وسيشعر المسؤول في لحظة أنه معزول عن الشعب، كدودة القز التي تلف نفسها في شرنقة من عملها فتعزل نفسها عن محيطها الذي تعيش فيه. ولهذا يجب إبعاد هذه الشرذمة وطردها لأنها الخطر الحقيقي.

أولوية المسؤول في ستر العيوب

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام أولوية الحاكم والمسؤول في ستر عيوب الناس: "فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها"، فالناس خطاؤون وليسوا بمعصومين، وكل واحد منا لديه عثرة وعيب وكبوة، ولا يخلو منها بشر إلا من عصم الله، فإن الله سبحانه يبتلي عباده بشتى أنواع البلاء، وما هذه الدنيا إلا دار بلاء وامتحان، فالله جل جلاله يبتلي الإنسان بنفسه وأولاده وشؤونه الخاصة، وهذه سنة الحياة.

والحاكم والمسؤول والمتصدي اولى بستر هذه العيوب، حتى لا تخرج هذه الرائحة النتنة، وحتى لا تبين إلى الناس، وحتى لا ينكسر صاحبها في المجتمع. لا أن تنكشف في الأخبار العاجلة وعبر الفضائيات والوثائق التي لا نعرف الحقيقية فيها من الكاذبة، والتي تطول الناس وأعراضهم.

والوالي والمسؤول هو أحق الناس وأولاهم بستر هذه الأخطاء والعثرات. والكلام هنا ليس عن الكيدية والتلفيق، بل عن حدث حقيقي ومشكلة، وكيف يغطيها المسؤول.

نهي المسؤول عن تتبع العيوب

ثم ينهى أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم والمسؤول من تتبع عثرات الناس وعيوبهم، فيقول: "فلا تكشفن عما غاب عنك منها "، أي لا ينبغي للمسؤول البحث عن العيوب الخفية للناس، وعدم كشف ما هو مغطى ومستور منها، فليس من حق المسؤول أن يضع جهاز انصات ليراقب الاتصالات الهاتفية للناس، أو ينصب كاميرات خفية في منازلهم ليطلع على خفايا حياتهم الشخصية. فلا يجوز البحث عن أسرار الناس وكشف حياتهم الخاصة.

وظيفة الحاكم تطهير العيوب الظاهرة

ثم يبين علي عليه السلام الموقف الصحيح للحاكم ازاء العيوب، ويقول إن وظيفة الحاكم هي تطهير المجتمع من العيوب الظاهرة فقط، وأما العيوب المستورة والخفية عن أنظار المجتمع فيترك أمرها إلى الله سبحانه. يقول عليه السلام: "فإنما عليك تطهير ما ظهر

لك، والله يحكم على ما غاب عنك". إذن، هناك سيئة وموبقة والعياذ بالله تظهر بنفسها، ويجاهر صاحبها بها أمام أعين الناس بلا خجل وحياء، وانكشفت للناس وعرفوا بها وتداولتها ألسنهم، فهنا يجب على الحاكم أن يتخذ موقفاً صارماً للحد منها وتطهير المجتمع من آثامها.

القاعدة العامة في تعامل الحاكم مع العيوب

يقرر أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: "فاستر العورة ما استطعت" القاعدة العامة في التعامل مع العيوب، فالأساس هو الستر وليس الكشف. ويجب على المسؤول لو اطلع على عيب شخصي بحكم مسؤوليته أن يستره ولا يتعرف عليه الناس، وأما إذا انكشفت العيوب من نفسها وعُرفت في المجتمع أو كان صاحبها من المتجاهرين بها، فحينئذ على المسؤول محاسبة مرتكبها والتقليل من أضرارها الاجتماعية. وهذا هو الأساس في التعاطي مع العيوب والذنوب في المجتمع.

ثم يوضح عليه السلام العاقبة الجميلة للستر فيقول: "يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك"، فيجب على المسؤول حينما يرى انسانا تحت مسؤوليته في وزارة أو في شركة أو ما شابه قد ارتكب خطأ، وكان مستوراً وتعرف عليه بحكم موقعه، أن يتعامل مع صاحبه كما يحب أن يتعامل الله تعالى مع ذنوبه التي عملها خفية، فلا شك في أنه يحب أن يستر عليه، وسيجازيه الله تعالى بالستر على ذنوبه بالفعل لو ستر هو على ذنوب الآخرين التي ارتكبوها في السر.

وليعلم المسؤول أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وليتق الله سبحانه في خلقه، فإنه له بالمرصاد، ولو كشف اليوم ذنباً لشخص وهو في موقع القدرة والمسؤولية فإن الله تبارك وتعالى يسلط عليه من يكشف عيوبه وذنوبه، إذ هو ليس أقل خطأ وخطيئة من الآخرين، وليعلم أن موقع المسؤولية الذي هو حافظه اليوم لا يبقى له للأبد، فلو دامت لغيره ما وصلت إليه، وحتى لو بقيت فإن الله عز وجل يقيض لك أُناساً يشيعون ويشهرون بأخطائك في الأمصار وعلى رؤوس الاشهاد.

إذن، فكيفما تريد أن يتعامل معك الله تعالى تعامل أنت بنفس الطريقة مع من هو دونك في مساحة مسؤوليتك، ارحم تُرحم، وأستر تُستر، واهتك ستر غيرك يُهتك

سترك. وهذه هي السنة الإلهية، كما تدين تُدان. فعلى المسؤول ألاّ يبحث عن مستشارين يبحثون عن أسرار الناس وينقلونها إليه ويحرضونه على الآخرين. وهذا درس بليغ في صفة مهمة من صفات المستشار الذي يحتاج إليه المسؤول إلى جانبه.

وهنا مجموعة الإضاءات التي يمكن استفادتها من هذه الكلمات القيمة لأمير المؤمنين عليه السلام.

الإضاءة الأُولى

رفض مبدأ تتبع الأخطاء

لا يحق للمسؤول أن يبحث عن المستور من حياة الناس أو يتجسس ويتنصت ويتلصص ليكتشف أسرارهم، فإن لكل شخص أسراره وأخطاءه ومشاكله، وليس من حق أحد أن يبحث عنها. ومعيار المنظومة القيادية المبنية على أساس الاستقامة والثبات هو المودة والمحبة، وكشف الأسرار وفتح ملف الفضائح وإبراز الأخطاء تتقاطع مع هذا المبدأ، وسوف لن يقفوا صامتين ومكتوفي الأيدي، بل سيدافعون عن أنفسهم؛ إذ لا يقبل أحد بأن تنكسر شخصيته وتشوه سمعته.

وهذا سيربك صفو العلاقة في المجتمع، وهو يعني المزيد من التراشقات والأزمات، وهكذا تستمر وتتسع مساحتها يوماً بعد يوم حتى توصل المجتمع إلى الهاوية.

ويخطئ من يظن أنه يقوى بفضح أسرار الناس، بل يُضعف نفسه ويعزلها، فحينما يخرج ملفاً عن هذا أو ذاك ويكشف عن أسرار الناس فإن الروابط القلبية والعلاقة الإنسانية تتصدع وترتبك.

وعندما يبدأ المسؤول بكسر الحواجز والدخول إلى عالم المحظور ويكشف عن نقاط ضعف الآخرين، يتشجع من حوله بالبحث عن أخطاء الناس، ويتحول همهم إلى الحصول على معلومة أو خطيئة أو مخالفة عن الناس.

والذي لا يملك معلومة يوظف أُناسا حتى يأتوا بمعلومة، فتشيع ثقافة كشف الأسرار والفضائح، وهذه قضية تؤدي إلى عزل المسؤول عمن سواه وإشاعة حالة من سوء

الظن، فلا يعود المسؤول يثق بأحد، ويخاف حتى من أقرب الناس إليه، فيعيش نظرية المؤامرة؛ يلتفت يميناً فيشعر بالخطر، ويلتفت شمالاً فيشعر بالخطر، فتؤدي هذه إلى إشكالية كبيرة وخوف ورعب من حيث لا يعرف؛ لأنه قطع الجسور والصلات التي تبنى بشكل طبيعي بينه وبين الناس.

وفي تأييد هذا المعنى يقول أمير المؤمنين‌عليه السلام: "من تتبع خفيات العيوب حرمه الله سبحانه مودات القلوب"[٢٧٥]، فمن يبحث عن عيوب الناس يحرمه الله سبحانه في المقابل من مودتهم، وعندما يفقد الإنسان العواطف والمشاعر والمودة يتحول قلبه إلى حجر، ويكون قلبه قاسياً ويحرمه الله تعالى من الأحاسيس الإنسانية. وهذا أثر وضعي من آثار تتبع عيوب الناس وهفواتهم.

ولذا على المسؤول إذا أراد النجاح في مهمته أن يُبعد عنه الواشين والنمامين، وألاّ يسمح لأحد أن ينقل له فضائح الناس وأسرارهم. ولو حاسب المسؤول واحداً من هؤلاء فسوف لا يجرؤ أحد على أن يتكلم بمثل هذا الكلام، وسيقضى على هذه الحالة المرضية الخطيرة. والأخطر منها إذا تحولت إلى ثقافة في المجتمع، فيتكلم كل شخص عن سيئات الآخر.

ونلاحظ أن أمير المؤمنين‌عليه السلام يستعمل في هذه العبارات الكريمة أفعل التفضيل، فيقول: "أبعد رعيتك" أي ليس البعيد بل الأبعد، "وأشنأهم" أي ليس البغيض بل الأبغض. وما نفهم من أفعل التفضيل هذه أن أبغض المستشارين وأسوأهم هو الذي ينقل أسرار الناس إلى الحكام والمسؤولين.

وفيها إشارة إلى خطورة هذه الثقافة وتأثيراتها المدمرة في المجتمع، وأنها إذا نمت في داخل المنظومة القيادية فستكون بمثابة الغدة السرطانية التي تنتشر بسرعة، وملؤها القيح والنتن، ورائحتها الكريهة ستشمل كل مكان وستملأ الأجواء، وسيشعر الإنسان بعجزه عن معالجة هذه الظاهرة.

وإذا أمكن اكتشاف هذه الغدد منذ البدء، نستطيع السيطرة عليها، وإذا تأخر انتهت المنظومة القيادية، حين زرعت فيها مثل هذه الغدد السرطانية من إشاعة عثرات

---

٢٧٥. غرر الحكم ٥: ٣٧١.

الناس وأخطائهم، وستكون سبباً في القضاء على هذه المنظومة من حيث لا يشعر المسؤول.

وهنا لا يقول أمير المؤمنين عليه السلام للمسؤول: أبعد من ينتقدك من الناس أو يعترض عليك، بل يقول له: أبعد هؤلاء الملتصقين بك ممن يظهر لك مساوئ الناس. إذن الاعتراض يمكن أن يقبل، والنقد يمكن أن يسمع، ومن يعترض يُحسن الظن به، وقد يكون هذا الاعتراض ناشئاً من الحرص على المساحة التي يتصدى المسؤول لها، وقد تكون هناك أسباب أُخرى تدعو الإنسان للاعتراض والانتقاد.

وما اكثر أن يكون المعترضون والمنتقدون من الأصدقاء والأحباء، وليس كل من ينتقد خصما ومنافسا، وأحياناً هناك من ينتقد وهو يريد الخير لمن ينتقده والنجاح للمنظومة القيادية. فالنقد ليس دليل البُعد، وإنما إشاعة الأخطاء هي دليل البُعد، كما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

ويشير فيه أيضاً إلى حقيقة أُخرى وهي التحذير من الاقتراب من هؤلاء الذي يتعلمون ويتعودون على ذكر عثرات الناس، فهؤلاء لا يستطيعون ترك الانتقاد، ولابد من أن تشمل نارهم من يقترب منهم. فإذا كان اليوم بقرب المسؤول الفلاني تراه ينتقد الآخرين، وحينما يذهب إليهم ينتقد ذلك المسؤول ويظهر عثراته ويكشف عن أخطائه.

والإنسان في مواقع المسؤولية قد تكون أخطاؤه أكبر من أخطاء المواطن البسيط؛ لأن المساحة التي يتحرك فيها أكبر من المساحة التي يتحرك فيها المواطن البسيط، كما أن قدرته أقل فتكون أخطاؤه أقل، ومن تكون قدراته أكبر تكون أخطاؤه أكبر.

إذن، فهؤلاء الناس يمكن أن يروا في أي لحظة في الخندق الآخر، حيث يكشفون كل أخطاء من كانوا معه. وحينما قرأت الرواية التالية، ومن خلال مراجعة الكثير من التقارير الإعلامية والتقارير التي نطلع عليها، رأيت أن الكثير من ثغرات المسؤولين كُشفت من خلال أقرب الناس إليهم، ولعل هؤلاء في الأمس القريب هم من كانوا يكشفون عن عثرات الناس لهؤلاء المسؤولين، فانقلبوا عليهم وتقاطعوا معهم في قضية معينة فارتدوا ليكشفوا عن كل أسرارهم وعثراتهم.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في التحذير من مصاحبة هؤلاء: "إياك ومعاشرة متتبع عيوب الناس، فانه لا يسلم مصاحبهم منهم"[٢٧٦]، فلا تقرب ولا تتعايش مع من عملهم تتبع عيوب الناس؛ فانه لا يسلم من صاحبهم منهم، فهو صديقك اليوم وعدوك غداً، واليوم ينقل لك أخطاء الآخرين وغداً ينقل أخطاءك إلى الآخرين، وهذه من الإشكاليات الكبيرة التي يقع بها الإنسان.

الإضاءة الثانية

ضرورة ستر العيوب من الحاكم والمتصدي

إن الحاكم والمسؤول بحسب موقعه يستطيع الاطلاع على الكثير من خفايا الآخرين وأسرارهم، ولكن موقف الإسلام من هذا العمل يمكن إجماله بما يلي:

أولاً: ليس للمسؤول الحق في الاطلاع على عيوب الآخرين. ومن يأتيه بالعيوب ينبغي ألاّ يسمح له بنقل مثل ذلك له مرة أُخرى.

ثانياً: عندما تصل العيوب إلى المسؤول ويطلع عليها يجب عليه سترها وألا يلوح بها ويبقى يشير إلى هذا التلويح بمناسبة أو بغير مناسبة. فإن لم يفعل المسؤول ذلك فإنه سيفقد كل علاقاته مع الناس، وحينئذ لا يستطيع أن يبني حكمه في أي مساحة أُخرى للمسؤولية والتصدي.

لقد قرأت في التقارير أن آلات التصوير الدقيقة والصغيرة أصبحت في متناول أيدي الناس جميعاً لتوفرها في الأسواق، وأن الزوجة لكي تنظر إلى زوجها أين يذهب تضع له واحدة منها، والزوج حتى يتأكد من زوجته يضع لها واحدة أيضاً، وهكذا يفعل الصديق مع أصدقائه. وتبدأ المشاكل والعورات والفضائح، وهذا كله من المحرمات، ومما يؤدي إلى انهيارات كبيرة في المجتمع، وهو خلاف ما أراده الله سبحانه وتعالى.

إننا نرى التقنيات في هذه الأيام تستخدم بشكل خاطئ في تهديد الناس، وفضح أحدهم الآخر، وفي قطع هذه العلاقة التي يجب أن تستمر بالرغم من وجود بعض الأخطاء والخروقات هنا أو هناك.

---

٢٧٦. غرر الحكم ٢: ٢٩١.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام مهما كانت هذه السيئة التي تأتي بها إلى المسؤول كبيرة، لكن سيئة الاستماع لها أعظم، فلا ينبغي له أن يتفاعل مع نقل مثل هذا الخبر؛ لأن تتبع العثرات هو من أقبح العيوب كما عبر أمير المؤمنين عليه السلام. والمسؤول أولى بأن يلتزم بهذا الموضوع؛ لأن المسؤول لديه فرص أكبر للاطلاع على عورات الناس. فإذا أراد أن يفتح هذا الباب على نفسه وأن يكشف عن هذه العورات، فسيكون معزولاً ولا يستطيع أن يتصدى لأي مسؤولية بعدها.

الإضاءة الثالثة

ضرورة إصلاح ما ظهر من الأخطاء والعيوب

إذا انكشفت العيوب والرذائل للحاكم والمسؤول من غير تتبع منه، أو ان صاحبها هو الذي كشفها، فيجب عليه أن يطهره منها لكي يبقى المجتمع يتحسس من الخطأ والرذيلة والسلوك الخاطئ.

إن أخطر شيء على المجتمع هو عندما يفقد مناعته ضد الأمراض الاجتماعية الفتاكة، فالفايروس يأتي ويأخذ مأخذه والناس لا تتحسس به، فلا يهمهم أمر الحلال والحرام والقيم والعيب، ويضعونها تحت تسميات مثل الحرية، وتحت لافتة الحرية يتنكرون لها، وحينئذ يفقد المجتمع محدداته وكوابحه، فيكون كسيارة يصادفها منعطف خطير وهي في حال النزول، وليس فيها مكابح، فتؤدي بصاحبها إلى الهلاك.

وكذا المجتمع الذي ليس له كوابح ومصدات وحصانات، هو مجتمع خطير يسير نحو الهاوية. ونلاحظ اليوم في مجتمعات صناعية في دول كبرى تعتبر الأُولى في العالم اقتصادياً، التفكك الأُسري وارتفاع نسب الطلاق والجريمة والرذيلة وتعاطي الكحول والمواد المخدرة و...، ونلاحظ أيضاً انخفاض مؤشرات الرحمة والشفقة والإنسانية، وارتفاع المؤشرات السلبية، وأصبح الزواج في مثل هذه المجتمعات حالة إضافية، فيعيش مع امرأة عشرين سنة بعنوان صديقته والأولاد من رجال شتى!.

وربما يشاهد البعض مثل هذه الحالات في المسلسلات الأجنبية وتصبح لديه الحالة

طبيعية. فلا تستبعدوا أن يذهب المجتمع الذي ليس له حصانات إلى الهاوية. ولذلك إذا ظهر الخطأ فعلى المسؤول أن يعالجه ويتخذ موقفاً تجاهه لتبقى حرمة للمعصية.

ومن الممكن أن يخطئ البعض في الخفاء، ولكن تبقى حرمة للمجتمع. وليس من مهام المسؤول أن يتجسس على الناس، بل لا يجوز له ذلك. إن مشكلة المسؤول أحياناً أنه يتقمص ثوب الأُلوهية والعياذ بالله، ويريد أن يعرف كل شيء مثل الله سبحانه وتعالى العالم بالنوايا والخبايا والأسرار!.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة له في بيان صفات الله سبحانه وتعالى: "قد علم السرائر، وخبر الضمائر"[٢٧٧]، أي أن الله يعلم ما يخفى، ويعلم بماذا يفكر ضمير الناس، ولماذا تكلم هكذا، ولماذا فعل الحركة الفلانية..وهكذا. والذي يبرر علم الله سبحانه بالضمائر أن له الإحاطة بكل شيء، فهو العالم بكل شيء، والغالب على كل شيء، وله القدرة على كل شيء، ولكن هل سأل المسؤول الذي يتقمص ثوب رب العالمين، عن جواز ذلك له؟، ومن أعطاه هذا التخويل، وهو مجرد مدير قسم أو مدير دائرة أو وزير، ليس أكثر من هذا؟. فلا يجوز له أن يبحث عن عثرات الناس وعيوبهم .

الإضاءة الرابعة

الآثار الوضعية للكشف عن أخطاء الناس

هناك آثار وضعية للكشف عن أخطاء الناس وعيوبهم وعثراتهم. منها أن الله سبحانه وتعالى يبتليه بنفس الابتلاء. وكلما كان الإنسان أقدر بإمكاناته كانت قدرته على المعصية والعياذ بالله أكبر، فالإنسان البسيط يخاف من العقوبة المترتبة على ارتكاب الخطأ، ولكن الحاكم والمسؤول آمن من العقوبة إذا ارتكب خطأ، بل تصفق له الناس، وإن أمكن أن يتهامسوا بينهم ولكن لا يجرؤون على أن يقولوا هذا في وجهه، أي تكون جراءة المسؤول على المعصية أكبر.

وكلما كثرت أمواله أو ازداد نفوذه، زادت مقدرته على المعصية. فعلى المسؤول أن يحذر لأن احتمال وقوعه في الخطأ والمعصية والفضيحة أكبر، فهو يستطيع أن

٢٧٧ . نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

يكشف ويفضح ويفتح الملفات، بينما لا يستطيع الناس أن يبحثوا عن ملفاته ويفضحوا أسراره.

ولكن ليعلم أن الناس العاديين، إذا كانت ملفاتهم تفتح، وتفضح أسرارهم ويسجنون، أو يظهر خبر في موقع الكتروني أو في فضائية معينة، فإن فضائح الحاكم والمسؤول تسجل في التأريخ، وتدخل في وثائق ويكليكس، حتى لو بعد مائة سنة تذكر وتعاد، وادخلوا الآن على كثير من المواقع، مثل اليوتيوب واكتبوا اسم أي قيادي أو زعيم فسيظهر لكم كل تأريخه.

فعلى المسؤول إذا أراد أن يحافظ على أسراره، أن يحافظ أولاً على أسرار الناس، وإذا أراد ألاّ تظهر فضائحه فعليه ألاّ يظهر فضائح الآخرين، فكما تدين تُدان، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها، وهذه هي سنة الحياة. وهذا هو الدرس البليغ للإمام علي عليه السلام في قوله: "فاستر العورة ما استطعت يستر الله ما تحب ستره من رعيتك".

إذا رغب المسؤول في إخفاء شيء عن الناس، عليه أن يبادر أولاً إلى ستر عيوب الناس لكي يستر الله سبحانه وتعالى عيوبه. ولذلك يجب على المسؤول ملاحظة هذه الآثار الوضعية للمعصية وكشف أسرار وعيوب الآخرين، فالإنسن لا يخلو من الأخطاء، وكل بني آدم خطاؤون إلا من عصم الله سبحانه وتعالى، وتبدأ هذه العيوب بالظهور على الرغم من الكتمان الشديد؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يريد ظهورها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في تأييد هذا المعنى: "لا تتبعن عيوب الناس فإن لك من عيوبك إن عقلت ما يشغلك"(٢٧٨)، أي لن تعيب أحداً إذا كانت لديك القدرة على التفكير وتوظيف عقلك؛ لأنك سوف تعرف أن الانشغال بعيبك أولى من الاشتغال بعيوب الناس. وعلى المسؤول أن يهتم بنفسه وأخطائه ويراجع حساباته وينظر كيف عمله وماذا قال، ويبادر إلى معالجة هذه الأخطاء، فهو أفضل من البحث عن زلات وأخطاء الآخرين .

٢٧٨ . غرر الحكم ٦: ٢٩٢.

وفي رواية أُخرى عن علي عليه السلام يقول: "من أبصر عيب نفسه لم يعب أحداً"[٢٧٩]، أي من يرى عيوب نفسه لا يعيب الآخرين.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس"[٢٨٠]، أي هنيئاً لمن ينشغل بعيوبه ونواقصه ولا ينشغل في البحث عن عيوب الناس. هذا أيضاً درس كبير من دروس أمير المؤمنين عليه السلام.

الإضاءة الخامسة

ضرورة اتصاف المسؤول بسعة الصدر

إن أهم ما ينبغي توفره في الحاكم والمسؤول هو سعة الصدر، أي يجب أن يكون لديه التسامح والصفح عن الآخرين، ويجب أن يكون حليماً، فإن الحلم مسألة ضرورية ومهمة للمسؤول الذي يريد النجاح، فلا يمكن أن يكون حقوداً أو شامتاً، فعندما يصبح الإنسان مسؤولاً ويتحمل هذه الأمانة يجب أن يفتح صفحة جديدة مع الناس، والذي ينقل له الخبر يوقفه عند حده ويوبخه على فعله، ويحذره من العودة إلى هذا العمل ثانياً.

فإن فعل ذلك مرة أو مرتين، فلا يجرؤ أحد بعدها على نقل عيوب الناس، ويقضي على هذه الظاهرة، وتشيع روح المحبة في المحيط الذي هو مسؤول عنه، وتتعزز الثقة وتطيب الخواطر وتهدأ النفوس. وسيتخلص المسؤول من كثير من المشاكل والازعاجات التي تسببها هذه الأخبار والمعلومات.

إن النظرة الضيقة عند المسؤول لا تساعده على نجاح مهمته القيادية، فإن من يكون في مواقع التصدي يجب أن تكون نظرته واسعة، وقلبه كبيرا، وصدره رحبا؛ لكي يستطيع أن يتحمل كل هذه الأُمور ولا يعيش الحقد والكراهية.

وقد مدح الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بسعة الصدر وعدها من النعم التي تفضل بها عليه، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٢٨١]، فالصدر الرحب مكرمة

---

٢٧٩. بحار الأنوار ٧١: ٤٧ح٣.
٢٨٠. بحار الأنوار١: ٢٠٥ ح٣١.
٢٨١. الشرح: ١.

من الله سبحانه وتعالى لأعظم إنسان في عالم الوجود، منذ أن خلق الخلق إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وقد تحمل رسول الله صلى الله عليه وآله من قومه أصناف العذاب حتى قال: "ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت"[٢٨٢]، وكان يكفي أن يرفع يديه بالدعاء عليهم حتى ينزل العذاب، ولكنه لم يفعل، بل كان يدعو لهم ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[٢٨٣]. وهذه هي سمات القيادة الناجحة؛ أن يكون الإنسان كبيراً.

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن وصف رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «كان أوسع الناس صدراً»[٢٨٤]، أي كلما كان الإنسان أكبر مسؤولية يجب أن يكون أوسع صدراً.

ويروي الإمام الحسين عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله: «ترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يذكره في شيء مضى يكرهه، ولا يطلب عثرته»[٢٨٥]، فرسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يعمل ثلاثا:

الأُولى: كان لا يذم أحداً، فإذا أراد أن ينصح أحداً كلمه من غير أن يجرح مشاعره، إما بالإشارة أو الكناية أو عن طريق شخص آخر وبأُسلوب إياك أعني واسمعي ياجارة؛ لأن الناس تكره النصح المباشر.

الثانية: كان لا يذكر أحداً في شيء مضى يكرهه، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يعير أحداً بشيء قد أرتكبه سابقاً، أو أن يذكره به، أو يذكره أمامه.

الثالثة: كان لا يطلب عثرة أحد أو عورته، فلم يكن من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله تتبع عثرات الناس وعيوبهم، وكان ينهى عن ذلك ويقول: «استروا على اخوانكم»[٢٨٦]. وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «اسكتوا عما سكت الله عنه»[٢٨٧]، ولم يكن يسمح بذلك لكي تبقى الأُخوة والتسامح والمودة سالمة بين الناس.

---

٢٨٢. بحار الأنوار ٣٩: ٥٦.
٢٨٣. بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.
٢٨٤. بحار الأنوار ٦٤: ٣١٠ح ٤٥.
٢٨٥. بحار الأنوار ١٦: ١٥٣ح٤.
٢٨٦. مستدرك الوسائل ١٢: ٤٢٦ح ٧.
٢٨٧. السرائر ١: ١٢٦، المهذب البارع ٢: ٢١٠.

وهذه حقيقة ودرس بليغ في الحياة أن نرى النصف الممتلئ من الكأس لا النصف الخالي. فالحقيقة واحدة ويجب أن نكون إيجابيين في الحياة، وننظر إلى الإيجابيات ونبني عليها، ونغض النظر عن السلبيات، فهذه الأُمور تعطي لحمة للمجتمع وتجعلنا أكثر تماسكاً. وهذه دروس الحياة ودروس التصدي يعلمنا إياها الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ينقل القراءة الصحيحة لرسالة الإسلام.

الدرس الثلاثون

سمات مهمة للمسؤول

(السعاة بالناس عند السلاطين)

وهناك سمة أُخرى من سمات المستشارين وردت في العهد الشريف لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تعجلن لتصديق ساع، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين».

يذكر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرة المباركة سمتين مهمتين من السمات التي ينبغي أن تتوافر في المسؤول، هما:

الأُولى: تغافل المسؤول عن الصغائر والتفاصيل الجزئية.

«وتغاب عن كل ما لا يضح لك»، أي عن كل ما لا يظهر لك. يوصي أمير المؤمنين عليه السلام مالكا الأشتر ومن ورائه كل مسؤول بالتغافل عن الأمر الذي لا يظهر أمامه ولا يراه بنفسه من أخطاء جزئية أو قضايا هامشية، وما يصدر من البعض من إساءات بسيطة بحق الدولة أو بحق المسؤول نفسه، وهذه الأخطاء في التفاصيل والجزئيات التي لا تتضح أو تتبين قد يقع فيها كثير من الناس، ولذا يجب التغاضي عنها وترك المحاسبة عليها.

ولكن لو حدثت مخالفة قانونية أو جرم مشهود من أحدهم أمام المسؤول، أو تحدث

علناً وعلى رؤوس الأشهاد وأمام الناس فهذا بحث آخر، فالحديث عن الأُمور غير الواضحة التي يجب على المسؤول أن يتغافل عنها .

الثانية: التصديق بالنمامين يؤدي إلى ضياع المسؤولية.

«ولا تعجلن لتصديق ساع»، والساعي هو النمام. يوصي أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الكلمة الحاكم والمسؤول بعدم الاستعجال بتصديق ما ينقله النمامون والوشاة وحملة التقارير، فربما كان ما ينقلونه كذباً وتقارير كيدية قد يثبت بعد ذلك بأنها غير صحيحة، وحينئذ يتوجب عليه الاعتذار.

ثم يبين عليه السلام العلة التي من أجلها ترك تصديق النمامين، يقول: «فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين»، فالنمام من طبيعته الغش، وأصحاب التقارير ديدنهم الغش وإن ظهروا للمسؤول بمظهر الناصح والحريص. ولذا عليه ألاّ يرتب الأثر على تقارير هؤلاء؛ لأن ذلك سوف يؤدي إلى ضياع المسؤولية والفرصة في قيادة المهمة التي هو مسؤول عنها. وهذه العبارات على قصرها تعطي دروسا مهمة للحياة. ونستعرض هاتين الخصلتين بشيء من التفصيل فنقول:

الأُولى: الاهتمام بالأُمور الأساسية والتغافل عن التفاصيل.

يجب على المسؤول أن يتحلى بسعة الصدر، فلا يقف عند صغائر الأُمور، وأن يكون ذا أُفق واسع، وأن يكون كبيراً، ينظر للأُمور بعين ثاقبة ويتجاوز التفاصيل الصغيرة والجزئيات.

وعلى المسؤول أن ينظر للاتجاهات والبوصلة بالاتجاه الصحيح، وأما باقي التفاصيل الجزئية والقيل والقال، فيجب عدم الوقوف عندها حتى تنجح المهمة القيادية ويحصل التطور والتقدم في الواجبات القيادية.

إن إحدى الخصال المهمة التي ينبغي توافرها في المسؤول هي سعة الصدر والتعامل بعقلانية وحلم وضبط النفس وعدم الذهاب وراء الانفعالات الشخصية وتغليب المصلحة العامة في المهمة القيادية ...وهذا درس كبير من دروس علي عليه السلام.

وأما الانغماس في التفاصيل، فسوف يترك أثراً سلبياً في نفس المسؤول، وبالتالي

سيرى نفسه معزولاً عن مجتمعه. فإن الاهتمام بالصغائر ـ وهي تصدر من الجميع ـ يوصل المسؤول الى أن يكون معزولاً حتى عن أقرب الناس إليه، كما أن متابعة التفاصيل سوف تفشل المهمة القيادية للمسؤول وتحوله إلى إنسان عادي يهتم بصغائر الأُمور.

فعلى المسؤول أن يستحضر الأهداف الكبرى ويغض الطرف عن الجزئيات والصغائر..

يقول علي عليه السلام: «لا تداقوا الناس وزنا بوزن، وعظموا أقداركم بالتغافل عن الدني من الأمور»[٢٨٨]، أي لا تتعاملوا مع الناس بالمثاقيل ، ولا تقفوا عند اللقطات العابرة. وارفعوا من شأنكم وقيمتكم، واتركوا الأُمور الدنيئة والبسيطة والجزئية وتغافلوا عنها .

وقال عليه السلام أيضاً: « أن العاقل نصفه احتمال ونصفه تغافل»[٢٨٩]، أي أن العاقل لا يكون عاقلاً إلا بأمرين، الأول: التحمل وسعة الصدر، والثاني: غض الطرف عن الجزئيات والصغائر. ومن هنا ينبغي على المسؤول أن يستحضر الأهداف الكبرى والمسائل المصيرية في مهمته القيادية من أجل تحقيقها.

وقال عليه السلام أيضاً: «لا حلم كالتغافل، ولا عقل كالتجاهل»[٢٩٠]، فحلم الحليم في تغافله عن الجزئيات، وعقل العاقل في تجاهل الجزئيات والأخطاء التفصيلية .

وقال عليه السلام أيضاً: «من لم يتغافل ولا يغض عن كثير من الأُمور تنغصت عيشته»[٢٩١]. يجب على المسؤول عدم الاهتمام بالقيل والقال ومتابعة التفاصيل، فإن ذلك يؤرقه ويحول حياته إلى نكد، ويفقد معها الاستقرار والطمأنينة، وينشغل عن المهمة الأساسية له في خدمة من هو مسؤول عنهم.

إذن، فالتغافل والتجاهل عن الصغائر دليل الاستقامة في السلوك، ودليل القوة في المهمة القيادية، ودليل التشخيص الدقيق لفقه الأولويات في المسارات ..

٢٨٨ . بحار لأنوار ٧٥: ٦٤ ح ١٥٧.
٢٨٩ . عيون الحكم والمواعظ: ٩٤.
٢٩٠ . غرر الحكم ٦: ٣٥٦.
٢٩١ . غرر الحكم ٥: ٤٥٥.

ومما ورد في تأييد ذلك قول أمير المؤمنينعليه السلام: «من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم»[٢٩٢]. يجب على المسؤول التغافل عن الأخطاء والسلبيات الصغيرة، وهذا هو المنهج والطريق الصحيح في الإدارة والقيادة.

وهنا أوجه ندائي للأب والأم وهما المسؤولان عن الأسرة: لا تحاسبوا أبناءكم على صغائر الأُمور ما داموا سائرين في الطريق الصحيح.

وصغائر الأُمور لها عدة معان ومفاهيم؛ فهي في الأسرة ليست كما في مؤسسات الدولة الكبيرة، ولذا يجب أن ننظر للأُمور بحسب ماهيتها. فالبعض يرى أن التجاهلٍ والتغافل عن الجزئيات دليل ضعف، وقد يقول المسؤول: كيف أكون مسؤولاً إذا لم أعرف وأدرك ما يحصل في دائرتي، واذا لم أنشر العيون لمراقبة الناس في كل مكان، وما الدليل على أن التغافل دليل قوة؟، وما الدليل على أنه مؤشر على الضعف؟.

إن التغافل والتجاهل عن الصغائر دليل استقامة في السلوك، ودليل قوة في المهمة القيادية، ودليل التشخيص الدقيق لفقه الأولويات والأسبقيات في المسارات القيادية، ودليل على أن المسؤول عارف أين هو اتجاه البوصلة، وحينئذ لا يدع الآخرين يتحكمون به، ويدرك أن لديه مهمة كبيرة عليه السير بها في الاتجاه الصحيح. إذن، فالتغافل والتجاهل دليل قوة وليسا دليل ضعف.

ويقول أمير المؤمنينعليه السلام أيضاً:«أشرف خصال الكرم غفلتك عما تعلم»[٢٩٣]، أي أن أشرف خصال الكريم هي التغافل عما يعلم، وهو دليل قوة؛ لأنه لا يبذل جهده حينئذ في ما لا يستحق، ولا يهتم بالترهات والتفاصيل الجزئية.

ولكن يجب ألاّ يُفهم أن التجاهل والتغافل عن الصغائر وعن التفاصيل الجزئية هو تجاهل عن الأخطاء وخرق القانون والاعتداء على حقوق المواطنين وانتهاك الحرمات، فالظلم الذي يقع على المواطنين، والتعامل السيئ معهم يجب ألاّ يتهاون

٢٩٢ .نهج البلاغة: الحكمة ٢٢٢.
٢٩٣ . جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٥٦٤.

بهما ولا يسكت عنهما. ويجب الوقوف عند الأخطاء والمخالفات القانونية والتجاوز على الحقوق، ويجب معالجتها وعدم السماح بأن تأخذ مسارات ومديات بالشكل المفتوح، ويصبح المواطن خائفاً على نفسه وعلى أمنه وعلى حقوقه، فهذه الأُمور ليست جزئية يتغافل عنها، بل هي مسائل يجب الوقوف عندها لأنها ترتبط بصميم المهمة القيادية.

وكذلك يجب الوقوف في موارد الشبهة وعدم الاندفاع معها ومحاسبة المقصرين، لا محاسبة الإنسان النزيه والشريف الذي لا يساوم، ويدافع عن حقوق الناس، فهناك أُناس انتهازيون لا يعجبهم العمل الصحيح، ولذلك يتآمرون على الصالحين والنزيهين بشتى السبل.

إن الاعتداء على القانون ومخالفته وكسر هيبة الدولة تتطلب موقفاً حازماً، في حين تتطلب التفاصيل والجزئيات والتقارير الكيدية والمشاغبات تريثاً وحكمة ..

فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أدرؤوا الحدود بالشبهات»[٢٩٤] حتى لا تقعوا في ظلم الناس، فإنه لا يمكن اتخاذ الإجراءات وفقاً للاتهامات والظنون والأقاويل، فقد يسجن إنسان مظلوم ويفقد عمله ثم يطلق سراحه بعد عدة أشهر، وهذا عمل غير صحيح، فمن يتحمل المعاناة المادية والمعنوية لهذا الإنسان؟.

إن الأخذ بالظنون والاتهامات والتساهل في اتهام الناس قضية خطيرة جداً، وتعد اعتداء ومخالفة للقانون وكسراً لهيبة الدولة، وتحتاج إلى موقف حازم. فالتفاصيل والجزئيات والتقارير الكيدية والمشاغبات تحتاج إلى تريث وتوقف وحكمة في التعاطي مع هذا الموضوع .

الثانية: التصديق بالنمامين يؤدي إلى ضياع المسؤولية .

يجب إبعاد النمامين والواشين وأصحاب التقارير الكيدية؛ لأنهم يسيئون للمسؤول، ويحرجونه في مواقفه، ويجعلونه غاضباً دائماً على الآخرين، ويعيش أزمة الثقة مع

---

٢٩٤ . وسائل الشيعة ٢٨: ٤٧، باب ٢٤ من كتاب الحدود، ح ٤.

الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّف مَهِين × هَمَّاز مَشَّاء بِنَمِيم﴾[٢٩٥] رغم أنه يحلف بأغلظ الأيمان فلا تطعه ولا تسمعه؛ لأنه يحاول إبعادك عن المجتمع الذي أنت فيه، فلا تقربه لكي تنجح .

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إياكم والنميمة»[٢٩٦]، فإن من ينمّ لك سوف ينمّ عليك في يوم آخر، والنمام فايروس خطير، ولذا «لا يدخل الجنة نمام»[٢٩٧]. فلا تتبعوا عثرات الناس ولا توقعوا الناس بعضهم ببعض، فالجنة تحرم على النمام، هذا ما يقوله رسول الله صلى الله عليه وآله.

وذكر الشيخ المفيد في كتابه الاختصار أنه جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبره أن هناك من يتكلم ويتهجم عليه فأجابه علي عليه السلام: «يا هذا إن كنت صادقا مقتناك»، أي إذا كان كلامك صحيحا فإنني أمقتك، لأن علياً عليه السلام لا يسمح لأحد بأن ينقل كلام الآخرين وأخطاءهم الشخصية إليه وإن كانت صحيحة، فإنه مدعاة للضغينة والأحقاد، « وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن أحببت أن نقيلك أقلناك».

وهكذا يضع علي عليه السلام الخيارات أمام الرجل، فإن أراد سحب تقريره فإن العفو ينتظره، فهذا الرجل كان يأمل في أن يكافئه علي عليه السلام على نقله لأخطاء الناس بحقه الشخصي ويحصل على امتيازات، إلا أنه رأى عكس ما أراد. «فقال: أقلني يا أمير المؤمنين»[٢٩٨] ، فطلب العفو والصفح وسحب تقريره ووشايته.

إن النميمة لا تؤدي إلا إلى الكراهية والعداء والأحقاد، وعلى المسؤول ألاّ يقف عند الصغائر والأخطاء الجزئية للرعية، وهذه تربية علي عليه السلام في عدم قبوله للنميمة، فيجب التريث وعدم الإسراع بقبول النميمة وترتيب الأثر عليها .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتبعد عن الله وعن الناس»[٢٩٩]، أي أن البغضاء والشحناء والخصومة هي من آثار النميمة، وهي تبعد

٢٩٥ . القلم: ١٠-١١.
٢٩٦ . كنز العمال ٣: ٦٥٥ ح ٨٢٥٤.
٢٩٧ . بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٨.
٢٩٨ . بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٦ح١٣.
٢٩٩ . عيون الحكم والمواعظ: ٩٦.

الإنسان عن الله سبحانه؛ لأنه يتخذ مواقف لا يرضى بها الله تعالى، كما تبعد عن الناس؛ لأنها تحدث النزاعات بين الناس.

وعن علي عليه السلام قوله أيضاً: «إياكم والنمائم فإنها تورث الضغائن»[٣٠٠] ..نسأل الله تعالى أن نتجنب ذلك، وأن يجعلنا ممن يقرب الناس ويتشاور معهم، وأن يقدموا لنا النصح في ما هو خير، ويقربونا من الآخرين ولا يبعدونا عنهم.

٣٠٠. بحار الأنوار ٦٨: ٢٩٣ح ٦٣.

المقطع العاشر

المستشارون والوزراء

يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر أيضاً عن المستشارين والوزراء وسماتهم ، وأنه يجب على المسؤول حينما يختار مستشاريه أن يلاحظ مجموعة من الصفات والسمات في هؤلاء المستشارين، حتى يمكن للمشروع أن ينجح، ويحرص على ألاّ يكون بين هؤلاء المستشارين من يحمل صفات وسمات سلبية، تحولهم من أداة وسند وقوة للمسؤول إلى سبب في إحباط المهمة القيادية، وفي إفشال جهود المسؤول في الوصول إلى النتيجة المرجوة .

الدرس الحادي والثلاثون

سمات وصفات المستشارين

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر في ذكر باقي الصفات السلبية التي يجب ألاّ توجد في المستشار: «ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله».

يوصي أمير المؤمنين عليه السلام كل من يتصدى للحكم والمسؤولية أن يختار مستشاريه بشكل دقيق، وقد حذر عليه السلام في هذه الفقرة من اختيار ثلاثة أصناف من الناس ممن توجد فيهم إحدى الخصال المذمومة: البخل والجبن والحرص.

الصنف الأول: البخيل

ينبغي للحاكم والمسؤول ألاّ يضع في طاقم مستشاريه بخيلاً، لأنه في موقع قيادي وإداري مهم ويريد أن يقود شعباً بأكمله؛ ولدى الناس مطالب واستحقاقات وتوقعات يجب تلبيتها. والمستشار إذا كان شخصاً بخيلاً سوف لن يدع المسؤول يقدم شيئاً للناس، ويمنعه من كل إحسان.

وكلما حاول أن يعمل شيئاً، منعه المستشار بسبب بخله، من تقديم أي إحسان إلى الناس، ويفتعل لذلك المبررات؛ فيقول إن المادة الفلانية من القانون تمنع ذلك مثلاً،، ويبقى يبحث عن ثغرات لتثبيط المسؤول ومنعه من تقديم الإحسان إلى الناس، ولهذا لا ينبغي للمسؤول أن يضع بخيلاً ضمن مستشاريه؛ لأنه لا يعطيه المجال للخدمة، ويخلق له الأجواء المكفهرة والآثار الوخيمة لكل عمل إيجابي. في حين أن مجال المسؤولية يعني الخدمة والعطاء وتقديم الإحسان للآخرين، وبدون العطاء لا يستطيع أن يحسن إدارة العملية القيادية .

كما أنه سيعده الفقر لو أنفق شيئاً على الناس، بذريعة أن الميزانية ستفرغ مثلاً، ولا يعطيه مجالا للخدمة وتقديم شيء للناس.

الصنف الثاني: الجبان

ويحذر أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً من وضع الجبان في طاقم المستشارين، لأنه يلقي الرعب في روع المسؤول ويمنعه من الإقدام على ممارسة أي عمل لمصلحة الناس، بينما تحتاج الإدارة إلى قرارات حاسمة وجرأة وإقدام مع حكمة، وتحتاج إلى شجاعة بلا تهور.

وعندما يريد المسؤول أن يتخذ قراراً جريئاً فإنه قد يرضي الكثيرين، ولكنه في نفس الوقت قد لا يرضي البعض. فمثلاً إذا أراد المسؤول اتخاذ قرار جريء يقلل من امتيازات الطبقة المرفهة والمسؤولين وذوي الدرجات الخاصة ويعطي للفقراء والمساكين، فإن ذلك لن يرضي المستشار، وسيقول إننا سنهيج الآراء ضدنا، وسيظهرون على الفضائيات ويتكلمون عن أُمور أُخرى تربك الوضع السياسي، وأمثال هذا الكلام، إلى أن يثبط من عزيمته، حتى يثنيه عن طرح المشروع، أو التراجع عنه.

الصنف الثالث: الحريص

ويحذر أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً من وضع الحريص في طاقم المستشارين؛ لأنه يبحث عن مداخل في كيفية الاستحواذ على أي شيء بدون حق، فيقترح على المسؤول أن يضع يده على حق ويسترجعه ولكن بالجور، أو يأتي له بمائة صياغة قانونية تبرر له وجود مائة امتياز يخصه ويمتاز به عن الآخرين، أو يوجد له مائة ثغرة قانونية لكي يتمدد ويضع يده على كل شيء على حساب الآخرين.

وقطعاً، فإن حرص هذا المستشار ليس حرصاً إيجابياً، لأن الحرص الإيجابي على المال العام ومصالح العباد والبلاد والالتزام ورعاية القانون شيء حسن، ولكنه يأمره بالحرص السلبي ويفتح شهيته على الظلم والتعدي والتمدد وبسط اليد على حقوق الآخرين، وإنسان كهذا لا ينفع في شيء.

الخصال الثلاث وسوء الظن بالله

وهذه الخصال الثلاث ـ البخل والجبن والحرص ـ يجمعها سوء الظن بالله سبحانه

وتعالى، لأنها غرائز شتى وطبائع مختلفة مصدرها ومنشؤها واحد، فالبخيل أو الجبان أو الحريص يريد أن يستحوذ على كل شيء ويأخذه ولا يعطي شيئاً للآخرين، وكلها ناتجة من سوء الظن بالله سبحانه وتعالى.

فالبخيل يخاف من نفاد الأموال، ويتجاهل أن الله تبارك وتعالى الذي أرسلها سيرسل غيرها. والحكمة في الإنفاق أمر جيد، ولكن إذا كان يعتقد بأن حياته ستسير بالأرقام فهو متوهم؛ لأن الله تعالى هو من رتبها وقدرها، فعلى الإنسان أن يستعمل الحكمة ويتوكل على رب العالمين.

وأما الجبان فهو يخاف من ثورة الناس عليه، والموقف الصحيح أن يواصل المسؤول مسيرته إذا كانت حقاً، ويمضي على بركة الله، ويشرح ويوضح ويدافع عن موقفه ومشروعه، وأهل الخير كثيرون، ودعاة الحق كثيرون، والحق يخدم المساحة الأوسع من الأمة، وسيرحب به من كانت المصلحة له وهم الأكثرية، ولا يبالي باعتراض من لا مصلحة له فيه، أو من ضربت مصلحته لأنهم الأقلية. فالجبن سوء ظن بالله تعالى.

وكذلك الشره والحريص؛ فهو يحرص المسؤول على أن يأخذ بالجور كل شيء، ولا يعطي دوراً لأحد، ولا يسمح لأحد بالتنفس. وإذا كان مسؤولاً عن أُسرة لا يعطي المجال للمرأة والأطفال، وإذا كان رئيساً لشركة يجعل الجميع يخشون سطوته، وهكذا مدير الدائرة.

وهذا الشره ووضع اليد على كل شيء وأخذ كل شيء دليل واضح على سوء الظن بالله تعالى، وهو لا يملك ثقة بنفسه ولا بربه الذي يمنحه الفرص بدون الاعتداء على الآخرين.

وهناك مجموعة من الإضاءات يمكن استفادتها من هذه العبارة الوجيزة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

الإضاءة الأُولى

أهمية المشورة

المشورة مهمة جداً، ولا ينبغي أن يظن أحد أنه قادر على الاستغناء عن مشورة الآخرين، أو يعتقد بأنه يفهم كل شيء. فالإنسان مهما كان عالماً وخبيراً في مجال ما، قد يلتفت إلى جهات وتغيب عنه جهات أُخرى، ولذا يجب عليه استشارة الآخرين ليشاركهم عقولهم وتجاربهم وأفكارهم ورؤاهم، فعقول وتجارب ورؤى وأفكار الآخرين تصبح في خدمته وتقلب له الأُمور والمسائل من زوايا مختلفة، وتصبح لديه ثقة بالموقف الصحيح. والخطوة التي ليس فيها مشورة ليس فيها بركة، والبركة تأتي عند التشاور مع الآخرين، ومشاركتهم عقولهم وطاقاتهم وقدراتهم.

إن المسؤول لا يخسر شيئاً من المشاورة، بل ستمحص قراراته ويصبح القرار مطبوخاً وناضجاً وحكيماً وفيه مراعاة لكل الجوانب، وليس من الصحيح أن يصدر المسؤول قراراً مستعجلاً ثم يأتي شخص بعد ساعتين ليقول له ان هذا القرار يخالف المادة الفلانية من القانون، فيضطر إلى نقض القرار، ثم يأتي شخص آخر ليبين له العواقب المترتبة على نقض القرار.. وهكذا.

وسيعيش في حالة فوضى من تضارب القرارات مع بعضها، ولن تبقى هيبة للدولة بعدها. ولهذا يجب على المسؤول أن يعتمد المشورة بشكل أساسي في جميع قراراته ومواقفه لكي يستطيع اتخاذ القرار الصحيح، وكلما ظهرت ثغرة في القرار يرى أنه قد التفت إليها ووضع لها العلاج المناسب. وحينئذ سوف لن يندم ولن يتراجع عن قراراته، ليس من باب العزة بالإثم، ولكن لأن القرار أخذ بنظر الاعتبار كل الأُمور التي تطرح كعوائق ومصدات أمام هذا الموقف والقرار.

ولذلك نجد التأكيد الكبير على مبدأ المشورة في الرؤية الاسلامية، والآية الشريفة التي تتحدث عن الشورى والمشورة تجعل المشورة واحدة من أهم الفرائض والواجبات الإسلامية؛ يقول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٣٠١]، فقد جاءت

٣٠١. الشورى: ٣٨.

الاستجابة لله والصلاة والإنفاق والشورى في سياق واحد، وهذا يعني، بمقتضى السياق، أن هناك تقاربا بينها.

وإذا كان هذا هو موقع الشورى في الرؤية الإسلامية فيجب أن تتحول إلى سلوك عملي. والآية لا تقول وبعض أمرهم شورى، وإنما قالت أمرهم شورى في كل شيء. ولذا يجب أن نتشاور في جميع امورنا، لا أن تكون في بعض الأوقات، كما لو مر الإنسان بأزمة، فيأتي إلى أصحابه يستشيرهم، بل ينبغي أن تكون المشورة في كل حين، سواء كانت هناك أزمة أو لم تكن. ومن المفضل أن يتشاور المسؤول مع الجميع ليتأكد من صحة الموقف والقرار الذي يريد اتخاذه.

وينبغي أن تكون المشورة حقيقية لا شكلية، بأن يعطي المستشار رأيه الواقعي في الموضوع، لا أن يفصل المشورة وفقاً لما يرغب به المستشير. وينبغي أن يكون المستشير صادقاً أيضاً في طلب المشورة، لكي يقال إنه استشار.

ويؤسفني أن أقول إنه في بعض مؤسسات الدولة العراقية لا تكون مهمة المستشار تقديم المشورة، بل لتكييف القانون مع قناعات المسؤول، لا أن يقول له إن هذا صحيح أو خاطئ. ويتم ذلك بعد أن يتخذ المسؤول قراره بمفرده ثم يأتي إلى مستشاره القانوني ويطلب منه أن يبحث عن تخريجات قانونية لهذا القرار، ثم يحدث أمر معاكس في اليوم الآخر ويبحث عن مادة قانونية أُخرى لتبرير قرار آخر..وهكذا.

وهذه ليست استشارة، بل هي استخدام لخبراء في تكييف الواقع على ضوء أمزجة المسؤول. فعلى المسؤول إذا أراد أن يستشير ألاّ يتكلم برأيه، بل يطلب من المستشارين أن يعطوه رأيهم ليأخذ المشورة الصحيحة بحرية، ثم ينظر إلى رأيه هل هو صحيح وينسجم مع هذه الرؤية ويخرج بنتيجة أو لا.

ومما يؤيد أهمية المشورة أن الرسول الأكرمﷺ بالرغم من عصمته وعلمه الغزير وخبرته الواسعة والعالية بين من عاش معهم، كان يتشاور مع أصحابه، مع أنهم أُناس بسطاء، لا يملكون شيئاً من علم رسول اللهﷺ ولا من خبرته وتجربته في الحياة وحنكته وحكمته وعمقه، بالإضافة إلى عصمته، وماذا يمكن أن يستفيد من مثل هؤلاء حين يستشيرهم؟!. ولكن، كانت سيرته ﷺ أن يتشاور مع أصحابه قبل أن يتخذ القرار.

لاحظوا هذه الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام يقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد»[302]. فكان يستشيرهم دائماً قبل أن يتخذ القرار ويسمع منهم جميعاً ثم يتخذ القرار المناسب.

فإذا لم يكن القرار منسجماً مع قناعاتهم كان يوضح لهم ويناقشهم، بالرغم من أنهم يعلمون أن الله ورسوله أعلم. وكم لدينا من روايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله يسأل أصحابه، فإن كان لديهم جواب أخذ به إن كان صحيحاً، وإلا ناقشهم فيه. وإن قالوا: الله ورسوله أعلم، أعطاهم الموقف.

وكان صلى الله عليه وآله يوصي أصحابه باستعمال المشورة أيضاً، فقد أوصى علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الرجل العالم العملاق حينما أرسله إلى اليمن قائلاً: «ياعلي ولا ندم من استشار»[303].

وأما إذا كان رأي المستشار خاطئاً فيجب على المسؤول أن يبين له وجه الخطأ فيه، ويوضح له الرأي الصحيح، فيكون قد نبهه إلى أمر كان غائباً عنه، وفي نفس الوقت أشرك الآخرين معه في القرار، وحينئذ سيقفون معه ويدعمونه، ولاسيما إذا كان في القرارات مصدات ومشاكل.

وعن علي عليه السلام: «لا يستغني العاقل عن المشاورة»[304]، وهذه رواية في الموضوع، فالعاقل إذا رأى نفسه غير محتاج إلى المشورة فمعناه أن هناك شكا في عقله، فالانسان لا بد له من الاستشارة، ولا يمكن أن يستغني عنها في أي حال من الأحوال.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم»[305]، أي إذا اعتمد أي قوم المشورة فإنهم يسلكون أقصر الطرق إلى تحقيق غاياتهم ومبتغاهم وأهدافهم، وستتحقق لهم أفضل النتائج من خلال المشورة، فمن يستشير يصل إلى أفضل الطرق في حل المشاكل والتعقيدات المحيطة به.

٣٠٢. بحار الأنوار ٧٢: ١٠١ح ٢٣.
٣٠٣. بحار الأنوار ٧٢: ١٠٠ح ١٣.
٣٠٤. غرر الحكم ٦: ٣٨٩.
٣٠٥. بحار الأنوار ٧٥: ١٠٥ح ١.

الإضاءة الثانية

تأثير المواصفات الذاتية للمستشار

تتحكم بالمشورة طبيعة المواصفات الذاتية والمعايير التي يجب أن تتوافر في المستشار، فكلما كان المستشار صادقاً ومخلصاً وشجاعاً وكريماً ومن أهل العقل والدراية والتجربة والاختصاص، كانت مشورته أنفع.

ولا تعني الطبقة الاجتماعية شيئاً في المشورة، كالسن والغنى والفقر والجاه، فالمشورة تتحكم بها طبيعة المواصفات الذاتية والمعايير التي يجب أن تتوافر في المستشار، كالعلم والحكمة والخبرة والرؤية والشجاعة والانصاف والموضوعية والصدقية وبعد النظر وتغليب المصالح العامة والبعد عن العواطف والمشاعر والأمزجة والانفعالات.

ولا فرق في المستشار، بين أن يكون كبيراً في السن أو صغيراً، أو يكون من طبقة الفقراء أو الأغنياء، فالمشورة ترتبط باوصاف المستشار؛ إذ قيمة الإنسان ليست بما يملك من الأموال، وإنما قيمته بأُمور ذاتية في شخصيته ولا يمكن أن تسلب منه، كالعلم والمعرفة والخبرة والصدقية.

الإضاءة الثالثة

المواصفات السلبية للمستشار

يستعرض أمير المؤمنينعليه السلام الأوصاف السلبية للمستشار التي تمنعه من تقديم المشورة الصحيحة، وقد ذكر ثلاثة منها في هذا العهد، لا على سبيل الحصر، وهي البخل والجبن والحرص، ولكن هناك أوصاف سلبية أُخرى يمكن تلمسها من نصوص أُخرى لأمير المؤمنينعليه السلام، كالكذب وقلة الخبرة والتهور وضيق الأُفق وغيرها من أوصاف المستشار الفاشل.

فالمستشار الكاذب يقلب الأُمور، ويبعد القريب، ويقرب البعيد. وتعد مشاورته والأخذ بها هلاكاً للأُمة.

وأما المستشار المتهور فإنه يدخل المسؤول في أُمور هو في غنى عنها، ويخلق له أجواء متشنجة مع الآخرين. وهناك فرق بين الشجاعة والتهور، فالشجاعة هي الحد الوسط بين الجبن والتهور.

وأما المستشار الجاهل فسكوته خير من نطقه. والمشكلة الأكبر اليوم هي أن يتخذ المسؤول مستشاراً جاهلاً من أقاربه أو حزبه، ويأخذ بمشورته ويصدق أنه مستشار، وحينئذ ستدفع الأُمة ضريبة باهظة ويقع الشعب في مهالك عظيمة .

وقلة الخبرة وضيق الأُفق وتغليب العواطف والمشاعر على حساب العقل والمنطق، كلها سمات وصفات سلبية تمنع من تقديم المشورة الصحيحة. ونجد كل هذه في روايات واردة عن علي عليه السلام.

يقول عليه السلام: «لا تستشر الكذاب فإنه كالسراب، يقرب إليك البعيد، ويبعد عليك القريب»[٣٠٦] .

ويقول عليه السلام: «لا تشاور الأحمق يجهد لك نفسه ولا يبلغ ما يريد»[٣٠٧]. فالجاهل حتى لو كان مخلصاً لا يمكن أن يأتي بالمشورة الصحيحة، والمسؤول يحتاج إلى أُناس من ذوي العقل والحكمة ليعطوه الرأي السديد.

وقال عليه السلام أيضاً: « لا تشاورن في أمرك من يجهل»[٣٠٨] .

الإضاءة الرابعة

المواصفات الإيجابية للمستشار

وأما السمات التي تساعد المستشار على المشورة، فمنها خشية الله. فعلى المسؤول والمتصدي أن يبحث عن مستشارين يخافون الله تعالى، من أهل التقوى والتدين والحكمة، ليعطوه الرأي السديد.

وقد ورد عن علي عليه السلام قوله: «شاور في أمورك الذين يخشون الله»[٣٠٩].

ولذا ينبغي مشاورة المتقين الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون على أنفسهم في أمور الأمة، فهم يقدمون المشورة الصحيحة وإن خسروا وظيفتهم كمستشارين، ولكنهم يربحون الآخرة، ويقدمون مصالح الآخرين على مصلحتهم.

---

٣٠٦ . غرر الحكم ٦: ٣١٠.
٣٠٧ . بحار الأنوار ٧٥: ٢٣٠ح ١٣.
٣٠٨ . غرر الحكم٦: ٢٧٠.
٣٠٩ . غرر الحكم ٤: ١٧٩.

ويمر بلدنا اليوم في ظروف ليست سهلة، فالوزير الذي بين يديه المليارات كم يراعي مصالح البلد ويغلب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة؟. فمثلاً، إذا كان لديه مشروع، وهناك شركة عالمية مهمة وكبيرة، ولكن مثل هذه الشركات لا تعطي الأموال تحت الطاولة ولا تعطي عمولات لأنها تخشى على سمعتها، وهناك شركة أُخرى بائسة ولكنها تعطي عمولة جيدة، فلمن يوقع العقد، لتلك الشركة الجيدة التي لا تعطي العمولة، أم يوقع للشركة البائسة التي يكسب منها عمولة جيدة، وإن كان الناس سيعانون من سوء الخدمات المقدمة ومن المنشآت التي تنفذها هذه الشركة؟.

لقد كنت مرة في زيارة رسمية لألمانيا، وزرت غرفة التجارة الألمانية، فقال لي التجار: إن الناس تشتري البضاعة الألمانية لجودتها، وحينما نضع تسعيرة فلكي ننجز لكم مشروعا حقيقيا. لقد أنجزنا لكم سكك حديد في الماضي ما زالت حتى الآن موجودة بالرغم من الحروب والمشاكل التي مررتم بها.

واليوم هناك شركات بائسة لا تمتلك حتى موقع انترنيت، وتربح في المناقصة وتأخذ المشروع بمبلغ أقل، بالرغم من الخدمات الرديئة التي تقدمها هذه الشركة.

لاحظوا كم ابتعدنا عن قيم الإسلام ومفاهيمه الصحيحة، يقول رسول الله ﷺ: «استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا»[٣١٠]، وربما يكون الندم بعد فترة من الزمن وليس سريعاً.

٣١٠. بحار الأنوار ٧٢: ١٠٠ح ١٤.

الدرس الثاني والثلاثون

الاستعانة بالوزراء السابقين

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليهم مثل آصارهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه، ولا آثما على إثمه، أُولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلفاً، فانتخب أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك».

يتناول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده المبارك لمالك الأشتر الحديث عن الوزراء، والخصال التي ينبغي أن تتوافر فيهم.

والوزير هو المساعد، ومن يكون ضمن فريق العمل الذي يختاره الحاكم لإدارة البلاد ويعتمد عليه. وقد تطرق أمير المؤمنين عليه السلام إلى من يجب أن يستوزر ويستعان به، ومن لا يكون كذلك، وإلى بيان الشروط والمواصفات والسمات المطلوبة في من يستعان بهم لمواقع الخدمة ..

ويحذر أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرة الكريمة الحاكم والمسؤول الجديد من اختيار وزراء له ممن كانوا وزراء لمن سبقه من الحكام الأشرار، يقول عليه السلام: «إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً»، أي أن أسوأ أُناس تعتمد عليهم في إدارة المهمة المناطة بك من كان قبلك عوناً للظالم، وكانوا ضمن البلاط وجهاز الديكتاتور، فهؤلاء يجب ألاّ يكونوا ضمن فريق عمل الحاكم والمسؤول الجديد، فإن هذا أسوأ شيء له ولنجاح مهمته، وإذا كان يريد النجاح فعليه أن يبعد من كان يضع يده بيد الأشرار من قبله.

فهؤلاء ممن اشترك مع الحكام الظلمة السابقين في الآثام، وكان هؤلاء الأشرار لا يقربون أحداً إذا لم يلطخوه بسوء سمعتهم وسوء مواقعهم وسلوكهم، ويورطوه

بالآثام والمعاصي والجرائم؛ لأنهم لا يضمنون ولاءهم إذا لم يكونوا متلطخين بالآثام معهم، ليصبح شريكا لهم في الإثم والجريمة، فلا ينبغي أن يكون أمثال هؤلاء بطانة للحاكم والمسؤول الجديد.

والبطانة هي القسم المستور من الثوب، والمسؤول أيضاً عنده بطانة لا يظهرون على الشاشات، ولكنهم مصنع القرار، وهم أذرعه في تحقيق مشروعه وأهدافه.

فلا تجعل بطانتك ممن كانوا للأشرار قبلك عوناً؛ لأنهم أعوان الحكام الظالمين الآثمين المجرمين المسيئين المذنبين، وهم اخوان الظلمة؛ لأن الطيور على أشكالها تقع، فمن يضع يده بيد الظالم ويتعامل مع الأشرار، يصبح من اخوان الظلمة.

يقول علي عليه السلام: يا مالك لا تجعل هؤلاء معك؛ لأنهم يظلمون الناس، وسوف لا تفرق الناس بينك وبين من كان قبلك من الظلمة حينما يكون هؤلاء معك، إذ ليس بالضرورة أنٍ تلتقي أنت بالناس دائما، وإنما فريقك ومساعدوك هم من يحتك بالناس أيضاً، وسوف ترى أخلاقهم وسلوكهم. وعليك أن تختار الناس الصالحين بطانة لك ووزراء وأعوانا.

ولكن هناك إشكال كبير، لا أعرف هل أن مالكا الأشتر طرحه على أمير المؤمنين عليه السلام وهو يجيبه، أو أن علياً عليه السلام أعطى الجواب بدون سؤال. والإشكال هو أن الناس تقول: إن أعوان النظام السابق هم من أصحاب الكفاءة وأهل خبرة بالحكم، وإن من كان في صفوف المعارضة لا يعرف إدارة البلاد ولا يستطيع ذلك.

ولكن علي عليه السلام يجيب على هذه الإشكالية قائلاً: «وأنت واجد منهم خير الخلف»، أي أنك تستطيع أن تجد خيراً منهم وأكثر كفاءة وقدرة وفهماً ومعرفة، فما أكثر المخلصين والوطنيين والشرفاء والذين لديهم كفاءة وفهم صحيح، بل هؤلاء أكثر كفاءة من أعوان الظلمة، ولكن يجب أن تجدهم، «ممن له مثل آرائهم ونفاذهم» أي تجد من المخلصين والوطنيين من يمتلك نفس الرؤية والقدرة والفهم والنفاذ بالرأي والمشورة، فهؤلاء المخلصون والوطنيون سوف تجد بينهم من يملك نفس الرؤية، بل أفضل مما يملكه أعوان الظلمة.

فإن كنت تريد مواقف ومشاريع وحركة على الأرض، فسوف تجد أناسا ميدانيين

ويعملون أفضل من أعوان الظلمة. ويطلق في زماننا على هؤلاء اسم اللوبي، وأعوان الظلمة مستولون على مفاتيح المشاريع والمؤسسات في الدولة، فإذا كان من جماعتهم يسهلون له الطريق ويقفون معه ويسدون ثغراته ويدعمونه ويظهرون هذا الرجل وكأنه يعرف الكثير، وأما إذا لم يكن من جماعتهم فيضيقون عليه ويؤذونه ويصورون للناس أنه لا يعرف ولا يفقه شيئاً من عمله، ويبحثون عن زلاته.

فلذلك هم يعملون بهذه الطريقة، حتى يوحوا للمسؤول أنه لا يمكن أن يستغني عنهم، ولا يستطيع أن يحصل على واحد أفضل منهم، وهم الذين يعرفون فن الحكم وإدارة البلاد فقط، ويستطيعون تسيير الأمور بالشكل الصحيح، وهم على استعداد لمساعدته على النجاح، ويحذرونه أنه إذا وضع يده بيد غيرهم فسوف ينكسر!. وإنه لمن العجيب حقاً أن يتطرق أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذه الحقائق قبل ألف وأربعمائة سنة، وهي تتجدد في كل زمان ومكان.

واليوم عندما نقرأ هذا العهد كأننا نحاكي المنظومة الإدارية في بلادنا أو أي بلد آخر، وعندما نقول هذه قواعد ووثيقة تأريخية، فلأنّ أمير المؤمنين عليه السلام وضع اليد على الجرح.

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام ميزة الوزراء والخبراء الجدد على الوزراء والخبراء القدماء فيقول: «وليس عليهم مثل آصارهم»، وآصار جمع إصر، ومعناها زلاتهم وذنوبهم، وهذا يعرف مثلهم وأحسن منهم، ويعمل مثلهم وأحسن منهم، مع فارق جوهري؛ هو أنه حسن الصيت والسمعة، وتأريخه نظيف، وليس له أوزار السابقين، بينما ذاك يجب أن يشمله استثناء ويخفي أمره، ثم تعج الرائحة عندما تنكشف أوراقه ويأتي من يخبر عنه أنه عمل كذا وكذا، ويضطر الحاكم الجديد إلى تجاوزها، فيؤثر ذلك فيه سلباً، وتضعف ثقة الأُمة به. وكل ذلك لا يُحتاج إليه مع الكادر الجديد؛ لأنه نظيف الأصل وذو سمعة طيبة، ولا يحتاج الى هذه الكلف المعنوية أن تدفع عنه.

السمات المطلوبة لمن يستعان به في مواقع الخدمة

إن هناك سمتين مهمتين يذكرهما أمير المؤمنين عليه السلام ينبغي توافرهما في الوزراء والخبراء ممن يراد الاستعانة بهم في مواقع الخدمة، وهما:

الأُولى: أصحاب الماضي السياسي النظيف

وتتجلى هذه السمة من قول أمير المؤمنين(عليه السلام): «ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه». فأول شيء يجب أن يبحث عنه الحاكم والمسؤول لاختيار من يتصدى لمواقع المسؤولية، هو الشخص الذي لم يضع يده بيد الظالم ولم يعاون الظالم؛ لأن هناك أثراً وضعياً يترتب على الاستعانة بأعوان النظام السابق، فمثلاً، أنا لا أنوي أن أذهب إلى مكان موبوء، لأني مهتم بصحتي، ولكني لم أكن أعرف أن من سلمت عليه مصاب بالانفلونزا، وعندما عطس دخل الفايروس في بدني، ثم أتساءل عن علة المرض، وسواء علمتُ أو لم أعلم، فإن الفايروس له مضاعفات، ولكن الإنسان تارة يمرض نفسه، وتارة أُخرى يأتيه المرض، وبكل الأحوال هو يمرض.

وتارة يرمي الإنسان السيارة بالوادي فيسمونه انتحارا، وتارة تأخذه غفوة فيسقط ويموت، ولكن لا يدخل النار لأنه ليس انتحاراً؛ إذ الانتحار بإرادة الإنسان حرام، وأما إذا كان السبب غلطة فسيموت أيضاً، ولكنه ليس مذنباً. فكذلك الذي يسير مع الظالم، يترتب عليه أثر وضعي يؤثر في سمعته، سواء كان مضطراً أو لا.

ولكن لا يُحاسب الجميع على حد سواء، ومن اضطر أن يتماشى مع الظالم وقلبه ليس معه، ولم يساعده ولم يسهل أُموره، وانتصر للمظلوم، فهذا مكانه محفوظ، فقد كان علي بن يقطين رئيساً للوزراء مع الحاكم الظالم، لكن الإمام الكاظم(عليه السلام) طلب منه أن يبقى في المنصب ليساعد الناس المظلومين.

الثانية: أصحاب الماضي الأخلاقي النظيف

وتتضح هذه السمة من قول أمير المؤمنين(عليه السلام): «ولا آثما على إثمه»، أي لم يعن عاصياً على معصيته. فهناك إنسان يرتكب الذنب، ولكن هناك شخص آخر يساعد الآخرين على ارتكاب الذنوب بالاضافة إلى ارتكابه الذنوب بنفسه. ومثل هذا لا تصلح الاستعانة به على إدارة أُمور الدولة وترشيحه للتصدي للمسؤولية.

إيجابيات الوزراء الجدد

ثم يبين أمير المؤمنين(عليه السلام) إيجابيات هذا الصنف من الناس، من الذين لم تتلطخ

سمعتهم سياسياً وأخلاقياً، وما يمتازون به عن الوزراء السابقين، ويذكر ذلك في ضمن أربع إيجابيات:

الأُولى: أخف مؤونة

فيقول: «أولئك أخف عليك مؤونة»، ليس لديهم توقعات كثيرة، ولا يريدون امتيازات كثيرة، وعيونهم على الخدمة والعمل، فهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في وصف المؤمن: «قليل المؤونة، كثير المعونة»[٣١١]، لا يريد الكثير ولكن يساعد كثيراً، بينما ذاك يعطيك منذ البداية قائمة طويلة يجب أن توقع عليها، ويريد حمايات وامتيازات ليعمل معك.

الثانية: أحسن معونة

ثم يصفهم عليه السلام بوصف آخر فيقول:«وأحسن لك معونة»، أي أن هذا الشخص يساعدك بالعمل ولا يتوانى فيه ويوصل الليل بالنهار، فهو مخلص وصاحب قضية، وليست عينه على الراتب، ولا ساعة الدوام، ولا الامتيازات، بل يريد أن يخدم، فهو صاحب قضية ومشروع، فهؤلاء عندما يأتي بهم المسؤول سوف يستفيد منهم ، ويسير عمله بصورة صحيحة.

الثالثة: أفضل ولاءً

ثم يصفهم عليه السلام بوصف ثالث فيقول:«وأحنى عليك عطفاً»، فهذا الشخص الجديد الذي جئت به ونصبته مديراً عاماً أو مسؤولاً، سيقول إن هذا ذكرني وعرفني ووقف معي وأراد أن يستفيد من طاقتي، ولم يغرّه وهج الآخرين وأعطاني فرصة وعطف علي، فيرتبط بك ويقف معك.

واليوم نحن بحاجة إلى الوفاء والالتحام والحس الوطني، ونريد أُناساً قلبهم يحترق على الوطن والمواطن، ونريد حرقة قلب ووفاء بحق إنسانية الإنسان، والمبادرة إلى حل مشكلته؛ فلا تتعبه أيها المسؤول وسهل أمره وساعده وأوص زملاءك بتسهيل أمره، واعلم أن الله تبارك وتعالى سيدفع عنك ألوان البلاء، وحاشى لله أن يضيع إنسانية أحد ومواقفه النبيلة والشريفة.

---

٣١١ . مستدرك الوسائل ١١: ١٨٠ح٢٢.

الرابعة: قلة ولائهم للغير

ثم يصفهم عليه السلام بوصف رابع فيقول: «وأقل لغيرك الفاً»، فإن الوزراء السابقين باعتبارهم كانوا من أعوان الظلمة الماضين، لديهم منظومة أصدقاء وشبكة من علاقات وأناس يعملون لهم كخط مائل، وبذلك يشكلون خطراً مستمراً على النظام الجديد، ومصدر قلق دائم يمتلك النفوذ والصلاحيات والعلاقات الواسعة والخبرة والتجربة.

وهؤلاء، مادام الحاكم والمسؤول الجديد بخير وعافية وأموال وإمكانات وامتيازات فهم معه، ولكن إذا انفجرت الأوضاع تجدهم بالجهة الأُخرى أو بالصف الأخير على أحسن تقدير يطلبون العافية، وعندما تقف مشكلة بوجهه، تجدهم يغطون رؤوسهم ويخفونها تحت الرمال، لكي لا يصيبهم مكروه، وهم غير مستعدين لأن يدافعوا عن النظام الجديد، وإنما جاؤوا لكي يحلبوه ويأخذوا منه، وقلوبهم في مكان آخر. ولكن هذه الأُمور لا تجدها عند الإنسان النظيف الذي لا يملك علاقات سابقة مع الظلمة، ويبقى وفيا للنظام الجديد.

وكم نحن بحاجة إلى مثل هؤلاء، من الذين لا يوالون الأعداء، ويحبون وطنهم وأهلهم، ولا يُشترون ويُباعون في سوق النخاسة والعمالة للأجنبي. وهؤلاء هم الوطنيون الشرفاء النبلاء.

ثم يوصي أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم الجديد بأن ينتخب هؤلاء خاصة لخلواته وحفلاته. وخلواته تعني أوقات المشورة خلف الأبواب المغلقة، وحفلاته تعني أوقات حضوره بين الناس، فيعرفهم الناس عندما ينظرون إليهم بتأريخهم الجهادي والسياسي العريق وبأخلاقهم الفاضلة وبمواقفهم الوطنية النزيهة، وسيقولون حينئذ: الحمد لله، إن أُمورنا بخير إن شاء الله تعالى، وأما إذا رأوا غيرهم فسيقولون: عجبا، ما الخبر؟!، فهذه نفس الوجوه القديمة.

الدرس الثالث والثلاثون

سمات الوزير الناجح

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر في بيان سمات الوزراء الناجحين: «ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة في ما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع».

يذكر عليه السلام في هذا المقطع خصلتين مهمتين ينبغي أن تتوافرا بالوزير، وهما: النصيحة، وعدم الإعانة على الإثم.

الخصلة الأُولى: النصيحة

يوصي أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم والمسؤول أن يكون أقرب الناس إليه وأكثرهم منزلة هو الأكثر نصحاً. ويتضح ذلك من قوله عليه السلام: «ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك»، فكلام الحق مر، والنصيحة الصحيحة مزعجة، فمن الصعب أن يقف شخص في وجه مسؤوله ويصارحه بأخطائه، ويقول له: أنت مخطئ وإجراؤك هذا خلاف القانون؛ فالمسؤول عندما يعترض عليه أحد الموظفين يقوم بإبعاده.

إن البعض من المسؤولين يحب أن يسمع من المحيطين به المديح والثناء، حتى يتحول ذلك الى ثقافة لدى هذا الفريق؛ من أجل أن يحافظ على امتيازاته، فيتعرف على ميول المسؤول ويعمل على إرضائها، وعندما تسأله عن هذا الموقف أو القرار، يجيبك بأنه غير صحيح ولكن المسؤول يرغب فيه ويحبه، وإن كان يؤدي إلى فشل هذه المؤسسة، فالمهم إرضاء المسؤول.

وفي منظومة تحاسب من يقول الحق، يبتعد أهل الحق ويتقرب الناس الذين يعملون على إرضاء المسؤول. والسؤال: من أين يبدأ الحل؟. إنه يبدأ من المسؤول نفسه، وهنا علي عليه السلام لا يخاطب أهل مصر، بل يخاطب مالكا ويقول له: «ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك». فالوزير مثل الطبيب الحاذق، عندما يكتشف مرضا في

المريض يصارحه بالحقيقة، وإن كان المرض خطراً يصارح ذويه ويخبرهم الحقيقة، والمريض يشكر الطبيب على إعطاء المعلومة الحقيقية من أجل الإسراع في معالجة الخطر.

وأما إذا كان المرضى يرفضون كلام الطبيب ويهددونه، فهنا إما أن يترك هذا الطبيب المهنة، وإما أن يتستر على الحقيقة. وفي الواقع الاجتماعي والسياسي، يقال الكلام نفسه.

فعلى القائد والمسؤول أن يقرب من هو أكثر الناس صراحة وصدقاً معه في قول الحقيقة وفي بيان أخطائه، لأن الصراحة هي المدخل لنجاح فريق العمل، ولا يمكن للفريق أن يكون صريحاً إلا إذا كان المسؤول يشجعهم على الصراحة، ويتقبل منهم النصح، ويفتح لهم الأبواب، حتى يقولوا ما في نفوسهم وما يعتقدون بأنه الحق، فإن كان صحيحاً أخذ به، وإن لم يكن صحيحاً أقنعهم بوجهة نظره في هذه المسألة.

الخصلة الثانية: عدم الإعانة على الإثم

كما يوصي أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم والمسؤول أن يقرب منه أقل الناس إعانة له على الإثم، ويتجلى ذلك من قوله عليه السلام: «وأقلهم مساعدة في ما يكون منك مما كره الله لأوليائه»، أي عندما يرتكب المسؤول الخطأ أو عندما يسير في طريق غير صحيح، ينظر إلى من لا يسير معه من فريقه، ومن يتثاقل ومن يمتنع عن الاستجابة لطلباته الخاطئة ومواقفه غير الصحيحة، فيقربه إليه ويكون آثر عنده من غيره، لأنه لم يجامله على الباطل.

فعلى المسؤول ألاّ يقدم على الأعمال الخاطئة، لأن المسؤولية مغرية، وعندما يجلس المسؤول على كرسي المسؤولية ويمتلك القرارات والإمكانات قد يقع في الهاوية والزلات، وقد تصيبه حالة من النرجسية، وقد تعلو في داخله حالة من الكبرياء والاعتداد الخاطئ بالذات.

وهذه المسائل تحتاج إلى معالجة، ويجب عليه أن يضع في منظومته الكوابح التي

توقفه عن الذهاب والاندفاع في الاتجاه الخطأ، ويجب أن يختار لنفسه منظومة لا تسايره على المضي في المسار الخاطئ.

إذن، فهناك خصوصيتان أساسيتان يجب أن تلحظا في الوزير وفي الفريق المساعد له، وهما الصراحة وعدم التماشي في الموقف الخاطئ. ومن النصوص المؤيدة لهذا المعنى والداعمة لهذه الرؤية ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إنما يحبك من لا يتملقك، ويثني عليك من لا يسمعك»[٣١٢]، فالمحبة الصادقة ليست بالتملق، وإنما هي بقول الحقائق للمسؤول.

واسمحوا لي أن أقول إن شعوبنا هي التي تساعد على صناعة الديكتاتور، فالإنسان لا يولد ديكتاتوراً، بل يصبح كذلك بسبب سماع المديح والكلام المعسول والثناء حتى يصدق ذلك في نفسه، وهؤلاء أنفسهم الذين يمدحون المسؤول في مجلسه، ربما يذمونه من خلفه.

فعلى المسؤول أن يحذر ممن يكثر التملق له، إذ ليس من المعلوم أنه يحبه بالفعل، فالتملق ليس دليل المحبة، بل هو دليل الانتهازية، كما يقول علي عليه السلام، ومن الممكن أن يعبر المحب عن محبته، من غير أن يصل إلى حد التملق، فهذا ليس الاتجاه الصحيح، وإنما هو من يخبرك بالحقيقة والخطأ والصحيح.

وأما قوله عليه السلام: «ويثني عليك من لا يسمعك»، أي إذا كنت تريد من يمدحك مدحاً حقيقياً، فهو من لا يسمعك ما ترضاه، وإنما يسمعك الحقيقة، فإذا كانت الحقيقة طيبة يسمعك الكلام الطيب، والعكس صحيح. فعلى المسؤول أن يمنح الفرصة المناسبة لكي يكون فريقه صريحاً معه، والصراحة غير الوقاحة، فالصراحة تعني بيان الحقيقة، ولكن بدون جرح كرامة المسؤول، وبدون كسر هيبته، وبدون التشهير به، فالتشهير ليس صراحة بل وقاحة، فينبغي إخباره أن هذا الموقف خاطئ بدون الحط من شأنه أمام الآخرين .

ولهذا يجب على المسؤول تقريب من يتكلم معه بالصدق؛ لأنه الصديق الحقيقي. ففي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « إنما سمي العدو عدواً لأنه يعدو عليك» أي

٣١٢. عيون الحكم والمواعظ: ١٧٧.

يتجاوز عليك، « فمن داهنك في معايبك» في حين أن كل الناس تعرف أنها عيوب وأخطاء وهو يجاملك ويعتبرها أعمالا صحيحة، «فهو العدو العادي عليك»[٣١٣] أي هو العدو الذي يتجاوز عليك حينما لا يخبرك بالحقيقة ويسمعك كلاماً طيباً فيما أن الموقف ليس موقفاً طيباً، وهذا معناه أنه يعتدي عليك من حيث لا يقصد ولا يشعر، وأنت سعيد بهذا، فلا تقرب العقارب والأعداء المتملقين الذين يسمعونك الكلام الطيب، فهؤلاء يرمون بك في الهاوية .

وعن الإمام الجوادعليه السلام قال:« قد عاداك من ستر عنك الرشد اتباعاً لما تهواه»[٣١٤]، أي حجب عنك الموقف السديد الصحيح وتماشى مع هواك ومع رغباتك، وهذا هو العدو الذي يجب أن تبعده، فهذه طاعة عمياء لا تنفع شيئاً، والمطلوب هو الطاعة الصحيحة عن بينة وعن موقف نستدل على صحته بالدليل، وهكذا يمكن إعانة المسؤول والقيادة بالموقف السديد.

وعن الإمام عليعليه السلام: «ليكن أوثق الناس لديك أنطقهم بالصدق»[٣١٥]، أي ينبغي أن يكون أقرب الناس منك وأخصهم بك أصدقهم معك، فمن يتكلم معك بالصدق يجب أن تقربه، وهو الصديق الحقيقي الذي يدافع عنك من خلفك ويشاورك أمامك ويخبرك بالحقيقة ويدلك على الخطأ .

وعن الإمام عليعليه السلام أيضاً: «ليكن أحب الناس إليك المشفق الناصح»[٣١٦]، أي أن من ينصحك ويعطيك الكلام الصحيح فهو أقرب الناس منك وأحبهم إليك.

وعن الإمام عليعليه السلام أيضاً:« إنما سمي الصديق صديقاً لأنه يصدقك في نفسك ومعايبك، فمن فعل ذلك فاستنم إليه فهو الصديق»[٣١٧]، فمقتضى الصدق أن يكون صادقا معك ويقول لك الحقيقة حتى لو لم ترضها، ومثل هذا الإنسان يجب أن تتقرب منه وتعمق صداقتك معه، فهو الصديق الصدوق .

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به فهو

٣١٣ . عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.
٣١٤ . بحار الأنوار ٧٥: ٣٦٤، ح٥.
٣١٥ . عيون الحكم والمواعظ: ٤٠٤.
٣١٦ . ميزان الحكمة ٤: ٣٢٨١. غرر الحكم: ح ٢٤٩٤.
٣١٧ . عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.

شريك»[٣١٨]، أي يقول ان هناك طريقاً معيناً أو مخرجاً قانونياً لهذه القضية لينحرف بها من الحق إلى الباطل، أو يفسر المادة القانونية تفسيراً خاطئاً أو ما شابه ليبرر بها الظلم أو موقفا خاطئا أنت تريده، فهذه مرحلة أقل ولكنها أيضاً سيئة. أو أشار به، أي يعطي علامات يكتشف من خلالها الموقف الذي يخرج به من الحق.

وفي كل هذه المراتب؛ يأمر أو يدل أو حتى يشير، يكون شريكاً في الجريمة وشريكاً في كل اعتداء على حقوق المواطنين؛ لأنك أمرته أو دللته أو أشرت إليه ، بأي مستوى من المستويات. إذن من يتماشى مع الظالم ومع الموقف الخاطئ، فهو يتحمل وزره يوم القيامة.

وفي ثقافتنا الاجتماعية يقال كثيراً المأمور معذور، ولا أدري من أين جاؤوا بهذا؟. بل المأمور غير معذور إذا خالف طاعة الله تعالى. ويجب على الإنسان الحفاظ على سمعته وتأريخه، فإن المواقع والمناصب تأتي وتذهب، ولكن السمعة حينما تذهب فلن تعود. وفي أي ظاهرة سلبية لا نستطيع أن نضع كل اللائمة على شخص واحد، فكل من يشارك بأي مستوى من المستويات هو شريك.

فعلى المسؤول أن يختار من يكون صريحاً معه ومن لا يتماشى معه في الخطأ ومخالفة الشرع. ويجب على الشخص الذي يعمل تحت إمرة المسؤول أن يكون صريحاً مع مسؤوله، ولكن الصراحة يجب ألا تصل إلى حد الوقاحة، بحيث تكسر هيبة المسؤول. ويجب عليه أيضاً إذا طلب منه أمراً خلاف القانون، ألا يطيعه حتى لو بلغ الأمر الى أن يقيله من منصبه، فالمهم هو البقاء على الحق والدفاع عن القانون والالتزام بالسياقات .

٣١٨ . بحا الأنوار ٢: ٢٤، ح٧٦.

المقطع الحادي عشر

المقربون

الدرس الرابع والثلاثون

حاشية المتصدي وبطانته والفريق الذي يلتصق به

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «والصق بأهل الورع والصدق، ثم رُضهم على ألا يطروك، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء توجب الزهو، وتدني من العزة».

يوصي أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم والمسؤول عند اختيار من يجعل نفسه لصيقاً بهم، من حاشيته وأخلائه وأصدقائه والمقربين إليه، أن تتوفر فيهم صفتان أساسيتان وهما : الورع والصدق.

ثم يطلب عليه السلام من الحاكم أن يعود هذه البطانة ويروضهم على ألا يطروه ويمدحوه كثيراً، فحينما تكون البطانة متملقة مادحة، سيصفقون له ويمدحونه كلما تصدى لعمل ما، صحيحاً كان أو خطأ، عادياً أو متميزاً، وهذا يوقعه في الغرور وفي إشكاليات كبيرة أُخرى.

فلا ينبغي للمسؤول أن يقبل لنفسه أن يكون في معرض المديح والإطراء المستمر لهؤلاء. ولا أن يبجحوه بباطل لم يفعله، فهؤلاء يريدون أن يدخلوا السرور عليه بتصوير باطل لم يصدر منه، وهذه البطانة المادحة سوف تجعله يعيش في أجواء من الفرح والبهجة والسرور بمعزل عن العالم الخارجي، ليعيش العالم الوهمي، ويصورون له أشياء لم يفكر بها ولم يقلها ولم يفعلها، ويوهمونه حتى يصدق.

فلا ينبغي للمسؤول أن يسمح لبطانته بأن يجعلوه يعيش في هذه الصورة الوهمية الباطلة؛ لأن كثرة الإطراء والإعجاب والمديح والثناء توجب حالة من الزهو والعجب لدى الإنسان، فيرى نفسه أحسن من الآخرين، وتقربه من حالة العزة والكبر، فيشعر أنه أكبر من الآخرين، فتأخذه النشوة الكاذبة، وما أخطرها!، وما أخطر الشعور لدى المسؤول أنه مسدد ومؤيد، وأن كل ما يقوله ويفعله ويفكر به هو عين الصواب!، ويتناسى أن العصمة للأنبياء والأوصياء!.

فعلى المسؤول أن يدرك أنه ليس معصوماً، وإذا كانت البطانة توحي له بذلك، فعليه ألاّ يسمح لهم بأن يغروه ويأخذوه إلى العالم الوهمي، وهذه النصيحة مهمة.

وهناك من يقول إن الشعوب هي من تصنع الطواغيت، وثقافتنا هي التي تصنع الديكتاتور حينما يكثر المديح والإطراء، وحينما تتحول كل كلمة وموقف منه إلى شيء كبير، في حين أنه قد لا يكون كذلك. وحينما نسلب من المسؤول إنسانيته ونجعله في مقام الملائكة والأنبياء والأوصياء وفي مقامات عالية هو ليس منها، نقع حينذاك نحن في الفخ، ونوقع المسؤول في الفخ عندما يصدق بما نقول، وهذه بداية الانحراف وبداية الخروج عن المسار الصحيح.

ولذلك، فالبطانة من الأصدقاء والأقرباء الذين يقربهم المسؤول ويقتربون منه ويلتصق بهم لا تعتبر قضية شخصية.

فعلى المسؤول أن يكون دقيقاً في اختيار أصدقائه والمحيطين به، فهو ليس إنساناً عادياً حتى تكون له علاقات خاصة، بل هو رجل خدمة عامة، ويجب أن تخضع علاقاته لمعايير دقيقة تنسجم مع الموقع الذي هو فيه. فالإنسان في موقع المسؤولية يجب أن يكون دقيقاً في من يختار من الأصدقاء، وإذا لم يستطع فليقدم استقالته ليصبح إنساناً عادياً، ولكنه مادام في مواقع التصدي والمسؤولية، فكل شيء يجب أن يخضع لحساب دقيق ومنها اختيار البطانة والحاشية ومن هو لصيق به.

ولنأت على بيان الخصلتين الأساسيتين اللتين ينبغي توفرهما في الأشخاص المحيطين بالمسؤول بحسب المعايير التي وضعها أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع، وهما الورع

والصدق، كما ذكرها في هذا العهد الكريم: «والصق بأهل الورع والصدق».

الصفة الأُولى: الورع

الورع حالة أكثر من التقوى، فالتقوى ألاّ يرتكب الإنسان معصية، وأما الورع فهو أن يتجنب الشبهات.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام: «أصل الورع تجنب الآثام، والتنزه عن الحرام»[٣١٩]. فالورع يعني عدم الاقتراب من مظان الشبهات ومن مظان المعاصي والآثام والمحرمات. فيجب أن يكون عند هؤلاء الناس المحيطين بالحاكم والمسؤول طهارة قلب عالية، ونظافة العين واللسان، ونظافة الفكر، ومثل هؤلاء الناس النظيفين ينبغي للحاكم والمسؤول أن يقربهم منه؛ لأن النظيف لا تصدر منه قاذورة، وكل مكيدة قاذورة، وكل كذب وفكرة مسمومة قاذورة، وكل شحناء وبغضاء تلقيها في قلب المسؤول تجاه شعبه ومن هو مسؤول عنهم قاذورة.

والإنسان الورع، وهو الإنسان النظيف والطاهر، لا تصدر منه هذه القاذورات. فإذا أراد المسؤول أن تكون بيئته النفسية والمعنوية نظيفة فعليه أن يختار بطانة وجماعة قريبة منه يشيعون الاطمئنان وحب الخير، ويشيعون السلام والوئام، ويشيعون حب الآخر في قلبه.

ويقولعليه السلام أيضاً: «إنما الورع التطهر عن المعاصي»[٣٢٠]، فيرى الإنسان نفسه غريباً عن المعصية والبيئة الملوثة. والكبير كبير بعظم النفس وسعة النفس، وعلى المسؤول أن يحاول جعل بطانته والمحيطين به من ذوي النفوس الكبيرة والطاهرة.

ويقولعليه السلام أيضاً: «عليك بالورع فإنه خير صيانة»[٣٢١]، فالورع أفضل درع وأفضل صيانة للإنسان، فهو الدرع الواقي الذي يجنب الإنسان من الوقوع في الحرام والمعصية .

ويقولعليه السلام أيضاً: «لا معقل أحسن من الورع»[٣٢٢]، والورع هو الملجأ الصحيح

٣١٩ . غرر الحكم ٢: ٤١٧.
٣٢٠ . عيون الحكم والمواعظ: ١٧٨.
٣٢١ . غرر الحكم ٤: ٢٩٠.
٣٢٢ . نهج البلاغة: الحكمة ٣٧١.

الذي من خلاله نحافظ على أنفسنا من مخاطر الذنوب والآثام والمعاصي والسوء، التي قد تطولنا وتصيبنا.

ومن هنا يتضح أن أهم الصفات والسمات التي يجب أن يتصف بها من يحيط بالمسؤول، هو الورع عن محارم الله سبحانه وتعالى .

الصفة الثانية: الصدق

والصفة الأُخرى التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام مما ينبغي أن يتصف بها المقربون من الحاكم والمسؤول هي صفة الصدق، ولذا عليه أن يختار أخلاء وأصدقاء صادقين، يصدقونه القول، ولا يقولون له شيئاً خلاف الواقع، ولا يفسرون له الأُمور تفسيرات خاطئة، ولا يغرونه؛ لأن من شأن ذلك فقدان ثقة الشعب به.

وإذا فقدت الثقة بين المسؤول والشعب تحولت العلاقة بينهما إلى علاقة عدائية، لتتسع الفجوة مع الزمن إلى الحد الذي لا يمكن تداركه، وحينئذ ستحل الكارثة به وبمن يحيطون به.

وهذه الثقة يحتاجها المسؤول عن شعب أو أُمة من الناس، أو عمن هو مسؤول عنهم في مصنع أو دائرة أو أي مستوى من مستويات التصدي؛ لأن منظومة الإدارة والقيادة في الإسلام لا تختص بالزعماء والأُمراء والوزراء فقط، بل هي تمتد لكل من يتحمل المسؤولية وصولاً إلى رب الأُسرة، حينما يكون مسؤولاً عن عائلته.

فيجب أن تتوافر هذه الصفات بحجم مسؤولية كل إنسان، وكلما توسعت المسؤولية لزم توافر هذه المعايير بشكل أكبر وأوضح .

وقد وردت النصوص الكثيرة عن المعصومين عليهم السلام في أهمية الصدق، وأنه مسألة أساسية وضرورية . منها قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الصدق صلاح كل شيء، والكذب فساد كل شيء»[٣٢٣]، فمفتاح الصلاح في كل الأُمور هو الصدق، وإذا بدأ الإنسان يقول خلاف الواقع في مسألة معينة، فمن يضمن أنه سيكون صادقاً في المسألة الثانية؟، وإذا كذب في شيء قد يكذب في كل شيء، وتزعزعت الثقة به، وإذا زالت

٣٢٣ . غرر الحكم ١: ٢٨١.

الثقة به، فلا يمكن الاعتماد عليه والتفاهم معه، ويصبح التواصل معه عملية معقدة جداً .

ويقول أمير المؤمنين: «الصادق على شفا منجاة وكرامة، والكاذب على شفا مهواة ومهانة»[٣٢٤]، فالصادق في محطة انطلاق نحو النجاة والرفعة والكرامة، وإذا تكلم بكلام فالناس تثق به، ولا يعطي الكلمة بسهولة، ولكن إذا أعطاها التزم بها.

وأما الكاذب فكأنه يرمي نفسه إلى الهاوية ويعرض نفسه للمهانة والإذلال؛ لأن حبل الكذب قصير، ومن يكذب سيعتاد الكذب، وسوف ينسى ماذا قال قبل قليل، وأما الصادق فهو ينطلق من الحقيقة، والحقيقة لا تتغير وجوابه وكلامه اليوم وبعد عشر سنوات واحد؛ لأنه صادق ويتحدث عن الحقيقة. فمن يبني على الصدق تكون كلمته واحدة، ومن يبني على الكذب يتكلم بكلام متناقض ولن تعرف الصدق منه، ويعرض نفسه إلى المهانة والهاوية .

وعن رسول الله أنه قال: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»[٣٢٥].

يعطي رسول الله مقياساً دقيقاً لتقييم الناس، لا يكفي فيه الاقتصار في النظر على أداء الفرائض العبادية من الصلاة والصيام والحج والزكاة، ولا حتى أعمال المعروف التي يأتي بها المسلم تطوعاً، إذ ربما كانت هذه الأعمال لا يقصد بها وجه الله تعالى، بل ولا حتى قيام الليل وأداء النوافل وتلاوة القرآن، التي يسميها الرسول الأكرم بالطنطنة، أي مجرد لقلقة لسان؛ لأنها لو لم تكن كذلك لتركت أثرها في السلوك، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[٣٢٦].

ثم يعطي المقياس الصحيح في تقييم المسلم، وهو صدق الحديث وأداء الأمانة، فهما المحك والمعيار، وهنا يكمن الاختبار العسير، فيقول الصدق حتى لو كان على خلاف مصالحه، ويؤدي الأمانة حتى لو لم تكن هناك وثيقة عليه.

٣٢٤ . نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.
٣٢٥ . بحار الأنوار ٦٨: ٩ح ١٣.
٣٢٦ . العنكبوت: ٤٥.

ولكن نرى الناس حتى وقتنا الحاضر، ما زالت تعتمد في تقييم المسلمين على ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فتنظر إلى المظاهر الخارجية وتتناسى المعيار الواقعي، وهو صدق الحديث وأداء الأمانة. ومن هنا ينبغي على الحاكم عند اختيار المقربين منه، أن يتأكد من وجود هاتين الخصلتين فيهم، لكي يتمكن من الثقة بهم والاعتماد عليهم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال تأكيداً لما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة»[٣٢٧] ، فإن الإنسان يتعود على الصلاة والصيام، حتى أنه إذا لم يصل يوما واحدا أو ترك صوم يوم واحد من شهر رمضان استوحش وكأنه فقد شيئاً، ويتحول عنده أداء الصلاة والصيام إلى عادة مستحكمة، فالعادة شيء، والملكة الأخلاقية التي ترفع من مكان الإنسان شيء آخر.

ثم يبين عليه السلام المعيار الصحيح في التقييم، وهو الاختبار عند صدق الحديث وأداء الأمانة، فهناك ما لا يحصى كثرة ممن يؤدون الصلاة ويصومون شهر رمضان، ولكنهم يكذبون ولا يؤدون الأمانات إلى أهلها، ولاسيما إذا تعارض ذلك مع مصالحهم. ولذا يجب على المسؤول إجراء هذا الاختبار على من يريد اختياره ليكون من المقربين إليه.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته بعد أن بايعه الناس خليفة للمسلمين مؤكداً على أهمية أن يكون المتصدي للمسؤولية إنساناً صادقاً: «ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم»، أي أنه مسؤول عن كل كلمة سيقولها، وهو ضامن لما سيذكره.

وذكر أشياء كثيرة ثم قال: «والله ما كتمت وشمة، ولا كذبت كذبة »[٣٢٨]، يقسم عليه السلام بشأن ما يريد أن يبينه للناس في أول خطبة له، وهو الصادق المصدق، بياناً لأهمية ما يريد أن يقوله لهم. والوشمة: كلمة الحقيقة، والوشمة مأخوذة من الوشم على الجلد، فالأُبرة حينما تغرس فهذه وشمة، وبتعددها تصبح وشما. أي أنه عليه السلام لم يكتم عليهم حقيقة بقدر رأس الأُبرة، وأنه علي بن أبي طالب، ليس عنده وجهان، ظاهري

٣٢٧ . الكافي ٢: ١٠٤.
٣٢٨ . نهج البلاغة: الخطبة ١٦.

وباطني، فهو ليس من أهل المكر والخداع والالتفاف، وانه لم يكذب كذبة واحدة في حياته، ولم يقل شيئاً خلاف الحقيقة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله في بيان رذيلة الكذب ومنشئها النفسي: «لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه عليه»[٣٢٩]، أي أن الكاذب لا يكذب إلا حينما يكون عنده شعور بالمهانة والانحطاط النفسي الداخلي فلذلك يكذب، وهذا تحليل نفسي عميق يبينه رسول الله صلى الله عليه وآله للكذب.

فعلى الإنسان أن يعترف بالخطأ، والاعتراف بالخطأ فضيلة، وإذا كان كلامه صواباً فهو مدعاة للفخر أن يكون ما قاله في محله. فالكذب دليل على انحطاط خلقيٍ ومهانة نفسية. ولذا ينبغي على الإنسان الشريف تجنب الكذب وإن لم يكن مسلماً.

في رواية أُخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»[٣٣٠]، فمن يكذب مرة سيكررها مرتين وثلاثا إلى أن تتحول إلى سجية في حياته، ولذلك يقول الإمام العسكري عليه السلام: «جُعلت الخبائث في بيت وجُعل مفتاحه الكذب»[٣٣١]، أي أن الكذاب يفتح باب الخبائث كلها على نفسه. إذن، فالورع والصدق صفتان أساسيتان يجب توافرهما في من يريد أن يختاره المسؤول بطانة له.

أخطار مدح الحكام والمسؤولين

إن كثرة إطراء الحكام والمسؤولين تحدث الزهو والعجب لديهم، وفي هذا خطر فادح عليهم وعلى الأُمة. ولهذا يوصي أمير المؤمنين عليه السلام المسؤول أن يحذر المقربين منه من الثناء عليه ومدحه؛ لأنهم أول من يبادر إلى المدح والإطراء، فيكونون أُسوة سيئة لعامة الناس لسلوك هذا الطريق.

ويستعمل أمير المؤمنين عليه السلام كلمة الترويض هنا إشارة إلى حاجة البطانة إلى التدريب الشاق والتذكير المستمر لترك هذه العادة السيئة. فيطلب عليه السلام من المسؤول

---

٣٢٩. بحار الأنوار ٦٩: ٢٦٢ح ٤٥.
٣٣٠. بحار الأنوار ٦٩: ٢٥٩ح ٢٤.
٣٣١. بحار الأنوار ٧٨: ٣٧٧.

أن يروض حاشيته على ترك مديحه والثناء عليه مطلقاً، وإن كان يستحق هذا الإطراء واقعاً.

ويطلب منه أيضاً ترك تبجيحه بباطل لم يفعله، ليسعدوه بأُمور لم تحدث ولم تحصل منه، ويحذرهم حتى لا يقوموا بهذا المديح والإطراء بطريقة توحي له أنه يفهم كل شيء وأفكاره مهمة جداً، في حين أنه كأحدهم وإنسان منهم يعرف أشياء ويجهل أُخرى، ويوفق في مجالات ويخفق في مجالات أُخرى، وهو بشر وحينما يصبح وزيراً أو مديراً أو رئيساً في أي موقع من مواقع المسؤولية لم يتغير ولم ينزل الوحي عليه.

ثم يبينعليه السلام الآثار الوخيمة لمدح الحكام والمسؤولين، وهي:

أولاً: إن كثرة الإطراء تحدث الزهو عند المسؤول، وتحصل لديه حالة من العجب بنفسه وآرائه ومواقفه.

ثانياً: حصول حالة من العزة عند المسؤول تقربه من حالة التكبر، فيتعالى على الآخرين ولا يقبل منهم رأياً أو نصيحة، فيعتبر رأيه هو الرأي الصائب فقط، وما عداه خطأ.

ومن هنا يحذر أمير المؤمنينعليه السلام مالكاً من تقريب مثل هؤلاء الذين لا يجيدون غير التصفيق والتطبيل للحاكم والمسؤول، ويوصيه بأنه إذا أراد النجاح فعليه أن يختار بطانته من غير هذا النوع، وأن يروضهم ويربيهم على ألاّ يكثروا الإطراء والمديح.

يقول رسول اللهصلى الله عليه وآله في تأييد هذا المعنى: "إياك وحب الإطراء والمدح فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان"[٣٣٢]، حينما يصبح المسؤول راغباً بالمديح والإطراء، وإن لم يظهر ذلك للناس بلسانه، لكن سلوكه يدل على ذلك، فحينما يمدحه شخص يقربه، وحينما ينتقده يُبعده، وهذا يعطي إيحاء لمن يريد أن يحصل على الامتيازات وتناط به المهام أن يكثر من المديح والإطراء، وأن من ينتقد ويشفق على حال

٣٣٢ . نهج البلاغة: الرسالة ٥١.

المسؤول ويحرص على إيصال المعلومة الصحيحة لئلا يقع في الفخ ويضيع، ويضيع المشروع معه، فإنه يبعد.

ومن هنا يحجم من له حرص على المشروع والوطن عن الانتقاد وإبداء النصح حينما لا يجد آذاناً صاغية، ويجد الصدود بوجه من يبدي النقد المشفق ومن يذكر الملاحظات الحريصة على المشروع، ومن يضع اليد على نقاط الضعف حتى تصحح، وحينما يرى أن أمثال هؤلاء الناس إما يُبعدون أو يمسكون عن إبداء النصيحة، ويصبح المسؤول لا يسمع غير أصداء سلوكه وأقواله.

وحينما يقول المسؤول شيئا، فهناك من يصفق وهناك من يسكت، ولا يسمع صوتاً لمعترض سوى صوت المديح والإطراء، فيصاب بحالة العجب أو الكبر، ويتولد من هذا الشعور أن ما يقوم به هو أفضل الأفعال.

وبالنتيجة سوف تختفي نقاط الضعف عليه وعلى الآخرين القريبين منه أو ربما يخفونها عنه، فلا يسمع إلا المديح والإطراء والثناء على المواقف والسلوك والآراء، وتغيب نقاط الضعف والإخفاقات في أداء المسؤول، كائناً من كان، وقد مر أن المسؤولية لا تنحصر بمستوى واحد، بل هي تبدأ من رب الأُسرة إلى مدير الشركة أو المصنع أو كابتن الفريق الرياضي أو رئيس العشيرة وغيرهم.

فالبعض منا مثلاً في البيت، لا يسمح لأولاده أو لزوجته أن يوجهوا نقداً أو ملاحظة على سلوكه أو أدائه أو طريقة تعامله، ويريد فقط أن يأمر فيطاع، وهذا أمر نفسي، وكلما كانت دائرة المسؤولية أكبر تبينت مضاعفات هذه الحالة بشكل أكبر.

إذن، غياب نقاط الضعف عن نظر المسؤول يمثل إحدى المشاكل، فحينما لا يعترض أحد ولا يسمع المسؤول سوى أصوات المديح فإن هذا يدعوه الى أن يقصر بأداء الواجبات أو يغفل عن أداء جزء منها، وقد يقصر في أداء الحقوق لأصحابها من دون أن ينبهه ويلفت نظره أحد، ومن عنده حاجة يخشى أن يطالبه بها.

وهذا هو شأن الطواغيت، إذ تبدأ عملية تجاهل الحقوق بشكل مضطرد، وتتسع هذه الرقعة يوماً بعد آخر، والمسؤول يرى أن كل شيء جيد ويسير على ما يرام، ففي

قصره كل شيء متوافر، وما يريده يكون متوافرا في أماكن وجوده، فلا يستطيع أن يفهم ما يواجهه الآخرون .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أن يحثى في وجوه المداحين التراب(٣٣٣)، فكان يربي أصحابه على مكافحة المديح والنهي عنه، وأنه إذا وجدتم من يقوم بالمدح والإطراء فأرموا التراب في وجهه حتى يكف عن ذلك، لأن هذا المديح لا يصلح، بل يفسد ويعقد المهمة.

وفي رواية أُخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: "إياكم والمدح فإنه الذبح"(٣٣٤)، فالمديح يعني ذبح الابداع، وذبح التألق، وتغييب كل مكارم الأخلاق من التواضع والاستماع إلى الآخر والاعتناء به ورعايته.

التوازن الدقيق بين الواجبات والحقوق

وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام خطبها في صفين يتحدث فيها عن العلاقة بين المسؤول والرعية، يقول في أولها: "أما بعد، فقد جعل الله تعالى لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ومنزلتي التي أنزلني الله عز ذكره بها منكم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي عليكم، والحق أجمل الأشياء في التواصف وأوسعها في التناصف"(٣٣٥).

يشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى قضية مهمة وأساسية، وهي كما أن للأُمة حقوقا وواجبات تجاه الحاكم والمسؤول، فكذلك للمسؤول حق على الأُمة يجب أن يرعى، وعليه واجبات تجاه الأُمة يجب أن يؤديها، فهي معادلة متوازنة الطرفين، فالأُمة عليها واجبات ولها حقوق، والحاكم والمسؤول له حقوق وعليه واجبات أيضاً.

وهذا التوازن الدقيق بين الواجبات والحقوق هو الذي يضمن سلامة المجتمع ورقيه وتطوره. وحينما تختل المعادلة فتُطالب الأُمة بواجباتها فقط، ويستحضر الحاكم حقوقه فقط، تحدث المشكلة. وربما تختل المعادلة باتجاه معاكس فتطالب الأُمة بحقوقها فقط ولا تنظر إلى واجباتها، ويطالب الحاكم بحقوقه فقط ولا ينظر إلى واجباته، فتحصل مشاكل كبيرة ومعقدة.

---

٣٣٣. بحار الأنوار ٧٠: ٢٩٤ح١.
٣٣٤. كنز العمال ٣: ٦٥١ح ٨٣٣١.
٣٣٥. الكافي ٨: ٣٥٢ح ٥٥٠.

وعلينا إذا أردنا أن نطالب بحق أن نسأل أنفسنا؛ هل عملنا بواجباتنا التي هي حقوق للآخرين أو لم نعمل؟، وهذه المعادلة لو أخذ بها المسؤول وأخذ بها الشعب فنحن في نعمة عظيمة. وإن أفضل بوابة للانصاف هي الحقوق المتبادلة، فحق الطرف الآخر هو واجب على هذا الطرف، وحق الطرف الثاني هو واجب على الطرف الأول، وهذا هو أوسع أبواب التناصف.

وفي العراق اليوم هناك احتجاجات يقوم بها المواطنون يريدون حقوقهم، وهذا شيء جيد، ونقول لهم: أيها المحتجون لكم حقوق ما دامت ضمن القانون والدستور فنحن معها، ولكن اعلموا أن هذا الدستور أعطى حقوقاً للمسؤول أيضاً، التي هي واجباتكم، فالتزموا بواجباتكم وطالبوا بحقوقكم.

ونقول للمسؤول: تطالب بالتزام الناس بالقانون، وتعني تحديد حركة الناس بما هو حق لك، أي تذكيرهم بواجباتهم تجاه الدولة والحكومة، وهذا شيء جيد، ولكن أيضاً عليك واجبات والتزامات تجاه الشعب، وهي حقوقهم، وهذا يوجب المعادلة الصحيحة التي تطمئن الجميع وتحل مشاكل الجميع.

ولا يجوز أن تطالب بحقك وتنسى واجباتك، سواء كنت مسؤولاً أو كنت مواطناً، فالكل يقع تحت دائرة مسؤولية الآخرين، وهذه المعادلة .

العلاقة بين نعمة المسؤولية والشكر

عندما أنهى أمير المؤمنين عليه السلام حديثه القيم في العلاقة المتبادلة بين المسؤول والرعية، شرع في بيان العلاقة بين نعمة التصدي للمسؤولية والشكر.

وهنا ملاحظة جديرة بالبيان وهي أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب هذه الخطبة في صفين وهو في الحرب، ولكن هذه الظروف الاستثنائية والطارئة لا تلغي حقوق الأمة ولا تلغي الواجبات التي عليها، كما لا تلغي الواجبات التي على المسؤول ولا تلغي حقوقه.

"فأجابه رجل من عسكره"، فقام هذا الجندي، فخطب خطبة بليغة حمد فيها الله تعالى وأثنى عليه بما أعطاهم من واجب حقه عليهم والإقرار بكل ما ذكر من تصرف

الحالات به وبهم، وأيد أمير المؤمنينعليه السلام بكل ما قال، ثم قال (الجندي): "أنت أميرنا ونحن رعيتك، بك أخرجنا الله عز وجل من الذل، وبإعزازك أطلق عباده من الغل ليضع إصرهم".

بك كسرالله تعالى هذه الأغلال وجعلنا أسياداً على أنفسنا ولسنا أذلاء لغيرنا. "فاختر علينا وأمض اختيارك، وائتمر فامض ائتمارك، فإنك القائل المصدق، والحاكم الموفق، والملك المخول، لا نستحل في شيء معصيتك، ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرك، ويجل عنه في أنفسنا فضلك"، أي قدم المشورة، وكلامك مصدق لأنه يطابق الواقع والمصالح، والله تعالى قد خولك فأنت الإمام المعصوم، ولا نخالفك في شيء، ولا نقيس علماً بعلمك، فإن منزلتك عظيمة وفضلك واسع وعميم. وكلام هذا الجندي قد أصاب كبد الحقيقة، ووصف علياًعليه السلام بما هو أهله.

"فقال ـ أمير المؤمنينعليه السلام : إن من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه"، فمن يعرف عظمة رب العالمين تبارك وتعالى يصغر في عينه كل ما سوى الله، كائناً من يكون، حتى لو كان علي بن أبي طالب، أي أن علياًعليه السلام يريد أن يقول: من أنا أمام الله تعالى؟! وليس هناك من له قيمة ووزن بين يدي الله تعالى.

ثم يقولعليه السلام: "وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه، ولطف إحسانه عليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا زاد حق الله عليه عظماً"، فمن أين لعلي بن أبي طالب هذا العلم والتسديد في القول والفعل وهذه المواقف الصائبة التي تنسجم مع الحقيقة، أليس من الله تعالى؟، أليس كل فضل لعلي نعمة من الله أنعمها عليه؟.

وكلما زادت النعمة، زادت الحاجة للشكر والامتنان على هذه النعمة، وهكذا كلما كانت النعمة أكبر كان الشعور بالامتنان أعظم، فكلما هو فضل لعلي هو نعمة مضاعفة تحتاج من علي أن يكون أكثر تواضعاً لشكر هذه النعمة.

لاحظوا كيف ينظر عليعليه السلام لهذه الأُمور، وكيف يرى الحقيقة، وهذا درس عظيم من عليعليه السلام .

أسخف الحكام والمسؤولين

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام أتفه الحكام من وجهة نظر أهل الدين والصلاح، فيقول: "وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر". إن أسخف حاكم في عيون الناس الصلحاء، هو الحاكم الذي يحب المديح والإطراء، ويرونه مجرد شخص متكبر يحب الكرسي.

لقد كنت مرة جالسا في محضر السيد السيستاني، فقال: أنا أرى في نشرات الأخبار مسؤولين جالسين على كراسي مذهبة وعالية وفخمة، فأعجب لهؤلاء!، في حين يجب عليهم أن يضعوا عيونهم على الناس، فماذا سيكون شعور المواطن البسيط تجاه هؤلاء المسؤولين عندما يراهم بهذه الفخفخة؟!.

ثم يبين عليه السلام كراهيته للمديح والإطراء فيقول: "وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أُحب الإطراء، واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك "، أي لا يخطر في بال أحدكم أن علي بن ابي طالب يحب استماع الإطراء والثناء، ثم يحمد الله تعالى أنه ليس كذلك؛ لأنه قد روض نفسه ألاّ يحب المديح والإطراء ولا تصيبه حالة من النشوة لذلك.

ثم يتنزل ويفترض وجود مثل هذه الحالة في نفسه، وهو عليه السلام إنما يقول ذلك مداراة لمشاعرنا التي لا تخلو من هذه الصفة، " ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء "، أي لو كنت أُحب أن يمدحني أحد لتركته تواضعاً بين يدي الله تعالى؛ لأنه أحق به لما هو فيه من العظمة والكبرياء، فالله سبحانه وتعالى أحق بعبارات التبجيل والتكريم والمديح من عباده.

ثم يبين عليه السلام أن حب الناس للثناء والمدح والتكريم أمر طبيعي بعد أن ينجزوا عملاً جيداً، فيقول: "وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراج نفسي إلى الله وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها"، فالإنسان يشعر بحلاوة المدح عندما يقوم بعمل جيد، فحب الكمال حالة فطرية عند الإنسان،

وهي ليست حالة سيئة، ولكن السيئ أن تنفلت وتأخذ مديات تصل بالإنسان إلى حالة العجب والكبر.

ثم يطلب عليه السلام من الناس ترك الثناء الجميل عليه؛ لأنه قد أخرج نفسه إلى الله تعالى وإلى الناس في باقي حقوق الناس التي لم يفرغ من أدائها بعد. وإذا كان الناس يرتاحون لمثل هذا المديح إذا قاموا بعمل جيد، وهو أمر مقبول، ولكن علي عليه السلام لا يريد هذا المديح؛ لأنه اعتبر نفسه فاتورة الحقوق العظيمة، وهي تثقل كاهله، وعليه أن يؤدي حقوق الله تعالى وحقوق الناس، فعلي عليه السلام ذائب في ذات الله تعالى.

وأخيراً يطلب أمير المؤمنين عليه السلام من الناس أن يتعاملوا معه معاملة عادية، فيقول: "فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ عند أهل البادرة"، أي لا تلقبوني بألقاب الجبابرة، ولا تتعاملوا معي كما تتعاملون معهم. وطلب منهم أن ينبسطوا معه في التكلم والمعاملة، وألاّ يتحفظوا منه كما يتحفظ عند أهل البادرة. والبادرة هي حالة الحدية، وسُمي الملوك بالبادرة لأنهم ينزعجون لأتفه الأسباب.

ثم يقول علي عليه السلام: "ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي لما لا يصلح لي، فلا تكفوا عني مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي فوق ما أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى"[٣٣٦].

يطلب أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرة من الناس ألاّ يتصنعوا أمامه في تعاملهم معه، ولا يظنوا أنه يستثقل كلاماً يقال له، ولا يعظموه تعظيماً لا يصلح له، ولا يخبئوا عنه حقيقة، بل يجب عليهم بيانها له، ولا يمنعوا عنه مشورة بعدل، فعلى المقربين والمستشارين أن ينبهوا المسؤول على الأخطاء وغيرها، وعلى المسؤول أن يتقبل هذه الملاحظات.

ثم يبين علي عليه السلام أنه في نفسه ليس فوق أن يخطئ، ولا ينبغي أن يُفهم من هذه

٣٣٦. الكافي ٨: ٣٦٥ح ٥٥٠.

الجملة أنهعليه السلام ينفي العصمة عن نفسه، بل هو في مقام التربية والتعليم لأجيال الحكام والمسؤولين الذين سيأتون من بعده.

ولذا يستدرك في الجملة التالية ليثبت ما منحه الله من العصمة عن الخطأ، فيقولعليه السلام: "ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني"، أي إلا أن يحفظني الله تعالى من الخطأ، وذلك بإرشاده إلى الطريق الصحيح.

فعلى المسؤول أن يتوكل على الله سبحانه، ويحرص على أن تكون علاقته بالله تعالى علاقة قوية، والله تعالى سيلقي في روعه ويساعده ويرشده إلى الطريق الصحيح، والرعاية الإلهية تشمل المسؤول أيضاً؛ لأن مسؤوليته أكبر، فإذا كان من الصالحين كانت الرعاية الإلهية له أكبر.

ثم يوضحعليه السلام أن الناس جميعاً عبيد مملوكون لرب العالمين، الذي لا رب سواه، وهو يملك منا ما لا نملكه من أنفسنا، فيستطيع أن يمنعنا من أُمور قد عقدنا العزم على إتيانها، وهو الذي أخرجنا من ظلمات العدم إلى نور الوجود، وأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى.

وهذا هو المنهج الذي رسمه لنا عليعليه السلام، وكان هو أول من طبق ما يقول، وهنا تكمن قوة عليعليه السلام، فالمسؤول الذي يقدم نصائح للآخرين ولكنه لا يعمل بها يفقد مصداقيته بين الناس، ولكن علياًعليه السلام يقول شيئاً والناس ترى في سلوكه وفعله صدقية هذه الأقوال، لذلك أصبح رمزاً إنسانياً، وليس رمزاً لأتباع أهل البيت عليهم السلام أو للمسلمين وحدهم.

الدرس الخامس والثلاثون

تكريم المحسن

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه «.

يوصي أمير المؤمنينعليه السلام من يتصدى للمسؤولية وخدمة الناس أن يميز ويفكك ويقيم أداء الناس، فليسوا بأجمعهم سواء، فمنهم المسيء ومنهم المحسن، ولابد من التمييز بينهما، ولا ينبغي أن يكون المحسن والمسيء عنده بمنزلة سواء، ولا ينبغي أيضاً أن يتعامل بنفس الطريقة معهما، ويجب عليه أن يكون عادلاً في التصدي للمسؤولية، والعدل هو وضع الشيء في موضعه، فيتعامل مع المحسن بما ينسجم مع إحسانه، ويتعامل مع المسيء بما ينسجم مع إساءته.

فإن لم يفعل ذلك وعامل الجميع على حد سواء بنفس الطريقة، فإن المحسن سوف يسأل نفسه: لماذا أعمل الإحسان وأُتعب نفسي وأصرف كل هذه الطاقة في تمشية الأُمور، والذي يتغيب ولا يخدم الناس له نفس الامتيازات والاحترام والتكريم؟. وحينئذ سيزهد المحسن في قيمة إحسانه ويترك هذا العمل. وأما المسيء فيقول: مع كل الذي أفعله، فلا أحد يحاسبني، ومن أمن العقوبة أساء الأدب، وحينئذ يتجرأ المسيء أكثر في إساءته.

والمسؤول الناجح هو من يميز في التعامل بين المحسن والمسيء، بما ينسجم مع إحسانه وإساءته. ومن هنا تظهر أهمية العدالة في تعامل المسؤول مع من هو تحت إدارته وقيادته.

وهنا مجموعة من الجوانب المهمة في البحث ينبغي الإشارة إليها:

الجانب الأُول: أهمية ايجاد أدوات تقييم للعاملين

ويتناول هذا الجانب بيان أهمية التقييم والتمييز والفرز ووجود أدوات تقيم العاملين تحت دائرة المسؤولية.

فهناك أدوات رقابية تميز لنا العاملين في شركة أو في مصنع أو في دائرة أو في وزارة أو في أي مكان كان، ومما لا شك فيه أن هناك تفاوتاً في أداء العاملين، ولذا يجب أن تكون لدينا أدوات تراقب وتقيم، ثم تصنف هؤلاء العاملين على أساس مدى التزامهم بالقانون والضوابط وتحقيق الأهداف إلى غير ذلك.

وحينما ننظر إلى الناس، نجد فيهم المحسن والمسيء، والعالم والجاهل، والكفوء وغير الكفوء، ومن يحب الخير ويسعى إليه ومن هو ليس كذلك، والعاقل الذي يملك حكمة وعقلا في تعامله، والأحمق الذي يحبك ولا يستطيع أن يخدمك، بل يسيء إليك من حيث لا يقصد، والنشيط والكسول.

وكل هذا يرتبط بمقدرات الناس وقدراتهم، وقسم منها يرتبط بالثقافة والتنمية والتنشئة والطاقة الذاتية. فترى من العاملين من هو نشيط يركض ولا يتعب ولا يعتب على أحد وليس له مطاليب ولا يشتكي، وترى منهم الكسول الذي لا تحركه العواصف، فهذان صنفان مختلفان، ولذلك يجب أن يوضع الكسول في المكان الذي يتناسب مع طاقته، ولا يُحمل أكثر من طاقته لئلا يسيء المسؤول إلى نفسه والعمل والمشروع من خلال الاعتماد على أمثال هؤلاء.

ونجد في الناس أيضاً من هو ذكي ومن هو غبي، وهناك من الأعمال ما يرتبط بالقدرات الشخصية التي تحتاج إلى ذكاء لاتخاذ موقف صحيح وقراءة بين السطور فيستنهض إليها الذكي، وحينما تكون القضية واضحة يُبعث إليها الشخص الأقل ذكاء.

وفي الناس أيضاً من هو حسن النية ومن هو سيئ النية، وفيهم من تملأ قلبه الشكوك والظنون وينظر إلى كل شيء بعين المؤامرة، وفيهم من يمتلك حسن

ظن فينفتح ويستوعب ويتعامل ويخترق ويتجاوز الكثير من الحدود والقيود والإشكاليات. فيجب على المسؤول أن يميز بين هؤلاء جميعاً حتى يستطيع تكليف الشخص بالمهمة التي تنسجم مع طاقاته وظروفه.

وهناك المتقي الذي يخاف الله سبحانه وتعالى ويتقيد بالضوابط الشرعية، وغير الملتزم الذي ينظر إلى العمل على أنه فرصة للتلاعب والاستحواذ على المزيد. وهنا يجب على المسؤول أن يبقي العمل بيد المتقي وبيد من يخاف الله سبحانه، لأن العمل يحتاج إلى أيد أمينة لا تمتد إلى الحرام.

وهناك المنظم ومن ليس بمنظم، فترى أنسانا شخصيته وحركته وملبسه وفكره وحديثه وسلوكه وتعامله وكل شيء فيه خاضع للنظام، فكل شيء عنده يجب أن يكون في مكانه. وهناك من هو غير منظم، فتراه مشتتاً في فكره وبيانه وعمله، وغير منظم في ملبسه وسلوكه وتعامله ومواعيده. وهذا يختلف عن ذاك، ويجب على المسؤول التمييز بينهما حتى يستطيع أن يستفيد الاستفادة الصحيحة من الطاقات المتاحة.

وهناك المبدع، والتقليدي الذي لا يعرف إلا أن يقوم بالعمل الذي تعلمه بنفس الطريقة، حتى لو بقي عشرين سنة، فهو لا يملك الاستعداد لأن يفكر بشيء جديد ويبدع ويطور فكره، وهناك آخر يبحث دائماً عما هو جديد وصبغة جديدة وأفكار جديدة.

وهناك العادل والظالم، وهناك المتسامح والمتشدد، وهذه أُمور ترتبط بسلوك الناس وتركيبة شخصيتهم. ولذلك إذا لم يميز المسؤول بين هؤلاء الناس لا يستطيع أن يتعامل معهم، ومن الممكن أن يتحول العمل إلى فوضى ويتعطل المشروع، كما أن فيه إساءة للمسؤول والمنظومة القيادية التي يقودها.

وبعبارة موجزة، هناك النافع وهناك الضار في كل مهمة وقضية، فلا ننظر إلى الشخص ونبحث له عن دور وموقع، بل ننظر إلى الموقع واستحقاقه ونبحث عن الشخص المناسب لهذا الموقع، وشتان بين هذه النظرة وتلك.

هناك من ينظر إلى أفراد حزبه وقوميته وطائفته وجماعته وعشيرته ويعينهم في مواقع معينة، وهناك من يملك مواقع شاغرة وينظر إلى طبيعة التحدي في هذه المواقع ويبحث عن الشخوص المناسبين، فهنا نظريتان مختلفتان، تؤكد أحداهما على أهمية التقييم والفرز وتصنيف الناس الذين يعملون ضمن المنظومة الإدارية والقيادية للشخص المسؤول، في أي منظومة كانت، دولة أو مصنعا أو شركة أو دائرة أو أُسرة، فأي منظومة، مهما كانت، تتميز بفرص في المواد والإمكانيات والقدرات والموقع الاستراتيجي وحاجة الناس إلى هذا الموقع وإلى هذه المنظومة.

ولا تستطيع هذه المنظومة أن تتحرك مهما كانت الفرص كبيرة إذا لم تراعِ هذه المسألة، كما نرى ذلك في البلدان ذات الميزانيات الضخمة التي لا تتقدم، وهو يكشف عن وجود مشكلة في العدالة وتقييم العاملين والأدوات في هذه المنظومة ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

حينما لا يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب لا تتحقق النتائج المرجوة في المكان المرغوب، مهما كانت النيات طيبة؛ لأن المشكلة الأساسية عدم وجود تقييم صحيح ووضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وهذه ثغرة كبيرة كما أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام.

الجانب الثاني: تطوير المنظومة القيادية

يتناول هذا الجانب المواصفات والقيود المطلوبة لإيجاد الحركة والتطور في المنظومة القيادية (الدولة مثالاً).

إن أهم المحددات والمواصفات المطلوبة لمسؤولي الدولة لكي يتطور البلد هي الإخلاص والجدية والاندفاع والحس الوطني والخبرة والانسجام، فهذه الضوابط العامة كفيلة في حال توافرها بتحويل هؤلاء إلى فريق واحد، يعملون كخلية نحل وكمجموعة من النمل.

ودائماً ما تكون المنظومة التي تعمل بشكل كثيف نشيطة جداً، وتمثل بالنحل

والنمل لأنهما منظومتان فاعلتان جداً، فخلية النحل عبارة عن خلية منسجمة، تعمل ليل نهار حتى تصنع لنا العسل، وهي منظومة معقدة ومنسجمة ومتكاملة وكفوءة ودؤوبة في العمل ليلاً ونهاراً، والنمل يعمل ليلاً ونهاراً، حتى يجلب الحب ويوصله إلى مكان الخزن. وكذلك المنظومة البشرية حينما تكون فاعلة وقديرة وتعمل بجد ومثابرة، فإنها تستطيع تحقيق أهدافها المجتمعية.

وهذا الجانب يحظى باهتمام كل المنظومات القيادية في العالم، سواء كانت دولا أو شركات عملاقة أو مصانع كبيرة، فكلها تعمل لتحقيق هذه الحركة الدؤوبة والمحترفة والمختصة والمنسجمة من أجل الحصول على أكبر الأرباح، لأنه حينما تقل الأرباح يعطل المشروع. وهذه الجوانب تحظى بأهمية كبيرة.

ولكن هناك جانب آخر مهم جداً يرتبط بتطوير الإنسان وتكامله، فحينما نتحدث عن التقوى وعن حسن النية وعن حسن الظن وعن كسر الأغلال والأحقاد والانفتاح على الآخر وعن الأبعاد القيمية في رقي الإنسان، فإن ذلك كله يسهم في إيجاد الإنسان المتكامل الذي يؤدي إلى المجتمع المتكامل السائر نحو الله تعالى. وهذا الجانب لا يحظى بالأهمية.

إذن، في الكثير من الدول المتطورة والبلدان العملاقة والدول الصناعية الكبيرة لا ينظرون إلى القيم المعنوية والالتزام الأخلاقي التي يجب أن يتحلى بها المدير والمسؤول، ولم تدخل في حساباتهم، وما هو موضع اهتمامهم هو شهادته وخبرته ومقدار ونوعية عمله وحرصه على العمل.

ولذلك نجد منظومات عملية كبيرة تحقق نتائج مادية كبيرة، ولكن تعيش حالة من الفراغ المعنوي والأخلاقي، الذي يؤدي إلى يأس وحزن مجتمعات تتقدم بسرعة، رغم ارتفاع ناتجها القومي وكبر ميزانياتها وعلو رواتبها، ولكنها لا تملك روحاً وعلاقات ومشاعر، مع أن ما يجعل الإنسان إنساناً هي هذه المشاعر والعواطف والأحاسيس.

وهذا هو الهدف الكبير، فالحياة ليست مجرد طعام وشراب، فالحيوانات تأكل وتشرب أيضاً، والحياة ليست فقط أن يعمل الإنسان كالآلة ليلاً ونهاراً،

وإنسانية الإنسان ليست فقط في عمل مادي وحركة ميكانيكية، وإنما هي في غايات مشروعة وقيم حقيقية وتوجه نحو الله في قلب يشع بذكر الله سبحانه: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٣٣٧).

وهذا التطور المادي الكبير مع التخلف والتراجع المعنوي الفظيع، يخلق حالة من عدم التوازن، فيؤدي أحيانا إلى تراجعات خطيرة وارتدادات كبيرة. فهناك منظومة إنسانية تتحرك بسرعة وتنتج نتاجات مالية، ولكنها جوفاء وفارغة في مضمونها، وهي تشعر بحالة من الإحباط واليأس.

إن رقة القلب وتأنيب الضمير والتوجه نحو الله تعالى مفاهيم تعطي للحياة طعماً، وتعطي للحياة قيمة، وتعطي للإنسان إنسانيته. وحينما يفقد الإنسان إنسانيته يضيع كل شيء، حتى لو حظي بكل شيء بالمقاسات المادية. وهذا جانب مهم يجب أن نلتفت إليه، وقد أشارت إليه هذه الكلمات الكريمة لأمير المؤمنين عليه السلام.

مكافأة المحسن ومحاسبة المسيء

على المسؤول تكريم المحسن وشكره وتقديره ومكافأته، ومحاسبة ومعاقبة المسيء، وذلك إلزاما بما ألزموا به أنفسهم من الإحسان أو الإساءة. وهذا الإجراء من شأنه تشجيع المحسن على إحسانه ليزداد منه، وتوبيخ المسيء على إساءته لينتهي عنها.

وما أجمل أن يمنحه المدير شهادة تقدير أيضاً ليعلقها في داره أو في غرفة عمله مثلاً، وتوضع نسخة منها في إضبارته الإدارية ليستفيد منها يوماً ما، أو يأتي المسؤول ويشكره أمام باقي الموظفين والمراجعين على حسن أدائه، وهذا من شأنه أن يحفز الموظفين والعاملين على مواصلة العمل بعزيمة أقوى.

ومن الشواهد المؤيدة لفكرة تشجيع العاملين قولِ الله تبارك وتعالى لشيخ الأنبياء نوح على نبينا وعليه السلام: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٣٣٨)، يا نوح نحن نرى

٣٣٧ . الرعد: ٢٨.
٣٣٨ . المؤمنون: ٢٧.

ونشكر ونقدر جهدك، وفي زماننا عندما يلعب فريق كرة القدم في ساحة الخصم يحسب له الهدف هدفين، لأن البيئة مشجعة للآخر، فالتشجيع له دور مهم في الوصول إلى النتيجة المرجوة.

وحينما يفقد الإنسان التشجيع يكون ضعيفاً، وحينما يكون في بيئة تشجع الإنجاز يكون مبدعا. إذن مكافأة من يقوم بعمل جيد أمر مهم، ومحاسبة من يسيء أمر مهم أيضاً، فالتوازن مطلوب .

لقد كان أمير المؤمنينعليه السلام لا يقول إلا ما يعمل، ففي وصيته لمالك الأشتر كان في دوره وممارسته لمهامه القيادية يلتزم تماماً بهذا المبدأ.

ويقولعليه السلام مخاطباً الصالحين من أصحابه، تثميناً لمواقفهم وتشجيعاً لهم: «أنتم الأنصار على الحق، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس، بكم أضرب المدبر، وأرجو طاعة المقدم، فأعينوني بمناصحة خلية من الغش سليمة من الريب، فوالله إني أولى الناس بالناس»[٣٣٩].

تضمنت هذه الكلمة جملا مهمة في مدح هذه المجموعة المجاهدة من أصحابه، الأُولى: نصرتهم للحق، والثانية: أنهم دروع في أيام البأس، والثالثة: أنهم البطانة.

فأما بالنسبة للجملة الأُولى، فبالرغم من أن هؤلاء الأصحاب من الصالحين، وبالرغم من أنه هو علي عليه السلام، مع ذلك، ليس هناك نصرة عمياء. وربما يقول قائل: إن طاعتنا لقيادتنا هي طاعة عمياء! ولكن من قال لكم أن تطيعوا طاعة عمياء؟!.

فالمطلوب هو الطاعة الواعية، والدليل على ذلك هو قول أمير المؤمنينعليه السلام لأصحابه:«أنتم الأنصار على الحق» بالرغم أن علياًعليه السلام لا يصدر منه إلا الحق، ولكنه لا يقبل لنفسه أن يناصروه على غير الحق، وإن تقدم لهم قول رسول اللهصلى الله عليه وآله فيه: «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور معه حيثما دار»[٣٤٠]، وكل ما يطلب منهم فهو الحق، ولكن هذه رسالة لنا جميعاً، وهي أن نطيع في ما هو حق.

والأُخوة في الدين خاضعة لموازين ومعايير، ولا يمكن للمؤمن أن يعمل بعمل

---

٣٣٩ .نهج البلاغة: الخطبة ١١٨.
٣٤٠ . بحار الأنوار ٣٨ : ٢٨ـ ٢٩.

أهل الجاهلية فيؤيد أخاه ظالماً أو مظلوماً، وإن كان البعض ينطلق من هذا المنطلق الجاهلي، ليقف مع ابن عشيرته من غير أن ينظر إلى القضية، فربما يكون ظالماً ومسيئاً، وحينئذ يجب عليه أن يكون خصمه قبل الآخرين، لكي لا يسيء إلى سمعة العشيرة.

والأُخوة الحقيقية هي الأُخوة في الدين، وليست الأُخوة عامة كيفما كان وكيفما اتفق، فإذا كان الظرف سيئاً يكون حاله كحال مسلم بن عقيل يتلفت يميناً وشمالاً فلا يجد أحدا، ويقول: ما لنا وللدخول بين السلاطين؟!. وفي حادثة حصار قصر الإمارة، عندما رأى الناس أن القضية فيها سيف وذبح، جاءت كل امرأة وأخذت ابنها أو زوجها وتركوا مسلم بن عقيل وحيداً.

وكذا في قولهم: مالنا وللدخول بين السلاطين، أصبح الحسينعليه السلام سلطاناً في نظرهم كما كان يزيد سلطاناً، وأصبحت معركة الطف معركة بين السلاطين على الكراسي!. وعندما يقال لهم: هذا ابن بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله وهو على الحق ويزيد على الباطل، يقولون: عمائم تتقاتل بينها وليس لنا علاقة بها، صراعات سياسية وكل واحد يريد أن يخطفها لنفسه! ، فينعزل الجميع وهم يقولون ليس لنا علاقة. إنه منطق أبي موسى الأشعري عندما قال: هذه فتن.

وأما بالنسبة للجملة الثانية فإنهعليه السلام يصف أصحابه هؤلاء بأنهم الجنن يوم البأس، فهم ليسوا من القائلين لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وليسوا من القائلين انها فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الراكب، وهكذا أشاعوا بين الناس ثقافة التثبيط عن النصرة وقعدوا عن نصرة عليعليه السلام، ولا من أُولئك القائلين بأنها حرب بين المسلمين من أجل الزعامة والإمارة، وليست حربا بين الحق والباطل.

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في حق هذه المجموعة من أصحابه: هم الجنن يوم البأس، أي هم الدروع في يوم البأس والشدة لا في يوم الرخاء، فهم واقفون يدافعون ويذبون عن الحق الذي يدافع عنه عليعليه السلام.

وأما في الجملة الثالثة، فإنه يقول فيهم بأنهم البطانة دون الناس، أي أنهم الخواص دون بقية الناس، والذين يعتمد عليهم في إدارة أُمور الدولة.

هكذا كان علي عليه السلام يقول بحق أصحابه ويمدحهم ويعطيهم العزيمة ويبعث فيهم الأمل ويشعرهم بالانتماء ويشدهم له. وعلى خطى علي عليه السلام سار شهيد المحراب، فكان يجلس ويخاطب المخلصين الذين التحموا معه ويقول لهم: أنتم أهلي وعشيرتي، وكان يعتقد بأعماقه بأنهم أهله وعشيرته، وكان يستشعر في أعماق وجوده هذا القرب مع المخلصين المحيطين به. وهذه الحالة ذات جذور إسلامية «وأنتم البطانة دون الناس»، فالناس نجاملهم ولكن أنتم الخواص.

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام ما يرجوه من أصحابه المقربين هؤلاء، وهما أمران، الأول: إنهم القوة الضاربة التي ينقض بها على المدبرين عن طريق الحق، قال عليه السلام: «بكم أضرب المدبر»، أي أُقاتل بكم من يدبر عن الالتزام ويشذ عن الطاعة، فأنتم المدافعون عن الحق وتقويم الانحراف.

والثاني: إنهم المجموعة التي يرجو بها طاعة المقبلين على الحق، قال عليه السلام: «وأرجو طاعة المقدم»، فهناك عدد من الناس يريدون القوي ليلتحقوا به، وأنتم تعطون هذه الصورة للناس، وهؤلاء أُناس مبدئيون ولكنهم يريدون جهة قوية ينتمون لها. وهذه القوة هي التي تجمع الآخرين وتكون بمثابة المغناطيس الذي يجذب الأشياء إلى نفسه.

وأخيراً يطلب أمير المؤمنين عليه السلام من هذه المجموعة أن تعينه بالمناصحة، قال: «فأعينوني بمناصحة خلية من الغش». علي عليه السلام يريد النصح الذي لا غش فيه ولا مراوغة ولا تمجيد في غير محله، وعلي عليه السلام يطالب الصالحين من أصحابه أن يكونوا صادقين معه ولا يغشوه. فعلى المسؤول أن يعتمد على أُناس يصارحونه بالحقيقة، ولا توجد عندهم مشكلة معه.

ثم يطلب منهم أن تكون هذه النصيحة «سليمة من الريب»، أي نصيحة ليس فيها ظنون، بل نصيحة واضحة ليس فيها تردد، وهذا أمر مهم.

«فوالله إني أولى الناس بالناس»، وهو عليه السلام يستحق مثل هذه النصيحة لأنه أولى بالناس، إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم حينما قال: «ألست أولى بكم

من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[٣٤١]، فعليعليه السلام أولى الناس بالناس، أي أنه أولى بهم من أنفسهم، أي أنه الإمام بالحق، فهو الإمام ويريد منهم نصيحة واضحة بأن يقولوا له ما الحقيقة، وكيف هي مسارات الأُمور.

وقال أمير المؤمنينعليه السلام في رسالة وجهها لأصحابه حين فتح البصرة وبعد حرب الجمل، جاء فيها: «وجزاكم الله من أهل مصر عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته، فقد سمعتم واطعتم، ودعيتم إلى القتال فأجبتم «[٣٤٢]، وهذه رسالة شكر وتقدير موجهة إلى أصحابه الذين أعانوه في حرب الجمل.

فالإنسان المسؤول حينما يدخل إلى منازلة ويمر بأزمة ويواجه معتركا معينا ويقدم توصيات، ويلتزم الأتباع بهذه التوصيات، يجب عليه ألا يعتبر ذلك واجبهم وانتهت القضية، بل عليه أن يرجع ويشكرهم ويقدرهم. وجيش عليعليه السلام حينما وقف وقاتل إلى جانب عليعليه السلام وحقق فتح البصرة في حرب الجمل، عاد عليعليه السلام في كتابه ليشكرهم ويدعو لهم بأفضل الجزاء.

والله تعالى يتفنن في تشجيع وتحفيز ومكافأة العاملين بطاعته، وعليعليه السلام يسأل الله تعالى أن يعطي أُولئك الأنصار ما يعطي عباده المخلصين والمطيعين. وقد استحقوا هذا الشكر والدعاء لأنهم سمعوا وأطاعوا، فحينما أصدر التعليمات في هذه المعركة أخذوا بها.

وفرق كبير بين من يسمع ولا يكترث، ومن يستمع ويتعرف على طبيعة التوجيه ثم يلتزم ويطيع، لقد أطاعوا ما سمعوه من توجيهات. ولقد دعوا إلى القتال وتقديم الغالي والنفيس وبذل الأنفس في هذه المعركة من أجل الله ونصرة الحق فأجابوا، فاستحقوا بذلك دعاء عليعليه السلام لهم بأن يشملهم الله تعالى بأفضل الجزاء، هذا في جانب المكافأة والمجازاة للفعل الصالح والطيب.

وفي الجانب الآخر، هناك موازنة دقيقة إذا اختلت تختل الأُمور كلها، وهي أن

٣٤١ . مسند أحمد ٤: ١١٩، ٣٧٢. سنن ابن ماجه ١: ٤٣.
٣٤٢ . نهج البلاغة: الرسالة ٢.

من يسيء ويتعدى الحدود ويتجاوز على الناس فستكون العقوبة والموقف الصارم في انتظاره.

وعن عليعليه السلام أيضاً قال: «من لم يصلحه حسن المداراة يصلحه حسن المكافاة»[٣٤٣]، فالذي لم يصلحه التعامل بالمحبة والتوقير فلابد من اعتماد حسن المكافاة والتقريع والعقوبة. ونفهم من هذا أن الأساس هو المداراة، ومن لم تصلحه المداراة يصار إلى المكافاة أي العقوبة.

فالأساس هو المرونة بالكلام الحسن والتشجيع، ولكن هناك أناس لا تحسن قراءة هذه الرسائل، وعندما تتعامل معه بالمرونة يحملها على الضعف، وحينما تتحمل منه بعض الأُمور يحملها على البلادة.

وهكذا كانوا يتعاملون مع رسول اللهعليه السلام، فكانوا يسيئون له ثم يأتون بعد ذلك ويقولون إنهم لم يقصدوا ذلك والرسول يسامحهم، وهم قاصدون، ويسامحهم مرة ثانية وثالثة، وحينما كان الرسولصلى الله عليه وآله يتسامح معهم يخرجون في كل مرة ويقولون هو أُذن، وكل ما نقول له يصدقنا، وليس عنده قابلية فرز وتمييز!. هم يظنون ذلك ورسول اللهصلى الله عليه وآله كان يعرف كل شيء. فرد عليهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾[٣٤٤]، والسماء تقرع هؤلاء؛ لأن رسول اللهصلى الله عليه وآله يريد أن يتسامح معهم ويتعامل تعاملاً مرناً لصلاحهم وخيرهم، ولكن حينما لا ينفع ذلك يصل الأمر للعقوبة والمكافاة، ويكون التعامل بحسن المكافاة، وحتى في العقوبة توجد مراتب، وآخر الدواء الكي.

فالعقوبة لا يؤتى بها بمستوياتها العالية من أول وهلة، فأحياناً يربي الأب ابنه المسيء بتجاهله فتعتبر عقوبة، وكذلك عدم الابتسامة وقلة الاهتمام تعتبر عقوبة أحياناً، فحسن المكافاة درس عظيم يجب أن نتعلمه.

ونفهم أيضاً من هذه التراتبية أن العقوبة حتى حينما تحصل ويتطلب الأمر اتخاذ موقف صارم فهو ليس للتشفي والانتقام، وإنما هو خطوة تربوية، ولذلك تقدر الضرورات بقدرها للتربية، كالدواء لا يستعمل إلا عند الحاجة. فالأساس

---

٣٤٣ . عيون الحكم والمواعظ: ٤٤٤.
٣٤٤ . التوبة: ٦١.

هو المداراة، والعقوبة استثناء.

وفي العقوبة الأساس حسن المكافاة التي هي أدنى مراتب العقوبة، ثم يتصاعد الموقف. وعموم الناس أحرار في أبدانهم وفي عقولهم، والناس مشاعر وعواطف تؤثر فيهم الكلمة والإحسان. ولو تعاملنا بهذه الطريقة فإن الكثير من واقعنا التربوي سيتغير، لأن جزءا كبيراً من مشاكلنا ناتجة من أننا نستخدم وسائل التقريع بمستويات عالية، بحيث يحدث رد فعل لدى الإنسان الضعيف والبسيط وغيرهما، فالضابط والمدير مثلاً، كلما ارتفعت مناصبهما ومواقعهما تعاملا بشدة وقسوة وإهانة مع من دونهم من المراتب، لكي يثبت أنه مدير أو ضابط ناجح.

وهذا عمل غير صحيح، ويخطئ من يظن أن النجاح مقرون بالشتيمة والسباب والإساءة إلى الآخرين، فالأُمور يجب أن تقدر بقدرها، وهذا أساس مهم يشير إليه علي عليه السلام.

وفي نفس السياق ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً:«من لم تصلحه الكرامة أصلحته الإهانة»[٣٤٥]. ويقول الشاعر: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فالكريم تملكه بالكرامة، وأما اللئيم فكلما أعطيته فرصة إضافية تمرد أكثر وتنصل أكثر من واجباته، ولا يفيده غير التقريع، فالعقوبة نافعة في مكانها وموضعها الصحيح وليس أكثر من ذلك.

إن عقوبة المسؤول المفسد هي أفضل تزكية للحاكم، وسيعلم الناس أنه لا يهادن في ما هو الحق والقانون والنزاهة؛ لأن فساد الناس وصلاحهم يرتبطان بأخلاقهم وتربيتهم، وكم من إنسان ظاهره الصلاح جلس على الكرسي الدوار فتغيرت أخلاقة بعد أن كان إنساناً نزيهاً، ولا علاقة له بصلاح الحاكم، وإن كان له تأثير في سلوك الآخرين.

---

٣٤٥ . عيون الحكم والمواعظ: ٤٢٦.

فالحاكم حتى لو كان معصوماً فهذا لا يعني أن المؤسسة كلها تصبح مؤسسة معصومة؛ فقد يكون هناك فساد في الوزارة رغم نزاهة الوزير، ولكن المشكلة في الوزير أنه لا يتابع جماعته أو لا يتخذ إجراء ضد الفاسدين في وزارته، ويتحمل بذلك المسؤولية، وهناك قاعدة عامة تقول ان القانون لا يحمي المغفلين.

فيجب أن يكون المسؤول متابعاً ومتحرياً عن الأخطاء وعن الفاسدين من موظفيه وعن سلامة مفاصل منظومته.

حينما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام أن بعض المسؤولين من ذوي الدرجات الخاصة في منظومته القيادية يرتكبون الفساد المالي وتمتد أيديهم إلى المال الحرام قرعهم ووبخهم، ولم يقل كيف اسجل ملاحظة عليه وأنا الذي عينته.

يقول علي عليه السلام لهذا الرجل المسؤول:« أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك. بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس»[٣٤٦].

يبدأ أمير المؤمنين عليه السلام كتابه مع هذا المسؤول بأدب رفيع فيقول له:«بلغني عنك أمر» ولم يقل له فساد أو سرقة. ثم يجعل له خط رجعة خوفا من أن يكون التقرير كيدياً، فيقول: «إن كنت فعلته»؛ إذ لا يمكن إصدار الأحكام قبل التحري والتدقيق.«فقد أسخطت ربك»، وهنا يبرز الجانب المعنوي والأخلاقي في التوبيخ والتقريع؛ لأن في ذلك إذكاء لروح المسؤولية الشرعية في الناس، فيجب أن يبنى الوازع الديني في العاملين، لأنه القادر على ضمان سلامة المسيرة.

ثم يبين له أنه جمع بين عصيان الله سبحانه، وعصيان إمامه الذي نصبه في هذا المنصب، وخيانة الأمانة التي استودعه إياها وهي المسؤولية، فقال: «وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك»، ولهذا يجب علينا في حياتنا اليومية التركيز على الوازع الديني في الإدارة.

---

٣٤٦ . نهج البلاغة: ٤٠.

وعلى المسؤول أن يدرك أن الكرسي الذي يجلس عليه ليس ملكاً لأحد، وكل من يجلس عليه يمضي، ولا يبقى في النظام الديمقراطي لأكثر من دورة أو دورتين. وهذا هو المدخل الأخلاقي في ضبط الإيقاعات وتصحيح المسارات وتأديب الناس في العمل الإداري، فهناك ملفات يجب توضيحها للناس.

ثم يخبره(عليه السلام) ما بلغه في التقرير؛ فبعد أن يحدد الموقف، يخبره بما في هذه الملفات وهذا التقرير حتى يعطيه حق الرد والدفاع عن نفسه، فقد بلغه أنه جرد الأرض وعمل المسوحات في الدائرة العقارية وأخذ ما تحت قدميه، أي أنه صادر الأراضي لنفسه، وهو استغلال لمواقع المسؤولية للمنفعة الخاصة، واستغلال الوجاهة لمآرب شخصية ومصالح خاصة.

وليعلم المسؤول أن هذه الحمايات التي وضعتها الدولة له وتنفق عليها من أموال الشعب هي لحمايته وليست لإخراجهم في عمليات استعراضية في مكان ما وهم يلوحون بالسلاح لترهيب الناس حتى يبيعوا عقاراتهم وأملاكهم ويأخذها بثمن بخس لنفسه.

ثم يقول له إنك أكلت ما تحت يديك من الأراضي التي صادرتها وأموال بيت المال التي تحت يدك، ثم يطلب منه أن يرفع حسابه إليه ويكشف عن مدخراته وممتلكاته ليدقق فيها. ثم يعظه بأن حساب الله أعظم من حساب الناس، ولا يظن أن القضية انتهت بالعقوبة الدنيوية من الإعفاء أو الإقالة، بل حساب الله أعظم. وهذا منهج فريد في أثر الوازع الديني في التقريع لتصحيح المسارات.

ومن كتاب لأمير المؤمنين(عليه السلام) أيضاً لأحد ولاته وكان ابن عمه: «فلما أمكنتك الشدة، أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم، اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله، غير متأثم، كأنك - لا أبا لغيرك - حدرت إلى أهلك تراثك من أبيك وأُمك! فسبحان الله أما تؤمن بالمعاد! أوما تخاف نقاش الحساب! فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا ودخل النار.

ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بارادة، حتى آخذ الحق منهما، وأزيح الباطل عن مظلمتهما»[٣٤٧].

رأيتنا أيها الوالي والمسؤول مشغولين بالحروب، والبلد يمر في أزمات، فاغتنمت الفرصة للانقضاض على أموال المسلمين. هناك أُناس يعتاشون على الأزمات ويبحثون عن مصالحهم ويستغلون الظروف الصعبة التي تمر بها الأُمة لخيانتها، فيمد يده الآثمة إلى المال الحرام ويتجاوز صلاحياته ويتعدى على أموال الناس.

رأيتنا مشغولين فذهبت مسرعاً ووضعت يدك على أموال بيت المال التي نحتفظ بها لأراملهم وأيتامهم!. إن هذه الأموال يجب أن تعوض بها عوائل شهداء الإرهاب وأُسر سجناء وشهداء وضحايا النظام البائد الذين يجب أن يعيشوا برغد ونعيم، لا أن يتنعم بها المسؤولون!.

إن المواطن المسكين ما زال يعاني من شظف العيش وأنت يامسؤول تبتزه مع كل هذا الراتب الكبير الذي تتقاضاه من غير حق!. فلم هذا الجشع الذي نراه من بعض المسؤولين؟!.. وقطعاً هناك أُناس شرفاء في المنظومة الإدارية، ولكن هناك من يمد يده إلى المال الحرام ويبتز ويستغل حاجة الناس اليه .

ويشبه أمير المؤمنين عليه السلام أخذ المال هنا بالاختطاف، وهو أشد من السرقة، كما يختطف الذئب المسرع المعزى الكسيرة التي لا تستطيع الفرار منه، وهكذا يأخذ المسؤول أموال الفقراء مسرعاً، ولا أحد يقدر على التخلص منه، وهم يخافونه على أنفسهم، ولكنهم يشتكونه عند الله تعالى، الذي هو له بالمرصاد حيث ساعة الانتقام في الدنيا قبل الآخرة.

«فحملته إلى الحجاز»، وكذلك اليوم تنقل الأموال من بغداد وتهرب إلى خارج العراق لتشترى بها القصور والعمارات أو تودع في المصارف الأجنبية، وبعضهم يشتري بها البيوت الفخمة والأراضي الزراعية والعقارات داخل العراق أيضاً.

«رحيب الصدر بحمله غير متأثم»، أي وهو فرحان بسرقة أموال الشعب، ولم تتحرك

٣٤٧ . نهج البلاغة: الرسالة ٤١.

غيرته بعدما أخذ قوت الفقراء والمساكين، ولا يشعر حتى بالذنب تجاه فعلته الشنيعة، ثم أسرع لأهله يبشرهم بما صار عنده من الأموال والمشاريع والممتلكات، وكأنه إرث من أمه وأبيه، وليس أموال الفقراء التي أخذها بهذه الطريقة.

فسبحان الله، تفعل هذا وكأنك لا تؤمن بالمعاد ولا تخاف الحساب في يوم القيامة؟! فاتق الله عز وجل وأردد إلى هؤلاء الناس أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك وانتقم منك بما يرضي الله تعالى، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا ودخل النار؛ لأن عليا مع الحق والحق مع علي، وعلي لا يضرب بسيفه إلا من هو من أهل الباطل.

ثم يقسم أمير المؤمنينعليه السلام بالله تبارك وتعالى لو أن الحسن والحسين عليهما السلام فعلا مثل ما فعل هذا الوالي الذي سرق مال بيت المسلمين، ما كان لهما عنده عذر وتغاض، ولا ظفرا منه برحمة وشفقة، حتى يأخذ الحق منهما، ويزيح الباطل عن مظلمتهما، فلا توجد استثناءات في منهج عليعليه السلام، فهو يتعامل بانصاف وعدالة مع الجميع، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

المقطع الثاني عشر
تعامل الحاكم مع الاُمة

الدرس السادس والثلاثون

ثقة الحاكم بالاُمة

يقول أمير المؤمنينعليه السلام في عهده لمالك الأشتر حين ولاه مصر: « واعلم أنه ليس شيء أدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم، فليكن منك في ذلك امر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده «.

يتحدث أمير المؤمنينعليه السلام في هذا المقطع الشريف من هذه الوثيقة الإسلامية والتأريخية عن مسألة حسن ظن الحاكم بالشعب، والوسائل التي من خلالها يمكن تحقيق هذا الهدف، ويذكر الحاكم والمسؤول بأنه لا توجد مسألة في مسؤوليته وفي إدارته أهم من تحقيق حسن الظن بالمواطنين ومن هو مسؤول عنهم، وذلك من خلال بناء علاقة المودة والمحبة والثقة بينه وبين الناس المسؤول عنهم .

وهذا يتطلب القيام بالعديد من الخطوات لكي تتحقق هذه الثقة وحسن الظن، ولابد له من اعتماد سياسات حكيمة ورشيدة حتى يستطيع أن يكسب ثقة الناس. وهذه الخطوات والسياسات الكفيلة ببناء علاقة رصينة وواضحة بين الحكومة والشعب

هي:

الأُولى: الإحسان للشعب

إن طموح الشعوب والأُمم اليوم إلى العدالة، والإحسان فوق العدالة وأعلى رتبة منها. ولا يمكن بناء هذه العلاقة بالقهر والقوة والسطوة والأوامر والنواهي، وبالتالي لا يستطيع المسؤول أن يدير شؤونه ومنظومته القيادية ولا يستطيع النجاح، إلا بالإحسان إلى هؤلاء الناس والتقرب من قلوبهم، وهذه هي المداخل الصحيحة التي يمكن أن توجد علاقة ثقة حقيقية بينه وبين أُولئك الناس.

إن على الحاكم والمسؤول ومن يتصدى لأي موقع من مواقع المسؤولية أن يحسن للفريق والمجموعة التي يتحمل المسؤولية تجاهها.

قد ذكرنا مراراً أن نظرية الإدارة والقيادة لا تختص بالملوك والرؤساء والقادة الكبار، وإنما هي نظرية تشمل كل المنظومات القيادية، بدءاً من الأُسرة أو المشروع الصغير أو الشركة أو المصنع، وصولاً إلى المستويات العالية والرفيعة التي تكلف بها إدارة شعب وأُمة بأسرها. وهذه السمات القيادية التي تذكرها هذه النظرية ينبغي أن تتوافر في جميع المتصدين وكل من يتحمل مسؤولية بأي مستوى من المستويات.

الثانية: تخفيف المؤونة

كما يستطيع الحاكم والمسؤول تحقيق علاقة الثقة المتبادلة وحسن الظن بالشعب من خلال تخفيفه المؤونات عليهم، وعدم تحميلهم أعباء كبيرة، وذلك بتخفيض الضرائب وأُجور الخدمات العامة في الماء والكهرباء والتعليم والصحة والنقل وغيرها، وأسعار بعض السلع الضرورية.

وحينما يرسل أمير المؤمنين عليه السلام مالكا الأشتر كأنه يستحضر تأريخ مصر، وطبيعة التعاطي الذي عمل به الحكام قبل الإسلام من الفراعنة ومن بعدهم من الطغاة والظالمين، وكيف كانوا يبتزون هؤلاء الناس، وكيف يفرضون عليهم الضرائب الكبيرة، التي كانت أحياناً تفوق كل إيراداتهم فيضطرون لأن يبيعوا بعض

ممتلكاتهم ليسددوها إلى السلطان.

فعلى المسؤول الذي يريد النجاح في منظومته الإدارية أن يطالب بما هو ممكن ومنطقي، ولا يحمل الناس أعباء أكثر من طاقتهم، ولا يطلب منهم إنفاقات وإمكانات مادية أكثر مما هو مستطاع لهم.

الثالثة: عدم إكراه الناس على أعمال السخرة

وتتضح هذه الخطوة في بناء علاقة رصينة بين الحاكم والاُمة من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم»، أي على المسؤول ألاّ يطلب من الناس أن يقوموا بأعمال ومهام خارج حدود مسؤولياتهم وواجباتهم، كما كان متعارفاً في المجتمع المصري أيام حكم الفراعنة، حيث كانوا يأخذون الناس بالقهر والقوة ويضطرونهم للعمل في شتى المجالات من دون أن يعطوهم أجراً، حتى أن البعض كان يقتل أو يموت في أثناء العمل بسبب المشقة الكبيرة التي يتعرضون لها في هذه الأعمال.

ويسمى هذا العمل بالسخرة، وهي تسخير الناس وإجبارهم على أعمال شاقة لا طاقة لهم بها، وقد كان هذا الاُسلوب متبعاً إلى عهد قريب في بعض الدول؛ مثل روسيا والصين، بما يسمى بمعسكرات العمل.

فالحكومة التي تريد بناء علاقة رصينة بينها وبين الشعب، عليها ألاّ تطلب منهم ما هو خارج حدود مسؤولياتهم وواجباتهم ولا تحملهم أكثر مما يطيقون.

ثم يبين أمير المؤمنين عليه السلام نتيجة اتباع هذه الخطوات في بناء علاقة الثقة المتبادلة بين الحاكم والمواطنين فيقول: «فليكن منك في ذلك امر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك »، فإذا قامت الحكومة بهذه الخطوات الثلاث: الإحسان وتخفيف الأعباء المالية وعدم إناطة المهام والواجبات الخارجة عن اختصاص هؤلاء الناس، فإنها تستطيع أن تحقق حالة حسن الظن والثقة المتبادلة بينها وبين عموم المواطنين.

ثمرة ثقة الحاكم بالاُمة

تتضح ثمرة ثقة الحاكم والمسؤول بالاُمة من قوله عليه السلام: «فإن حسن الظن يقطع

عنك نصباً طويلاً»، أي أن حسن الظن وثقة المسؤول بشعبه يخففان عنه كثيراً من المتاعب والآلام والهواجس والمحن. والمسؤول الذي ليس لديه ثقة بمن هو مسؤول عنهم، ورب البيت الذي ليس له ثقة بأُسرته، ورئيس الشركة أو المصنع الذي ليس لديه ثقة بعماله وموظفيه، والوزير الذي ليس لديه ثقة بالعاملين معه، والزعيم الذي ليس لديه ثقة بجمهوره، يعيش دائماً حالة الهواجس والمخاوف من هؤلاء الناس، ولا يعرف متى ينقلبون عليه، ومتى سيسحبون الامتيازات والوجاهات والموقع الذي يحتله أو الكرسي الذي يجلس عليه، فيكون في حالة من التعب النفسي والروحي. فعلى المسؤول أن يحسن الظن بمن هو مسؤول عنهم، ويبني جسور الثقة معهم حتى يشعر بالراحة والثقة.

أولى الناس بثقة الحاكم

من الطبيعي ألاّ ينال جميع الناس ثقة الحاكم بدرجة واحدة، فقد يحظى بعضهم بدرجة عالية من الثقة، بينما لا يحصل البعض الآخر إلا على درجات أضعف. والسؤال: من هو الأولى بنيل الدرجة العليا من هذه الثقة؟. وهنا يقدم أمير المؤمنين عليه السلام المعيار الذي على ضوئه يستطيع الحاكم أن يمنح الثقة لمن حوله والمقربين منه، يقول عليه السلام: «وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده»، أي أن أولى الناس بالثقة هم الذين تمت تجربتهم وامتحانهم وعرفت نجاحهم، وكلما كان اختبارهم أكبر وأكثر كانت درجة نجاحهم أعلى.

فإذا حسن بلاؤهم ونجحوا في الاختبار، فلا ينبغي للحاكم أن يبقى يعيش هواجس المؤامرات، ولا يمكن أن يبقى دائماً في علاقته مع هؤلاء الناس ينطلق من منطلقات الخوف من الكيد له، لأنه سيبقى قلقاً باستمرار ولا يجد من يثق به ويطمئن إليه. وماذا على هؤلاء الناس أن يقدموا ليثبتوا حبهم لهذا الوطن وليثبتوا وطنيتهم؟، وإلى متى يبقى موضوع وطنية هؤلاء الناس مشكوكا به؟. ينبغي أن يختبروا مرة أو مرتين، ولكن يجب أن يوضع حد لعدم الثقة.

إن على الحاكم والمسؤول أن يثق بشعبه وجمهوره ومن هو مسؤول عنهم لكي تمضي عجلة الحياة بسعادة وهناء ويشعر الجميع بالراحة والطمأنينة، ولكي يستطيع أن

يبني علاقة صحيحة مع هؤلاء الناس.

وأما الصنف الآخر الذي يفشل في الاختبار فهو جدير بأن يسيء الحاكم الظن به، يقول عليه السلام: «وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده»، أي الذي تختبره ولا ينجح، والذي تحمله المسؤولية ويفشل فيها، والذي تأمنه على شيء ويخون الأمانة، فهذا الإنسان من حقك أن تسيء الظن به.

الأصل في الناس الثقة

لا نقول إن الجميع سواسية في الثقة، ولكن العدد الأكبر من الناس والأصل في الجمهور أنه موضع ثقة، والأصل في المجموعة التي تحت مسؤولية المتصدي أنهم أُناس طيبون، إلا ما يخرج بالدليل.

وحينما يختبر المسؤول من هم تحت مسؤوليته ويتبين له أن فلاناً من الناس ليس أهلاً للثقة، فهذا هو الاستثناء، ووجود استثناءات لا ينبغي أن يكون مبرراً لأن يُنظر إلى الناس كلهم على أنهم متآمرون ويكيدون له؛ لأن هذا سوف يجعله في مناخ لا يساعده على النجاح في إدارة منظومته القيادية.

الثقة الواعية والثقة العمياء

على المسؤول أن يثق بالناس ولكن ليس الثقة العمياء، بل عليه أن يفتح عينيه ويختبر ويعطي الفرصة للجميع بأن يعبروا عن مكنونهم، ليرى أن أغلب الناس سينجحون في الاختبار؛ فإن الأصل في الناس أن يكونوا أهلاً للثقة، ومن لا ينجح يمكن أن يكون معه موقف آخر.

وهذه الرؤية هي رؤية موضوعية ومتوازنة وواقعية، فيها ثقة، وفيها حسن الظن، وفيها علاقات إنسانية حميمة، وفيها أيضاً حذر من النتوءات والاستثناءات والشواذ الذين لا يستحقون الثقة.

نتائج حسن الظن

أولاً: بناء علاقة صحيحة بين الحاكم والشعب

والدروس التي يمكن أن نستفيدها من هذه الكلمات الكريمة، هي موقع حسن الظن ودوره في بناء العلاقة الصحيحة بين المسؤول والمنظومة القيادية التي يتحمل مسؤوليتها، صغيرة كانت أم كبيرة .

وقد تبين أن من أهم أدوات النجاح في العمل وفي المنظومة القيادية وفي الأداء القيادي هي وجود جسور المودة والثقة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم، التي هي من أهم مفاتيح تحقيق النجاح.

وهنا تكمن مشكلتنا، فإننا نقضي وقتاً طويلاً في تشريع الضوابط والإجراءات الإدارية، ولوضع تصور عن التوبيخ والعقوبات الاحترازية التي تجعل الجميع يخشى ويرتجف من المسؤول، ولا نعطي القليل من الوقت لبناء العلاقات الإنسانية بين المسؤول ومنظومته القيادية، بأن يجلس معهم ويصغي إليهم ويتحدث معهم؛ ليحبهم ويحبوه وليعالج الكثير من الأُمور ضمن هذا الاطار، فحب الموظف للمسؤول واحترامه له يجعلانه يسرع ليكون منذ أول ساعات الدوام في موقعه ويقدم الخدمة للناس، لا أن يكون الدافع هو القلق من قطع الراتب أو الخشية من الإجراءات والعقوبات الإدارية.

وهذا هو طريق نجاح المسؤول في محيط مسؤوليته؛ لأن العلاقة الإنسانية الصحيحة هي التي تستطيع أن تنجح العمل، في قبال تلك التجربة الخاطئة في الأنظمة الفاسدة والأنظمة التي لم تُبن على أُسس صحيحة.

وفي مقابل ذلك لا يمكن أن يكتب النجاح للمسؤول الذي يعيش حالة سوء الظن وأزمة ثقة بينه وبين العاملين معه، إذ يتربص كل بالآخر ويسجل نقاط ضعفه للتنكيل به. وفي ظل منظومة كهذه لا أحد يريد النجاح للآخر، وكل يريد أن يفتك بالآخر لكي يثبت أنه ليس أهلاً للمسؤولية، وتتحول العلاقة إلى علاقة خصومة وجدل وصراع، ومثل هذه العلاقة وهذه الأجواء لا تستطيع أن تُنجح أي منظومة قيادية؛ لأن الحاكم يرى الناس كلهم يتآمرون عليه، والناس يرون الحاكم يعيش في عالم آخر بعيد تماماً عن أجوائهم ومناخاتهم، وتشتد عزلة الحاكم، ويشتد الاصطفاف من الناس تجاه الحاكم والمسؤول في أي مستوى من المستويات.

وحينما نراقب شاشات التلفاز نرى موظفين من دائرة معينة خرجوا مسيرة احتجاجية، يرفعون لافتات ويهتفون بشعارات تطالب باقالة مدير دائرتهم. وبالأمس كنت أُتابع تقريراً في إحدى الفضائيات حول هذا الموضوع؛ إذ يقولون جاءنا المدير العام يزور الناحية أو القضاء الفلاني، وعندما دخل ورأى المكان قال: أنتم لستم بشراً، ولا تستحقون زيارتي لكم، وخرج بعدها.

إذن، كيف يستطيع مسؤول بهذا المنطق أن يقود هؤلاء الناس؟، ولو أنهم قدموا شكوى ضد هذا المسؤول إلى المحكمة وحكمت لصالحهم فهل ستحل المشكلة؟، لا أعتقد بذلك؛ لأنها خلقت أزمة حقيقية نتيجة كلمة كسرت قلوب هؤلاء الناس ونتيجة سلوك غير موفق.

فلذلك تكون العلاقة بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم في مثل هذه المنظومة القيادية علاقة مرتبكة؛ لأنها لا تعتمد على الأُسس الصحيحة، فحينما لا يعتمد على مبدأ الثقة، يكون هناك دائماً شك بين المسؤول وهؤلاء العاملين، وسيصرف جزء كبير من الوقت والجهد من هذا المسؤول وأُولئك العاملين في المهاترات والمشاكل الداخلية، ويُبعد هذه المنظومة عن أهدافها المتوخاة.

إن إخافة الناس ورصد تحركاتهم والاستماع لمكالماتهم لا يمكن أن يوجد منظومة صحيحة للحكم والإدارة، مهما تطورت هذه المنظومات الاستخبارية، واستعملت أساليب التنصت والملاحقات وزرع العيون وما إلى ذلك، وقد عشنا هذه الحالة في الأنظمة الدكتاتورية قبل ٢٠٠٣، وأصبح الإنسان لا يثق بأقرب الناس إليه، بل يخاف أن يتكلم حتى لو كان وحده؛ لانه لا يعرف أين مكان العين المزروعة التي يمكن أن تنقل الكلام ويحصل ما يحصل.

إن هذه الأُمور يمكن أن تزيد من عمر المنظومة الإدارية القيادية يوما أو يومين أو شهرا أو شهرين أو سنة أو سنتين، ولكنها ستنهار بالكامل بعد ذلك. وهذا ليس هو الأساس الصحيح الذي يمكن أن يوجد منظومة قيادية ناجحة.

ثانياً: اكتساب المحبة

يقول أمير المؤمنين‌عليه السلام:«من حسن ظنه بالناس حاز منهم المحبة»[٣٤٨]، وكيف يمكن أن يتحقق الحب إذا انعدمت الثقة؟!. ولكن يمكن ذلك إذا رأى الناس الحاكم والمسؤول منفتحاً عليهم، ورأوه واثقاً ومعتمداً على سلوكهم وأدائهم، فحينئذ يمكن أن يجد منهم المحبة ويبادلوه بها، فهذه قضية فيها طرفان، ولا يمكن أن تكون من طرف واحد.

والمسؤول الذي يريد أن يحبه الفريق الذي هو مسؤول عنه، فليراجع نفسه وينظر هل يحترمهم ويقدرهم ويثق بهم، أو أنه خائف منهم؟. وإذا كان يريد لقلبه أن يرتاح ويكون أمره نافذاً فعليه بغرس حسن الظن تجاه من هو مسؤول عنهم. فإن بناء هذه العلاقة الصحيحة سيبعث الارتياح في النفوس، وحالة الثقة وعدم الغدر؛ لأنه وثق بهم وبادلهم المحبة بعد الاختبار كما ذكرنا، وشخص أن الغالبية منهم يستحقون الثقة فأعطاهم إياها، وستزول كل المخاوف وتنفذ أوامره.

ثالثاً: اكتشاف الطاقات والمواهب

إن حسن ظن الحاكم بالشعب يساعد على اكتشاف الطاقات والمواهب، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإعطاء الكفاءات فرصتها ودورها في البناء. وعندما يكون المسؤول خائفاً من الناس فإنه لا يستعين إلا بالمقربين منه. ولكن ليس بالضرورة أن يكون الذي يحمل الولاء الخاص للمسؤول هو أكفأ الناس، وحينئذ يصبح بين خيارين، إما أن يستعين بالأكفأ أو يستعين بالأقرب، وقطعاً، سيختار الأقرب إذا كان خائفاً من الناس.

ولكن إذا كان المسؤول حسن الظن بالناس، فإنه سيستعين بالأكفاء، وحينئذ ستتوفر فرص أكبر لنجاح العمل، ولاسيما إذا كان المسؤول مخلصاً في عمله ومنح الآخرين الثقة، فإنهم سيرتبطون به ويحترمون اختياره لهم.

وأقول للقوى السياسية الكريمة، لاحظوا المستقلين الذين وضعتم فيهم الثقة وجعلتموهم في مجلس النواب أو في وزارة أو في دائرة أو... الخ، وراجعوا أنفسكم وانظروا كم من هؤلاء كانوا جديرين بالثقة؟، وكم منهم لم يكونوا كذلك؟، فإنه

---

٣٤٨. غرر الحكم ٥: ٣٧٩.

سيتبين لكم أن الغالبية العظمى من هؤلاء كانوا جديرين بالثقة، وقد حققوا نجاحات باهرة وقدموا لكم عملاً وأداء رائعاً وحسنوا صورتكم أمام الناس.

وهذا هو المنهج الإسلامي، منهج الثقة، منهج احترام الآخر، منهج اختبار الناس، ومن ينجح في الاختبار، ومن يثبت أنه قادر على الأداء، يولى الثقة ويحمل المسؤولية. وهذا منهج يجعل المسؤول ينفتح على الناس ويستثمر ما لديهم من الطاقات والكفاءات الكبيرة، ولا يبقى منحصراً في دائرة ضيقة.

وقد ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام في تأييد هذا المعنى قوله: «الرجل السوء لا يظن بأحد خيراً»[٣٤٩]، أي حينما يكون الإنسان سيئاً فإنه يسيء الظن بالآخرين؛ لأنه لا يراهم إلا بوصف نفسه، فهو سيئ ويعرف سريرته ويظن أن كل الناس هكذا. فمثلاً إذا نجح شخص بالاختبار عندما كلف بعمل وأداه بأفضل ما يكون يقول عنه:

يؤتيك من طرف اللسان حلاوة... ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

مع أنه ليس بهذه الشاكلة، ولكنه لا يستطيع أن يرى إلا نفسه، وتراه يجامل الآخرين ويبتسم في وجوههم ويبادلهم الكلمات اللطيفة، لكنه في الواقع يضمر شيئاً آخر، فلا يستطيع أن يصدق أن هناك شخصاً يتكلم بهذه الكلمات ويعنيها ويقصدها؛ لأن المشكلة فيه، فهو يعيش في وجوده وفي نفسيته الحالة الظلامية ولا يستطيع أن يرى النور في قلوب الآخرين ونفوسهم ونواياهم.

انظروا إلى تحليل أمير المؤمنينعليه السلام السابق، فالشرير لا يظن بأحد خيراً؛ لأنه لا يراه إلا بطبع نفسه، فهو شرير لا يستطيع النظر للآخرين بنية الصلاح وبالنية الصادقة في العمل. ولذلك يتحمل المسؤول المسؤولية الأكبر في خلق هذه الأجواء، ففي المنطق الإسلامي أين ما وجدت المنظومة مرتبكة حمل المسؤول أولاً؛ لأن هذا الفشل كان بفعله، ولو أنه تعامل تعاملاً صحيحاً بحكم مسؤوليته لاستطاع أن يوجد فضاءً جديداً ومناخاً جديداً تسود فيه الثقة والمحبة والنخوة والتسارع للخدمة واستثمار الطاقات وتوظيف الكفاءات إلى غير ذلك.

ولكن إذا لم يتم ذلك فالمشكلة في المسؤول؛ لأنه خائف ومرعوب ولا يستطيع

---

٣٤٩ . درر الحكم ٢: ١٥٠.

الانفتاح وإعطاء الثقة للآخرين، ولا يستطيع التجربة، وإذا جرب، فمهما كانت نتائج التجربة إيجابية، تراه يبحث عن مبررات أُخرى لعدم منح الثقة، فيبقى دائماً منغلقاً على نفسه، ومحجما بدائرة ضيقة من الناس المحيطين به.

وهنالك إضاءات عديدة يمكن استفادتها من هذه الكلمات الكريمة:

الإضاءة الأُولى

كيفية تحقق الثقة المتبادلة بين الحاكم والمواطنين

يذكر أمير المؤمنينعليه السلام ثلاث طرق لتعزيز الثقة بين المسؤول وبين من هو مسؤول عنهم ، وهي:

أولاً:الإحسان والشفقة واللين، ويتضح ذلك من قولهعليه السلام: «واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم» .

ذكر البعض أنّ أجهزتنا الأمنية تقوم بعملية سموها ثأر الشهداء، وهوأمر جيد أن نثأر لشهدائنا، ولكن لو قلنا شيئاً ليس فيه لفظ ثأر وأمثال ذلك لكان أفضل، ولكانت الرسالة أكثر إيجابية لغير الأشرار؛إذ يجب علينا أن نُشعر المواطن أنّنا لا نشمت به ولا ننتقم منه، بل ننتصر له حتى لو كانت الإجراءات مزعجة،وعلى المسؤول أن يقنع المواطن أنّ الإجراءات لمصلحته وليس للتنكيل به.وهذا الإحسان في العلاقة أمر في غاية الأهمية .

ثانياً:تقليل الضرائب، ويستفاد ذلك من قولهعليه السلام:«وتخفيف المؤونات عليهم»، فلا ينبغي أن تؤخذ من الناس أموال وضرائب تثقل كاهلهم وتضغط عليهم من خلالها بافتعال مبررات واهية،فمثلاً عندما كنت في سفر إلى إحدى الدول العربية جاءني مؤمنون من تلك الدولة طالبين المساعدة في تقليل ضريبة الحصول على تأشيرة لدفن أمواتهم في مقبرة وادي السلام إلى جوار أمير المؤمنينعليه السلام في النجف الأشرف،والتي تصل إلى مبلغ ثلاثة آلاف دولار،في حين أنّ الحكومة تأخذ من الإنسان الحي ٦٠ أو ٨٠ دولاراً كتأشيرة لدخول العراق! لماذا هذه الإجراءات وما هي الحكمة منها في هذه القضية والكثير من القضايا الأُخرى

من الضرائب التي لا داعي لها؟لقد كان في النظام السابق سياسات طائفية بغيضة، ولكن اليوم وبعد عشر سنوات في العراق الجديد هنالك مشروع وطني ينبغي أن لا يوجد فيه ظلم لأي من الطوائف، فلماذا يظلم الناس من طائفة معينة إذا كانت لديهم رغبة في أن يدفنوا موتاهم إلى جوار أمير المؤمنين عليه السلام. ومنه يتضح أنّه كلما قلّت الأعباء على الناس تنشد الناس وتندفع أكثر نحو المسؤول.

ثالثاً:عدم إكراه الناس على ما لا يطيقون، ويتجلى ذلك من قوله عليه السلام: «وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم»،بأن لا يضغط عليهم ولا يطلب منهم أمورا هي ليست من واجباتهم،فإنّ امتلاك المسؤول للسلطة والسطوة والقدرة لا يعني أن يمارس ضغطاً على الناس كما يحلو له.

ونتطرق بشيء من التفصيل إلى هذه الطرق الثلاثة.

الطريق الأول:الإحسان

هنالك أنواع كثيرة من إحسان المسؤول إلى من هو مسؤول عنهم تتمثل في:

- الإحسان في تيسير اللقاء، فالناس تريد الوصول إلى المسؤول أو من ينوب عنه حتى تطمئن أن هذه الشكوى وهذه الكلمة وصلت إلى المسؤول .

- البشاشة في التعاطي والتعامل، فقد يتصور البعض نفسه أحسن من بقية الناس، فيرفع صوته ويذل الناس!

- الإحسان بتقديم الخدمة إلى الناس، فمثلاً كان أحد أعضاء مجلس المحافظة من كتلة المواطن يتحرك في منطقته الانتخابية ويطرق الأبواب للبحث عن رجل مسن أو مقعد يحتاج خدمة معينة كإصدار هوية أو جواز ويقوم بأخذه بنفسه أو يكلف آخرين لإنجاز عمله.وهكذا ينبغي أن يكون منهجنا فنشعر الناس أنّهم مخدومون وليسوا خادمين.

- الإحسان بالتعامل المهني الصحيح، فالمسؤول يحسن حينما يضع الشخص الكفوء في موقعه الصحيح، وحينما يضع معايير يتعامل بها مع الجميع دون تمييز،

أي التساوي أمام القانون .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الإحسان محبة»[٣٥٠]، أي حينما تحسن إلى الآخر بابتسامة أو بكلمة طيبة أو بقيام حينما يدخل إلى المجلس فإنّه تكريم وتقدير يوجب المحبة، والناس عبيد الإحسان،فحينما تحسن إلى إنسان فإنّك تدخل محبتك في قلبه .

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه وبسط بالقدرة يديه»[٣٥١]،أي حينما يكون الإنسان ميسور الحال بفضل من الله عليه أن يُحسن إلى خلق الله كما أحسن الله تعالى إليه.فإذا ما حصل على مسؤولية فهي من الله تعالى، وكذلك المال والوجاهة والتأثير هي نعم من الله تعالى،وعليه أن يقابل إحسان الله إليه بإحسانه إلى الناس، فإنّ الناس تقصده لأنّه مسؤول أو ميسور الحال أو وجيه،فتكون عنده مكانة خاصة لهذه الأسباب،وعليه أن يكون أكثر من الآخرين في تعامله وإحسانه إلى الناس.

وفي رواية أُخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من كثر إحسانه كثر خدمه وأعوانه»[٣٥٢]، أي يصبح عنده أصحاب كثيرون، فهناك بعض الناس يكون رجل علاقات ومحبوباً في المنطقة، يتفقد الناس ويسأل عن أحوالهم ولكنّه لا يستطيع أن يدير مسؤولية أُخرى، فالإحسان يكثر من الأعوان الذين يحيطون بالإنسان حينما يحسن إليهم .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «الإحسان ذخر»[٣٥٣]، أي أنّ الإحسان هو رأسمال الإنسان، وبقدر ما يحسن للآخرين يكبر رأسماله أو يصغر.

وقال عليه السلام أيضاً: «إنّ إحسانك إلى من كادك من الأضداد والحساد لأغيظ عليهم من مواقع إساءتك منهم، وهو داع لصلاحهم»[٣٥٤]،أي أنّ إحسانك إلى من يتهجم عليك ويسبّك ويشتمك سوف يغيظه أكثر، فإن كان مخطئاً غافلاً فسوف ينتبه ويرجع يعتذر، وإن كان مغرضاً جاهلاً ويريد أن يسيء إليك بسبب عقد نفسية

---

٣٥٠ . غرر الحكم ١: ٣٨.
٣٥١ . عيون الحكم والمواعظ: ١٢٧.
٣٥٢ . عيون الحكم والمواعظ: ٤٦٠.
٣٥٣ .عيون الحكم والمواعظ: ٤٥.
٣٥٤ .عيون الحكم والمواعظ: ١٥٦.

وأمراض أخلاقية فإنّك حينما تحسن إليه سوف يتألم أكثر، وهذا طريق للتقريع أشد مما لو واجهته بمثل ما هو يتعامل معك، وحينما يرى أن تعاملك معه مخجل له سوف ينصلح.وأما إذا كان التعامل عنيفاًوشديداً، فإذا كان مخطئاً وأنت تهينه عن عمد فسوف يصعب عليه التراجع وتأخذه العزّة بالإثم، وإذا كان مغرضاًفسوف يزداد لجاجاً وخصومة وتشفي غليله بهذه الطريقة .

وفي رواية أُخرى عن أمير المؤمنينعليه السلام: «أحسن إلى المسيء تملكه»[٣٥٥]، أي أنّك تملك المسيء بالإحسان إليه وتجعله ينتبه إلى خطئه، وسوف يقول:أنا أُسيء إليه وهو يحسن إليّ،أنا أُسبّه وهو يصبر على إيذائي!وهذا منهج في البناء والتربية والتزكية الاجتماعية.

الطريق الثاني: تخفيف الأعباء والضرائب

قال رسول اللهصلى الله عليه وآله:«علامة رضا الله تعالى في خلقه: عدل سلطانهم» حاكمهم يكون عادلاً معهم ،معناه أن الله راض عن هؤلاء الناس واذا لم يكن راضيا عنهم يسلط عليهم من لا يرحمهم «ورخص أسعارهم». وعلامة غضب الله تعالى على خلقه: جور سلطانهم وغلاء أسعارهم». فإذا كانت الأسعار غالية، والناس في عناء وليس بمقدورها شراء المواد التي تحتاجها،فيجب أن نراجع أنفسنا خوفاً من عدم رضا الله تعالى علينا حتى نعالج أخطاءنا.

الطريق الثالث: عدم تحميل الناس ما لا يطيقون

قال أمير المؤمنينعليه السلام: «عدم إكراههم على ما لا يتحملون من المهام»،أي لا يُستكرهون ويطلب منهم واجبات خارج حدود واجباتهم والتزاماتهم.قال الإمام عليعليه السلام لجنده في حرب صفين: «وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون»[٣٥٦]،فقدعاعليه السلام جيشه للخروج إلى الحرب في جولة أخيرة ليقاتل الأعداء، ووعدهم النصر، ولكنهم رفضوا، وأكّد لهم أنّها الجولة الأخيرة وأنّه لم يبق من الحرب إلا القليل، وأنّ العدو قد انهار، ولكنهم رفضوا بحجة رفع المصاحف،وقال

٣٥٥ .عيون الحكم والمواعظ: ٨٣.
٣٥٦ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٨.

لهم:أنا الكتاب الناطق،أنا علي أقول لكم هذه دسيسة وخديعة ومكر،ولا تنخدعوا برفع المصاحف،ولكنهم رفضوا،فقالعليه السلام لهم:«وقد احببتم البقاء» ، أي لم يكن بيدي سوى النصح لكم. وكان التحكيم ولبسوا ثوب الذل والهوان، ورجع الخوارج يقولون: يا علي لماذا قبلت بهذا التحكيم ولم تكمل المعركة؟فقالعليه السلام لهم: سبحان الله بعد أن نصحتكم ووضحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ولم تسمعوا كلامي .

وعن أمير المؤمنينعليه السلام أيضاً: « وليس أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه»[٣٥٧]؛ لأنّ هذا الإكراه ليس من السمات التي يستطيع من خلالها المسؤول أن يوطد العلاقة مع المواطنين.

الإضاءة الثانية

نتائج ومعطيات حسن الظن بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم

قال أمير المؤمنينعليه السلام:"فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً"، أي أنّ حسن الظن يخلصك من متاعب طويلة وعريضة أنت في غنى عنها، وهذا هو المعطى الكبير والنتيجة العظيمة لحسن الظن .

وقد ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام قوله: "حسن الظن من أحسن الشيم وأفضل القسم"[٣٥٨]، أي أنّ أفضل شيم الإنسان هي أن لا يكون رجلاً مرعوباً من الناس، بل يحسن الظن بهم ويتعامل بإيجابية مع الآخرين، فإنّ الأساس في الناس أنّهم طيبون شرفاء وطنيون، وأنّهم يستحقون الثقة، إلا من يخرج بالدليل، فيتبين أنّ فلاناً غير مؤهل وغير جدير بالثقة. فأفضل الشيم هي التعامل بحسن الظن مع الآخرين. وأفضل القسم يعني أنّ أفضل نصيب للإنسان هي أن تكون طريقته ومنهجه حسن الظن بالآخرين واحترامهم.

إذن حسن الظن يوفر أرضية النجاح؛ لأنّه يمثل أفضل الشيم والمسالك، وإذا سلكت هذه المسالك سوف يتحقق على يدك النجاح .

٣٥٧ . نهج السعادة ٥: ٣٥٩.
٣٥٨ .عيون الحكم والمواعظ: ٢٢٨.

في رواية أُخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «حسن الظن راحة القلب وسلامة الدين»[٣٥٩]، فمن يريد أن يكون قلبه مرتاحاً ويريد دينه مستقيماً فليحسن الظن بالناس ويتعامل معهم على أساس صحيح، وهذا سيوفر الراحة والاطمئنان القلبي، ويضع الإنسان في موضع الاستقرار النفسي ويحافظ على دينه؛ لأنّ سوء الظن سوف يدفعه إلى التجسس والتدخل في شؤون الناس ومحاولة التعرف على أسرارهم، وهو محرم عليه، فليس له حق أن يتجسس ويتفحص عن الناس، وليس هذا واجبه ولا يجوز له. فمن عنده سوء ظن يبدأ يتجسس، ولكن من لديه حسن ظن لا يحتاج إلى ذلك، فيحافظ على دينه ويقوى دينه .

وفي رواية أُخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «حسن الظن يخفف الهم، وينجي من تقلد الإثم»[٣٦٠]، أي يخلص الإنسان من الذنوب ويقلل الهم. وهذه فوائد عظيمة لحسن الظن .

وعنه عليه السلام أيضاً: «من حسن ظنه بالناس حاز منهم المحبة »[٣٦١]، أي إذا كنت تريد من الناس أن يحبوك فيجب عليك أن تحسن الظن بهم، انظر إلى الناس نظرة صحيحة فيحبك الناس، وإذا وجدت الناس لا تحبك فاعرف أنّ عندك مشكلة مع الناس، ويجب أن تعالج المشكلة وتتأكد من محبتك لهم، وحينئذ يبادلونك المحبة.

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سئل أمير المؤمنين عليه السلام: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام: أربع أصابع. ووضع أمير المؤمنين يده على أُذنه وعينه»، إذ الفاصل بين العين والأُذن أربع أصابع، فالفاصل بين ما تراه وما تسمعه أربع أصابع. وللإشارة إلى أنّ كثيراً من الأخبار التي نسمعها غير صحيحة ومصادرها غير معروفة، قال عليه السلام: «ما رأته عيناك فهو الحق، وما سمعته أذناك فأكثره باطل»[٣٦٢]. وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد قال منذ البدء انّ أكثر المسموعات باطلة وقليل منها صحيحة. ولذا يجب عدم التشهير بإنسان مؤمن بمجرد خبر نسمعه، وأنّه علينا أن نتأكد مما نسمعه لأنّ أكثره باطل، فإنّ الناس بطبيعتها لا تتأكد مما تسمع، والكلمة غير الجيدة تأخذ

٣٥٩ .عيون الحكم والمواعظ: ٢٩٠.
٣٦٠ . عيون الحكم والمواعظ: ٢٢٩.
٣٦١ .عيون الحكم والمواعظ: ٤٣٥.
٣٦٢ . بحار الأنوار ٧٢: ١٩٦ ح ٩.

مساحاتها السريعة في الآفاق.

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من كذّب سوء الظن بأخيه كان ذا عقل صحيح وقلب مستريح»[٣٦٣]، فمن يريد أن يكون عقله مرتاحاً وغير مشوش وقلبه في حالة من الراحة فعليه أن يكذّب سوء ظنّه بالآخرين.

«سوءالظن بمن لا يخون من اللؤم»[٣٦٤]، فإذا أسأنا الظن بالذي يستحق حسن الظن، ولم نثق بمن يستحق الثقة فإنّ ذلك دليل على لؤم النفس وخباثتها.

إذن هناك أخطاء إذا لم نحسن الظن ولم نتعامل بشكل صحيح مع من يستحق فالله تعالى يبتلينا فنتعامل مع من لا يستحق الثقة وحينئذ نتحمل الكثير من الإشكاليات والمتاعب.

وهذا درس آخر من معطيات حسن الظن، حيث يخلّص الإنسان نفسه من كثير من العناء، ويستقر نفسياً ويحقق النجاح في المهمة المناطة به.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «خذ من حسن الظن بطرف تروّح به قلبك، ويروح به أمرك»[٣٦٥]، أي اعتمد حسن الظن ليرتاح قلبك وتستقر مشاعرك وتتحسن نفسيتك، وينجز به أمرك، وسوف توزع المهام وأمرك وعملك ينجز ومهمتك تتحقق. وأما إذا كان لديك سوء ظن فإنّك لا تستطيع أن تكلف أحداً وستكون مهامك شاقة، فحسن الظن يعني الثقة بالآخرين وإعطاءهم الفرص. والقيادي الناجح ليس هو من يركض ليل نهار، بل هو من يركّض الآخرين ليل نهار ويركض معهم حتى تتحقق النتائج الباهرة. وهذا هو منهج علي عليه السلام، وهو منهج رسول الله صلى الله عليه وآله.

الإضاءة الثالثة

المعيار في حسن الظن وسوء الظن

---

٣٦٣. عيون الحكم والمواعظ: ٤٦١.
٣٦٤. عيون الحكم والمواعظ: ٢٨٤.
٣٦٥. بحار الأنوار ٧٥: ٢٠٩ ح ٨٤.

نتحدث في هذه الإضاءة عن الشخص الذي يجب أن نحسن الظن به والشخص الذي يجب أن نسيء الظن به.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع من عهده الشريف لمالك الأشتر: «وإنّ أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإنّ أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده»، إنّ حسن الظن لا يعني أن يتحول الإنسان إلى مغفل، فحسن الظن لا يعني أن يغمض الإنسان عينيه عن الغادرين والمفسدين والفاشلين والمتآمرين وإن كانوا هؤلاء قلة قليلة، فالأساس أنّ الناس طيبون إلا من تبين أنّه متآمر، وأنّه غير منسجم وخائن وما إلى ذلك. وهذا التوازن عميق جداً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن كيّس»[٣٦٦]، فالمؤمن حسن الظن ولكن دون أن يتحول إلى مغفل .

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام لضباط ومراتب جيشه، يقول: «ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى « انت الضابط والقيادي العسكري افتح عينك وقيّم رجالك، واعط كل واحد قيمته، ماذا قدّم، وماذا حقّق من انتصارات. وفي زماننا يبذل الجنود المجهود ويحققون الانتصار، ولكن الوسام يأخذه كبار الضباط! لماذا لا تُقدّر جهود هؤلاء الجنود والمراتب ! وهكذا يصابون بالإحباط، فالسمة القيادية تتطلب أن ينظر المسؤول إلى من هو مسؤول عنهم، ليرى من يعمل أكثر، ومن هو أقل كفاءة، ومن هو يبذل من وقته وجهده، ومن هو المخلص، فيجب عليه أن يميّز بين هؤلاء.

ثم يواصل أمير المؤمنين عليه السلام كلامه فيقول: «ولا تضمنّ بلاء امرئ إلى غيره»، أي لا تسجل أيها المسؤول إنجاز أي منهم إلى الآخر فيغبن حقه، ولا تصادر أعمال الآخرين، وأعط حق كل واحد له. ولكننا نرى في واقعنا أمراً معاكساً حيث يأخذ المدير العام كل الانجازات ويسجلها باسمه، ويتناسى حقوق الآخرين الذين ساعدوه وحققوا الانجازات! ونراه في حالة الفشل يلقي اللائمة على الآخرين! هذا لا يجوز، والقاعدة الفقهية تقول: «من له الغنم فعليه الغرمِ»، أي من له الفائدة فإنّ عليه التبعات، فأنت مسؤول الانجاز ومسؤول الفشل أيضاً، وكما أنّهم معنيون بالفشل فإنّهم معنيون أيضاً بالانجاز.

٣٦٦ . عيون الحكم والمواعظ: ٣٠.

ثم يقول عليه السلام: «ولا تقصّرن به دون غاية بلائه»، أي لا تقصّر ولا تقلل من قيمة العمل والانجاز الذي يقوم به الآخرون، بل قيّم العمل كما هو، فإنّ التقليل من قيمة العمل لا يكون أساساً في واقعنا، ولكنه مع الأسف موجود، فالرجل يدخل إلى البيت ويرى زوجته متعبة فيقوم بالتقليل والاستهانة من عملها، بسبب أنّه يخرج إلى الشارع ويواجه مخاطر الطريق والانفجارات، ولكنه حينما ينظر نظرة واقعية إلى عمل المرأة في البيت سيجده صعباً جداً، ولهذا يجب علينا أن لا نقلل من عمل الآخرين.

ثم يحذر أمير المؤمنين عليه السلام المسؤول من التمييز في التعامل بين الناس، قال: «ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً»، فهذا ابن معالي الوزير ويشار له بالبنان والاحترام، وأبسط قضية تعتبر له إنجازاً عظيماً، بينما المواطن البسيط حتى وإن كان مجتهداً ومتفوقاً فلا يشار له بذلك التقدير؛ لأنّه لا يملك تلك الوجاهة التي يمتلكها أبناء المسؤولين. ولهذا لا ينبغي للمسؤول أن يعظم بلاء من له جاه ومرتبة اجتماعية، وعليه أن لا يرى عمله أكبر من واقعه، وليعطه حقه فقط، فإن كان عمله صغيراً فلا تكبّره لأنّه من الكتلة الفلانية أو عنده مال أو جاه أو مكانة.

وفي مقابل ذلك يجب على المسؤول أن لا يحجّم من عمل إنسان من عامة الناس، يقول عليه السلام: «ولا ضعة امرئ إلى أن تصغر من بلائه ما كان عظيماً »، أي ولا تدعونك المنزلة الاجتماعية المتواضعة لإنسان بسيط ولكنه ذو إنجاز كبير إلى إهمال إبداعاته، لأنّ المبدع المخترع المبتكر كان إنساناً من عامة الناس! وكم نرى من إبداعات بسيطة أخذت صدى كبيراً في وسائل الإعلام لأنّ المبدع كان ذا وجاهة. وهذه كلها كوابح تعيق الناس عن التقدم والعمل والتطور وأن يقدّموا لمجتمعهم جهودهم وانجازاتهم. وهذه النقاط مؤثرة ومهمة في المنظومة القيادية.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله، ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حوبة، فقد ظلم»، أي حينما يكون الجو العام جواً إيمانياً ولكن هناك رجل أساء الظن برجل دون أن يصدر منه ما يستحق سوء الظن، ففي هذه الحالة سوف تظلم نفسك وتظلم الآخرين. وفي مقابل ذلك: «وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل» دون ان يجد منه ما

يستحق «فقد غرر»[٣٦٧]، أي غرر بنفسه، فكما أنّ حسن الظن أساس البيئة التي تستحق حسن الظن، فإنّ البيئة الملوثة يكون الحذر والاحتياط مطلوبين فيها لئلا يقع في الغرر، وهذا أيضاً تأكيد لهذا المنهج.

في رواية أُخرى عنه عليه السلام قال: «إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر فالطمأنينة إلى كل أحد عجز»[٣٦٨]، ففي زمان الغدر حيث لا يرحم أحد أحداً، إذا اعتمد الإنسان على الآخرين ووثق بهم في مثل هذه الظروف فهذا عجز، بل يجب عليه أن يفتح عينيه لأنّ الوضع لا يتحمل حسن الظن.

وورد عنه عليه السلام أيضاً قوله: «من عرّض نفسه للتهمة به فلا يلومن من أساء الظن به»[٣٦٩]، فالإنسان إذا عمل عملاً يتهم بسببه فلا ينبغي له أن ينزعج إذا أساءت الناس الظن به؛ لأنّ الناس تسيء الظن عادة بأناس تصدر منهم مؤشرات غير طيبة وغير صحيحة، ولذلك قيل: «اتقوا مواضع التهم»، فمثلاً لا يجوز الدخول إلى أمكنة ينظر إليها أنّها أمكنة فجور وإن كانت نيته طيبة، ويجب عليه العزوف عن مثل هذه الأمكنة، فالشيء الذي يسبب توجه الأنظار إليه ويصعب تبريره للآخرين عليه أن يبتعد عنها؛ لأنّه إذا صدر منه ما يثير الناس فلا ينبغي له أن ينزعج فإنّه من حق الناس أن تسيء الظن بمن يصدر منه ما يستحق أن يساء الظن به.

---

٣٦٧. نهج البلاغة: الحكمة ١١٤.
٣٦٨. تحف العقول: ٣٥٧.
٣٦٩. عيون الحكم والمواعظ: ٤٥٨.

المحتويات

المقدمة ٣
النظام السياسي ٧
تمهيد ٩
مشكلة التخلف في الحكم ١١
السياسة والممارسات القيادية ١١
السبيل لبناء نظام حكم ناجح ١٣
دور القيادة في بناء الحكم ١٤
سعة مفهوم القيادة ١٥
أسباب تخلف الحكم ١٦
تأكيد الروايات على ضرورة التصدي للقيادة ١٧
أهمية الدور القيادي في تحقيق العدالة ١٩
ضرورة توفير القيادات ٢٠
دعوة المخلصين الأكفاء إلى التصدي ٢٢
النصوص الدالة على تحمل المسؤولية ٢٤
أولاً: النصوص القرآنية ٢٥
الآية الأُولى: آية الحياة الطيبة ٢٥
الآية الثانية: آية المستضعفين الظالمين لأنفسهم ٢٦
معنى الاستضعاف ٢٧
الحساب العسير ٢٨

معنى الهجرة.. ٢٩
الآية الثالثة: آية ظالمي أنفسهم من غير المستضعفين ٣٠
الآية الرابعة: آية القتال من أجل المستضعفين.. ٣٢
الخامسة: آيات هلاك الأُمم ٣٤
السادسة: الآيات الآمرة بالجهاد والتصدي ٣٥
كيفية تحقيق أهداف الأُمة ٣٧
التعريف بشخصية مالك الأشتر وخصائص القيادة...................................... ٣٨
مالك رجل المهام الصعبة ٤٤
المنظومة القيادية... ٤٦
وصايا قيادية... ٤٦
استشهاد مالك.. ٤٨
دروس من عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر ٤٩
المقطع الأول دور المسؤول في موقع القيادة ٥١
الدرس الأول الإدارة من موقع العبودية لله سبحانه وتعالى.......................... ٥٢
الإضاءة الأُولى آداب القيادة ٥٥
الإضاءة الثانية ملاحظة سلسلة المراتب في المنظومة القيادية........................ ٥٧
الدرس الثاني الأهداف العامة للمنظومة القيادية ٥٨
صلاحية الأهداف الأربعة لقيادة أي مجموعة.. ٥٩
الهدف الأول: توفير الإيرادات المالية ٥٩
الهدف الثاني: توفير الأمن والدفاع... ٦٠

الإسلام دين السلام ٦١
تحديد وقت الجهاد ٦٢
المقطع الثاني المعايير الخلقية للشخصية القيادية ٦٤
الدرس الثالث التقوى ٦٦
أصناف التقوى ٦٨
أهمية إصلاح علاقة العبد مع ربه ٧٣
الدرس الرابع إيثار الطاعة ٧٦
الشرك الجلي والشرك الخفي ٨٠
الدرس الخامس اتباع الأوامر الإلهية ٨٣
الدرس السادس طرق توثيق العلاقة مع الله ٨٥
معنى نصرة الله ٨٥
تكييف الإرادة الإنسانية مع الإرادة الإلهية ٨٦
الدرس السابع السنن الإلهية ٨٧
الإضاءة الأُولى نظام الأسباب والمسببات ٨٧
الإضاءة الثانية ثبات السنن الإلهية ٨٨
الإضاءة الثالثة النجاح مرهون باتباع السنن والقوانين ٨٨
الإضاءة الرابعة الاستفادة من التجارب ٩١
الإضاءة الخامسة الإمارة أمانة ٩٢
الإضاءة السادسة بعض مواصفات القيادة ٩٢
الإضاءة السابعة سنة الله في النصر ٩٣

الدرس الثامن المسؤول وتزكية النفس ٩٦
الإضاءة الأُولى خطر التصدي ٩٦
الإضاءة الثانية وضع الكوابح الداخلية ١٠٠
الإضاءة الثالثة وضع الكوابح الخارجية ١٠٢
الإضاءة الرابعة خطر الديكتاتورية ١٠٣
الإضاءة الخامسة نفي القداسة عن المنظومة القيادية ١٠٤
الإضاءة السادسة الحاجة المستمرة للرحمة الإلهية ١٠٦
المقطع الثالث الرأي العام ١١٠
الدرس التاسع رقابة الرأي العام ١١٠
الإضاءة الأُولى ذاكرة التأريخ ١١١
الإضاءة الثانية إحساس الناس بالعدل أو الظلم في المنظومات القيادية ١١٦
الإضاءة الثالثة الواقعية ١١٧
الإضاءة الرابعة ضرورة إصلاح الانطباعات والتوقعات ١١٨
الإضاءة الخامسة جعل النفس ميزاناً في ما بينه وبين الآخرين ١١٩
الدرس العاشر معيار الرأي العام ١٢١
الإضاءة الأُولى موقع الصالحين في قلوب الناس ١٢١
الإضاءة الثانية الرأي العام هو الملاك في صلاح المسؤول ١٢٣
الإضاءة الثالثة احترام آراء الناس في الخطأ والصواب ١٢٤
الإضاءة الرابعة أهمية العمل الصالح للمسؤول ١٢٦
الدرس الحادي عشر التعامل مع الرأي العام ١٢٧

الإضاءة الأُولى ضرورة السيطرة على النفس.. ١٢٩
الإضاءة الثانية الأُمور الممنوعة على المسؤول ١٣٤
الإضاءة الثالثة مستلزمات كبح النفس.. ١٣٩
الآلية الأُولى: التقوى.. ١٣٩
الآلية الثانية: التعقل ١٤١
الآلية الثالثة: عدم مداهنة النفس.. ١٤٥
المقطع الرابع العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم.. ١٤٨
الدرس الثاني عشر الأصل العام في العلاقة بين المسؤول والمسؤول عنهم................ ١٤٩
الإضاءة الأُولى موقع الرحمة في المنظومة القيادية للإدارة والحكم........................ ١٤٩
الحب الحقيقي والحب الشكلي.. ١٥١
حب النفس وحب الآخرين ١٥٢
أهمية تودد المسؤول للناس ١٥٣
أهمية التودد في نجاح العمل.. ١٥٤
الإضاءة الثانية عناصر البعد الإنساني بين الحاكم والمحكوم........................ ١٥٦
الأساس الأول: الرحمة ١٥٦
الأساس الثاني: المحبة.. ١٥٦
الأساس الثالث: اللطف.. ١٥٧
الإضاءة الثالثة معيار تطبيق المسؤول للنظرية الإسلامية ١٥٧
الإضاءة الرابعة التشديد على المنهج المخالف والمعاكس ١٥٨
الدرس الثالث عشر أثر الخلفية الفكرية في تقييم الآخرين........................ ١٦٠

دولة الإسلام هي دولة المواطن.. ١٦٣
الإضاءة الثانية الملاك في تقسيم الناس ١٦٧
معيار المواطنة ١٦٨
الدرس الرابع عشر مبدأ العفو والصفح في التعامل مع الأُمة................. ١٧٢
الإضاءة الأُولى ضرورة سعة الصدر في الحكم والإدارة....................... ١٧٤
الإضاءة الثانية كيفية نظر المسؤول إلى الأخطاء................................ ١٨١
الإضاءة الثالثة الواقعية في نظرة المسؤول إلى نفسه........................... ١٨٢
الإضاءة الرابعة العلاقة بين صفح الله وصفح الإنسان........................... ١٨٣
الدرس الخامس عشر سلسلة المراتب.. ١٨٤
الإضاءة الأُولى الرؤية الصحيحة في سلسلة المراتب............................ ١٨٥
الإضاءة الثانية سلسلة المراتب وتوزيع الصلاحيات ١٨٨
وقت طرح المعلومة.. ١٩٠
الدرس السادس عشر حسن الأداء والكفاءة ١٩٧
الإضاءة الأُولى التصدي مسؤولية والتزام... ١٩٧
الإضاءة الثانية العلاقة بين التصدي وحسن الأداء.............................. ١٩٩
الدرس السابع عشر السمات القيادية ٢٠٤
السمة الأُولى: الدراية ٢٠٤
السمة الثانية: المعرفة ٢٠٦
السمة الثالثة: العدل ٢٠٧
السمة الرابعة: القدرة على الأداء.. ٢١٢

السمة الخامسة: النزاهة ٢١٧
الدرس الثامن عشر المسؤولية ابتلاء.. ٢٢٣
المقطع الخامس الأخلاق القيادية.. ٢٢٦
الدرس التاسع عشر محاربة الله.. ٢٢٧
الدرس العشرون التنزه عن الصفات السلبية... ٢٣٠
الإضاءة الأُولى.. ٢٣١
العفو أساس العمل.. ٢٣١
الإضاءة الثانية المرونة والتساهل مع المواطنين.. ٢٣١
الإضاءة الثالثة عدم التشفي عند تطبيق العقوبة... ٢٣٤
الإضاءة الرابعة الجريمة مرض بحاجة إلى علاج ٢٣٥
الدرس الحادي والعشرون نبذ سياسة ردود الأفعال ٢٣٧
التوصيات التي يجب على الحاكم مراعاتها ٢٣٧
الغضب يفسد الألباب ٢٤٠
المقطع السادس تحديات موقع التصدي ٢٤١
الدرس الثاني والعشرون المسؤولية والاستبداد... ٢٤٢
الإضاءة الأُولى ظاهرة الاستبداد والنرجسية... ٢٤٣
الإضاءة الثانية المنطلقات القيادية في الرؤية الإسلامية ٢٤٥
حقوق الحاكم والمواطن.. ٢٤٨
حقوق المواطن ٢٤٨
حقوق الحاكم ٢٥٠

الإضاءة الثالثة عوارض الاستبداد والنرجسية.................................... ٢٥٢

علماء الزور.. ٢٥٧

أفعال أدعياء العلم ٢٥٩

الدرس الثالث والعشرون أمراض السلطة وعلاجها ٢٦٣

الإضاءة الأُولى الالتفات إلى العوارض الناتجة من السلطة...................... ٢٦٥

آثار التكبر.. ٢٦٦

الاضاءة الثانية عوارض السلطة ٢٦٩

سمات الحكومة الظالمة... ٢٧٠

علاج أمراض السلطة... ٢٧٦

الإضاءة الثالثة طرق السيطرة على عوارض السلطة............................. ٢٧٨

الدرس الرابع والعشرون تشبه الحاكم بالله في جبروته........................... ٢٨٠

المحذورالأول: مسماماة الله ٢٨٠

المحذور الثاني: التشبه بالله في جبروته ٢٨١

العلاقة السليمة بين القائد والأُمة ٢٨٤

المقطع السابع إنصاف الحاكم وظلمه... ٢٨٩

الدرس الخامس والعشرون إنصاف الله وإنصاف الناس........................... ٢٨٩

الملازمة بين إنصاف الله وإنصاف الناس ٢٨٩

إنصاف الناس من النفس.. ٢٩٠

إنصاف الناس من الأهل.. ٢٩٠

إنصاف الناس من الأصدقاء ٢٩٠

الإضاءة الأُولى أهمية الإنصاف في العلاقة بين المسؤول والناس.............................. ٢٩١
الإنصاف زينة الحكم ٢٩١
الإنصاف يوجب المحبة والإلفة ٢٩١
الإنصاف يوجب الثقة ٢٩١
الإنصاف حق المسؤولية ٢٩٢
الإضاءة الثانية مساحة الإنصاف ٢٩٣
الدرس السادس والعشرون ظلم الناس.. ٢٩٥
الإضاءة الأُولى مكانة المسؤول الظالم وموقعه عند الله ٢٩٦
الإضاءة الثانية سقوط الذرائع من يد المسؤول... ٢٩٩
الإضاءة الثالثة حقيقة الظلم من المسؤول ٣٠١
الإضاءة الرابعة خلاص الظالم ٣٠٢
الظلم وحلول العقوبة الإلهية.. ٣٠٣
الجور وزوال الدولة متلازمان... ٣٠٤
المقطع الثامن محورية الأُمة في القيادة والإدارة ٣٠٨
الدرس الثامن والعشرون تغليب مصالح الأُمة على مصالح الطبقة الأرستقراطية .. ٣٠٨
مبادئ النجاح في الحكم... ٣٠٨
المبدأ الأول: الوسطية في الحق.. ٣٠٩
المبدأ الثاني: عمومية العدل ٣١١
المبدأ الثالث: رضا الناس ٣١٣
المقطع التاسع المبعدون.. ٣٢٢

الدرس التاسع والعشرون صفات وسمات المبعدين ٣٢٣

أولوية المسؤول في ستر العيوب ٣٢٤

نهي المسؤول عن تتبع العيوب ٣٢٤

وظيفة الحاكم تطهير العيوب الظاهرة ٣٢٤

القاعدة العامة في تعامل الحاكم مع العيوب ٣٢٥

الإضاءة الأُولى رفض مبدأ تتبع الأخطاء ٣٢٦

الإضاءة الثانية ضرورة ستر العيوب من الحاكم والمتصدي ٣٢٩

الإضاءة الثالثة ضرورة إصلاح ما ظهر من الأخطاء والعيوب ٣٣٠

الإضاءة الرابعة الآثار الوضعية للكشف عن أخطاء الناس ٣٣١

الإضاءة الخامسة ضرورة اتصاف المسؤول بسعة الصدر ٣٣٣

الدرس الثلاثون سمات مهمة للمسؤول ٣٣٥

المقطع العاشر المستشارون والوزراء ٣٤٢

الدرس الحادي والثلاثون سمات وصفات المستشارين ٣٤٣

الصنف الأول: البخيل ٣٤٣

الصنف الثاني: الجبان ٣٤٤

الصنف الثالث: الحريص ٣٤٤

الخصال الثلاث وسوء الظن بالله ٣٤٤

الإضاءة الأُولى أهمية المشورة ٣٤٦

الإضاءة الثانية تأثير المواصفات الذاتية للمستشار ٣٤٩

الإضاءة الثالثة المواصفات السلبية للمستشار ٣٤٩

الإضاءة الرابعة المواصفات الإيجابية للمستشار ٣٥٠
الدرس الثاني والثلاثون الاستعانة بالوزراء السابقين ٣٥٢
السمات المطلوبة لمن يستعان به في مواقع الخدمة ٣٥٤
إيجابيات الوزراء الجدد ٣٥٥
الدرس الثالث والثلاثون سمات الوزير الناجح.. ٣٥٨
الخصلة الأُولى: النصيحة ٣٥٨
الخصلة الثانية: عدم الإعانة على الإثم.. ٣٥٩
المقطع الحادي عشر المقربون.. ٣٦٣
الدرس الرابع والثلاثون حاشية المتصدي وبطانته والفريق الذي يلتصق به ٣٦٣
الصفة الأُولى: الورع ٣٦٥
الصفة الثانية: الصدق ٣٦٦
أخطار مدح الحكام والمسؤولين.. ٣٦٩
التوازن الدقيق بين الواجبات والحقوق ٣٧٢
العلاقة بين نعمة المسؤولية والشكر ٣٧٣
أسخف الحكام والمسؤولين.. ٣٧٥
الدرس الخامس والثلاثون تكريم المحسن.. ٣٧٨
الجانب الأُول: أهمية ايجاد أدوات تقييم للعاملين ٣٧٩
مكافأة المحسن ومحاسبة المسيء.. ٣٨٣
المقطع الثاني عشر تعامل الحاكم مع الأُمة ٣٩٤
الدرس السادس والثلاثون ثقة الحاكم بالأُمة.. ٣٩٤

الأُولى: الإحسان للشعب ٣٩٥
الثانية: تخفيف المؤونة.. ٣٩٥
الثالثة: عدم إكراه الناس على أعمال السخرة ٣٩٦
ثمرة ثقة الحاكم بالأُمة.. ٣٩٦
أولى الناس بثقة الحاكم.. ٣٩٧
الأصل في الناس الثقة.. ٣٩٨
الثقة الواعية والثقة العمياء.. ٣٩٨
نتائج حسن الظن.. ٣٩٨
الإضاءة الأُولى كيفية تحقق الثقة المتبادلة بين الحاكم والمواطنين.............................. ٤٠٣
الإضاءة الثانية نتائج ومعطيات حسن الظن بين المسؤول ومن هو مسؤول عنهم...... ٤٠٧
الإضاءة الثالثة المعيار في حسن الظن وسوء الظن.. ٤٠٩